

عالم الفكر

الرحلة الحربية في المحيط الهندي
الرحلة في أدب أندريه جيليفر
الرحلة في القصة الفلسفية
العدد الرابع • يناير - فبراير ١٩٨٢
المجلد الثامن عشر

العدد

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٨٣
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص. ب ١٩٣

المحتويات

أدب الرحلات

- | | |
|--|--|
| بقلم مستشار التحرير ٣ | التمهيد |
| الدكتور صلاح الدين الشامي ١٣ | الرحلة العربية في المحيط الهندي |
| الدكتورة نور شريف ٤١ | رحلات جليل |
| الدكتورة نادية محمود عبد الله ٩٥ | الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد |
| الدكتورة جنات خالد غازي ١٢٩ | الرحلة في القصة الفلسفية خلال القرن الثامن عشر |

• • •

من الشرق والغرب

- | | |
|------------------------------------|---------------------------------------|
| الدكتور محمود حلمي ١٦٣ | الخط العربي بين الفن والتاريخ |
| الدكتور حليم السعيد بشاي ٢٣٩ | الشخصية من المنظور الفينومولوجي |

• • •

شخصيات وآراء

- | | |
|--|--|
| الدكتور السيد عطيه أبو النجا ٢٦١ | عبد الحميد بن هدوقة والرواية الجزائرية |
|--|--|

• • •

صدر حديثاً

- | | |
|--|----------------------|
| تأليف جان بياجيه | السلوك والتطور |
| عرض وتحليل الدكتور سليمان الحفري ٢٨٧ | |

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

تمهيد

« السبب الوحيد لشقاء الانسان هو أنه لا يعرف
كيف يستقر هادئاً في حجرته » باسكال

أرنولد فان جنب Arnold Van Gennep واحد من علماء الاثنولوجيا والفولكلور الفرنسيين الذين عاشوا في الربع الأخير من القرن الماضي والنصف الأول من هذا القرن (١٨٧٣ - ١٩٥٧) ونالوا شهرة عريضة وتركوا بصماتهم الواضحة على الدراسات الانثربولوجية والفولكلورية في الخارج ، ولكنه لم يحظ بكثير من اهتمام الدارسين في العالم العربي. وفيما عداد دراسة لي قمت بها منذ وقت طويل عن « الموت والشعائر الجنائزية في مصر » استرشدت فيها بنظريته وآرائه في تفسير تلك الشعائر لم يكد أحد يهتم به وبكتاباتة بقدر ما أعرف على الأقل . وأغلب الظن أن الذين يشيرون الى اسمه في كتاباتهم لم يقرأوا أيا من كتبه رغم أن بعضها مترجم الى كثير من اللغات .

أدب الرحلات

في عام ١٩٠٩ نشر فان جنب كتابا أحدث دويا بين علماء الاجتماع والاثنولوجيا والفولكلور في فرنسا ، ونعنى به كتاب « شعائر المرور » أو « شعائر الانتقال Rites de Passage » وذلك على الرغم من أن فان جنب

نفسه لم يكن في الأصل أستاذا جامعيا ، وإنما اشتغل موظفا حكوميا لبعض الوقت ، ثم عمل في بعض المنظمات والمؤسسات الثقافية الفرنسية في فترات أخرى ، كما قام بالتدريس لفترات قصيرة في عدد من الجامعات غير الفرنسية وبخاصة في نيوشاتل واكسفورد وكيمبردج . وقد خصص كتابه لدراسة موضوع طريف هو « رحلة الحياة » أو على الأصح المراحل التي يمر بها الفرد أثناء هذه الرحلة والشعائر والطقوس والممارسات التي تصاحب الانتقال من مرحلة لأخرى ، كما هو الحال مثلا في الشعائر والطقوس الخاصة بالولادة (باعتبار الولادة عملية انتقال من رحم الأم الى هذا العالم بالنسبة للطفل الوليد ، وعملية انتقال من دور الشخص المتزوج الى دور الأب أو الأم بالنسبة للوالدين) وكذلك الشعائر المتعلقة بالمراهقة والزواج والوفاة . فهذه كلها مراحل هامة وفاصلة في حياة الفرد ، وبخاصة في المجتمعات التي تُعرف اصطلاحا باسم المجتمعات (البدائية) وينتقل فيها من مكانة اجتماعية معينة لمكانة أخرى مختلفة ، ويحتل بمقتضى الممارسات التي يخضع لها مركزا ووضع اجتماعيا متميزا عن الوضع الذي كان يشغله من قبل ، بحيث تلقى عليه التزامات وواجبات ومسئوليات تختلف عن تلك التي كان يلتزم بها في المرحلة السابقة .

وتعتبر الوفاة ذاتها بداية للمرحلة الأخيرة في رحلة الحياة الدنيا ، تمهيدا للدخول الى عالم آخر وحياة أخرى ومجتمع مختلف ، هو مجتمع الأسلاف الذي يعتبر لدى كثير من الشعوب امتدادا طبيعيا لمجتمع الأحياء . وبصاحب هذا الانتقال من مرحلة لأخرى نسق من الشعائر والطقوس التي تهدف الى تسهيل انفصال الفرد ، او على الأصح انتزاعه من المرحلة السابقة وإلحاقه بالمرحلة الجديدة ودمجه في المجتمع الجديد .

هذا معناه أن الانتقال أو المرور من مرحلة لأخرى يستغرق بعض الوقت ويتم حسب مايقول فان جنب، على ثلاث خطوات متكاملة : في الخطوة الأولى ينفصل الفرد عن بيئته القديمة وعن مستواه الاجتماعي القديم ، ويكون ذلك عن طريق ممارسة شعائر خاصة يطلق عليها اسم شعائر الانفصال Rites de Separation وبهذا الانفصال تبدأ الخطوة الثانية وهي عبارة عن فترة زمنية يختلف طولها من مجتمع لآخر ويكون الفرد فيها في « حالة محايدة » أو « وضع محايد » ولا يتمتع أثناءها بأية مكانة اجتماعية محددة بالذات ويخضع لكثير من القيود على علاقاته الاجتماعية ، وكثيرا مايجرم الاتصال بغيره من الناس الاحسب شروط وقواعد يحددها المجتمع ، ولذا تعرف هذه الفترة بالفترة الهامشية ، كما تعرف الشعائر والطقوس والقيود التي تمارس عليه باسم الشعائر الهامشية Rites de Marge وذلك على اعتبار أن الفرد يعيش أثناء تلك الفترة على هامش المجتمع والحياة الاجتماعية . ثم تأتي الخطوة الثالثة التي يتم بها ادخال الفرد الى بيئته الجديدة والى المستوى الاجتماعي الجديد عن

طريق ممارسة شعائرها خاصة يطلق عليها فان جنب اسم شعائر الدخول أو شعائر الاندماج في المجتمع Rites d'agrégation

وقد اعتمد فان جنب في بناء نظريته على المعلومات الاثنوجرافية الكثيرة التي كانت متوفرة في ذلك الحين عن عدد كبير من المجتمعات والقبائل (البدائية) . ولكنه لم يكتف بمقارنة هذه المعلومات أو تصنيفها وتحليلها وإنما كان يحاول طيلة الوقت أن يصل الى تفسير اجتماعي مقبول لمعنى تلك الشعائر والطقوس ووظيفتها الاجتماعية ومدى امكان الافادة منها في فهم وتفسير عمليات الحياة الكبرى ، او كما يقول فهم وتفسير « طبيعة الحياة » ذاتها وما تتميز به من استمرار رغم كل التحولات والتغيرات الظاهرية . فشعائر المرور أو شعائر الانتقال ليست في آخر الأمر الاشعائر وطقوسا وممارسات ترمز الى الموت ثم العودة الى الحياة من جديد . وانفصال الفرد من مجتمعه أو بيئته الأصلية ومركزه الاجتماعي المحدد هو نوع من الموت الذي تعقبه فترة هامشية قبل أن يولد ذلك الفرد من جديد ، أو تعود اليه الحياة في شكل جديد يتمثل في المكانة الجديدة التي يحتلها والالتزامات والواجبات والحقوق الجديدة التي تناط به . انها قصة تجديد الحياة ذاتها ، او أنها نوع من التمثيل الرمزي للموت والولادة الجديدة ، وتجديد الحيوية التي تكمن في المجتمع والتي يحتاج اليها كل تجمع انساني حتى يمكنه الاستمرار في الوجود .

من بين هذه المراحل الثلاث اهتم فان جنب اهتماما خاصا بالمرحلة الوسطى او الهامشية التي هي في جوهرها حركة أو نقلة أو (رحلة) بين حالين من الثبات والاستقرار . وقد أبرز ما يكتنف هذه (الرحلة) من مخاطر وشدائد وأهوال يعاني منها الفرد في المحل الأول كنتيجة مباشرة لعدم انتمائه الى أي (جماعة) محددة واضحة المعالم ، وعدم تمتعه بمركز اجتماعي معين ، وعدم قيامه بوظيفة أو دور اجتماعي معلوم . ولكن في الوقت ذاته يكون هذا الفرد نفسه مصدر خطر وشر وأذى للآخرين ، ولذا لا يكاد الناس يقربونه إلا في ظروف معينة وحسب قواعد واجراءات محددة ، وبذلك فانه يعتبر (تابو) في نظر المجتمع . فهو لا يخضع لقوانين المجتمع وتقاليده المتعارف عليها والتي تسرى على بقية أعضاء المجتمع في حياتهم اليومية العادية ، أو كما يقول صولون كيمبول Solon Kimball في مقاله عن فان جنب في « الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية » ان الفرد في هذه المرحلة الهامشية يكون خارج دائرة التحكم المألوف « ولذا فإن من مصلحة المجتمع ككل فضلا عن مصلحة الفرد ذاته أن تنتهي هذه المرحلة عن طريق العمل على دخول الفرد الى المرحلة الأخيرة واندماجه في وسطه الجديد وممارسته بالتالي للدور الاجتماعي الذي يتلاءم مع ذلك الوسط ومكانته الخاصة فيه . وقد حرص فان جنب على أن يُختبر صحة هذه النظرية فيما بعد بتطبيقها على المجتمع الاوربي المتقدم الحديث وبخاصة المجتمع الفرنسي . وشغله هذا الموضوع مايزيد على ربع قرن، وكانت النتيجة هي ظهور مؤلفه الضخم عن

الفولكلور الفرنسي *Manuel de Folklore Francais Contemprain* وقد صدر من هذا المؤلف حتى موت صاحبه ثلاثة أجزاء في تسعة مجلدات ، يهمن منها الجزء الاول الذى يقع في مجلدين بعنوان « من المهد الى اللحد *Du berceau à la Tombe* فى هذين المجلدين يتابع فان جنب (رحلة) الفرد خلال الحياة والمراحل التى يمر بها ، وبخاصة فى الريف الفرنسى ، وشعائر المرور التى تصاحب هذه النقلة من مرحلة لأخرى . ولكنه يهتم على أية حال فى بقية مجلدات الكتاب بدراسة تغيرات الحياة بمظاهرها المختلفة . فالحياة كلها رحلة أو عملية حركة وتغير تتقلب أثناءها كل الظواهر بين الحياة والموت والعودة الى الحياة مرة أخرى فى شكل جديد . وهذه على أية حال (نغمة أساسية) تناولها بالعرض والدراسة كثير من الكتاب والانثربولوجيين بالذات قبل فان جنب . ويدور حولها عدد من الكتب الهامة مثل كتاب سير جيمس فريزر « الغصن الذهبى » (راجع مقدمتنا للترجمة العربية) . ولكن فان جنب لم يكتف بالوصف أو التفسير التاريخي ، وانما وضع نظرية انثربولوجية متكاملة فى ذلك . فالإنسان جزء من الطبيعة وما يصدق على الطبيعة يصدق على الفرد . وثمة مبدأ واحد يحكم تغير الطبيعة بفصولها الأربعة ، وتغير حياة الفرد وانتقاله من حالة لأخرى خلال (رحلة) الحياة ، كما يحكم الطقوس والشعائر التى تصاحب هذه التغيرات . وليس المهم هنا هو محتوى الشعائر والطقوس ، وانما المهم هو التشابه فى بنائها رغم كل ما قد يكون هناك من اختلافات فى العناصر والمكونات . ولكن على الرغم من كلامه عن (بناء) نسق الشعائر فانه كان يركز تركيزا قويا وواضحا على خاصة التغير اكثر مما كان يهتم بحالة الثبات والسكون . ومن هنا كان اهتمامه بالمرحلة (الهامشية) التى هى فى جوهرها مرحلة وانتقال و (رحلة) بكل ما يصاحب هذه (الرحلة) من متاعب واطوار وأهوال .

والواقع أن مدخل فان جنب لدراسة « شعائر المرور » كان عن طريق فحص المعلومات الاثنوجرافية المتعلقة بالاجراءات والمراسيم التى يتبعها (البدائيون) وبخاصة سكان استراليا الاصليون اثناء الرحلة والسفر والانتقال من مكان لآخر عبر الغابات والادغال الموحشة ، وما يتعرض له المسافر اثناء ذلك من أخطار ، والاحتياطات التى يتخذها هو نفسه والجماعة التى ينتمى اليها لتأمين سلامته . فهناك أولا الترتيبات الكثيرة المعقدة المتعلقة بالاعداد للرحلة والتى تتمثل ليس فقط فى اختيار نوع المتاع الذى سوف يحمله معه ، بل وايضا نوع الطعام والشراب الذى يجب عليه تناوله ، وما يسبق ذلك كله من استشارة المتنبئين ورجال الدين لتحديد الوقت الملائم للقيام بالرحلة عن طريق رصد النجوم ومواقعها أو غير ذلك من الوسائل التى تؤلف جزءا هاما من النسق الدينى والسحرى لدى معظم القبائل (البدائية) . ثم هناك الرسائل والهدايا التى سوف يحملها المسافر معه ، والنصائح التى يتزود بها ، ثم هناك أخيرا خروج الجماعة لتوديعه حتى حدود المجتمع المكانية ، والطقوس الدينية التى يتم بها ذلك

التوديع وبخاصة البكاء المتبادل ساعة الفراق . وينظر فان جنب الى هذه الممارسات من الناحية الشعائرية البحتة ويعتبرها رموزا تشير الى انفصال المسافر عن الجماعة التي ينتمى اليها ، وشعور المجتمع بالألم لفقدان أحد أعضائه ، ومن هنا يطلق فان جنب على هذه المرحلة اسم مرحلة الانفصال ، وعلى الاجراءات والترتيبات والممارسات التي تصاحبها اسم شعائر الانفصال ، على ما ذكرنا .

وبخروج المسافر من ديار قبيلته وابتعاده عن حدودها المكانية تبدأ (الرحلة) الحقيقية التي يقطع المسافر خلالها مسافات طويلة تحت ظروف مناوئة ومعادية ، ويعانى خلالها كثيرا من المتاعب والمشاق من جراء طبيعة البيئة الجغرافية القاسية والتعرض للخطر من الحيوانات المفترسة أو هجمات سكان المناطق التي يمر بها . وبعض هذه المناطق تسكنها أقوام يمارسون قنص الرؤوس ويهاجمون الشخص الغريب دون التأكد من هويته على اعتبار أن كل غريب مجهول ومصدر للخطر والأذى . ولذا كان لابد للمسافر نفسه ازاء ذلك من أن يتحوط بمآقد يصيبه وان يكون طيلة الوقت على أهبة الاستعداد ليس فقط للدفاع عن نفسه ودرء الاخطار التي قد تحقق به ولكن أيضا للبدء بالهجوم والاعتداء على كل ما يصادفه ومن يقابله . فهو اذن مصدر خطر لنفسه وللآخرين اثناء الرحلة ، وبذلك تنطبق عليه أهم خصائص (التابو) وهذه هي المرحلة التي يطلق عليها فان جنب اسم المرحلة الهامشية التي تمتد منذ يترك المسافر أرض قبيلته الى أن يصل الى أرض الجماعة او القبيلة التي يقصدها . وأثناء هذه الفترة كلها يفقد المسافر تماما كيانه ومقوماته وشخصيته الاجتماعية والقبلية ويصبح مجرد (فرد) مجهول الأصل والهوية والانتفاء القبل والاجتماعي . وبذلك يكون دمه حلالا ومباحا للآخرين وذلك في الوقت الذي يستحل هو نفسه دماء هؤلاء الآخرين للدفاع عن نفسه والابقاء والمحافظة على حياته .

ومع ذلك ، فحين يصل المسافر الى حدود موطن الجماعة التي يقصدها فانه لايسمح له بالدخول الى أرض القبيلة ، مباشرة وبخاصة اذا كانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم بها بمثل هذه الزيارة ، وانما يبقى فترة من الزمن على حدود ذلك الموطن قبل أن يؤذن له بالدخول . وأثناء هذه الفترة يوضع المسافر الغريب تحت الملاحظة الدقيقة ، اذ يراقب افراد المجتمع سلوكه من بُعد حتى يتأكدوا من حسن نواياه . وأنه لن يكون مصدر خطر أو تهديد للمجتمع ، فيخرج ممثلون عن الجماعة لاستقباله ، وتمارس بعض الشعائر والطقوس التي تختلف من قبيلة لأخرى ولكنها ترمز كلها في آخر الأمر الى استعداد تلك الجماعة لقبوله بينهم ، اذ يتبادلون الهدايا معه ويشتركون جميعا في تناول الطعام أو الشراب من اناء واحد ممايعنى قيام علاقة جديدة من (الأخوة الاجتماعية) بينهم وبذلك يتم اندماج الوافد الجديد في المجتمع .

ومع أن فان جنب يهتم في كتابه « شعائر المرور » بالمجتمعات البدائية فان نظريته تصدق على ما يحدث في المجتمع الحديث فيما يتعلق بأمور الرحلة والسفر ، وان كان التمييز بين تلك المراحل الثلاث وما يرتبط من شعائر بكل مرحلة لم يعد على نفس الدرجة من الوضوح التي نجدها في المجتمعات (البدائية) . فهناك أولا الاستعداد للرحلة بكل ما يستلزمه ذلك من ترتيبات معقدة يدخل فيها رسم خط السير والمناطق التي ينوي المسافر زيارتها وترتيب المواعيد بدقة والحصول على التأشيرات اللازمة وحجز تذكار السفر وحجز الفنادق وما الى ذلك ، وهي كلها (شعائر) تعتبر شروطا هامة للبدء في الرحلة و (الانفصال) ولومؤقتا عن المجتمع . ثم تأتي « المرحلة الهامشية » التي تتمثل في الرحلة ذاتها والتي لا تخلو من احتمال التعرض للأخطار - كما أن المسافر يخضع أثناءها - وبخاصة الرحلات الطويلة لقيود واجراءات تختلف عن تلك التي يخضع لها في حياته العادية مثل مواعيد الطعام بل وألوان الطعام ذاته . كما أنه يتحتم عليه ان يراعى بعض القواعد الخاصة بتوفير الأمان والسلامة له ولغيره من المسافرين ، ثم تأتي في آخر الأمر مرحلة وشعائر الاندماج التي تتمثل في أبسط مظاهرها في (شعائر) واجراءات الجوازات والجمارك حين يصل الى (المجتمع الجديد) وذلك قبل أن يؤذن له بالدخول ويمنح حق الإقامة . فالمحتوى اذن يختلف عما يحدث في المجتمعات البدائية ولكن الأساس واحد أو (البناء) متماثل رغم كل الفوارق في المستويات الحضارية والثقافية .

وعلى الرغم من كل ما قاله فان جنب عن الرحلات ، سواء في ذلك الرحلات عبر المكان كما تتمثل في الانتقال من قبيلة لأخرى ، او من مجتمع لآخر أو الرحلات عبر الزمان كما تتمثل في مراحل العمر ودورة الحياة وتقلبات الظواهر الكونية والطبيعية فان كتابه لا يدخل في أدب الرحلات . وعلى أى حال فإن أرنولد فان جنب شأنه في ذلك شأن كل علماء المدرسة الفرنسية في القرن الماضي واولئ هذا القرن ، لم يقم بأية رحلة علمية او دراسة ميدانية وان كان ذلك لم يمنع هؤلاء العلماء من أن يصوغوا نظريات احتلت مكانة مرموقة في الفكر الاجتماعي ، معتمدين في ذلك على المعلومات الانثوجرافية ، التي قام بجمعها الرحالة والمبشرون . والغريب في الأمر أن علماء الانثربولوجيا الذين يعتبرون الدراسة الميدانية في المجتمعات البدائية عنصرا جوهريا في البحث الانثربولوجي يتميزون به عن غيرهم من المتخصصين في العلوم الانسانية والاجتماعية والذين تحملهم بحوثهم على هذا الاساس الى مناطق بعيدة نائية في العالم ، لا يهتمون بتسجيل رحلاتهم ويقنعون بدراسة وتحليل وتفسير الأنساق الاجتماعية والأنماط الثقافية في تلك المجتمعات ، وغالبا ماتأتى كتاباتهم على درجة عالية من التجريد الذي يكاد يقطع الصلة بينها وبين الواقع المشاهد الملموس . وحتى في الحالات التي يعرض فيها الباحث الانثربولوجي لبعض ذكرياته اثناء الدراسة الحقلية فانه يفعل ذلك في الاغلب لكى يبين نوع

الصعوبات التي يلقاها الباحث الانثربولوجي أثناء الدراسة ، والطريقة التي امكنه أن يذلل بها الصعوبات ، أى أن اهتمامه بهذه الذكريات هو اهتمام (منهجى) ان صح هذا التعبير . ومن هنا فان الكتابات الانثربولوجية التي تعتمد على البحث الميداني والدراسة الحقلية لاتعتبر هى أيضا من أدب الرحلات بالمعنى الدقيق للكلمة ، وان كانت هناك بعض الاستثناءات بغير شك .

وأحد تلك الاستثناءات الهامة هو كتاب « المناطق المدارية الحزينة Tristes Tropiques » (١٩٥٥) أو « الآفاق الحزينة » كما يعرف في الكتابات العربية : وهو نوع من السيرة الذاتية لعالم الانثربولوجيا الفرنسي الشهير كلود ليفي ستروس Claude Levi — Strauss عن طريق وصف الرحلات التي قام بها . ومن المفارقات أن ليفي ستروس يلتزم - فيما يتعلق بالدراسة الحقلية بأصول المهنة التي تقتضى من الباحث الانثربولوجي أن يعيش بصفة مستمرة في مجتمع الدراسة لمدة سنة كاملة على الأقل . ومعظم الباحثين أمضوا عامين كاملين ، بل أن الاستاذ برونيسلاف مالىنوفسكى أمضى في جزر التروبر أربع سنوات حتى يمكنه التغلغل الى أعماق نظمهم الاجتماعية وانماطهم الثقافية . أما ليفي ستروس فانه لم يكن يمضى في أى مجتمع من المجتمعات التي زارها سوى أسابيع قليلة . وهو على أية حال يعترف صراحة في مطلع كتابه بكرهيته للرحلات ونفوره من السفر اذ يقول :

« أننى أمقت السفر والمستكشفين . ومع ذلك فأننى أعترف أن أعرض هنا قصة رحلاتي الدراسية . ولقد اقتضى اتخاذ هذا القرار منى وقتا طويلا . فلقد انقضت خمس عشرة سنة منذ تركت البرازيل لأخر مرة ، وضعت خلاها خططاً كثيرة لهذا العمل الذى بين أيدي القراء ، ولكن فى كل مرة كان يداخلنى شيء من الخجل ويتأبى بعض الاشتمزاز بما كان يمنعنى عن أن أبدأ العمل . وكثيرا ما كنت أسائل نفسى عن السبب الذى يجردنى أن أعرض بالتفصيل لكل تلك الظروف العابرة والأحداث الثافهة التي مرت بها . فالمخاطرة لاتؤلف عنصرا جوهريا في العمل الانثربولوجى . وانما هى بالأحرى أحد تلك المعوقات التي لايمكن تجنبها ، والتي تصرف الباحث العالم عن عمله المجدى المفيد وتتسبب في ضياع كثير من الوقت بغير طائل . فهناك تلك الساعات الطويلة من الملل والتبلى التي تضيع سدى حين يختفى الاخباريون والمرشدون ، وهناك فترات الجوع والتعب وربما المرض ، وهناك دائما آلاف الأعمال الثافهة الرتيبة الكثيرة التي تلتهم الايام بغير جدوى أو هدف ، وتجعل الحياة المثيرة في قلب الغابات البكر شيئا أقرب الى الخدمة العسكرية . . . والواقع أن الجهد والمال اللذين ينفقان من أجل الوصول الى موضوع البحث والدراسة لن يضيفا أية قيمة الى مهنة الانثربولوجى ، ويجب أن ننظر اليهما من الناحية السلبية البحتة

فالوقائع والحقائق التي نبحث عنها في تلك المناطق البعيدة النائية لن يكون لها أية أهمية الا حين نفصلها عن كل تلك الشوائب والنفايات . فقد يتحمل الباحث مشقة شهور من السفر والارهاق والملل القاتل لكي يسجل (في ايام قليلة او حتى في ساعات محدودة) احدى الاساطير التي لم تكن معروفة من قبل ، أوقاعدة جديدة من قواعد الزواج ، او قائمة كاملة من أسماء الافراد والعشائر ، ولكن هل يستحق هذا من الباحث عناء تناول القلم لكي يدون بعض الشذرات الواهية من الذاكرة وبعض الذكريات الشاحبة على النحو التالي : « في الساعة الخامسة والنصف صباحا دخلنا ميناء ريسيف وسط صيحات طيور النورس العالية ، بينما كان أسطول كامل من القوارب المحملة بالفواكه المدارية يقترب ويتجمع حول الباخرة » ومع ذلك فان هذا النوع من السرد يحظى بدرجة عالية من القبول الذي لا يستطيع أن أفهمه . فالأمازون والتبت وافريقيا تملأ الآن المكتبات في شكل كتب الرحلات ووصف الحملات العسكرية ومجموعات الصور التي تهدف كلها الى التأثير في القارئ ، لدرجة أن يصبح من المستحيل عليه أن يعرف القيمة الحقيقية للبيانات والمعلومات التي أمامه . وبدلاً من أن تستثير هذه الأعمال ملكة النقد لدى القارئ نجده يطالب بالمزيد من تلك التفاهات الضحلة ويتلذذ كميات هائلة منها . لقد أصبح الاستكشاف الآن نوعاً من التجارة التي تهدف ليس الى اظهار بعض الحقائق التي كانت مجهولة من قبل ، وذلك عن طريق البحث والدراسة الطويلة المضنية ، بقدر ما يهدف الى قطع مسافات شاسعة من الارض وتجميع عدد ضخم من الشرائح والصور المتحركة التي يستحسن ان تكون ملونة حتى تجذب اكبر عدد من المستمعين الى المحاضرات ولأطول فترة ممكنة . . . »

ورأى ليفى ستروس فيه قدر كبير من الصحة والصدق بغير شك . فالملاحظ على العموم أن أدب الرحلات قد تراجع الى حد كبير عما كان عليه في العصور السابقة وحتى اوائل هذا القرن ، وذلك على الرغم من أن العصر الحالى يعتبر بحق عصر الرحلة والسفر نظراً للمكانات والتسهيلات الهائلة في هذا المجال ، بحيث أصبح السفر جزءاً من الحياة العادية للرجل العادى بعكس ما كانت عليه الأوضاع في الماضى . فالرحالة الأوائل القدامى كانوا من أدباء وفنانين ومؤرخين وجغرافيين ومكتشفين ومبشرين ولذا جاءت كتاباتهم في الاغلب سجلاً وافياً ودقيقاً وعميقاً عن انطباعاتهم عن حياة الشعوب التي زاروها ومظاهر سلوكهم وعوائدهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية ، وتقويم لانجازاتهم في مختلف ميادين الثقافة ، ولم تكن مجرد سرد وصفى لتفاصيل الرحلة والأحداث العابرة التي مرت بهم اثناء ذلك ، وهذا يصدق على المؤرخين والجغرافيين اليونانيين مثل هيرودوت وسترابون وبابولس سانياس ،

مثلاً يصدق على الكثير من الرحالة العرب والمسلمين الذين تركوا لنا دراسات عميقة تكشف عن درجة عالية من القدرة على الملاحظة الدقيقة والتحليل ، كما هو الحال في رحلات ابن فضلان مثلاً ، او كتاب البيروني « تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة » كما يصدق على كثير من كتب الرحلات التي تركها لنا الاوربيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتي سجلوا فيها ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن حياة عدد من الشعوب (البدائية) التي زاروها ، وان لم تخل تلك الكتابات من التحيز للثقافة الاوربية والحضارة المسيحية ، فضلاً عن اغراق بعضها في التخيلات والمبالغات والافتراء والاحكام غير الدقيقة ، ولكن بعض هذه الكتابات كانت تلتزم الجد والواقع في الوصف والتحليل مثلاً فعل آندروياتل Andrew Battel مثلاً عن سكان الكونجو ، أو ماكتبه القسيس اليسوعي البرتغالي جيروم لوبو Jerome Lobo عن الاحباش في كتابه « رحلات بنكرتون » الذي ترجمه دكتور جونسون في اوائل القرن التاسع عشر الى الانجليزية ، ويقول عنه انه « أفلح بطريقته البسيطة الخالية من التكلف في أن يصف الاشياء كما رآها وأن يصور الطبيعة من واقع الحياة ذاتها كما انه يعتمد على حواسه وليس على مخيلته » . بل ان بعض هؤلاء الرحالة والمبشرين كانوا يعقدون كثيراً من المقارنات بين ثقافات الشعوب البدائية والثقافات والحضارات القديمة العريقة مثلاً فعل الأب لافيتو في مقارنته بين عقائد وعادات بعض قبائل الهنود الحمر من ناحية ومعتقدات وتقاليده اليهود والمسيحيين الأوائل واهالي اسبرطة وكريت والمصريين القدماء من الناحية الاخرى ، او مثلاً فعل الرحالة الفرنسي دولا كريكانيير De la Crequiniere في محاولة تبين أوجه الشبه بين عادات الهنود والتقاليده اليهودية واليونانية والرومانية ، وذلك بغية الوصول الى فهم أفضل للأشعار المقدسة والكتاب الكلاسيكيين ، وهكذا (انظر في ذلك الفصل الرابع من ترجمتنا لكتاب الاستاذ ايفانز بريتشارد : الانثربولوجيا الاجتماعية) . ولسنا نهدف هنا الى الكلام بالتفصيل عن كتب الرحلات خلال مختلف العصور ، انما هدفنا هو أن نبين كيف أن كثيراً من هذه الكتب كان يزخر بالمعلومات الدقيقة عن المناطق التي زارها الرحالة والشعوب التي اقاموا فيها ، وأن هذه الكتب افلحت في أن تجذب اليها القراء نظراً لابتعادها عن أسلوب العرض العلمي الجاف رغم التزامها بالدقة والامانة بقدر الامكان ، الى جانب ما فيها من عنصر الخلق والابداع الذي تخلو منه الكتب العلمية ، بل ان بعض كتب الرحلات وجد من الاقبال والرواج ما لم تلقه بعض روائع الاعمال الادبية ، وخير مثال لذلك الاديب الشاعر جوته الذي يقال ان رحلته الشهيرة الى ايطاليا جذبت من القراء أضعاف ما جذبه أى كتاب أو مسرحية أو رواية أخرى من اعماله ، بما في ذلك آلام فرتر وفاوست . ولا يزال أدب الرحلات يؤلف فرعا من أهم فروع الكتابة في الآداب الغربية رغم انه يصعب العثور الآن على ما يماثل في العمق والروعة واتساع الأفق وشمول النظرة كتب الرحلات التي أشرنا الى بعضها هنا ، أو تلك التي سوف يرد ذكرها في الدراسات التي

يضمها هذا العدد . وما يؤسف له أيضا أن التقليد العربي القديم الذي كان يعطى كثيرا من الاهتمام بأدب الرحلات لم يستمر ، بحيث يصعب القول ان هناك ما يمكن تسميته بحق بأدب الرحلات في الكتابات العربية المعاصرة .

وبعض المسئولية عن تخلف أدب الرحلات في الوقت الحالى تقع على التغيرات التى طرأت مؤخرا على « ميتافيزيقيا السفر » . وهذا مصطلح استخدمه لأول مرة بول فوسيل Paul Fossel فى كتاب حديث ظهر فى أواخر عام ١٩٨٢ بعنوان Abroad . فالثورة التكنولوجية والالكترونية الحديثة والتطورات التى طرأت على أساليب الاتصال ساعدت على ظهور « المسافر او السائح المستقر » الذى يمكنه أن يتعرف عن طريق الصور التى تنقلها اليه الاقمار الصناعية من كل أنحاء العالم على مختلف الثقافات والشعوب والبيئات ، مما يخلق لديه فى آخر الأمر إحساسا كاذبا وخادعا بأنه من أكبر الرحالة عبر الزمان والمكان ، مع أنه لم يتحول عن مكانه . وساعدت وسائل المواصلات الحديثة السريعة الفخمة والمريحة ، وبخاصة الطائرات الضخمة التى تطير بسرعة تفوق سرعة الصوت على اختزال تلك المرحلة الهامشية ، وحرمان المسافر من تجربة الرحلة الحقيقية بكل ما فيها من عمق وما يصاحبها من إثارة وأخطار ، واستبدلت بها الراحة والرفاهية اللتين تخلقان فى المسافر شعورا غريبا يطلق عليه لانس مورو Lance Morrow اسم (الفراغ الهامس) وأدت كل هذه التطورات الى أن يصبح دور المسافر سلبيًا الى حد كبير ، ويختلف تماما عن ايجابية الرحالة القديم أو حتى المسافر فى المجتمعات البدائية ، فثمة الآن أجهزة ومؤسسات متخصصة تتولى عنه كل شئون الرحلة . بحيث يمكن القول ان المسافر الآن (لا يقوم) فى الحقيقة بالرحلة وانما يتم (ارساله) من مكان لآخر بواسطة (انبوية) هى الطائرة التى تقله من بلد لآخر ، مثلما يتم ارسال الخطابات والرسائل والمغلفات من مكتب لآخر فى المؤسسات الكبرى عن طريق الانابيب المخصصة لذلك . وتبلغ هذه السلبية مداها حين يشترك المسافر فى تلك الرحلات الجماعية التى أصبحت احدى سمات العصر ، فيجد نفسه ينتقل بين أماكن لم يكن له يد فى اختيارها ويتحرك بطريقة آلية ضمن جماعة لا يوجد بينه وبينهم أى رابطة حقيقية ، ويستمتع الى شروح وتعليقات سريعة وضحلة لاتيح له الفرصة للتفكير أو التعمق فى الدراسة ومحاولة الفهم ، وكل هذا معناه فى آخر الأمر أن (الرحالة) بالمعنى القديم الذى يشير الى التميز والفردية والأصالة آخذ فى الاختفاء بسرعة لكي يحل مكانه (المسافر) أو (السائح) الذى يسلم أموره الى غيره ، ويرى الاماكن بعين غيره ويفهم الثقافات بأفكار غيره ويصدر الأحكام على الشعوب بآراء غيره ، وهذا كله لا يساعد على ازدهار أدب الرحلات بالمعنى المتعارف عليه . ولكن هذا يعنى أيضا أن على علماء الانثربولوجيا والفولكلور اعادة النظر فيما قاله ارنولد فان جنب عن « شعائر المرور » .

د . أحمد أبو زيد

تمهيد

تمثل الرحلة ، سواء كانت برية أو بحرية في المفهوم العام ، انجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة واسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر . ويتأتى هذا الانجاز من أجل هدف معين ، ويجابو هذا الهدف ارادة الانسان وحركة الحياة على الارض بشكل مباشر أو غير مباشر .

وقد تكون الرحلة هواية ، تشبع حاجة في نفس الانسان وترضييه ، وقد تكون الرحلة احترافا يخدم حاجة الانسان ويشبعه . ولكنها تكون - في الحالتين - استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محدودة تدعو بكل الالحاح للحركة والانتقال من مكان الى مكان آخر . بمعنى أن من شأن دوافع معينة أن تدعو الانسان الفرد أو الجماعة دعوة صريحة وملحة ، لكي يخترق حاجز المسافة ، ولكي يتحمل مشقة السفر ومتاعب الاغتراب وصولا الى غاية مباشرة أو تحقيقا لهدف معين .

الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في نهضة المعرفة الجغرافية

صلاح الدين الشامي

رئيس قسم الجغرافيا - جامعة صنعاء

ومن أجل اختراق حاجز المسافة بين المكان والمكان الآخر . ومن أجل بلوغ الرحلة في البر أو في البحر أقصى ما تصبو اليه ، كان الاجتهاد الانساني الذي أسفر عن تهيئة الوسيلة أو الوسائل المتنوعة لحساب التحرك والانتقال . وصحيح أنه ربما جد الانسان في السير على قدمين حين لا تمام رحلة ما وبلوغه غايته منها ،

ولكن الصحيح أيضا أنه سخر كل الوسائل الأخرى التي أبتدعها وأحسن تشغيلها ، لكي توسع دائرة انتشاره وتطاول ارادة التحرك ، ولكي تسعف اهتمامه بالرحلة وجنى ثمراتها ، لحساب حركة الحياة ، على الصعيد المحلي أو على الصعيد الاقليمي أو على الصعيد العالمي .

ومن غير الدخول في تفاصيل كثيرة ، ينبغي أن نذكر كيف أن المدينيات العتيقة والعريقة التي ترعرعت في أحضان الزراعة ، وصنعت أسباب الاستقرار وطلقت العنان للإبداع الانساني من وراء كل الحواجز والدوافع التي دعت - بل والحت - الى تنظيم وتحريك وتوجيه الرحلة وجنى ثمراتها . كما ينبغي أن نفطن - بالضرورة - أيضا الى دور هذه المدينيات الايجابية ، في مجالات تهيئة وتطوير وسائل الانتقال في البر أو في البحر على حد سواء .

وهكذا نتبين كيف اطلقت العنان للرحلة ، حددت لها أهدافها ، وكيف سيرتها وأحسنست استخدامها في الاتجاه الصحيح . ومن ثم كان ذلك كله من وراء الانفتاح والتفتح في وقت واحد . والمقصود من الانفتاح خلق قنوات الاتصال المباشر وغير المباشر بين أوطان المدينيات العريقة . أما التفتح فمعناه توسيع دائرة الرؤية واستشعار المصلحة المشتركة لحركة الحياة في اطار وحدة الارض ووحدة الناس على الارض . هذا ، ولقد كان هذا الانفتاح وهذا التفتح المبكر ، من وراء رؤية جغرافية كاشفة ، ولقد انتفعت المعرفة الجغرافية بهذه الرؤية الكاشفة انتفاعا حقيقيا . وصحيح أن الرحلة التي اصطنعت ابعاد هذا الانفتاح والتفتح قد أغرقت حركة الحياة وثمرات الرؤية الجغرافية لبعض الوقت في بحر الخيال الاسطوري من غير وعي . ولكن الصحيح أيضا أنها بصرت ورشدت مع مضي الوقت - ارادة الكشف الجغرافي وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية على الارض في كل وقت .

وهكذا ندرك كيف غدت الرحلة في البر أو الرحلة في البحر العين المبصرة ، التي قادت الاجتهاد - الجغرافي . وكثيرا ما أسفرت الرحلة عن نجاحات حقيقية حققت أهداف الاجتهاد الجغرافي وسيرته في الاتجاه الصحيح لحساب وحدة حركة الحياة على الارض .

ونحن - على كل حال - لانزعم أو ندعي أن المعرفة الجغرافية كانت حافزا من وراء الرحلة وتحريكها في ذلك الوقت القديم . بل لاندعي أو لانزعم أن المعرفة الجغرافية كانت هدفا أو غاية مباشرة نظمت من أجلها الرحلة في البر أو في البحر . ولكن الذي ندعيه ونؤكد عليه حقا ، هو أن المصلحة المشتركة ، قد جمعت - من غير قصد مباشر ، بين هدف كل أو أي رحلة من جانب ، وهدف الرؤية

الجغرافية من جانب آخر . ويعني ذلك الجمع بين هذين الهدفين شكلا من أشكال الانتفاع المتبادل فيما بينهما .

ونستطيع أن نقول أنه في الوقت الذي كان حصاد الاجتهاد الجغرافي فيه عينا مبصرة ، ترشد الرحلة ، أو عصا تتوكأ عليها في البر أو البحر . كانت الرحلة مجالا رحبا ومشعبا يشهد الاجتهاد الجغرافي وينشطه وتسعفه برؤية كاشفة تنفعه . هذا ، وينبغي أن نؤكد على أن الرحلة البرية أو الرحلة البحرية - سواء كانت فردية أو جماعية - كانت في المقام الأول انجازا من أجل التجارة . وصحيح أن بعض الرحلات قد نظمت في شكل ما لمطاردة أو لردع العدوان ، ولكن الصحيح أيضا أن معظم الرحلات قد نظمت وسيرت ومولت من أجل أغراض اقتصادية بحتة . ويبدو أن تنوع حاجات الحياة واقتناده بعضها في أوطان المدينيات العريقة قد حفزت المغامرين للقيام بالرحلة في البر تارة وفي البحار تارة أخرى . ولقد تحمل هؤلاء المغامرون مسؤولية الرحلة ومشقة الاغتراب والذهاب والعودة في خدمة الوساطة التجارية .

وفي هذا البحث ، نود أن نلقي الضوء على الاجتهاد العربي الجسور المغامر على متن السفينة في المحيط الهندي ، وسوف نتابع تحرك الرحلة البحرية العربية وانجازاتها الحقيقية . ومن ثم نبين مدى اسهام هذا الاجتهاد الجسور في تجسيد الرؤية الجغرافية وترشيدها على المدى الطويل .

الاجتهاد العربي والمغامرة البحرية

لكي نحدد بداية هذا الاجتهاد المغامر في البحر - على وجه التحديد - يجب أن نذكر متى كان ازدهارها وتفتح ونمو بعض المدينيات العتيقة والعريقة في وادي النيل الأدنى - مصر - وفي سهل الرافدين - العراق - وفي أنحاء كثيرة من حوض البحر المتوسط في جانب ، ومتى كان ازدهار وتفتح ونمو المدينيات العتيقة والعريقة في شبه القارة الهندية من جانب آخر . كما يجب أن نذكر معنى وماهية العلاقة التي تآتت لكي نتبادل المنافع فيما بينهما . ومن ثم ينبغي أن ندرك كيف كان ذلك كله بكل أبعاده وموجباته المادية والروحية من وراء دعوة صريحة حفزت أو دفعت فريقا نشيطا من سكان المنطقة لكي يقوم بتهيئة قنوات الانصال فيما بينها وخدمة أشبه ما تكون بالوساطة حضاريا واقتصاديا وتجاريا بين هذه المدينيات العريقة .

ولقد رشح موقع جزيرة العرب الجغرافي وامتداد البحر الاحمر والخليج العربي على المحور العام من

الجنوب الى الشمال فريقا نشيطا من العرب للاستجابة لهذه الدعوة . وتولي هذا الفريق بكل المهارة اداء وتحمل المسؤولية في خدمة قنوات الاتصال الحضاري والاقتصادي والتجاري في مقابل أرباح مادية وثمرات حضارية .

وما من شك في أن نضج هذه الفريق العربي النشط الذي عاش في جنوب الجزيرة العربية نضجا حضاريا مبكرا ، قد أزر مغامراته في البحر وأيد اهتمامه بالعمل التجاري والوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط . وهناك أكثر من دليل في صفحات التاريخ على ذلك . بل هناك سباق ممتاز يحكي نشاط الرحلة البحرية العربية ، ويصور نجاح الفريق العربي النشط سواء وهو يمارس الرحلة البحرية في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر ، أو وهو يمارس الرحلة البرية عبر جزيرة العرب ذاتها .

وصحيح أن انتصارات الاسكندر الاكبر ، قد الهبت حماس الاهتمام بتجارة البحار الجنوبية التي وضع غرب جنوب الجزيرة العربية دعائمها الاولى . وصحيح أن عناصر غير عربية - مصرية ويونانية - قد ظهرت في البحر الاحمر والخليج العربي ، واشتركت في رحلات التجارة البحرية على وجه الخصوص ، ولكن الصحيح ، بل المؤكد أن عرب جنوب الجزيرة (أهل اليمن الكبير) كان لهم فضل سبق على مدى وقت طويل . بل لقد احتفظت الرحلة البحرية لهم بمكانة مرموقة أو بدور الريادة والتفوق في تجارة البحار الجنوبية .

وليس من قبيل الزعم أو الادعاء أن نؤكد على أن عرب جنوب الجزيرة العربية قد وضعوا في هذه الرحلة المبكرة بعض أسس وقواعد وأصول هامة وحيوية في مسألة التجارة الدولية وحركة الاقتصاد العالمي ، وليس من قبيل الزعم أو الادعاء مرة أخرى ، أن نؤكد أن عرب جنوب الجزيرة العربية قد تولوا في هذه المرحلة المبكرة متفردين مهمة الممارسة العلمية لرحلات بحرية منتظمة في عرض المحيط . ولقد وضعت هذه الرحلات هؤلاء الرواد في خدمة التجارة والاحتكاك التجاري والحضاري بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط .

هذا ولقد تولى عرب جنوب الجزيرة العربية هذه المهمة بكل المسئولية على المدى الطويل ، وربما كانت البداية مبكرة ومبكرة جدا وقبل الميلاد بعدد كبير من القرون . وربما كان التغيير المناخي وتصاعد حالة الجفاف وما اقترن بها من شح وتقتير في جزيرة العرب من بين أهم الدوافع الفعالة التي دفعت الفريق العربي النشط لاحتراف الملاحة البحرية والعمل في خدمة الرحلة البحرية والاغتراب لحساب التجارة . وهناك من يقدر بداية هذه المهمة ترجع الى حوالى الألف الخامس قبل الميلاد .

ومن غير استغراق في جدل موضوعي حول هذا التقدير ، ينبغي ان ندرك كيف تسملت نتائج هذه المهمة والقيام بها وجنى ثمرات الرحلة البحرية والاغتراب الى نسيج الواقع الحضارى والواقع الاقتصادى والواقع الاجتماعى لكل دولة من الدول التى ازدهرت واكتسبت السمعة والمكانة فى مساحات معينة من ارض اليمن الكبير . كما لا ينبغي ان نفكر او نستنكر الريادة العربية فى ركوب البحر والمغامرة الجسورة فى المحيط الهندي أوفى الاغتراب فى مساحات من عالم المحيط الهندي . (١)

ومن الطبيعى ان نتصور كيف بدأ تعامل البحارة من اهل اليمن الكبير مع البحر وكيف اشتغلوا بالوساطة التجارية بداية فى أحضان البحر الأحمر . وهناك أكثر من دليل على أنه كان المدرسة التى اكتسبت فيها الخبرات والمهارات التى هبات للانسان العربى اليمنى النشيط ازاء دوره . بل وهناك مواقع كثيرة فى أحضان مرافئ منتخبة ، قد شهدت هذه البدايات المبكرة كما احتوت عمليات بناء وتجهيز السفن التى اسعفت الرحلة البحرية العربية وخدمت اهدافها .

ومن الجائز ان نتصور كيف شارك البحارة العرب فريق آخر من غير اهل اليمن (من مصر والشام واليونان) فى ملاحه البحر الأحمر (٢) . ومن الجائز ان نتصور كيف كان التنافس وكيف كان التعاون حتى جنى هذا الفريق المختلط من اهل اليمن ومن غير اهل اليمن ثمرات ركوب البحر والرحلة البحرية فى البحر الأحمر . ولكن الذى ينبغي ان نؤكد عليه بالفعل ، هو تفرد البحارة من أهل الجنوب العربى يتجاوز باب المندب . ومن ثم بدا الاجتهاد العربى الذى افلح فى اختراق حاجز المسافة فى اتجاه الشرق وانتظام الرحلة العربية فى احضان المحيط الهندي . وتجل بالضرورة معنى الا فتتاح العربى على عالم المحيط الهندي وما بنى عليه من ريادة فى حركة التجارة على مستوى قيم من المستويات الدولية فى ذلك الوقت القديم .

الرحلة العربية فى المحيط الهندي

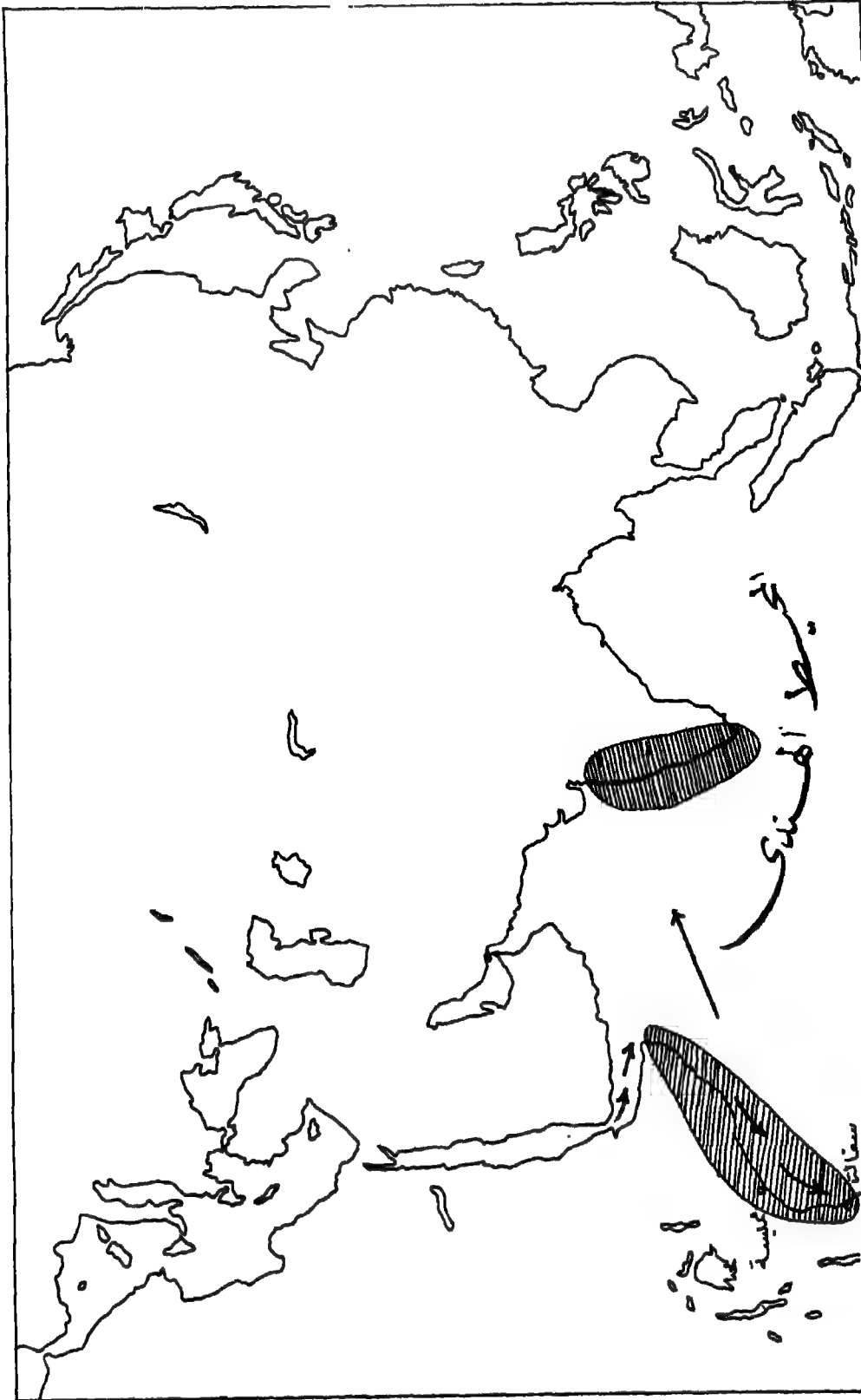
اختراق حاجز المسافة بين اقطار متباعدة وانتظام الرحلة البحرية فى المحيط الهندي فى ذلك الوقت المبكر قد يعنى الريادة فى المغامرة البحرية ، وامتلاك الوسيلة والخبرة التى شدت أزر هذه المخاطرة ، اسلمتها زمام التعامل التجارى والوساطة التجارية بين اقطار واقوام فى احضان البحار الجنوبية واقطار

(١) سبتهو موسكاتي المرجع السابق صفحة ١٩٧

(٢) الشامي الاسلام والفكر الجغرافى العربى القاهرة ١٩٧٩

والفكر الجغرافى سيره ومسيرة القاهرة ١٩٨٠

(١) الحضون العربي المنفرد - الرحلة الأولى - (قبل ميلاد المسيح)



واقوام في احضان البحر المتوسط ثم هويعى ايضا ضربا من ضروب الافتاح الاقتصادى الذى خدم التكامل بين الاقطار ، وصعد قيمة وأهمية المصالح المتبادلة بينها في اطار الدائرة التى استوعبت ثمرات هذه الوساطة التجارية .

وفى اعتقاد أي باحث منصف أن اختراق حاجز المسافة وانتظام الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي تعنى بالضرورة التفتح الجغرافى واتساع دائرة الرؤية الجغرافية . والتفتح الجغرافى الذى تعنيه لايعنى اقل من معاينة ورؤية كاشفة للارض التى تمر بها او التى تنتهى اليها الرحلة ، كما لايعنى ايضا اقل من معايشة وتعامل كاشف للناس والاقوام الذين تحتويهم هذه الأرض ، والرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي لايمكن ان تحقق اقل من ذلك ، بل لعلها رسخت استشعار الاختلافات والفروقات بين الارض والاقوام وهى تنتقل في طريقها لأداء المهمة المنوطة بها .

هذا ومامن شك في ان هذا التفتح الجغرافى الذى كان ثمرة من ثمرات الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي قد بصر أو رشد أو صحح مساراتها واتجاهاتها . بل لعله اسعفها من حين الى حين آخر وهى توسع مدى انتشار الحضور العربى والتعامل التجارى على الصعيد الآسيوى بصفة خاصة وهل ننكر ان اكتشاف أو معرفة حركة الرياح الموسمية الصيفية وهى جنوبية وجنوبية غربية ، والرياح الموسمية الشتوية وهى شمالية شرقية هو من قبيل التفتح الجغرافى ؟ وهل يمكن ان ننكر بذلك قيمة او اهمية هذا التفتح الجغرافى الذى اصطنع نقطة تحول حاسمة واطلق العنان للرحلة البحرية العربية وحقق الافتتاح الاقتصادى الذى اسفر عن شكل او عن صورة مبكرة من صور التجارة الدولية ؟

صحيح أن البحارة العرب قد امسكوا عن ذكر معظم التفاصيل عن رحلاتهم البحرية المغامرة في عرض المحيط الهندي ، وصحيح انهم احتفظوا لأنفسهم بكثير من اسرار معرفتهم الجغرافية . ولم يفرطوا في تصوير رؤيتهم الجغرافية تخوفا من منافسة دخيلة عليهم من بحارة مغامرين من غير العرب . ولكن الصحيح ايضا انهم روجوا القصص الخرافية وشحنوها بالخيال المخيف الذى حسب الرعب والفرع على امل تخويف كل من تسول له نفسه اقتحام المحيط الهندي والمغامرة فيه والاشتراك في اداء الدور الاقتصادى الذى اشبعهم ربحا وكسبا وامطرهم ذهباً وفضة .

ولا ينبغى ان نستنكر السكوت عن حسن تصوير الرؤية الجغرافية او ان نستنكر أغراق الرؤية الجغرافية في الخرافة والخيال . بل ولا ينبغى ان نتصور السكوت جهلا بقيمة هذه الرؤية الجغرافية وما تعبر عنه . ولكن الذى نؤكد عليه هو أن السكوت كان وسيلتهم التى تحجب هذه الرؤية ، وان حجب

الرؤية الجغرافية امر ضرورى دعت اليه ارادة الاحتكار الاقتصادى ورفض المنافسة بصفة عامة . وموقف البحارة العرب فى المحيط الهندى يعيد الى الازهان موقف البحارة الفينيقيين الذى تكتموا اسرار البحر وحجبوا رؤيتهم الجغرافية من اجل درء خطر المنافسة الاقتصادية -

وحجب اخبار الرحلة البحرية او اغراقها فى خضم الرواية الاسطورية ، وتكتم اسرار البحر والحركة فى انحائه قد افلح على كل حال فى منع البحارة من غير الجنوب العربى على مدى مرحلة طويلة ، من اقتحام المحيط الهندى واستخدامه ، وهناك ما يؤكد على ان البحارة اليونان والرومان قد حاولوا - على مدى فترة طويلة جمع المعلومات عن المحيط الهندى طلبا للملاحة فيه ، وكسر احتكار الرحلة البحرية العربية ، وتفرد البحارة العرب بثمرات الوساطة التجارية .

هذا ، وكان من شأن الرحلة البحرية العربية التى انطلقت من موانئ متعددة فى جنوب جزيرة العرب ، ان تصل فى نهاية المطاف الى شبه القارة الهندية . وينبغى ان نتصور هول ومشقة هذه الرحلة البحرية التى كانت تضرب فى محيط واسع ، كما ينبغى ان نتصور كيف كانت المعرفة الجغرافية مطلوبة لكى تكون فى معية الرحلة البحرية ترشدها وتسدد خطاها على الطريق ، بل ومن غير هذا الترشيده ، تكون الرحلة فى مسارها الذى يضرب فى عرض البحر فى ضلال مبين .

ولكى تتحقق هذه الرحلة البحرية العربية ، ولكى تفلح فى اداء مهمتها دائما وصولا الى شبه القارة الهندية وعودة منها ، احسن البحارة من الجنوب استخدام المعرفة الجغرافية التى جمعت أوصالها رؤية جغرافية متكررة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . بمعنى ان اقتحام المحيط الهندى ومغامرة الرحلة البحرية لم تبدأ بداية ناجحة ومطمئنة الا من بعد ان اكتسبت تجربة وخبرة . وهل تبني مثل هذه التجربة والخبرة على حصاد معرفة جغرافية وتصور صحيح لطبيعة العلاقة بين اليابس والماء ، فى انحاء القطاع الرحب من المحيط الممتد بين الجبهة الافريقية والجبهة الآسيوية .

هذا وكان من شأن هذه الرحلة البحرية فى الذهاب والاياب ، ان تمر بتجربة الرحلة البحرية الساحلية ويتجربة الرحلة البحرية فى عرض المحيط . وفى كل تجربة من هاتين التجربتين برهن البحارة العرب على كفاءة وخبرة حقيقية فى ركوب البحر وحسن توجيه السفينة وانجاح الرحلة . بل وكادت ان تمثل هذه الرحلة البحرية شكلا من اشكال التحرك المنتظم فى مواسم معينة وعلى خطوط سير محددة .

وتحرك الرحلة البحرية الذى بدأ من موانئ جنوب جزيرة العرب ، قد اعتمد على الملاحة الساحلية . ، وكان من شأن السفينة ان تتحرك بحذاء الساحل الافريقى وصولا الى هدفها المرحلى . .

كما كان من شأنها ان تتجاوز القرن الافريقى ، وان تتقدم جنوبا صوب ساحل شرق افريقية على امتداد الجبهة الطويلة بين موقع ممبسة وموقع سفالة (٣) . بمعنى أنها رحلة بحرية لازمت خط الساحل الافريقى وتشبثت به فلم تباعد منه كثيرا وكأنها تخشى أن تضل في عرض البحر .

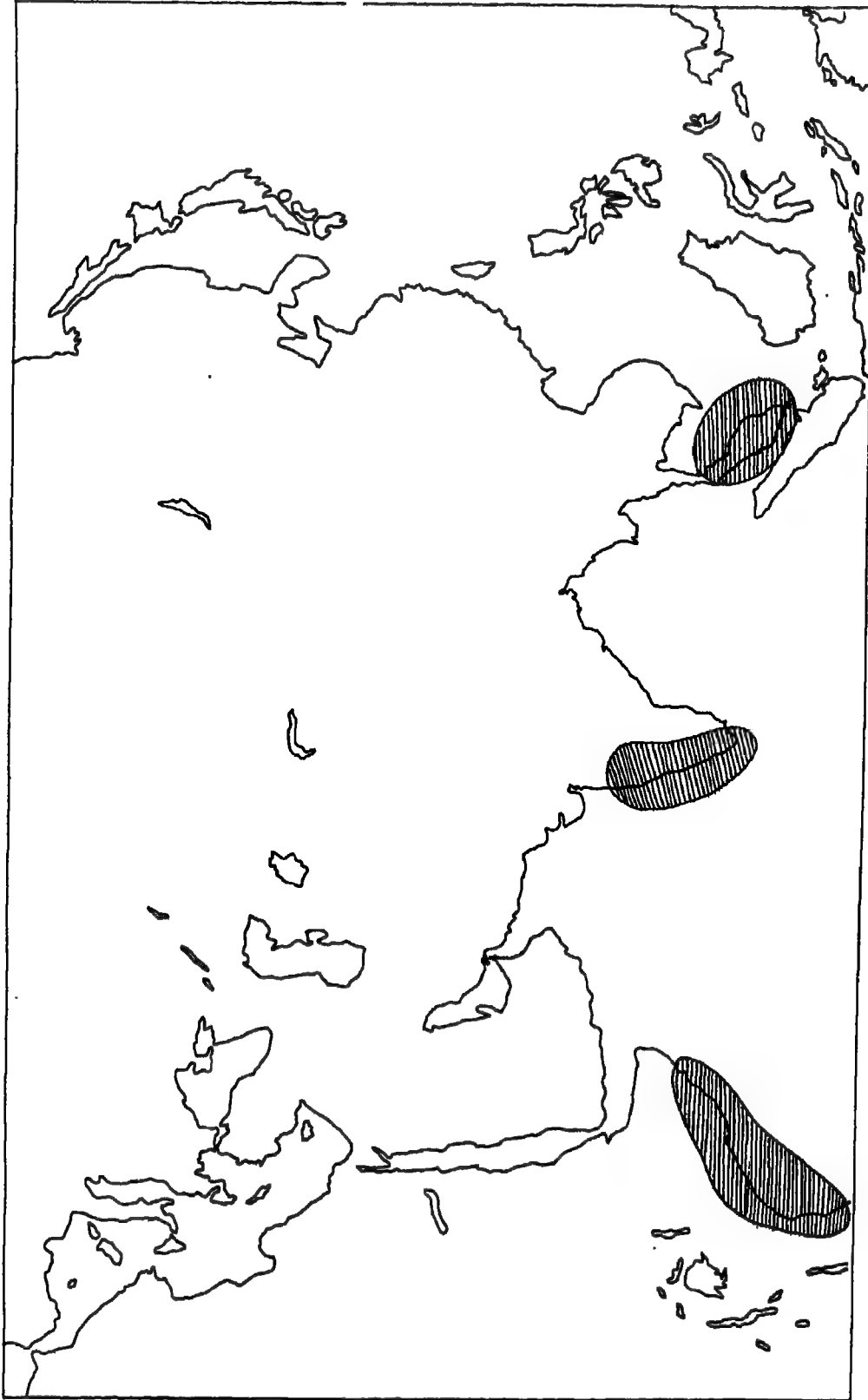
والوصول الى هذا الهدف المرحلي كان المقصود منه وضع السفن في المكان الانسب لاقتحام المحيط ، في الوقت المناسب . وربما تنفلت السفن آنذاك من مرفأ الى مرفأ آخر على امتداد الجبهة الافريقية الشرقية وتقدمت جنوبا بكل الجيطة والحذر ، وكان من الطبيعى ان تتسكع - السفينة - ، وأن تتحسس سبيلها ، قبل ان تنتخب المرفأ أو المرافئ الافضل والانسب ، وفي احضان هذه المرافئ المنتخبة ، أقيمت أو جهزت الميناء او الموانئ التى تنتهى عندها الرحلة بعد ملاحه ساحلية طويلة ومضنية . وفي هذه الموانئ كانت السفن تلتقط أنفاسها وتتهيا لا قتحام المحيط واستئناف الرحلة في عرض البحر الى شبه القارة الهندية .

والانتماء المرحلى من الرحلة بحذاء الساحل الافريقى ، وانتخاب المرفأ أو المرافئ وتجهيز الميناء او الموانئ وحيازتها وتشغيلها ، يعنى حضورا عربيا مباشرا ومقيما على الساحل الافريقى ، ومن الجائز أن ندرك أو أن نتصور كيف استقبل هذا الحضور العربى المقيم على الجبهة الافريقية البحر بلهفة واصرار ، لكى نستكمل الرحلة البحرية وتحقق أهدافها الاقتصادية ، ومن الجائز ، ايضا أن ندرك أو أن نتصور كيف استدبر هذا الحضور العربى القيم العمق الافريقى في ظهير الساحل الافريقى بحذر واشفاق ، لكى يتجنب الانغماس في حركة حياة بدائية لا تخدم او لا تحقق اهداف الرحلة البحرية الحقيقى . ولكن المؤكد من بعد ذلك كله ان هذا الحضور العربى المقيم على الجبهة الافريقية في احضان الموانئ كان حضورا ايجابيا الى حد بعيد ، عندما تشبث بالارض وعاش الناس واشترك وقاد مسيرة حركة الحياة اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا .

ولقد خدم هذا الحضور العربى النشط المغترب التفتح الجغرافى في نفس الوقت الذى قاد فيه مسيرة الانفتاح الاقتصادى وحركة التجارة . وصحيح ان التوغل العربى من الموانئ ومراكز التجارة على الساحل الافريقى الى القلب الافريقى الهساعد على سطح الهضاب الشرقية كان توغلا حذرا وبطيئا الى حد كبير (٤) ولكن الصحيح ايضا ان هذا الحضور العربى المبكر على الجبهة الافريقية والتوغل المتأن

(٣) Huzzin S . A . S . : Arabia and the far East , Cairo 1942

(٤) سبتينر موسكاني الحضارات السامية القديمة ترجمة د / يعقوب بكر صفحة ١٩٢ - ١٩٣



(٢١) الحضور العربي المتنافس - المرحلة الثانية - (قبل ظهور الاسلام)

الى الظهير ، قد عايش الأرض وعایش الناس . ثم قص عنها وروى (٥) ومن ثم كانت رواياتهم مصدرا مبكرا وأصيلا ، لكثير من اوجه المعرفة الجغرافية على الصعيد الافريقى الاستوائى .

والتقاط الانفاس الذى اسفر عن حضور عربى مغترب على الجبهة الافريقية طور العلاقة المباشرة بين هذا الحضور العربى بكل تطلعاتهم والناس الافارقة بكل بساطتهم (٦) وقد ادى ذلك بكل تأكيد الى اختلاط وتزاوج حتى تسربت دماء عربية كثيرة . وكانت الافريقيات أرحاما لأجيال كثيرة فى عروقها دماء عربية تتكلم لغة الأمهات . ولقد تشبثت هذا الحضور العربى المغترب بالارض وجعل منها رأس جسر للتحرك العربى البحرى الى الجبهة الاسيوية .

ومن الميناء او من الموانئ التى اتخذت شكل او وظيفة المركز التجارى Trade Post على الجبهة الافريقية بدا ألسوط الثانى من الرحلة البحرية العربية وفى هذا السوط اقتحمت الخبرة البحرية العربية عرض البحر وكان الاقتحام اقتحاما جسورا وهادفا . وينبغى ان نتصور كيف كان هذا الهدف بين اهم العوامل التى صرفت الحضور العربى المغترب على الجبهة الافريقية عن التوغل فى الظهير الافريقى . كما ينبغى أن ندرك ايضا ، كيف امتلك الحضور العربى المغترب السفن من النوع الذى اسعف هذا الاقتحام على مواجهة الاخطار التى يمكن ان تسفر عنها غصبة البحر فى بعض الاحيان .

هذا ، ولقد شددت الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الصيفية أزر هذا الاقتحام البحرى العربى . الجسور ووجهت مسيرة الرحلة البحرية فى اتجاه مباشر الى شبه القارة الهندية ، وصحيح أن الرياح الموسمية الشتوية الشمالية الشرقية قد يسرت امر العودة واياب الرحلة البحرية الى موانئ الجبهة الافريقية ، ولكن المؤكد أن توقيت رحلة الذهاب فى الصيف وتوقيت رحلة الاياب فى الشتاء يكشف بما لا يدع مجالا للشك عن صدق المعرفة الجغرافية بحركة الرياح الموسمية ، كما يكشف أيضا عن حسن استخدام هذه الرياح واستغلالها لحساب الرحلة البحرية فى عرض المحيط الهندى ولقد فتحت شبه القارة الهندية التى احتوت وجودا هنديا متحضرا صدرها بكل الترحيب وحسن التعامل لاستقبال الرحلة العربية وترقب وصولها فى مراقبتها . ومن الجائز ان نتصور كيف كان التحضر الهندى من أهم العوامل التى كانت من وراء حسن استقبال الرحلة العربية . ولكن يبد وأن وضع شبه القارة الهندية من وجهة النظر الطبيعية ، قد فرض على الحياة فيها ان تستقبل البحر وان تظل من خلاله على العالم وان

(٥) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ بيروت ١٩٦٨ صفحة ١٧٠ ١٧٥

(٦) Kamarer , A : Mer rouge depuis l'antiquité le caire 1929 1935

يطل العالم من خلاله عليها (٧) وبقدر هفة الرحلة البحرية على الوصول الى شبة القارة الهندية والتعامل معها كانت في المقابل هفة شبة القارة الهندية على وصول هذه الرحلة واستمرارها .

ومن الجائز ان ندرك كيف انتخبت الهند الموانئ الأنسب وكيف جهزت الموانئ الافضل لاستقبال البحر وحركة الاقتصاد فيه ، وهذا معناه ان الحضور العربي الوافد مع الرحلة البحرية قد تخفف من عمليات انتخاب الموانئ او تجهيزها ، ومعناه ايضا ان الحضور العربي قد انكب على أداء مهمته الاقتصادية . وجرى العرف على ان تصل الرحلة البحرية العربية وقد حملت السفن منتجات متنوعة من انتاج مدنات حوض البحر المتوسط ومن انتاج الجبهة الافريقية ، فتبادل عليه وتعود محملة بحمولة متنوعة من منتجات الهند وتوابلها على وجه الخصوص .

واستخدام الموانئ الهندية على ساحل ملبار التي احسنت استقبال الرحلة البحرية العربية ، وحرص هذه الرحلة على الذهاب اليها والعودة منها بشكل منتظم في كل عام لاينفي ولا يتعارض مع حضور عربي مغترب أقام في هذه الموانئ . وصحيح ان هذا الحضور العربي المغترب قد شارك الحضور الهندي في حركة الحياة والجانب الاقتصادي منها على وجه الخصوص . ولكن الصحيح ايضا ان هذا الحضور العربي المغترب على الارض الهندية قد أكد ذاته حضاري ر تصاديا واجتماعيا ، وهو يعطى ويأخذ ، او هو يتعامل ويتعايش .

وهكذا كان الحضور العربي المغترب الوافد الى الجبهة الاسيوية ، حضورا ايجابيا وفعالا . ولقد عايش الارض لأنه عاش في أحضانها وعرف خصائصها الطبيعية . كما عايش الناس وتعامل معهم واختلط بهم وشاركهم مشا ركة فعالة في مسيرة الحياة ، بمعنى انه كان حضورا نشيطا في الاخذ والعطاء على حد سواء .

ويتجلى نشاط وايجابية هذا الحضور العربي على ثلاثة محاور محددة . وعلى المحور الاول قدم انجازات رائدة خدمت الانفتاح الاقتصادي وحركة التجارة الدولية . ولعلنا لانكر انه وضع بدايات دعومات بعض اهم الضوابط الحاكمة لحركة التعامل التجاري بين الامم والشعوب . وعلى المحور الثاني أحسن هذا الحضور دوره الذي شحذ الاحتكاك الحضاري ونما نتاجه واثاره لحساب الانسان ، ولقد اصطنع قنوات اتصال غير مباشرين المدنات المختلفة ، وحقق شكلا مفيدا من اشكال الانفتاح والتفتح الحضاري . وعلى المحور الثالث نور هذا الحضور العربي البصيرة الجغرافية . وزودها برصيد

(٧) قتل ميناء سفالة أقصى ما وصل اليه الانتشار العربي الذي قاد الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي . وتقع في موقع ما على ساحل موزبيق قرب يبرا

مناسب من المعرفة الجغرافية رغم التكتّم الشديد الذي اعتمد في اخفاء أهم وأخطر الحقائق الجغرافية .

وفي اعتقادي - على كل حال - ان هذا الحضور العربي المغترب على الارض الآسيوية ، كان العين المبصرة التي أطل بها الاجتهاد الجغرافي القديم لدى اهم المدن القديمة في حوض البحر المتوسط على عالم المحيط الهندي . ولقد أعطى هذا الحضور العربي بدوره للاجتهاد الجغرافي القديم في شبه القارة الهندية فرصته لكي يتعرف على الواقع الجغرافي في انحاء جزيرة العرب وشرق افريقية وحوض البحر المتوسط .

الحضور العربي المغترب والمعرفة الجغرافية

كان الحضور العربي فيما وراء الارض العربية - جزيرة العرب - في الغالب اغترابا لبعض الوقت بمعنى انه مهما طابت الحياة في المهجر وتحققت الأرباح وتداخل هذا الحضور في البنية الاقتصادية كان التشبث بالعودة الى الوطن أو الموطن أملا يراود المغترب العامل في حقل التجارة وخدمة الرحلة البحرية العربية . ومع ذلك ينبغي أن نؤكد على أن هذا الحضور المغترب كان حضورا متجددا على المدى الطويل . لأن الرحلة البحرية لم تتوقف ولم تتكاسل ، بل لقد جددت الاجيال دائما شباب وحيوية ونشاط هذا الحضور في المهجر ، وحافظت على حمل الابعاء وكفلت الصلة العرقية والحضارية بين المغترب والموطن في الجنوب العربي بشكل منتظم .

ولا تعارض ابدا بين أياب المغترب بعد بعض الوقت من المهجر على الصعيد الافريقي او على الصعيد الآسيوي من ناحية ، وتجدد واستمرار الحضور العربي المغترب في المهجر من ناحية اخرى . ذلك ان هناك دائما من الاجيال من حل مكان المغترب العائد وحمل عنه العبء . بمعنى ان الحضور العربي مارس شكلا من اشكال الاستيطان في المهجر . ولأنه حافظ دائما على قنوات الاتصال مع الموطن الام ، فيمكن ان ندرك كيف وسع هذا النمط من الاستيطان دائرة انتشاره وكيف تداخلت حركة الحياة في الجنوب العربي والمهجر تداخلا يلفت النظر الى حد كبير .

ومن غير ان نفتقد العلاقة بين الرحلة البحرية العربية والحضور العربي المغترب ، ومن غير ان نقلل من شأن التداخل بين حركة الحياة في الجنوب العربي وحركة الحياة في المهجر الذي احتوى الحضور العربي المغترب ينبغي ان نفطن الى مسألة الرؤية الجغرافية ، وكيف تحققت في البر والبحر على حد

سواء . وما من شك في ان انتشار هذا الحضور العربي المغترب وحرصه على العلاقات بينه وبين الجنوب العربي كان من وراء تجمع أوصال الرؤية الجغرافية الشاملة لعالم المحيط الهندي . ولقد وضعت هذه الرؤية الجغرافية المجمع الاجتهاد العربي في مواجهة استشعار مصالح مشتركة وتداخل حركة الحياة ، حتى كادت أن تتجسد في رؤيتهم معاني وحدة الارض ووحدة الناس على الارض . وهذا في حد ذاته انجاز مفيد لأنه يطلق الفكر الجغرافي من الاقليم الضيق المحدود الى منطق العالمية الفضفاض .

هذا ويمكن ان نتابع عطاء الحضور العربي المغترب والرحلة البحرية للمعرفة الجغرافية على مراحل متميزة ومتكاملة في وقت واحد ، بمعنى ان الرحلة البحرية التي لم تتوقف على المدى الطويل منذ اقتحمت باب المندب وخليج عدن وتجولت في عرض المحيط الهندي قد حافظت على استمرارية الحضور العربي المغترب وعلى علاقاته بالموطن الام . وكفلت استمرارية العطاء للمعرفة الجغرافية ، ولان الاستمرار كان على المدى الطويل فان التمييز بين الرحلة البحرية والحضور العربي المغترب وما قد أعطته للمعرفة الجغرافية ، في كل الرحلة امر منطقي خضع بالضرورة لكل المتغيرات البشرية ومابنى عليها من ضوابط حكمت الظروف التي عملت في ظلها او بموجبها هذه الرحلة في تلك المراحل .

والمرحلة الاولى كانت مبكرة وقديمة . ولقد شهدت هذه المرحلة في القرون السابقة للميلاد الرحلة البحرية العربية وما أسفر عنها من حضور عربي مغترب . ويشوب معرفتنا بالرحلة وبالحضور العربي المغترب في هذه المرحلة الشيء الكثير من الغموض والابهام . ويبدو ان هذا الغموض كان متعمدا ولعل عرب جنوب الجزيرة قد اثروا اشاعة هذا الغموض الى حد اغراق اخبار رحلاتهم البحرية الناجحة وما بنى عليها من نتائج اقتصادية مثيرة في خضم الخيال والاهام والسرد الاسطوري . وكأن هذا الغموض المتعمد كان مقصودا من أجل ستر الحقيقة بكل ابعادها والتخفي والتمويه والتعمية تخوفا على المصالح اكثر من أى شيء آخر .

هذا ومن الجائز ان نفتقد الوسيلة او القدرة على تحديد بداية واضحة لهذه المرحلة العتيقة وكيف ادت الرحلة البحرية العربية دورها الوظيفي الاقتصادي ، وكيف وضعت جذور الحضور العربي المغترب في المهجر . ولكن المؤكد ان هذه الرحلة قد افلحت في أدائها بالفعل لحساب حركة الحياة في الجنوب العربي وفي المهجر على حد سواء . بل لقد انجزت الانجاز الافضل لحساب حركة الاقتصاد والتجارة بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط ، وهناك اكثر من دليل على ان الملاحين التجار (غير العرب) العاملين في البحر الاحمر كانوا يترقبون بكل لهفة وصول هذه الرحلة البحرية من بعد أن تفرغ من أداء مهمتها ، طلبا للسلع والمنتجات التي تعود بها من شبه القارة الهندية .

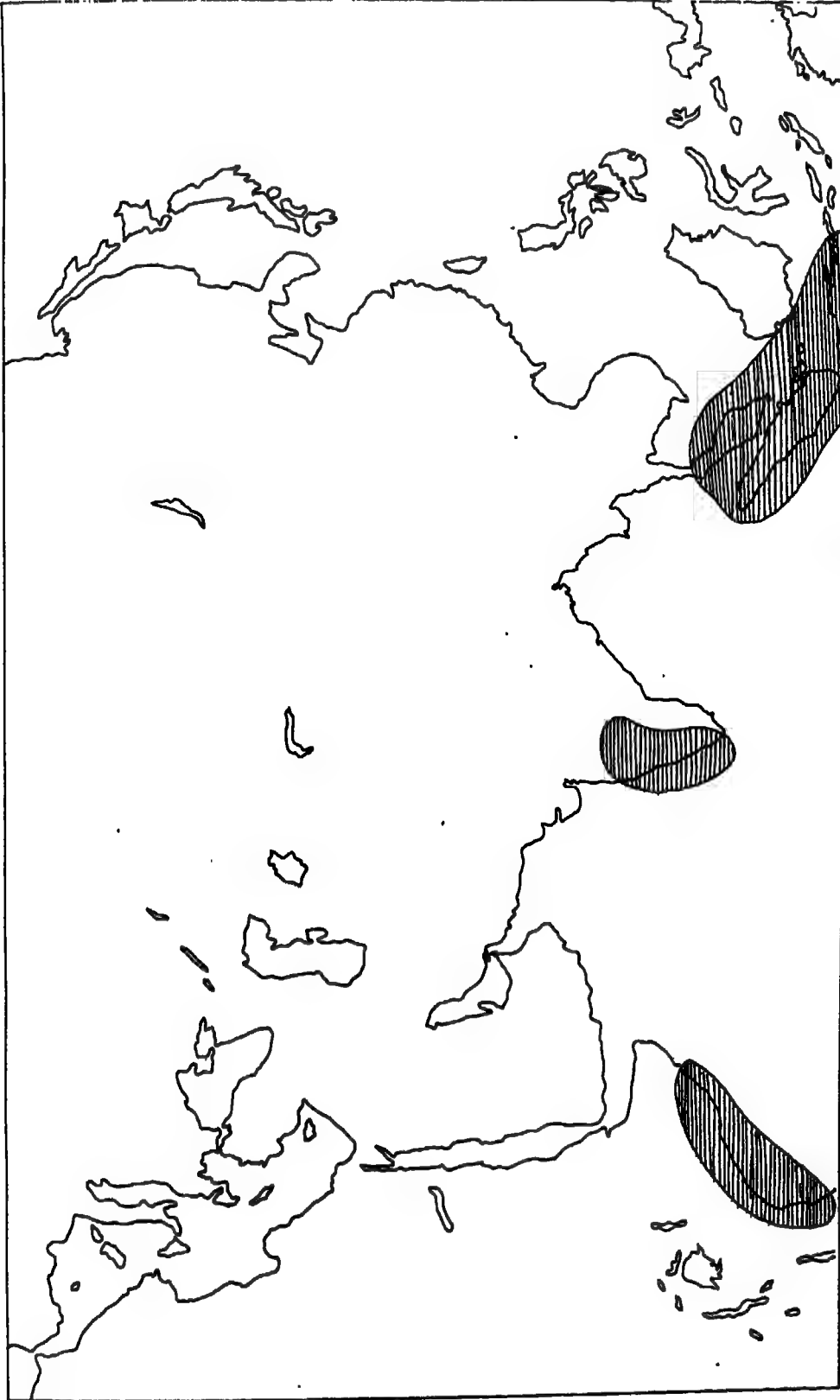
وصحيح أن عرب جنوب الجزيرة الذين واجهوا التحدى الطبيعى المعلن في مواطنهم ضد ارادة الحياة (٨) وقد اتجه فريق منهم الى البحر فرارا من هذا التحدى . وصحيح ايضا ان هذا الفريق المغامر قد اكتسب الخبرة في ركوب البحر وصناعة السفن البحرية للعمل في اعالي البحار في احضان البحر الاحمر . وصحيح مرة اخرى انهم قد شاركوا غيرهم من بحارة الشعوب المتمدنية الاخرى (من مصر والشام واليونان والرومان) في تصعيد او تكثيف حركة الملاحة في حوض البحر الاحمر . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ان تكون العوامل والمتغيرات التى قسمت الفريق المختلط العامل في الملاحة في البحر الاحمر قسمين هما قسم ضم البحارة العرب في جانب وقسم آخر ضم البحارة غير العرب في جانب آخر .

وكان من شأن القسم الاول الذى ضم البحارة من جنوب الجزيرة ان غامر وأبحر بالسفن لارتياح المحيط الهندي . وسجل ذلك لهم الريادة فيه لحساب حركة الاقتصاد العالمى في ذلك الوقت المبكر . اما القسم الآخر فلقد حبسه الجبن والخوف والجهل بالواقع الجغرافى في احضان البحر الاحمر وسجل التاريخ لهم كيف انهم لم يتجاوزوا باب المندب أبدا الى خليج عدن . وصحيح ان التعامل بين هذين القسمين او الفريقين كان مثمرا ومفيدا ، وأسفر عن سيمفونية من أعظم سيمفونيات المصالح المشتركة . ولكن الصحيح ايضا ان فريق البحارة العرب اصحاب الريادة في المحيط الهندي ، قد احتفظ بسر رحلاته البحرية وبكل المعرفة الجغرافية التى يسرت امر هذه الرحلات او التى اسفرت عنها هذه الرحلات ، وضنوا بها وحججوها عن الفريق الآخر .

وهكذا ضمن البحارة من عرب جنوب الجزيرة لرحلاتهم البحرية في المحيط الهندي ولتعاملهم التجارى مع بعض الاقطار في عالم المحيط الهندي جوا مناسبا من غير منافسة من اى نوع ، كما كفل ذلك كله حضورا عربيا رائد ومنفردا مغتربا قرونا كثيرة في المهجر على صعيد الارض الآسيوية والافريقية . وفي الوقت الذى امننت فيه هذه الرحلات علاقات الحضور العربى المغترب مع الجنوب العربى ، امن الحضور العربى المغترب مصالح وحاجات هذه الرحلات البحرية في المحيط الهندي .

وكان هذا الحضور العربى المغترب من خلال الرحلات البحرية على استعداد مستمر لتلبية حاجة او متطلبات الاسواق في اقطار حوض البحر المتوسط ، كما كان هذا الحضور العربى المغترب على استعداد ايضا لتقديم كل خبراته الحضارية التى صقلها ونماها وطورها الاحتكاك الحضارى المستمر مع الأقوام في

(٨) في الوقت الذى كان الصعود من السهل الساحلى الى وسط المضاب لي شرق أفريقيا يحمل لوب مشقة التضرس والوحرة كان مستوى الناس على هذه المضاب من حيث الانتاج والاستهلاك لا يفري بالصعود من أجل التعامل التجارى المثر معهم .



(٣) الحضور العربي المتزايد - المرحلة الثالثة - (منذ ظهور الإسلام)

عالم المحيط الهندي . ولكن الشيء الوحيد الذي تشبث به هذا الحضور العربي المغترب ورفض التفریط فيه ، هو معرفته عن الواقع الجغرافي في عالم المحيط الهندي كما اخفى وتستر على كل المعلومات التي ذلت لهم تشغيل الرحلات البحرية فيه .

وعن استعداد الحضور العربي المغترب الرائد في عالم المحيط الهندي لتلبية حاجة الاسواق نذكر انهم قدموا كل انواع السلع وفي مقدمتها التوابل الى مصر واليونان والشام وروما . وكما شهدت بعض الموانئ في القطاع الجنوبي من البحر الاحمر عمليات التبادل بين التجار من اهل وبنى الاقوام في عالم البحر المتوسط من جانب ، والتجار من عرب جنوب الجزيرة من جانب آخر ، كما شهدت الطريق البرية من مأرب والحواف في اتجاه الشمال وصولا الى موقع مركز التجارة القديم عند غزة حركة مطمئنة لنقل سلع منتجات الشرق التي حملتها الرحلة البحرية العربية المنتظمة بعد جولة طويلة ومضنية في المحيط الهندي .

وعن دور الحضور العربي المغترب الرائد في عالم المحيط الهندي لحساب الاحتكاك الحضاري نذكر انهم احسنوا الانتفاع بحسهم الحضاري في الأخذ والعطاء ، وفي انجاز الاضافات الحضارية لحساب حركة الحياة . ونذكر لهم كيف انهم افلحوا في نقل أشجار القطن على سبيل المثال من موطنها في شبه القارة الهندية ، لكي يتأتى غرسها في مساحات على الصعيد الافريقي ، كما نذكر عنهم ايضا انهم افلحوا في نقل صور كاملة من أهم الانجازات الحضارية الهندية لكي يطلع عليها ويتنفع بها اهل واقوام المدينيات القديمة في عالم البحر المتوسط ، وصور كاملة من أهم الانجازات الحضارية في المدينيات القديمة في عالم البحر المتوسط لكي يطلع عليها ويتنفع بها اهل واقوام شبه القارة الهندية .

هذا ولم يكن من شأن هذه الرحلة التي سجلت فيها الرحلة البحرية زيادة الحضور العربي المغترب ان تنتهي إلا في الوقت الذي فك فيه الاجتهاد الروماني طلاس المعرفة الجغرافية بالمحيط الهندي . ولقد تأتى للاجتهاد اليوناني ان يفعل ذلك في حوالى القرن السابق لميلاد المسيح معتمدا على نفسه . وليس في المصادر التاريخية ما ينهى بالكيفية التي انجحت الاجتهاد الروماني في دخول المحيط الهندي واجتيازه ، ولكن الذي نؤكد عليه هو ان الملاحين العرب لم يفرطوا ابدا في معرفتهم الجغرافية طوعا أو كرها^(٩).

ولئن كان الاجتهاد الروماني قد انهى المرحلة الطويلة التي عملت فيها الرحلة البحرية في جو خال من المنافسة فإنه قد فتح الباب على مصر اعياه لكي تبدأ الرحلة البحرية غير العربية في المحيط الهندي .

(٩) شملت المعاشة الاختلاط والتعامل . ومع ذلك لنبني أن تصور الفاصل الحضاري الكبيرين المشرقين العرب والافريقيين ، وكيف شملت المعاشة متاعب ومشكلات هذا الفاصل .

وهذا معناه بداية المنافسة الحقيقية في وقت تصاعدت فيه الحاجة وزاد الطلب على منتجات وسلع من شبه القارة الهندية . ومعناه ايضا فتح قنوات الاتصال المباشر لحركة التجارة بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط ، ومعناه في نهاية الامر ظهور اجيال جديدة غير عربية تعمل في حقل الوساطة التجارية وتجنّي ثمرة الانجاز الرومانى بصفة عامة .

وهكذا بدأت الرحلة الثانية التى شهدت الرحلة البحرية العربية والرحلة البحرية غير العربية جنبا الى جنب وهما تعملان لحساب حركة التجارة مع عالم المحيط الهندي . ومن الجائز أن تسجل هذه المرحلة بداية المنافسة بين الرحلة البحرية العربية والرحلة البحرية غير العربية ، ولكن وزن الحضور العربى المغترب في مراكز التجارة كان بالضرورة في عون الرحلة العربية في نصرها وشد أزرها في هذه المنافسة . ومن ثم كانت كفتها الأرجح في ميدان الوساطة التجارية ونؤكد قصة هذه المنافسة على ان حجم الطلب على حصاد هذه الرحلات كان كبيرا ومتزايد الى الحد الذى حال دون وصول هذه المنافسة الى إنهاء أو توقف أى من هاتين الرحلتين .

وصحيح ان الاقتحام الرومانى وتحمل المخاطرة في المحيط الهندي قد كسر طوق احتكار الرحلة البحرية العربية كحركة التجارة والوساطة ، وصحيح ايضا ان الرحلة البحرية غير العربية قد اطلقت العنان للمنافسة في المحيط الهندي ، وجابت هذه المنافسة زيادة الطلب على المنتجات والسلع من عالم المحيط الهندي . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ان ذلك التحول الجديد قد انتهى تفرد الحضور العربى المغترب بالمعرفة الجغرافية عن المحيط الهندي .

وانهاء تفرد الحضور العربى واشترك حضور غير عربى معه في منافسة معناه رفع الحظر الذى كان مفروضا على غير العناصر العربية . . ورفع الحظر بهذه الصورة لاي معنى انسحاب الحضور العربى من الميدان . بل ولا يعنى فتور همة الاجتهاد العربى في خدمة الشكل البسيط من التجارة الدولية او انخفاض معدلات أدائه الوظيفى . وتؤكد كل الحقائق التى اسفرت عنها هذه المنافسة في المحيط الهندي عن انفراج في الغموض الذى ستر أو حجب الحقائق الجغرافية . كما تصور هذه الحقائق كيف تحول الحضور العربى المغترب من حضور رائد متفرد امسك بزمام الاحتكار تجاريا وحضاريا الى حضور متسيد أمسك بزمام التفوق .

وهكذا انهكت الرحلة العربية في أداء دورها في المحيط الهندي ومن ورائها الحضور العربى المغترب الراسخ في مستوطناته . وربما كانت المنافسة بينها وبين الرحلة البحرية غير العربية مشغولة عن توسيع

دائرة البحار في المحيط الهندي ، وعن تكثيف الاجتهاد الاقتصادي مع العملاء في العالم الآسيوي . ولقد تجاوزت الرحلة العربية شبه القارة الهندية بكل تأكيد ومدت مسيرتها المنتظمة الى الملايو ومجموعة الجزر في جنوب شرق آسيا .

وينبغي أن ندرك كيف أن الحضور العربي المغترب في عالم المحيط الهندي لم يتضرر بالرحلة البحرية غير العربية ولا بالحضور غير العربي . بل وينبغي ان ندرك ايضا كيف احتفظ هذا الحضور العربي المغترب بزمام التفوق وهو يشد أزر الرحلة البحرية العربية ويحني ثمرات اجتهادها . والأهم من ذلك كله هو تصاعد تشاط هذا الحضور العربي المغترب تصاعدا حفز الرحلة البحرية العربية حتى وسعت دائرة نشاطها وانتشارها في انحاء المحيط الهندي . وادى ذلك الى رحلات بحرية عربية ناجحة في شرق آسيا . وانفتح الباب على مصراعيه لكي تتقابل هذه الرحلات مع الرحلات البحرية الصينية (١٠) .

وهذا معناه انفتاح الحضور العربي المغترب على مدى اكثر اتساعا في هذه المرحلة بداية من القرن الاول الميلادي . ومعناه ايضا تصعيد وتكثيف حصاد الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي اقتصاديا وحضاريا . بل وينبغي ان نتصور كيف كان ذلك كله من وراء النتائج التالية :

١ - توسيع دائر انتشار الحضور العربي المغترب واستيطانه في انحاء وأقطار من عالم المحيط الهندي .

ب - تأكيد ودعم مكانة العمل العربي في حقل الوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط .

ج - تهيئة الاتصال والانفتاح بين عالم المحيط الهندي وعالم شرق آسيا والصين على وجه الخصوص ، وفي ضوء هذه النتائج يجب ان نستشعر كيف ازداد تشبث الحضور العربي المغترب بالارض في كثير من المواقع المنتخبة في جنوب شرق آسيا . ولجأ هذا في المرحلة السابقة الى الاختلاط ومصاهرة السكان المحليين ، لكي يدعم هذا التشبث ويشد أزره ويقوى سباعده . وهذا معناه ترسيخ سيادة الحضور العربي المغترب على الجبهة الآسيوية وعلى الجبهة الأفريقية على حد سواء . بل لقد مضى هذا الترسيخ في طريقه الصحيح لكي تتخذ بعض مراكز التجارة شكل الدولة التي اصبحت للحضور العربي المغترب فيها سلطانا سياسيا قويا وحاكما .

(١٠) حافظ الحضور العربي على وجوده دائما . وأدت العلاقة التي نشأت بين الأفرقة الى شكل من أشكال الاستقرار والاستمرار على الجبهة الأفريقية .

وهذا الوضع الذي أسفر عن سلطان سياسى للحضور العربى المغترب فى المهجر أسفر عن اضافة ثمثلت فى صياغة عمق استراتيجى سياسى على صعيد واسع فى احضان عالم المحيط الهندى . ومن الجائز ان نستشعر معنى العمق الاستراتيجى السياسى على هذا الصعيد ، وكيف أمن الحضور العربى المغترب وحافظ على تسيده الاقتصادى والحضارى . ومن الجائز ان نستشعر ايضا العلاقة بين هذا العمق الاستراتيجى السياسى على هذا الصعيد والسلطان السياسى للدويلات فى جنوب جزيرة العرب . ولكن المؤكد أن هذا العمق الاستراتيجى السياسى فى المهجر قد أمن وأزر الوجود السياسى لدويلات الجنوب العربى لانه كان عمقا قويا ومستقرا ، ولانشك فى ان السلطة فى هذا العمق الاستراتيجى السياسى لم تتضرر ابدا فى هذه المرحلة التى شهدت تقلبات الاحوال وكل التغيرات التى تعرضت لها السلطة فى الجنوب العربى (١١)

وبهذا المنطق ينبغى ان نتصور كيف كانت الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى من وراء حضور عربى يبنى مغتربا اكثر استقرارا واكثر امنا واكثر فاعلية حضاريا وسياسيا واقتصاديا من الوجود العربى اليمنى الاصيل فى الجنوب العربى . بل ولم يفلح الاجتهاد الرومانى ولا الرحلة البحرية غير العربية التى نافست الرحلة العربية فى زعزعة الحضور العربى المتسيد أو زحزحته عن مكانته فى خدمة حركة التجارة الدولية المحدودة آنذاك . وهناك اكثر من دليل على ان هذا الحضور العربى المغترب قد افلح بكل تأكيد فى احتكار الحجم الاكبر من تجارة الذهب والمر والبخور وخشب الزين وغيرها من منتجات عالم المحيط الهندى . وحافظ هذا الاحتكار على حيوة العمل فى الموانئ العربية على ساحل الجنوب العربى وابقاها فى المكانة المرموقة وهى تلعب دورها الوسيط فى عمليات التبادل التجارى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط (١٢) .

هذا ، ويبدو ان الصراعات داخل الامبراطورية الرومانية على السلطة ، قد اضعفت فاعلية المنافسة التى تعرضت لها الرحلة العربية البحرية فى المحيط الهندى الى حد كبير ، كما كان ابتعاد الحضور العربى المغترب النشيط والمتسيد فى مراكزه التجارية ودويلاته فى حوض المحيط الهندى عن الصراعات التى شهدتها الارض العربية فى احضان الوطن الام فى الجنوب العربى ، من وراء التفرع الكامل والمطمئن للأداء الوظيفى الذى كرس من اجله الرحلة البحرية لحساب التجارة الدولية .

(١١) وضع السلاسل الجبلية الوعرة التى تطرق شبه القارة الهندية ، هو الذى خفض حركته للاتصال مع العالم الاسيوى فيما رواها . بل لقد دعا حركة الحياة النشطة النابضة بالفصح الحضارى لاستقبال البحر ونقاؤه وسيلة لأهم قنوات الاتصال فى العالم بالحاريجي .

(١٢) التحدي الطبيعى المعلن ضد ارادة حركة الحياة فى جنوب الجزيرة هو التحدي التضاريسى . وكما حملت الكتل الجبلية المنتشرة على أوسع مدى الانسان مشقة تجهيز المدرجات وصيانتها انتصارا لأرادة الحياة وزراعة المحاصيل . لم يأتى التحدي المناخى لكى تدهوذب المطر من سنة الى سنة أخرى الى تعويض حركة الحياة ومصالحها الى تقلبات الزيادة والنقصان فى كم لانتاج الزراعى السنوى .

ومهما يكن من أمر فإن هذه المرحلة من مراحل العمل البحري الملاحي في المحيط الهندي لا تسجل انفتاحا صريحا يفصح او يكشف عما يخدم المعرفة في المحيط الهندي والاقطار التي تعاملت معها الرحلة العربية او الرحلة غير العربية . وصحيح ان دائرة الرؤية الجغرافية قد اتسعت ، وصحيح ان عناصر غير عربية قد اشتركت في هذه الرؤية الجغرافية والاحاطة بها . ولكن الصحيح ايضا ان اطراف المعرفة الجغرافية التي تكشفت قد اغرقت بقصد أحيانا ومن غير قصد أحيانا أخرى في خضم السياق الاسطوري للخرافة حتى شوهت وجه الحقائق الجغرافية الى أبعد الحدود .

وفي اعتقادي ان اخفاء الحقائق التي تخدم وتوسع دائرة المعرفة الجغرافية قلنا - كان متعمدا في بعض الاحيان ، ذلك ان الاخفاء والتشويه سواء من جانب الاجتهاد العربي او من جانب الاجتهاد غير العربي كان مطلوبا بكل الاحاح لحماية للمصالح الذاتية بين المنافسة في المحيط في الهندي . ومع ذلك فلا ينبغي ان نقلل من حجم المعرفة التي تسربت لكي تكون اضافة الى الرصيد الجغرافي المعروف في ذلك الوقت ، ولان المعرفة الجغرافية في هذه المرحلة كانت أمانة في عنق الجغرافيين المسيحيين الذين طاعوا هوى الكنيسة ، فانهم قد اغرقوها كما اغرقوا معظم التراث الجغرافي في ضلال كبير وهذا معناه ان المعرفة الجغرافية لم تتضرر فقط بالاضفاء والتستر والتشويه من جانب الاجتهاد العربي بل تضررت ايضا بموقف الكنيسة والجغرافيين المسيحيين من المعرفة الجغرافية . (١٣)

ومع ظهور الاسلام وانتصاره على صعيد الارض الآسيوية ، كانت كل التغيرات التي أسفرت عن نقطة تحول خطيرة في مسيرة حركة الحياة بصفة عامة . وربما اسفر التحول عن انتهاء مرحلة وبداية مرحلة اخرى من المراحل التي ادت فيه الرحلة البحرية العربية دورها الوظيفي في المحيط الهندي ، ولكن يبقى السؤال الذي نسأل فيه عن دور هذه الرحلة في خدمة المعرفة الجغرافية .

وصحيح ان التحول الذي أدى اليه الاسلام قد تسبب في التغيير الى ما هو افضل اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا وسياسيا على الصعيد العالمي ، ولكن الصحيح ايضا ان انتصار الاسلام الحاسم على كل الجبهات قد كبح جماح الاجتهاد الروماني واحبط سعيه وانتشاره في المحيط الهندي . وكان ذلك اشبه مايكون بالا نسحاب من ميدان المنافسة فيه ومن ثم انفردت الرحلة البحرية العربية مرة اخرى

(١٣) من خلال وجود دملة اكسوم على الصعيد الافريقي - وهي دولة قامت على أكتاف حضارة سبأ - نعرف الوقت الذي نقلت له أشجار القطن وكيف أنها غرست في حقول من أرض دولة مري في حوض النيل الأوسط . ويبدو أن انتاج هذه الحقول كان مهما الى الحد الذي دعا الى تسجيل عملية تخريجها عندما دارت - الحرب الفروس بين اكسوم ومري على عهد الملك هيرزانا (راجع للكاتب : المراي السودانية دراسة في الجغرافيا التاريخية للالف كتاب القاهرة ١٩٦٢)

بالعمل في هذا الميدان . وكان عليها ان تكون على مستوى المسؤولية في ظل او ضاع جديدة تشد أزرها وهي تؤيد دورها المرموق والمتسديد في خدمة حركة التجارة الدولية بين الشرق والغرب .

وهكذا ، ينبغي ان نتصور كيف أحدث الاسلام أو ضاعا جديدة تماما على الصعيد المحلي وعلى الصعيد الاقليمي وعلى الصعيد العالمي في وقت واحد ، وكيف دعت هذه الاوضاع الجديدة الى بداية مرحلة جديدة من المراحل التي عملت فيها الرحلة البحرية في المحيط الهندي لحساب التجارة الدولية . اما الاوضاع الجديدة فهي وليدة انتشار الاسلام انتشارا واسعا النطاق وممارسة دوره كدين ودولة بعد الانتصار الساحق على دولتي الفرس والروم . من ثم كانت دولة الاسلام المظفرة على الصعيد الآسيوي والافريقي في موقع ممتاز اكسبها سلطة ومكانة الدولة الاعظم في مجتمع الدول آنذاك سياسيا واقتصاديا وحضاريا .

هذا ، ولقد ترتب على وجود دولة الاسلام الكبرى نتائج كثيرة اترت بشكل مباشر او غير مباشر على حركة الحياة ، ليس في اطارها السياسي فحسب ، بل في كل المعروف من الارض فيها وراء حدودها وسلطانها الحاكم . ونذكر من هذه النتائج اشاعة الامن في ربوعها وسيادة النظام الذي أمن حركة الحياة . ونذكر منها ايضا تهيئة الاجواء العامة لاحتكاك حضارى هادى وبناء بين الاقوام التي انخرطت في بنائها البشرى وحددت النمو الحضارى والاقتصادى والاجتماعى في الامصار والاقطار التي تجمعت أوصالها في كيانها المادى والروحي .

وصحيح ان دولة الاسلام الكبرى لم تهتم ببسط سلطانها السياسى على المحيط الهندي ، ولم تحتفظ فيه باسطول بحرى حرى يفرض ذلك السلطان الحاكم . ولكن الصحيح ان هبة هذه الدولة قد اشاعت فيه جوا من الأمن والامان وأمنت الملاحة العاملة في انحائه . وما من شك في ان الرحلة البحرية قد انتفعت بجو الامان فيه الى حد كبير . بل ولقد استثمر هذا الامان ايضا الحضور العربى المغترب على الجبهتين الافريقية والآسيوية . بمعنى ان هذه المرحلة التي عاشت فيه حركة الحياة على المعروف من الارض تحت مظلة الأمن والامان الاسلامى قد شهدت وسجلت نشاطا بحريا متصاعدا في المحيط الهندي لحساب التجارة الدولية . كما عاش الحضور العربى المغترب الازدهار والعز والمكانة المرموقة في مستوطناتهم الافريقية والآسيوية .

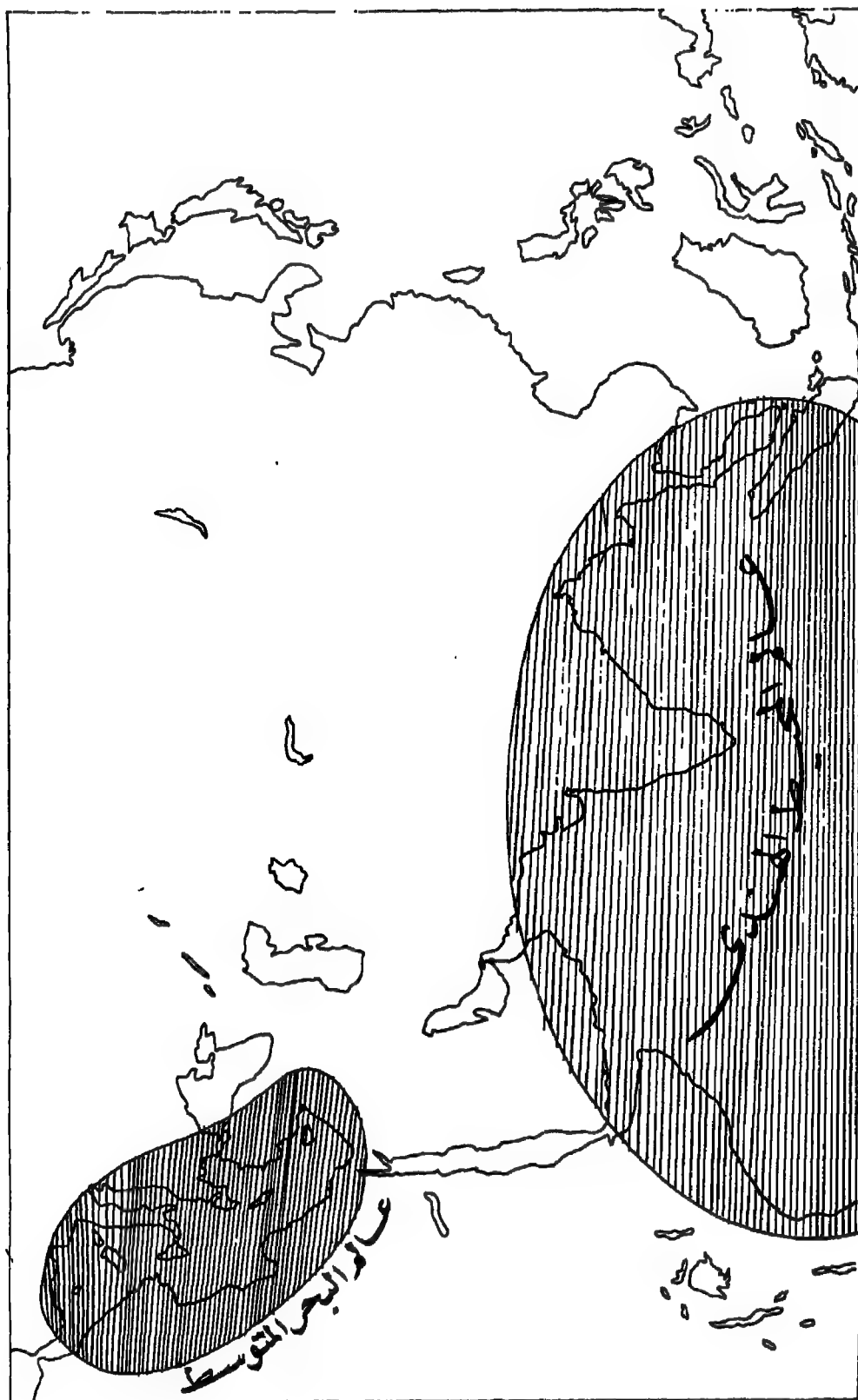
هذا ويبدو ان وزن دولة الاسلام التي هيمنت اعتبارا من القرن الثامن الميلادى على البحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج العربى . ومرور التجارة فيها بين الشرق والغرب قد حقق لها الانتفاع بمزايا

الموقع الجغرافي الحاكم وأحبط في نفس الوقت اى منافسة واجهت الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي . كما ان عدم وضوح الرؤية الجغرافية بشأن وضع وامتداد الارض الافريقية وامكان الدوران من حولها والتحرك من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهندي قد اغلق باب المنافسة بالفعل في مياه المحيط الهندي . ومن ثم اطلق هذا الوضع الجديد العنان للرحلة البحرية العربية لكي تتوصل وتجول وتبين منفردة على المحيط الهندي ، ولكي تعيد للحضور العربي المغترب المتفرد في الرحلة السابقة لميلاد المسيح سيرته الاولى .

- ومع ذلك ، فينبغي ان نميز بين تفرد الحضور العربي والرحلة العربية البحرية ، بناء على جهالة وعدم معرفة غيرهم بالمحيط الهندي وعلى التخوف من الابحار والمخاطرة فيه ، وتفرد الحضور - العربي والرحلة العربية البحرية ، بناء على عجز حقيقي ابطل مفعول المنافسة الاوروبية وشل فاعليتها . وهذا معناه ان تفرد الحضور العربي قد بنى على استبعاد الاجتهاد البحري غير العربي عن الابحار والملاحة في المحيط الهندي . ومعناه ايضا ان مكانة الوجود الاسلامي وهيئته المرموقة قد اوقفت منافسة الرحلة البحرية غير العربية للرحلة البحرية العربية ، من غير ان يصدر حظرا وتحذيرا ، أو من غير أن تخوض حربا معلنة او غير معلنة ضد الاجتهاد الاوروبي .

- وهكذا نصر الاسلام الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي وشد أزرها . كما أسبغت عليها هبة الاسلام ومكانته في مجتمع الدول على صعيد العالم المعروف انذاك أمنا واطمئنانا مطلقا على الطريق في المحيط الهندي . ومن ثم كان على الرحلة البحرية العربية ان تواصل اداء مهمتها لحساب هيمنة اقتصادية على حركة التجارة في المحيط الهندي وان تصعد نشاطها في خدمة تجارة دولية تزداد معدلاتها وتنمو نموا مستمرا بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط وأوروبا .

- وفي هذه المرحلة من القرن الثامن الى القرن الخامس عشر الميلادي ، شهد المحيط الهندي وشهدت مستوطنات الحضور العربي على الجبهتين الافريقية والاوروبية اقصى درجات الاجتهاد العربي في الرحلة البحرية . بل ولقد اوشك الحضور العربي بعد ان هيمن او سيطر على المحيط الهندي ان يكون حضورا كاملا ومتسيدا في وقت واحد . وحمل هذا الحضور العربي أمانة العمل البناء في خدمة التجارة والوساطة التجارية . وتولى في الوقت نفسه مهمة الدعوة الى الله ونشر الاسلام على صعيد الارض التي تعامل معها تجاريا وعلى صعيد المهجر في آسيا وافريقية . ومن ثم رسخ هذا الحضور العربي المغترب وجوده في المهجر ترسيخا سياسيا وحضاريا واجتماعيا .



(3)

- وكان فيض هذه الرحلة البحرية العربية الغزيرة ونجاحها الباهر في دنيا التجارة الدولية اضافة هامة ورئيسية لحساب الاسلام والمسلمين . بل لقد عزز هذا الفيض الثمر مكانة دولة الاسلام اقتصاديا ، حيث امسكت بزمام حركة التجارة الدولية وجنت ارباح كل تجارة العبور او المرور بين الشرق والغرب . بمعنى انه قد تحقق اعظم مثل للانفتاح المتبادل بين هبة دولة الاسلام التي اشاعت الامن والامان من جانب ونشاط حضور عربي اسلامي مجتهد انكب على اداء دوره في خدمة التجارة الدولية من جانب آخر .

- ولقد سجل الاجتهاد العربي المتطور في هذه المرحلة ، انجازات هامة ومثمرة لحساب عملية الملاحة البحرية ، وتأمين السفر البحري . وكانت اهم هذه الانجازات التي طورت تجهيز وبناء تشغيل السفينة مبنية على ابداع في متخصص اسفرت عنه خبرة وتجارب المدى الطويل في احضان المحيط الهندي . وكان بعضها الآخر وليد الانفتاح والاحتكاك الحضاري مع العاملين من سكان شرق وجنوب شرق آسيا في الملاحة البحرية . وصحيح ان دولة الاسلام قد جنت ثمرات هذه الانجازات . ولكن الصحيح ان بعض ثمرات هذه الانجازات كانت لحساب حركة الحياة في العالم بصفة عامة .

- وهكذا لا ينبغي ان ننكر دور الحضور العربي في المحيط الهندي وهو يجتهد او هو بنجز ليس لحسابه الشخصي فقط بل لحساب الاسلام ودولة الاسلام والعالم المعروف انذاك ايضا ، وما من شك في ان الاغتراب وحياة الحضور العربي اليقظ في المهجر قد تشبثت بالصلة بينها وبين الوطن الام في الجنوب العربي . كما انها حافظت على صلاتها الطيبة بالوطن الكبير الذي ضم عالم الاسلام كله على الصعيدين الافريقي والاسيوي .

- وحضور عربي مغترب نشيط اتصل سعيه وكلل بالنجاح على المدى الطويل ، ورحلة بحرية مثمرة في انحاء المحيط الهندي لا يمكن ان نقلل من شأن رؤيتها الجغرافية الواسعة التي احست وعاشت في المكان وعاشت وتعاملت مع الانسان في ارجائه . ولا ينبغي - على كل حال - ان نتصور ان هذه الرؤية الجغرافية ، لم تحقق اضافة مفيدة الى المعرفة الجغرافية لمجرد ان الحضور العربي المغترب قد كتم هذه المعرفة وقر في مجالات الاعراب عنها ، تحسبا لخطر المنافسة على مصالحه الاقتصادية الخاصة والعامة . بل لا ينبغي ان نقلل او نهون من شأن بعض جوانب المعرفة الجغرافية ، التي كشفت الرواية او القصة عنها . واغرقتها في معظم الاحيان بقصد او من غير قصد في سياق السرد الاسطوري والخيال . وما من شك في ان تسرب بعض جوانب المعرفة الجغرافية ، قد وضع بدايات مبكرة مهدت ورشدت حركة الكشف الجغرافية الكبرى اعتبارا من القرن الخامس عشر الميلادي .

- وهناك مثل كاشف لمعنى ترشيد حركة الكشف الجغرافية نضربه لأولي الألباب ، لعلهم يعرفون ويقتنعون ، والمثل الذي أعنيه بالفعل ، هو الكاشف عن معرفة الحضور العربي المغترب في جنوب غرب آسيا ، معرفة مؤكدة بالارض الجنوبية التي عرفت فيما بعد باستراليا . وكانت هذه المعرفة التي تسربت من بين شفاههم في سياق الرواية او القصة كفيلة باعلام صريح عن أرض مجهولة في موقعها الجغرافي القصصي في نصف الكرة الجنوبي . ولقد اصبح هذا الاعلام وحده ، الصيحة التي نادى بها بعض المغامرين وحفزتهم للكشف عن هذه الارض ، ولادخالها في اطار المعروف من الارض على الصعيد العالمي .

- وصحيح ان هذا الاعلام الصريح كان من قبيل الشائعات التي روج لها وحدث عنها الحضور العربي المغترب ، وصحيح ان هذه الشائعات لم تضع الانسان الباحث عن المعرفة الجغرافية في مواجهة مباشرة وواضحة مع الحقيقة الجغرافية ، ولكن الصحيح ايضا ان هذا الاعلام وتلك الشائعات قد حددت بداية الطريق بالفعل التي شهدت مسيرة الاجتهاد الاوروبي الباحث عن الارض الجنوبية المجهولة Tarra Incognite في جنوب آسيا .

- ونذكر في هذا المجال كيف استخلص ماركو بولو في سنة ١٢٩٥ معلومات من افواه التجار العرب تحكي وتقص عن وجود هذه الارض الجنوبية المجهولة . ولقد اورد ماركو بولو وهو في طريق عودته من رحلته في الصين واثناء مروره ببعض الجزر والمستوطنات التي احتوت الحضور العربي المغترب في جنوب شرق آسيا ذكر جزيرة جاوة الكبرى . واكد على وجودها وكيف انها تقع جنوب جزيرة جاوه ، وانها اكبر جزر العالم واعظمها مساحة (١٤)

- ومن خلال الرواية التي استمع اليها ماركو بولو ، اشارة الى علاقة التجار العرب في مستوطناتهم في جنوب شرق آسيا بسواحل جزيرة جاوة الكبرى الشمالية ، وذكر انها قد احتوت مخازن التوابل والمنتجات المتنوعة التي تخصصوا في الاتجار فيها ونقلها على سفن الرحلة البحرية العربية . ومن ثم نعتبر ما اورده ماركو بولو أول اعلام صريح عن هذه الارض الجنوبية لافى لنظر الباحثين عن اضافة لحساب المعرفة الجغرافية .

- وما من شك في ان بهائم Behaim الذي صمم وأعد كرة نورمبرج في سنة ١٤٩٢ قد انتفع بهذا

الاعلام الصريح . ولقد تضمنت هذه الكرة التي صورت اوجسدت توزيع اليابس والماء امتدادا أرضيا عبر عن الارض المجهولة في جنوب المحيط الهندي . وتكرر هذا التصوير او التجسيد مرة اخرى على الكرة التي صنعها هنت لينوكس في عام ١٥١١ ، على الخريطة التي رسمت تحت رعاية هنري الثاني ملك فرنسا في عام ١٥٣٦ ومن ثم نستطيع ان نتصور كيف اطلق العنان للرحلة الاوروبية بعد ذلك للكشف الجغرافي عن حقيقة هذه الارض المجهولة .

- هذا ، وينبغي ان ندرك كيف وصلت الرحلة البحرية العربية بشكل منتظم الى هذه الارض المجهولة ، لكي تنتفع وتستخدم المخازن التي امتلكوها . والوصول الى المخازن على ساحل الارض الجنوبية المجهولة (جاوة الكبرى) معناه ان علاقة ما قد تأتت بين الحضور العربي المغترب في جنوب آسيا وهذه الارض . وفي اعتقادي ان هذا الحضور العربي المغترب انقسم قسمين من حيث العلاقة بهذه الارض . القسم الاول ضم اولئك الذين عاشوا في شكل من اشكال الاستقرار في حراسة المخازن والمحافظة على محتوياتها . اما القسم الآخر فلقد ضم أولئك الذين سيروا الرحلة المنتظمة من وإلى مواقع المخازن على ساحل تلك الارض الجنوبية المجهولة .

- ومهما يكن من أمر فان تكتم اخبار هذه العلاقة بين الرحلة البحرية العربية وساحل استراليا الشمالي لبعض الوقت أهم دليل لا يضل ولا يضلل على اهتمام العربي المغترب وصاحب المصلحة في تجارة المحيط الهندي بتوسيع دائرة معرفتهم الجغرافية والانطواء عليها وعدم التفريط فيها ، ويبدو ان عدم التفريط في المعرفة الجغرافية الذي نعينه كان امرا مطلقا ، والا فكيف نفسر خلو التراث الذي اسفر عنه الاجتهاد الجغرافي الاسلامي من حشد أو عرض صور من الرؤية الجغرافية في انحاء المحيط الهندي .



- وبهذا المنطق ، نتبين كيف افلخت الرحلة البحرية العربية في ارتياد المحيط الهندي ، وكيف واصلت هذه المهمة من غير انقطاع . كما تبين ايضا كيف افلح الاجتهاد العربي الذي نظم هذه الرحلة وانتفع بها ، في تكتم المعرفة الجغرافية بالمحيط الهندي في كل المراحل المتوالية التي شهدت انتظام الملاحة العربية فيه . ومع ذلك فلقد تسربت بعض هذه المعرفة الجغرافية من خلال الروايات والقصص التي سجلت المغامرة البحرية العربية .

- وفي المرة الثانية كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح نقطة انطلاق جديدة لكي يتسلل الاجتهاد الاوروي الى المحيط الهندي . وأحيا هذا التسلل الانتفاع ببعض المعرفة الجغرافية التي كانت قد تجمعت كحصاء للاجتهاد الروماني البحري . وما من شك في ان هذا التسلل الاوروي قد مهد للاقتحام الكاسح في المحيط الهندي اعتبارا من القرن السادس عشر ، وانه كان على غير ارادة الحضور العربي المغترب ولغير مصلحته التي تضررت كثيرا .

- هذا ، ولم تتغير الاوضاع التي دعت الى التستر على الرؤية الجغرافية في المحيط الهندي وعالم المحيط الهندي الا بعد الكشف الجغرافي عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولقد تبنى الاقتحام الاوروي ارادة الكشف الجغرافي عن المحيط الهندي . وصحيح ان معرفة الحضور العربي الجغرافية عن عالم المحيط الهندي قد رشدت حركة الكشوف الجغرافية التي قادها الاجتهاد الجغرافي الاوروي . ولكن الصحيح أيضا أن الاضافات التي اسفرت عنها هذه الحركة كانت ثمرة مفيدة للمعرفة الجغرافية ونقطة بداية للحركة الامبريالية الأوروبية .

« إن أدب السخرية كالمرآة يكشف فيها الناظرون عادة وجوه الآخرين لا وجوههم . ولعل في هذا تفسير للقبول الذي يلقاه هذا النوع من الأدب في العالم ، وفيه تفسير أيضا لقلة من يجد فيه ماثرا لغضبهم » .

هكذا قال جوناثان سويت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) Jonathan Swift أعظم كاتب ساخر أنجبته إنجلترا في تاريخ أدبها الطويل . وقد يكمن فيما قاله « سويت » عن تأثير أدب السخرية المميز على القارئ السر في استمتاع القراء على مر العصور بكتابات السخرية - فما زال « سويت » الى اليوم ، وبعد مرور أكثر من قرنين من الزمان على وفاته موضع اهتمام الباحثين والدارسين والقراء على السواء ، وما زال صدى كتاباته يسمع في بقاع الأرض الواسعة . فأينما وجدت الحروب والظلم والاستغلال والفساد والنفاق على المستوى السياسي العام ، والغرور والوضاعة والجحود والجشع والحقاقة على المستوى الفردي ، فستظل كتاباته محفظة بحيويتها وعصريتها ، وطالما كان الانسان يعيش تحت وطأة القوى المدمرة التي تنذر بفناء الجنس البشرى فسيجد القارئ في أدب « سويت » الافكار والمشاعر التي تجيش في صدره ، والتي تتلخص في الاشمئزاز والغضب من السلوك الاحمق اللا أخلاقي . فلا غرابة اذن في ان كتاب رحلات جليفر (١٧٢٦) Gullivers Travels ، وهو

رحلات جليفر

نور شريف

أشهر مؤلفات « سوفيت » قد أصبح كتابا عالميا ترجم الى جميع لغات العالم تقريبا ، كما ترجم الى ثمانية وعشرين لغة من لغات الاتحاد السوفيتى .

كان « سوفيت » عالميا في تفكيره رغم اتجاهاته المحدودة . فكانت ميوله الدينية والسياسية محافظة ، ومع ذلك فقد تسببت كتاباته في كثير من الاحراج للكنيسة الانجليزية وللحزب « المحافظ » ، وكانت شعبيته عظيمة في ايرلندا ، حيث ولد ومات ، ودافع عن قضاياها ضد انجلترا ، حتى أصبح « الوطنى الايرلندى » الوحيد في القرن الثامن عشر الذي استطاع أن يوحد بين صفوف الايرلنديين ، ولكنه أراد أن يعتبر سيدا انجليزيا ورفيقا للسياسيين والحكام الانجليز ، والواقع اننا لا نستطيع أن نقيّد « سوفيت » الاديب بحزبية ضيقة أو بوطنية محدودة ، إنه من الخالدين الذين لا وطن لهم ولا عصر .

لم يكن أديبا انشغل برؤياه وبمشاكله الفنية بحيث عاش بعيدا عن المجتمع وصراعاته . بل كان من الأدباء والفنانين الذين ساهموا مساهمة فعلية في الحياة العامة ، فجاء ابداعه في الكتابة ثمرة لتجاربه العملية . وقد بدأ في شبابه ككاتب ذى قدرة فائقة على السخرية من تناول الانسان للدين والعلم والمعرفة وتشويهه لها . ثم استعان بشعره ونثره الساخر في عمله الرسمى كمستول عن الاعلام في وزارة « المحافظين » ولجأ الى قلمه كأداة لانجاز سياسة الحزب الحاكم الذي انتمى اليه . وتأثرت كتاباته في هذه المرحلة من حياته بالاتجاهات السياسية والحزبية .

ولحسن الحظ وجد « سوفيت » نفسه فيما بعد بعيدا عن العمل السياسي ومعزولا عنه ، فسنحت له فرصة الملاحظة والتأمل واستعادة الذكريات وتسجيل التجربة على نحو أكثر موضوعية وشمولية ، وهنا انطلق كما يجب ان ينطلق الأديب ، وأطلق العنان لخياله الابداعى ، وأصبح سيد مادته وليس عبدا لاهتمامات خارج العمل الادبي نفسه . فكتب للأجيال القادمة ، وتناول قيما أخلاقية وانسانية بقوة وثقة مكنته من تحطيم حدود الزمان والمكان . فجاء أدبه أثرا خالدا للروح الانسانية والفكر الانسانى .

ورحلات جليفر من نتاج هذه الظروف المواتية .



ولد « سوفيت » عام ١٦٦٧ من أبوين انجليزين في ايرلندا ، وأمضى هناك الجزء الأكبر من حياته . وتلقى دراسته في كلية « ترينيتى » Trinity في « دبلن » ولكنه اكتسب معرفته الواسعة من مكتبة « مور بارك » Moor Park في « صارى » Surrey حيث عاش بضع سنوات كسكرتير لـ « سير وليم تمبل » Sir William Temple وهو سياسي متقاعد ذو اهتمامات ثقافية . وفي عام

١٦٩٥ أصبح من رجال الدين ، ثم انتقل عند وفاة « سيروليم » عام ١٦٩٩ الى أبروشيته في ايرلندا التي اتخذها مقرا دائما له . وفي تسعينات القرن السابع عشر كان « سوفيت » قد كتب مؤلفين هامين نشرا عام ١٧٠٤ هما :

معركة الكتب Battle of the Books وهو اسهام مرح في الجدل القائم وقتئذ حول الأدبين المعاصر الحديث والكلاسيكي القديم ، وهو موضوع شغل بال الكثيرين في انجلترا وفرنسا في القرن السابع عشر ، وكتاب قصة برمبل * **A Tale of a Tub** وهو مؤلف وصفه « سوفيت » بانه تعريض بسوء استخدام الانسان للمعرفة والدين الى درجة قضت على قيمتهما . وقد أكسبه هذا المؤلفان اعجاب رؤسائه في الكنيسة الايرلندية أيام كانت الموهبة الأدبية والفكرية جوازا للوصول الى أعلى المراكز في الدولة . فكلفته الكنيسة بمهام خاصة في انجلترا عند حكومة « الأحرار » **Whigs** أولا ، ثم عند حكومة المحافظين « **Tories** التي انضم اليها فيما بعد . وقد أصبح ذا نفوذ كبير في لندن اثناء حكم « المحافظين » من عام ١٧١٠ حتى وفاة الملكة « آن » عام ١٧١٤ . ولكنه عاد الى « دبلن » كأسقف كاتدرائية « سانت باتريك » عند سقوط حكومة « المحافظين » وبذلك انتهت المرحلة الأولى في حياته السياسية .

كانت السنوات الاربع من عام ١٧١٠ الى عام ١٧١٤ أهم فترة في تجربة « سوفيت » السياسية . وليس أدل على عمق الاثر الذي تركته في حياته وفكره من رآعته الأدبية - رحلات جليفر . وقد كتب باستفاضة ومن وجهة نظره الشخصية عن تلك الفترة الحاسمة في تاريخ انجلترا ، معبرا عن آماله ومخاوفه وأفكاره الى صديقة العمر « استيلا » في يومياته لاستيلا **Journal to Stella** . وكانت لندن آنذاك في حالة من الغليان السياسي بسقوط وزارة « الأحرار » بزعامه « جدلفن **Godolphin** وحلول وزارة « هارلي **Harley** و « سنجن **St John** » المحافظة » محلها ، وذلك على أثر الانتخابات العامة التي اسفرت عن حصول « المحافظين » على أغلبية ساحقة وسيطرتهم الكاملة على مجلس العموم ، وكانت الدعوة الى السلام مع فرنسا ، التي كانت في حرب مع انجلترا وحليفاتها منذ بداية حكم الملكة « آن » عام ١٧٠٢ ، على وشك النجاح . في هذه الاثناء كان « سوفيت » على اتصال دائم بعدد كبير من السياسيين الناقمين على الأوضاع السائدة . وسرعان ما طلب « هارلي » رئيس الوزارة مقابلته ، ووعدته بمساندة الكنيسة الايرلندية ، وهي المهمة التي سبق أن أخفق « سوفيت » في انجازها مع حكومة « الأحرار » ، وكان فشله أحد الاسباب العديدة التي خلدت أمله في الحزب الذي عمل

* يشرح « سوفيت » معنى العنوان في المقدمة ، فيقول انها عادة البحارة ، عندما يهاجم حوت السلينة ، الغناء برمبل في البحر لي انجاء الحوت لبشغله عن السلينة وقصة « سوفيت » كتبت لطلهي النقاد عن مهاجمة لقاط الضمف في الكنيسة والحكومة .

معه ودافع عن سياسته . فانصرف عن « الاحرار » ، وهاجم دوق « مورلبورو **Duke of Marlborough** الذي شن الحرب ضد فرنسا وأصبح من اعوان حكومة « المحافظين » الجديدة التي رحبت به لأهمية الدور الذي يستطيع ان يلعبه بقلمه . فعمل كرئيس تحرير لصحيفة « المتحن **The Examiner** التي كانت تهدف الى تعبئة الرأي العام في صف « المحافظين » ، وأصبح « سوفيت » كاتب الحزب الرئيسي ومستشاره الادبي . وعندما تحركت الحكومة في نهاية الامر لانهاء الحرب بتوقيع معاهدة « أترخت **Utrecht** ألف كتيباً بعنوان سلوك الحلفاء **The Conduct of the Allies** وهو من أقوى حجج العصر السياسية وأكثرها شعبية . ساند فيه سياسة الحكومة « المحافظة » في سبيل معاهدة السلم مع فرنسا . وكافاته حكومة « هارلي » على خدماته بتعيينه أسقفاً لكاتدرائية « سانت بارتريك » وهو مركز اعتبره « سوفيت » عن حق أقل بكثير مما يستحقه بعد المجهود الذي بذله في تأييده الحكومة .

ويموت الملكة « آن » وتولى جورج الاول (من اسرة « هانوفر **Hanover**) عرش انجلترا سقطت حكومة المحافظين ، وفقد سوفيت بعودة « الاحرار » الامل في مركز رفيع في الدولة . فعلى أثر فرار « بلنجبروك **Bolingbroke** الى فرنسا وسجن اكسفورد **Oxford** في قلعة لندن (وهما من وزارة المحافظين السابقة) اضطر سوفيت الى الإقامة في اسقفية في دبلن . وباستثناء زيارتين قصيرتين لاصدقائه في انجلترا بقي حتى آخر أيامه في ايرلندا التي اعتبرها منفى سياسياً وفكرياً ، وان كان لم يكف عن نشاطه في ايرلندا ، بل بدأت المرحلة الثانية لنفوذه السياسي في عشرينات القرن الثامن عشر ، عندما ناصر الشعب الايرلندي في مطالبه ، ودافع عن البرلمان الايرلندي ضد وزارة الاحرار تحت رئاسة « روبرت وولبول **Robert Walpole** في انجلترا . واصبح معبود الشعب الايرلندي الذي اطلق عليه اسم « الوطنى الايرلندي » و « الاسقف العظيم » . ويحكى أنه عندما أراد وولبول أن يلغى القبض على سوفيت في ايرلندا ، نصحه اعوانه بانه لن يستطيع ذلك إلا إذا أرسل جيشاً من عشرة آلاف جندي للقيام بتلك المهمة ، لأن الايرلنديين سيقطعون وولبول إرباً في شوارع دبلن . ولا تعيننا هذه المرحلة الثانية في حياة الكاتب السياسية ، والتي جاء كتاب رحلات جليفر ثمرة لها .

إنهار عالم سوفيت من حوله عام ١٧١٤ ، وانسحب من الحياة العامة شاعراً بالهزيمة والفشل والاحباط . وبعد فترة من الاكتئاب الغامر والاحساس بانه « سوف يموت في منفاه (في دبلن) مثل القار المسموم في جحره » ، لم يلبث أن عادت اليه حيويته وثقته بنفسه ، وأصبح كما سبق أن كان « الأسقف الفطن » والرفيق المتحضر في مجتمع ايرلندا المتأخر . غير أنه مرت سنوات قبل ان يستعيد

الطاقة الفائضة اللازمة للعمل الابداعي، وانتقل بعدها الى مرحلة من الانتاج الادبي يختلف عما سبقه من حيث عمق التفكير وروعة الأداء ، ولمع في السنين ما بين عامي ١٧٢٠ و ١٧٢٩ ليس ككاتب ذي اهتمامات واسعة ومهارة في الجدل المنشور والفكر الساخر فحسب ، وانما كفنان اديب ينتمي الى عالم أرحب ، واخذ ينمي صداقات جديدة في ايرلندا ، كما اخذ يرسل اصدقاءه القدامى في انجلترا ، وبدأ نجمه يتألق مرة اخرى ، وظهر في أوج عظمتة كمؤلف رسائل درابير (١٧٤٢) **Drapiers Letters** ورحلات جليفر (١٧٢٦) واقتراح متواضع (١٧٢٩) **A Modest Proposal** التي هاجم فيها سياسة انجلترا نحو ايرلندا هجوما عنيفا ساخرا .

وبرز كشخصية مرموقة في المجتمع الايرلندي حتى وصل إعجاب الشعب به وحهم له الى حد العبادة . وعلينا إذا أردنا أن نعطي صورة صادقة لهذه الشخصية الادبية البارزة في مجتمع القرن الثامن عشر أن نشير الى نواحي سوفيت المتعددة ، حتى نستطيع أن نقيم عملا مركبا مثل رحلات جليفر تقييما كاملا . فلم يكن سوفيت مجرد كاتب سياسي يتأمل في سخرية أخطاء الانسان ونقاط ضعفه ، وانما كان ايضا مفكرا مثقفا جالس عشاء وكتاب عصره ، وانسانا رقيقا حنوننا كما هو واضح من خطابه وقصائده التي كتبها لصديقه / استيلا / .

ويتضح مما سبق أن الفترة التي كتب فيها / سوفيت / رحلات جليفر كانت من اغنى فترات حياته واخصبها ، تمتع خلالها بقدرة إبداعية فائقة ونشاط فكري ثري . ولا بد أن نؤكد هذه الحقيقة لكثرة ما كتب عن حالة سوفيت العقلية عندما أنتج رائعته الادبية ، وبالذات الجزء الأخير منها ، أي رحلة جليفر الى بلاد « الهوينهمز » **Avoyage to the Country of the Houynhnms** فقد مال النقاد ، بسبب ما اعتبروه تشاؤما قائما في نظرتهم الى الانسان ، ما لوا الى الاعتقاد بأن سوفيت كان قد فقد قواه العقلية وأصيب بلوثة جنون .



كتب سوفيت جزءا كبيرا من رحلة جليفر الأولى وبعض أجزاء من رحلته الثالثة عام ١٧١٤ ، وكان هدفه السخرية بروح مرحة خفيفة من التحذلق في مجالات المعرفة المختلفة ، بما في ذلك المجال العلمي . وعندما صدم في طموحه السياسي ونفي الى « دبلن » ترك فكرة الرحلات جانبا مدة من الزمن الى أن انقشعت عنه الفتامة التي ألت به واستعاد قدرته على الكتابة . وبدأت فكرة الرحلات

تراوده مرة أخرى . ورغم أنه لم يحمل معه المؤلف كاملاً للنشر إلى إنجلترا حتى عام ١٧٢٦ ، إلا أنه واضح من رسائله أنه كان منشغلاً عام ١٧٢١ في إضافة الجديد إلى ما سبق أن كتبه وفي تحريره ومراجعته . وقد اعتمد في كتابة رحلات جليفر على قراءات عديدة كلاسيكية وحديثة . ولكنه أجرى تغييرات كبيرة في كل ما استعاره من سالفه ، وحوّر في اتجاهات تلك الاستعارات لتخدم روح الفكاهة والهدف الساخر اللذين اشتهر بهما . وعندما بدأ كتاب الرحلات يأخذ شكله النهائي أدخل في نسيجه إشارات إلى السياسة المعاصرة واهتمامات « الجمعية الملكية »^(١) . **Royal Society**

كما بدت له في مناقشات وتقاريرها . فجاء المؤلف حصيلة غنية لقراءات وتجارب واحد من أعظم العقول المثقفة في القرن الثامن عشر .

وكتاب رحلات جليفر من أنضج مؤلفات سويفت وأكثرها عمقا وتفكيراً ، كما أنه غاية في التركيب العاطفي ، وإن كان ظاهره يوحى بالبساطة . ويلتقي القارئ في هذا الانتاج الأدبي بجميع نواحي مؤلفه التي عبر عنها في كتاباته من خلال أقنعتة الساخرة المتعددة التي أخفى وراءها شخصيته الحقيقية . ومن أمثلها شخصيات « الاسقف » و « دراير » **Drapier** « ويكر ستاف » **Biekerstaf** التي يتحدث سويفت متذكراً على لسانها معلناً عن رأيه ، إما بروح الجدبة الساخرة التي اشتهر بها سيرفانتيس « **Cervantes** ، أو بروح الكوميديا الضاحكة التي تميز بها رابليه **Rabelais** . ففي الرحلات يتجسد الرجل أمامنا في جميع أبعاده وأمزجته وردود أفعاله المتغيرة المتقلبة التي نعرفها في الانسان النابض بالحياة . وفوق كل هذا يكشف الكتاب عن تلك الروح المرحية المأساوية التي لا نجدها الا في عظماء الرجال .

ورحلات جليفر إلى حد ما عمل أدبي مأساوي . أو على وجه التحديد أنه أقرب إلى المأساوية من أي عمل أدبي آخر ظهر في القرن الثامن عشر . وتكمن المأساة في نظر سويفت في اللا عقلانية التي تسود حياة الانسان في جميع تصرفاته وسلوكه . فقد بنى سويفت ، وهو ابن العصر « الاغسطي » أو عصر « العقل » ، كما عرف به ذلك القرن ، بنى عقيدته على « العقل » وقيمته الأساسية في السلوك البشري ، وثار عندما افتقده في صميم الانسان . ورحلات جليفر تعبير عن غضب الكاتب من حماقات ورذائل الانسان ، وعن شعوره الغامر بقصور الانسان المأساوي .

١ - القدم جمعية علمية في إنجلترا واشهر جمعية من نوعها في العالم . بدأت عام ١٦٤٥ باجتماعات اسبوعية للعلماء في لندن . وفي عام ١٦٦٠ انشئت رسمياً بموافقة الملك و تشارلز الثاني .



جوناثان سويفت (بليسي ديفيد ليفيه)

ومع ذلك فالكتاب روعة من روائع الادب الهزلي ، ومن الخطأ اعتباره نتاج ياس قاتم . فرغم أن الغضب والاحتقار والاشمئزاز أساس جميع كتابات سويفت الساخرة ، الا انه كتبها تحت تأثير اعتقاده الراسخ بأن رؤية الذات ومعرفتها على حقيقتها ستؤدي في نهاية الأمر الى السلوك السليم . وكان هدفه من كتابة رحلات جليفر ، كما قال هو « اصلاح العالم » مما يوحي بالامل وليس بالتشاؤم . ومما يؤكد هذا ايضا روح الفكاهة المرحية المتوغلة في الرحلات ، التي تنفي ما أصر عليه عدد من النقاد من أنه نتاج عقل مريض على شفا الجنون ، فهذه الروح دليل قاطع على صحة سويفت العقلية والروحية عندما كتب الرحلات . أما مرضه العقلي فلم يصب به الا بعد ظهور الكتاب بسبعة عشر عاما .

ويخدم المرح والفكاهة والهزل في رحلات جليفر السخرية ، وهو هدف سويفت الاساسي ،

والسخرية أكثر شراسة من الهزل في هدفها الاخلاقي لأنها تقيس السلوك الانساني بمقارنته بالنموذج المثالي وليس العادى . وترفع أمام ناظر القارىء مرآة تعكس صورة مشوهة مبالغ فيها لحياته ، لا يلبث ، ان كان على قدر من الوعي ، أن يكتشف فيها صورته هو . ويكون وقع الصدمة بمقدار الهوة التى تفصل بين المقاييس الاخلاقية التقليدية وبين السلوك الواقعى .

وكان العصر « الاغسطى » من أكثر العصور ملاءمة للأدب الساخر . وساعد الايمان السائد آنذاك بالطبيعة والعقل « فى رأى بازى ويلي (٢) Basil Willey على انتشاره ، حتى أصبح النصف الاول من القرن الثامن عشر العصر الذهبي لذلك النوع من الأدب . فكلما راقت « الطبيعة » فى مجموعها للانسان بدأ هو نفسه قاصرا بالمقارنة وقد آمن العصر بنظام الطبيعة « ، ويحث للانسان عن مكان فى ذلك النظام الذي تصوره للكون . وأكد عدد من الفلاسفة والمفكرين من أمثال انتونى آشلى كوبر Anthony Ashley Cooper وشافنسبرى Shaftesbury طبيعة الانسان الخيرة ، ووصفوه بأنه مخلوق اجتماعى عاقل بطبيعته ، وكانت نظم مجتمعه فى نظرهم امتدادا لنظام الكون الالهى . وباختصار فقد وجدوا أن « كل شىء على ما يرام فى العالم » وأن عالمنا « على أحسن ما يمكن أن يكون » ووفقا لنظرية عريقة ترجع الى أرسطو ، ساندتها الرواقية والمسيحية ثم أكدها الفيلسوفان ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ولوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) Lock ، فان جوهر الانسان هى روحه العاقلة . وحالة « الطبيعة » الحقيقية ، كما قال لوك يحكمها قانون « الطبيعة وهو قانون « العقل » ، ولا تنتظم أمور الانسان الا عندما تطابق النظم الاجتماعية نظرية الطبيعة البشرية الحققة واعتقد المرء فى العصر « الاغسطى » أن مثله العقلية المستنيرة قد تحققت وأصبحت المقياس الطبيعى المتبع . ولكن عندما نظر المفكرون والادباء من حولهم تنبهوا الى الفرق الشاسع بين النظرية والتطبيق .

طبق الادباء الساخرون المقاييس « الطبيعية » على الواقع السائد فى اوائل القرن الثامن عشر . فوجدوا أن الانسان الذي سبق أن كان روحا خالدة تنشد الاخلاص ، أو روحا عاقلة تبحث عن الفضيلة ، أصبح ذاتا اقتصادية أو سياسية تتلهف على المال والجاه والسلطة ، وكانت الدوافع المادية ما زالت مخبئة وراء ستار الدين والسياسة فى القرن السابع عشر . اما القرن الثامن عشر فقد أزيح الشعار وظهرت الدوافع الاقتصادية والملكية كأقوى باعث للعمل الفردى والجماعى . وجاء ما قاله المفكر هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) Hobbes فى طبيعة الانسان ، البدائية المتوحشة المبنية على المنافسة والصراع مطابقا للواقع ، عندما تهالك الأفراد والدول على اقتناء ثروات العالم واستغلالها . ومع ذلك

فقد استمرت المقاييس القديمة موضع الاحترام ، وإن كانت فقدت قيمتها العملية وعاش رجل القرن الثامن عشر طبقا لها ولو نظريا على الأقل . ووجد الشخص الذي تمسك بتلك المقاييس والذي استطاع في نفس الوقت أن يرى الأمور على حقيقتها ، وجد بين يديه مادة غنية للكتابة الساخرة . وكان سوفيت من أئمة هؤلاء الكتاب ، وهو الذي قال عنه ألدوس هاكسلي (١٨٩٤ - ١٩٦٢) **Aldous Huxley** انه « لم يستطع أن يغفر للانسان أبدا كونه حيوانا ثدييا فقريا وروحا خالدة معا » .

ورفض سوفيت تعريف الانسان بأنه حيوان « عاقل » وعرفه بأنه « حيوان ذو قدرة على العقل » (٣) **rationis capax** ولعل في هذا التعريف ردا على « ديكارت » الذي يبدو أنه نسي أن الله قد خلق الانسان في مرتبة أقل من مرتبة الملاك ، وأنه يتمتع بقدرة محدودة من العقل ينظم به عالمه الدنيوي ويرشده الى عالمه الابدى . وفي خطاب كتبه سوفيت الى صديقيه بوب **Pope** وبولنجبروك **Bolingbroke** وضع موقفه من هذا الامر ، فقال « اقول مع ذلك أننى لا أكره الجنس البشرى ، بل انكم انتم الآخرون الذين تكرهونه ، لانكم تريدون الانسان حيوانا عاقلا ، وتغضبون لحية أملككم فيه . أما أنا فلم أقبل ذلك التعريف أبدا ، وفكرت في تعريف آخر خاص بى » . (٤) ويرمى سوفيت الى أن الشخص الذي يتخذ موقفا غير واقعى بالنسبة لقدرات الطبيعة البشرية قد ينتهى به الأمر الى كره البشر ، لانه ينتظر من الانسان أن يتعدى حدود طبيعته . أما محب الانسانية فلن ينتابه الغضب عندما يكتشف قصور الإنسان وحدوده . ولا يعنى تعريف سوفيت بأن الانسان كائن « قادر على العقل » أن نظرتة سلبية ، وإنما يعنى انه يفرض التزاما أخلاقيا على المرء لاستغلال قدرته الى أقصى طاقتها وهو بذلك ليس كاتباً ساخراً فقط ، وإنما هو كاتب أخلاقى صارم فى أخلاقياته .

والذي يتألم له سوفيت هو أن الانسان لا يستغل قدراته العقلية أحسن استغلال ، بل أنه يتصرف وكأنه أقل بكثير في مستواه العقلي والخلقي مما اراد الله ، ورأى أن يكتشف حقيقة الانسان وطبيعته من خلال تجاربه الخاصة ومعرفته بسلوك معاصريه . فجاءت الصورة التي رسمها تحفة خالدة تمثل جوهر الانسان الثابت منذ بدء الخليقة .



٣ - خطاب لصديقه الشاعر « بوب » **Pope** ٢٩ سبتمبر ١٧٢٥

٤ - ٢٩ نوفمبر ١٧٢٥

المشكلة التي واجهت سوفيت ، والتي تواجه كل أديب ، هو اختيار القالب المناسب للموضوع الذي يتناوله . وكان يعلم أنه لا يستطيع أن يكتب بأمانة وصدق وحرية إلا إذا اكتشف وسيلة للتنكر تسمح له بأن يعبر عن آرائه وأفكاره دون قيد . ووجد الحل في رحلات جليفر بالجوهر الى الحيلة الأدبية المحببة اليه وهي المحاكاة الادبية الساخرة « Parody » وقرر أن يحاكي أكثر أنواع الأدب شعبية في يومه ، أي ادب الرحلات مثل رحلات دامبير **Dampiers Voyages** وان يتخذ من شخصية الرحالة وسيلة للتعبير عن تجاربه في المجتمع الانجليزي المعاصر . وبما يجدر ذكره انه عندما بدأ سوفيت بجديفة في كتابة رحلات جليفر عام ١٧١٩ كان غريمه دانيال ديفو (١٦٦٠ - ١٧٣١) **Daniel Defoe** الذي كان سوفيت يدعي دائما أنه لا يتذكر اسمه ، كان قد أنحف قراءه برواية روبنسون كروزو (١٧١٩) **Robinson Crusoe** التي تتناول شخصية بحار وجد نفسه مهجورا على جزيرة نائية عاش فيها سنين طويلة دون أن يرى انسانا . وبما لا شك فيه أن سوفيت تأثر برواية ديفو ، كما تأثر بكتب الرحلات التي قرأ العديد منها ، وكانت ذات أهمية خاصة في ذلك الوقت . وكانت « الجمعية الملكية » أيضا تبدي اهتماما بالرحلات وتشجع الملاحين على جمع المعلومات عن البلاد النائية التي يزورونها ، ووصف جغرافيتها ومنتجاتها وسلوك سكانها وعقائدهم . وقد جمع سكرتير « الجمعية » ما بين عامي ١٦٩٣ ، ١٧١٢ - مخطوطات للمذكرات كتبها ربانة سفن وملاحون وقراصنة ومغامرون . وكان هذا الاتجاه جزءا من البرنامج العلمي الذي وضعه روجر بيكون **Roger Bacon** واتباعه لجمع ملاحظات وأدلة عن العالم الطبيعي . وقد اتبع سوفيت نفس أسلوب تلك المذكرات ، وسجل دقائق كثيرة في رحلات جليفر ، وزود مؤلفه بخرائط مفصلة تعطيه طابع كتب الرحلات الاصيل ، وفي محاكاته لأدب الرحلات بعض الانتقاد ، فقد كان سوفيت نموذجاً لكاتب العصر « الاغسطي » الذي انصب اهتمامه على الصفات المشتركة بين الناس في المجتمع وفي الطبيعة . اما نظرة الكاتب في أدب الرحلات فكثيرا ما كانت مناقضة للنظرة الاغسطية ، فبدا أهل البلاد والمجتمعات الأخرى للكاتب ليس مختلفين عنه فحسب بل غريبين الاطوار وشاذين ايضا . ولم يخل موقف سوفيت كلية من تلك النظرة المتعالية في شخصية جليفر ، الا أن هدفه الأساسي كان توجيه عناية القارئ داخلها الى الطبيعة البشرية المشتركة أكثر من توجيهها نحو الملاحظات الخارجية والاختلافات السطحية الناجمة عن مصادفات الظروف . بل وأكثر من ذلك فقد أراد أن يرشد القارئ الى تلك المهمة الشاقة التي تلخص في كلمتي « إعرف نفسك » .

وتتنمي رحلات جليفر الى نوع خاص من أدب الرحلات المتصل بتراث الادب والفكر الأوروبي ، والذي دفع بعض الكتاب والمفكرين الى خلق رؤى لمجتمعات غريبة ، إما أسطورية وإما مثالية ،

يهدف دراسة الفكر السياسي المعاصر . ومن أمثال تلك المجتمعات « جمهورية » أفلاطون المثالية المبنية على حوار حول مفهوم العدالة ، ودولة « أطلانتس » الأسطورية في تيموس **Timaeus** لأفلاطون ، وهي رمز للنظام العالمي ، ويدور فيها نقاش حول العدالة والتقوى والحق ، وأطلانتس الجديدة (١٦٢١) **New Atlantis** حيث يناقش روجر بيكون السعادة الانسانية وامكانية التوصل اليها عن طريق التعاون العلمي ، ^(٥) وينتمي الى هذا التراث أيضا المؤلفات التهكمية الساخرة التي تتناول الدول المثالية الخيالية مثل يوتوبيا ^(٦) (أول ما نشر باللاتينية عام ١٥١٦) **Utopia** سيرتوماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) **Sir Thomas More** . وتبع الاهتمام بقصص الرحالة ظهور سلسلة من الرحلات الأوروبية الخرافية مستخدمة الخيال الجامح بأسلوب ساخر وجدي . وقد يكون مؤلف « لوكيان » حوالي (١٢٠ - ١٨٠ م) **Lucian** باللغة اليونانية بعنوان التاريخ الحقيقي **True His-tory** النموذج الاصيل لهذا الشكل الادبي ، وهناك عدد كبير من المؤلفات مثل دول وامبراطوريات القمر ودول وامبراطوريات الشمس **Les Etats et Empires de la Lune et Les Etats et Empires du Soleil** لسيرانودي برجراك (١٦١٩ - ١٦٥٥) **Cyrano de Bergerac** أكثر ارتباطا بأدب الرحلات ، وتقدم أسلوبا جديدا في استخدام الرحلات الخيالية لمناقشة الافكار الفلسفية المتطرفة أو المواضيع المحرمة .

ورحلات جليفر سلسلة من « الجمهوريات المثالية » ومجموعة من « الرحلات الفلسفية » تتسم تارة بالواقعية وتارة بالخيال المبالغ فيه . والكتاب أيضا رحلة استكشاف ساخرة في خفايا الطبيعة البشرية ، ويكشف عن دخائلها من خلال ملاحظات الرحالة « جليفر » ، وعن ظواهرها من خلال النظم السياسية والاجتماعية للبلاد التي يسافر اليها وسلوك سكانها . فأسفار « جليفر » رحلة أو تجربة ذهنية تنتقل بالقارئ من حالة الرضا التام المبني على الجهل الذي يتصف به الرجل الانجليزي النمطي ، الى حالة الرفض التام الذي يتبع اكتشاف الحقيقة المؤلمة اللاذعة المختفية وراء الخداع والوهم اللذين كان يعيش فيهما .



٥ - تمثيل أكاديمية و لاجادو ، في رحلات جليفر سخرية و سوييت ، من رؤية « يكون » النقدية .

٦ - معنى الكلمة باليونانية القديمة و لا مكان .

شخصية جليفر

« جليفر » الرحالة الذي اختاره سوفيت ليسرد تفاصيل مغامراته الخيالية شخصية مستقلة ، يجب ألا نخلط بينها وبين المؤلف كما حدث مع كثير من النقاد . انها قناع ابتدعه سوفيت لأغراضه الساخرة . وتختلف عن الشخصيات التي اعتدنا أن نراها في « الجمهوريات » المثالية والرحلات الخيالية ، وكلها غريبة عنا لا نعرف شيئا عنها وعن مجتمعاتها وعملها وآمالها وخاوفها وطموحها وحياتها الخاصة ، وكان الكتاب يستخدمون مثل هذه الشخصيات المحايدة الخالية من الارتباطات ليصوروا من خلال أعينها البريئة المجتمعات التي تستكشفها . أما « جليفر » فهو نموذج للرجل الانجليزي العادي متوسط الحال ماديا ، غير المتميز عقليا ، واسع الحيلة شجاع وان لم يكن بطلا ، صاحب فضائل جمة يتصف بها أهل بلاده ، ولكنه يقع في كثير من الاحيان فريسة لخداع النفس وأنصاف الحقائق التي تدخل على نفسه السكون والطمأنينة . إنه شخصية قريبة الى ذهن القارئ .

ويعطي سوفيت عند أول لقاء بين « جليفر » والقارئ نبذة مختصرة عن حياته لا تزيد عن خمسائة كلمة يغطي فيها الأعوام التسعة والثلاثين التي عاشها حتى لحظة إبحار السفينة « انتيلوب » من ميناء بريستول في شهر مايو عام ١٦٩٩ ، في أولى الرحلات . ورغم الميل الملحوظ الى الاختصار ، فان وضوح التفاصيل المتعلقة بحياة « جليفر » والاشارة الى الاماكن التي عرفها ، والتي ما زالت مألوفة حتى اليوم ، تجعل من السهل على القارئ أن يتخيل دقائق أخرى تضي على الشخصية حياتها الخاصة . ويشبه سوفيت « دانيال ديفو » الى حد كبير في أسلوبه السردى والحيلة الأدبية التي يلجأ اليها لاقتناع القارئ بواقع ما يكتبه . وهذه الحيلة مبنية على الاسلوب التقريرى ذي التفاصيل الدقيقة غير المهمة التي يحرص الكاتب على ذكرها بأمانة لما تتركه في القارئ من انطباع بالحقيقة والواقع . فعندما يشير سوفيت الى زواج « جليفر » مثلا لا يكتفي بذكر الواقعة نفسها ، بل يزودنا باسم زوجته ، واسم والدها ومهنته كقاص ، وموقع متجره في شارع « نيوجيت » مضيفا الى هذه الدقائق التافهة كون الزوجة هي ابنة ابيه الثانية ، ثم المبلغ الذي تسلمه « جليفر » كمهر للعروس وهو أربعمائة جنيه ، وينتهج « سوفيت » نفس المنهج عندما يشير الى المعاملات المالية الخاصة ب « جليفر » فيقول :

عندما تركت عملي مع مستر بيتش ذهبت لزيارة أُمي وبمساعده ومساعدة عمي جون وبعض الاقارب حصلت على أربعين جنيها ، وعلى وعد بثلاثين جنيها أخرى سنويا لتغطية مصاريفي في

« لايدن » وهناك درست الطب لمدة عامين وسبعة أشهر علما مني بأن هذه الدراسة ستكون ذات نفع لي في رحلاتي . (٧)

ونلاحظ الدقة في ذكر المدة التي قضاها « جليفر » في دراسته في لايدن **Leiden** ، وكان من الممكن ان يقول عامين ونصف أو حوالي عامين ونصف ، ولكنه تعمد ذكر « سبعة أشهر » ليوحي بأننا بصدد الواقع وليس الخيال .

وتضفي هذه الدقائق صلابة على شخصية « جليفر » ، فهو كما وصفه سوفيت لا يعيش في فراغ ، وإنما له مكانه المحدد في البناء الاجتماعي ، ولا تفتقر حياته الى المشاكل العادية والصعاب المهنية والعلاقات الفردية ، الايجابية منها والسلبية ، مع اصدقائه واعدائه وزوجته وأولاده . فهو رجل في منتصف العمر من الطبقة المتوسطة يستطيع القارئ أن يفهم تفكيره وتصرفاته وأن يتعاطف أو يختلف معه . اختار سوفيت هذه الشخصية كأداة لتأمل المجتمع البشري الاوربي والانجليزي ، وخاصة مجتمع انجلترا في القرن الثامن عشر الذي تنتمي اليه الشخصية . وتحدد شخصية « جليفر » أفق وأساليب السخرية التي تختلف تماما عن السخرية النابعة من شخصية غير واقعية تجدها نفسها وجها لوجه مع مجتمع غريب عنها .

وإذا كان « جليفر » لا يمثل الشخصية البسيطة المثالية المحايدة التي تلعب دور - المتفرج الموضوعي ، فإنه في نفس الوقت ليس شخصية واقعية مركبة نفسيا متفاعلة تفاعلا كاملا وعمليا مع عالمها الخارجي ، فواقعية « جليفر » تستند الى حد كبير الى كونه شخصية تمطية محاطة بعدد لا حد له من التفاصيل الدقيقة . ولا يلتفت سوفيت الى حياة « جليفر » الداخلية أو النفسية إلا في حالات قليلة عندما يهدف الى اثارة بعض المشاعر البشرية المحددة في القارئ . فخداع النفس والأوهام وتجاهل الحقيقة التي تظهر في ردود افعال « جليفر » لا تشير الى اهتمام سوفيت بتصوير نفسيته ، وإنما هي اشارة للقارئ الذي عليه أن يكتشف أوجه الشبه بين نفسيته ونفسية « جليفر » الرجل العادي . « فجليفر » الممتلئ غرورا بطفولته وهو يتحدث عن بلده للملك « بروبدينجاغ » **Brobdingag** (٨) ، والذي ينخدع بحلم عندما يسمع عن « الخالدين » (٩) ، إنما يمثل نموذجا عاما لمشاعر البشرية . وليس هناك

٧ - الجزء الاول ، الفصل الاول .

٨ - الجزء الثاني ، الفصلان السادس والسابع

٩ - الجزء الثالث ، الفصل العاشر .

مثل واحد لتصرف أو سلوك أو مشاعر تميزه عن باقي جنسه ، بل الشيء الوحيد الذي يميزه هو غرائب الأشياء التي تصادفه في رحلاته . « جليفر » وسيلة يستخدمها الكاتب ليضع العامل البشري المشترك أو « الرجل العادي » الذي يقبع بداخلنا جميعا في مواقف غير عادية لمراقبة سلوك الانسان وتصرفاته .

حرص سوفيت اذن على تقديم « جليفر » بدرجة من الواقعية تمكن القارئ من المطابقة بينه وبين نفسه ، الا انها مطابقة محدودة وليست كاملة . والذي يتحكم في درجة المطابقة هو اداة السخرية التي تدفع بالقارئ الى الفصل بين « جليفر » وبينه . فهناك المطابقة والفصل معا . وعند عملية الفصل ، نتيجة لعنصر السخرية ، يجد القارئ نفسه ناقدا لـ « جليفر » وناقدا لذاته في نفس الوقت لمطابقته لـ « جليفر » في بعض نواحي تفكيره وسلوكه .

ولما كان « جليفر » يصور نواحي مختلفة من أوجه البشرية التي تتعدد بتعدد الظروف والمواقف قلما نجد فيه صورة متناسقة مكتملة ، فد « جليفر » وسط أقزام « ليليب Lilliput » يختلف الى حد كبير عن « جليفر » وسط مرده « بروبينجلد نجنج » ، ومع ذلك لا يجد القارئ مجالا للاعتراض على مثل هذه التناقضات ، ولا يحاول التوفيق بينها في بحثه عن تفسير أعمق للشخصية البشرية المركبة كما يحدث في الحياة الواقعية أو في الرواية المتطورة . فاذا رغبتنا أن نحس قراءة رحلات جليفر فعلينا ان نرى « جليفر » كما أراد سوفيت أن نراه ، أي كأداة يستخدمها الكاتب ليشوه بها رؤيتنا لأنفسنا وللواقع ، مثل المرأة المعوجة التي تعكس الأشياء على نحو ملتو . ويختبر القارئ من خلالها عددا من التجارب التي اختارها الكاتب لتعريف القارئ بحقيقة نفسه . « فسوفيت » اذن يستخدم شخصية « جليفر » كوسيلة للانتقال بالقارئ بين المواقع الاستكشافية التي يستطيع منها أن يشرف على دخائل الطبيعة البشرية .



(١) رحلة الى ليليب Lilliput Voyage to

وأساس المواقع الاستكشافية هي المواقف التي يجد « جليفر » نفسه فيها ، وتمثل في البلاد التي يزورها أثناء رحلاته ، والتي يعتمد سوفيت في تخيلها على المبالغة المتصورة وتمد هذه البلاد الكاتب بالأداة الأساسية الثانية التي تمكنه من استخدام سلاح السخرية الحاد المدمر . فزيارة « جليفر » لأربع

بلاد مختلفة هي « ليليت » بلد الأقزام ، و « برويدنجانج » بلد المردة و « لابوتا » Laputa وجيرانها « بلاد العلوم والسياسة المجردتين » ، وبلد « الهوينومز » التي يحكمها الحصان العاقل ويقطنها « الياهو » الانسان الحيوان ، زيارة « جليفر » لكل من هذه البلاد تواجهه بمواقف لم يسبق له أن مر بها .

وقد أخذ « سوفيت » أساس سخريته في الرحلتين الأولى والثانية المقارنة بين الحجمين الكبير والصغير . ووجد في فكرة « سلسلة الوجود الهائلة the great chain of being » الهاما لرؤيته للانسان في هاتين الرحلتين ، بالاضافة الى الرحلة الرابعة الى بلد « الهوينومز » ، وكانت الفكرة القائلة بأن الانسان يحتل في الوجود مكانا وسطا من الافكار المألوفة أيام « سوفيت » ، وكان كثير من الناس يعتقدون أن الوجود قد نظم باتقان ودقة على شكل درجات في « سلسلة وجود هائلة » ، ابتداء من الخالق الذي يتبعه عدد لا يحصى من الكائنات الروحية والذهنية المجردة ، الى الانسان والكائنات الحيوانية والاشكال الميكروسكوبية من الحياة ، حتى تنتهي الى لا شيء . ويشغل الانسان في هذه « السلسلة » وضعاً لا يعرف فيه الراحة ، لأنه يشارك الى درجة محدودة ، الكائنات الذهنية السامية ، في عقلها ، بينما يشارك الى درجة غير محدودة ، الحيوان في غرائزه الحسية . فالانسان « حلقة الوصل » ونقطة الالتقاء بين العقل والحس . وقد استخدم سوفيت صورة الانسان هذه في موقعه الوسط في « سلسلة الوجود الهائلة كوسيلة للفكاهة والتهكم والسخرية . وقد اعتمد في فكرة المقارنة بين صغر حجم « جليفر » بالنسبة الى سكان ليليت و « برويدنجانج » ، اعتمد على نظرة الفيلسوف باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) Pascal في قوله : « أين الانسان من الطبيعة ؟ انه اللا شيء اذا ما قورن باللا متناهي » ، والكل اذا ما قورن باللا شيء . انه الوسط بين المتناهي واللا متناهي » ويستعير سوفيت فكرة « النسبية » هذه ويحوّلها لتكون أداة سخرية فعالة . فيكتشف « جليفر » في الرحلتين الأولى والثانية ، عدم تناسبه وسط الظروف المحيطة به . وعندما ينظر الى أقزام « ليليت » من علوه الشاهق يدرك انه انسان ثقيل الحركة يفتقر الى الرشاقة ، وان كان ماردا طيب القلب . أما في « برويدنجانج » فيتجه نظر « جليفر » من موقعه الوسط الى أعلى « سلسلة الوجود » ، وليس الى أسفلها كما حدث في « ليليت » ، مكتشفا سلاله من المردة يبدو هو بالمقارنة بهم قزما أولعبه صغيرة كما كان أهل « ليليت » بالنسبة اليه .

والتركيز هنا على الحجم الجسدي ، وهي الناحية التي تستحوذ على خيال القارئ الطفل فيجدها مسلية للغاية . وفكرة « النسبية » ليست بجديدة اذ سبق سوفيت اليها آخرون ، وانما الابتكار يرجع

الى كيفية تنفيذ الفكرة باستخدام التفاصيل الدقيقة الوافية المتعلقة بظروف الموقف . فسواء كان القارئ طفلاً أم بالغاً فإنه يتتبع متلهفاً أهل « ليليت » وهم يحلون المشاكل التي يواجهونها عند اكتشافهم وجود « الرجل الجبل » في بلدهم . فعليهم أن ينقلوه الى وسط المدينة ويحضروا له الطعام ويصنعوا له سريراً . ويجد القارئ تسلياً في وصف حيرة هذه الكائنات الصغيرة التي لا يزيد طولها عن ست بوصات وهم يتفحصون الأشياء التي يعثرون عليها في جيوب « جليفر » - المشط وقطع النقود والمنديل والنشوق - دون أن يفهموا ماهيتها - ومن بين هذه الأشياء ساعة التي تبدو لهم كآلة هائلة ، فيقولون في وصفها :

وتدلت من جيبه الايمن سلسلة فضية كبيرة في نهايتها ما يشبه الآلة الكبيرة العجيبة . فطلبنا منه أن يمسح الشيء المعلق بالسلسلة ، والذي بدا كروي الشكل ، نصفه من الفضة ونصفه الآخر من نوع من المعدن الشفاف . ورأينا على الناحية الشفافة أشكالاً مستديرة غريبة اعتقدنا أول الأمر أننا نستطيع أن نلمسها ، ولكن حالت دون ذلك تلك المادة الشفافة وقد رفع هذه الآلة الى آذاننا ، وكان ينبعث منها صوت لا ينقطع مثل صوت طاحونة المياه . واستنتجنا أنها إما حيوان غير معروف ، أو الآلة الذي يعبد ، ولكننا نميل الى الرأي الأخير لأنه أكد لنا أنه قلما يفعل شيئاً دون أن يستشيرها وقد سماها الوصي ، وقال انها تشير الى الوقت المحدد لكل فعل في حياته . (١٠)

وتسيطر الناحية الفنية من المغامرات على خيال القارئ ويجد فيها تشويقاً عظيماً . ومنها على سبيل المثال ، طريقة استيلاء « جليفر » على أسطول « بليفسكو » **Blefusco** البلد المعادية لـ « ليليت » ، وسحب السفن وراءه في البحر ، ممسكاً في يد واحدة بالخيط التي ربطها بها ، فبدت قطع الاسطول التي تهدد كيان الأقزام كلعب الاطفال . وهناك مشهد العرض العسكري المقام على سطح مندبل « جليفر » المنصوب على أعمدة ، وكأن المندبل ساحة رحبية . ويستمتع القارئ بمتابعة الحلول الفنية المبتكرة ، كما يستمتع برؤية ناضرة لعالمنا المألوف ، وكأننا نراه لأول مرة من خلال أعين الطفل البريء الذي لم يفقد بعد بساطته وقدرته على الدهشة ، كما في مشهد الساعة ، ولا تفوت سويفت فرصة استغلال التناقض في الموقف بين المارد والقزم لاثارة الضحك ، مثلما يفعل عندما يشير الى الشك الذي يساور « فليمناپ » **Flimnap** عن وجود علاقة غرامية بين زوجته القزم و « جليفر » المارد . ولا شك أن الكاتب يحسن استغلال الامكانيات الكامنة في الموقف الاساسي للتسلية والفكاهة دون أن يهدف إلى أي غرض آخر .

ولكن صغر حجم أهل « ليليت » يؤكد نوعاً آخر من الضالة وهي الضالة الاخلاقية التي تبدو في غرور امبراطور « ليليت » . فعندما يراه « جليفر » لأول مرة لا يغيب عنا عبث ذلك الكائن اللعبة ، وقد وقف مختالاً بسيفه في يده وخوذته الذهبية على رأسه ، وكلاهما مرصع بالجواهر الثمينة . ويصف « جليفر » مقابلته الاولى مع الامبراطور ، فيقول عن ذلك الموقف المضحك الساخر :

ولكي أراه عن قرب استلقيت على جانبي حتى أصبح وجهي موازياً لوجهه ، بينما وقف على مسافة ثلاث ياردات فقط مني وعلى أية حال فقد وضعت في قبضة يدي مرات عديدة منذ تلك المقابلة الاولى ، ولذلك فلم أكن مخطئاً في وصفي له . لقد كانت ملابسه بسيطة مجردة من الحلية ولكنه ارتدى على رأسه خوذة خفيفة من الذهب محلاة بالجواهر وقد أمسك بسيفه في يده ليدافع به عن نفسه خوفاً من أن أفك وثاقي ، وكان المقبض والغرب من الذهب المرصع بالماس . (١١)

ويتكرر الايجاء بغرور الانسان القزم عندما يسرد « جليفر » سلسلة طويلة من الألقاب التي منحها الامبراطور ، فالسخرية الكامنة في التناقض بين فخامة الألقاب وعظمتها وصغر حجم صاحبها . ومن ألقابه التي اختيرت على وزن القاب الملوك والباطرة في العالم الواقعي :

امبراطور « ليليت » الجبار ، بهجة ورعب الكون ، الذي تمتد ممتلكاته خمسة آلاف « بلا صتروج » (أي بقطر طوله حوالي اثني عشر ميلاً) حتى اطراف الكرة الارضية . ملك الملوك ، يامن هو أطول من أبناء البشر (١٢) ، ومن تصل قدماه الى مركز الارض ، ويعلو رأسه فيصطدم بالشمس . يامن يرتعد لمجرد اجماعة من رأسه أمراء الكون . لطيف مثل الربيع ، مريح كالصيف ، مثير كالخريف ، ومرعب كالشتاء . (١٣)

وتبدو سخرية سويفت أكثر وضوحاً عندما تظهر المقارنة بين « ليليت » ومجتمع انجلترا المعاصر ، ومن أشهر مشاهد المقارنة الساخرة الذي تخصص فيه أهل « ليليت » والذي يجد فيه الامبراطور تسليية كبيرة ، مشهد الألعاب البهلوانية ، ويقوم به المتقدمون لوظائف الدولة المرموقة ، وهم يتنافسون عليها

١١ - الجزء الاول ، الفصل الثاني

١٢ - سبق أن أشار « جليفر » الى انه أطول من أبناء شعبه بمقدار « نصف طول ظفر الخنصر » .

١٣ - الجزء الاول ، الفصل الثالث

بالرقص على الحبل المشدود محاولين الاحتفاظ بتوازنهم . ويصف « جليفر » هذه اللعبة « البهلوانية » التي يحاول فيها كل لاعب اثبات تفوقه على منافسيه ، فيقول :

آبدى الامراطور في أحد الأيام رغبة في تقديم بعض التسلية لي عن طريق عدد من الاستعراضات الوطنية التي تتفوق فيها الليليت على جميع دول العالم التي عرفتها من حيث المهارة والأبهة . وقد وجدت أعظم تسلية في استعراض الراقصين على الحبل الذي أدوه على خط أبيض رفيع امتد حوالي قدمين وارتفع عن سطح الارض بحوالي اثني عشر بوصة ولا يؤدي هذه اللعبة الا أولئك المتقدمون للوظائف الهامة والمراكز الرفيعة في البلاط . انهم يتدربون على هذا الفن منذ صغرهم . وهم ليسوا دائما من أصل نبيل أو ذوي تعليم راق . وعندما يشغل مركز خطير في الدولة ، إما بسبب موت من كان يشغل ذلك المركز أو بسبب فضيحة (مما يحدث كثيرا) يلتمس خمسة أو ستة من المتقدمين تسلية الامبراطور والقصر بتقديم رقصة على الحبل . والقافز الاول الذي لا يهوى الى الارض يرقى الى الوظيفة . وكثيرا ما يصدر الأمر للوزراء الاوائل أنفسهم باستعراض مهارتهم لاقتناع الامبراطور بأنهم ما زالوا محتفظين بها . (١٤)٩

ثم ينتقل سويقت الى اللعبة التالية التي لا تؤدي الا في مناسبات خاصة ، ولا يسمح لأحد سوى الامبراطور والامباطورة ورئيس الوزراء أن يستمتعوا بها . ويلاحظ أن الحركات أكثر تنوعا ، وتوحي حركة « الزحف من تحت العصا » بالرياء والنفاق والخنوع الذي يتطلبه الحاكم لبدء رضاه نحو أصحاب المهارات . وإليك وصفا لهذه التسلية التي تنفرد بها « ليليت » :

يضع الامبراطور على المنضدة ثلاثة خيوط رفيعة طولها ست بوصات : واحد منها ازرق ، والآخر احمر ، والثالث اخضر . وهذه هي الجوائز المقترحة لمن يريد الامبراطور أن يؤثرهم بحظوته . ويقام الاحتفال في صالة جلالة للمراسم الكبيرة حيث تختبر مهارة المتقدمين على نحو يختلف عن الاختيار السابق ، كما تختلف تماما عن أي شيء رأيته في أية دولة أخرى ، سواء في العالم القديم او الجديد ، ويمسك الامبراطور بعصا في يديه في وضع مواز للأفق ، بينما يتقدم المرشحون الواحد تلو الآخر ، تارة يقفزون من فوق العصا ، وتارة يزحفون من تحتها عدة مرات الى الأمام والى الخلف تبعا لوضع العصا : واحيانا يمسك الامبراطور بطرف واحد بينما يمسك الوزير الاول بالطرف الآخر . واحيانا

يمسك الوزير الأول العصا بمفرده والشخص الذي يؤدي دوره بمهارة أكثر ويستمر في القفز والزحف مدة أطول من غيره يكافأ بالخيط الأزرق ، ويكافأ من يليه بالخيط الأحمر ، والذي يليه بالأخضر . وهم يتمنقون بهذه الخيوط . وقلما تصادف شخصا عظيما في هذا القصر الا وقد تحلى بهذه الأحرمة . (١٥)

وعندما يتبين أن هذه الخيوط تمثل أعلى الأوسمة (١٦) التي يمنحها ملك انجلترا للذين يتمتعون بحظوته ، يبدأ القارئ في التساؤل عن أوجه الشبه الأخرى بين ليليت والمجتمع الانجليزي المعاصر ، وعن مدى تطابق شخصيات العصر في « ليليت » مع الملكة « آن » والملك « جورج الأول » وابنه « أمير ويلز » الذي أصبح فيما بعد « جورج الثاني » ، وشخصية « فليمنا ب » Flim-nap التي تمثل « روبرت ووليول » رئيس الوزراء (او الوزير الاول كما سمي في ذلك الوقت) الذي استمرت رئاسته لوزارة « الاحرار » في عهد « جورج الاول » سنين طويلة ، والذي صوره سوفيت كأكثر الرجال حذقا في الرقص على الحبل لطول بقائه في الحكم . ويتبين للقارئ أيضا أن دولة « بليفسكو » في حربها مع « ليليت » تمثل فرنسا في حربها مع انجلترا . وفي اشارة سوفيت الى الخدمات التي أداها « جليفر » لامبراطور « ليليت » في حربه مع « بليفسكو » تذكره بالخدمات التي اداها « سوفيت » نفسه للقصر وللوزارة دون أن يلقي من أيها اعترافا بالجميل ، مما يفسر قول « جليفر » في نهاية الرحلة الأولى عندما يتأمر البلاط والوزراء ضده : ولذلك قررت ألا أضع ثقتي بعد اليوم في أميرأو وزير .

وان التطابق بين « ليليت » وانجلترا (١٧) اذن واضح من بعض الشخصيات السياسية التي يمكن ان نتعرف عليها من التاريخ ومن بعض تجارب سوفيت عندما كان يعمل قريبا من السياسيين والحكام . ولا شك أنه كان يستنكر حكومة جورج الاول ووزيره ودلبول الذي - اشتهر حكمه بالفساد ، وانه استخدم سخريته لكشف النقاب عن الحياة السياسية كما عرفها . ولكن « الرحلة » أعمق بكثير من كونها هجوما عنيفا مبني على تجربة شخصية محضة ، ومحاولة للأخذ بالثأر ممن خذلوا سوفيت في طموحه . ولو كانت كذلك لما ارتفع كتاب رحلات جليفر الى مصاف الادب العالمي . فهذا المؤلف ، وبالدات الرحلتان الأولى والثانية ، هجوم ساخر على الانسان بوصفه حيوانا سياسيا واجتماعيا .

١٥ - المكان السابق ذكره

١٦ - الازرق Order of the Garter الاحمر Order of Bath الاخضر Order of the Thistle

١٧ - انظر T.P. Lock, The Politics of Gullivers Travels, Oxford, 1980

ورحلة « ليليت » كغيرها من رحلات « جليفر » ، تهتم بالعموميات التي يمكن استخلاصها من الصورة التي قدمها « سوفيت » للحياة السياسية في بلد الاقزام التي تكشف عن تفاهة الانسان وافتقاره الى المبادئ . وليس هناك من هم أنسب لتصوير هذه الصفات من تلك الكائنات الصغيرة . فضآلتها الجسدية كناية عن اخلاقياتها الضحلة ، وتفاهة اهتماماتها تبرز بوضوح عند مقارنتها بغرورها وإحساسها الطاغى بأهميتها . وقد وجد سوفيت في الحياة السياسية حيث الصراعات على المراكز وعلى التقرب من الحاكم ، وجد فيها مثالا للنشاط البشري الاحمق اللامبدأى الذي يؤكد السلوك « البهلواني » والذي لا يليق بانسان وهب العقل ليستعمله .

والمهم في اتجاه رحلات جليفر الساخر ليس مضمون السخرية نفسه وانما الشكل الادبي الذي اخذه ، مما جعل رحلة ليليت أسطورة شعبية يعرفها الصغار والكبار على السواء . ومن العجيب أنها ليست مبنية على حبكة روائية كما في قصة « سندريللا » ، أو على حلم رومانسي كما في القصة « البيوتوية » ولا على شخصية أساسية مثل شخصية سيرانودي برجراك » ، وانما هي مبنية على موقف بسيط بدائي مستمد من الاحلام ، ويتعرف عليه القارى بسهولة لكونه جزءا من عالم خياله الجامح . ويتلخص فن سوفيت في التناقض بين الواقع والخيال الخرافي المنطلق . فهدفه أن يتخلص القارىء من الاوهام وخداع النفس ليواجه الحقيقة ، ولكي يصل الى هدفه يستغل سوفيت أنجذاب الانسان الطبيعي نحو عالم الخرافة ، فيوهم قارئه بأنه سيرحل معه الى عالم سوف يشبع خياله ورغبته في الهروب من الواقع ، ومع ذلك فانه يحاول اقناع القارىء ، عن طريق الدقة في الوصف ، بانه في عالم واقعي . فالخلط بين الخيال والواقع في الشكل والأسلوب هو أحد مميزات « سوفيت » الساخرة ، ولا يلبث القارىء أن يتمادى في الضحك من المواقف المسلية الفكاهية بين « جليفر » وأهل « ليليت » حتى يكتشف أن رحلته هي رحلة الى اغوار الحقيقة ، وليست كما تصورها أول رحلة خرافية ، وان كانت الخرافة هي وسيلة الكشف عن الحقيقة .

وتتلخص موهبة سوفيت الفنية في تجسيد الموقف والفكرة في صورة حية . فيرمز الى حزبي المحافظين والاحرار اللذين كانا في صراع محتدم ، يرمز اليهما باسمي « الترامكسانز » Tramecksans و « السلا مكسانز » Slamecksans او بحزبي « الكعوب العالية » High Heels و « الكعوب المنخفضة » Low Heels والاشارة هنا الى وضع سياسي يمتد الى أبعد من الشخصيات التاريخية والطقوس السياسية من « قفز و » زحف » الى القضايا السياسية والدينية التي شغلت بال العصر .

كانت هذه القضايا السياسية^(١٨) غاية في الخطورة . فقد دفع حزب الاحرار انجلترا الى سلسلة من

الحروب التجارية الدامية المكلفة ، اما حزب المحافظين فقد نجح خلال فترة حكمه القصير في توقيع اتفاقية سلام غيرت من معالم اوربا ومهدت الطريق الى الاستقرار في إنجلترا . ولكن الاوضاع كانت أكثر تعقيدا من ذلك . فكان يؤيدو المحافظين من ملاك الأرض والمحافظين في الدين والاقتصاد وأساليب الزراعة والقيم عامة ، بينما كان الاحرار من المساندين للطبقة التي بنى عليها ثراء المجتمع الانجليزي - أي طبقة التجار البرجوازيين المنشقين عن الكنيسة الانجليزية ، التقدميين في فلسفتهم الاقتصادية والزراعية والتجارية وفي آرائهم في الاخلاق والقيم . وكان الاحرار من أنصار اسرة هانوفر الملكية ، بينما كان المحافظون من أنصار الملك جيمس الثاني الملك المخلوع الذي فر الى فرنسا ، أي انهم كانوا من مساندي القوى التي كانت تهدد الأمة بحرب أهلية . ورغم خطورة هذه القضايا التي كان يتوقف عليها مستقبل إنجلترا ونظام الحكم فيها ، فقد تعمد سويفت أن يظهرها في مظهر تافه عابث . فيقول عن ميل الملك جورج الاول الى حزب الاحرار وعن تردد ولي العهد في اتجاهاته السياسية :

ان الكعب الامبراطوري أكثر انخفاضا عن كعوب أي من أعضاء حاشيته بمقدار « در »^(١٩) على الأقل ونلاحظ أن السمو الامبراطوري وولي العهد يميل الى حد ما الى « أصحاب الكعوب العالية » ، ومن الواضح أن واحدا من كعبيه على الأقل يبدو أكثر ارتفاعا من الآخر ، مما يجعله يعرج في مشيته .^(٢٠)

ويلخص سويفت في هذه الصورة المجسدة للكعوب العالية والمنخفضة « السياسة الحزبية في إنجلترا ومساندة الملك أو مناهضته لها .

أما القضية التي أثارت جدلا طويلا حول المسيحية والانشقاق الديني في إنجلترا ، والتي كانت من القضايا الهامة في عصر سويفت ، فقد رأى أن يصورها بنفس الاسلوب الساخر الذي صور به الخلافات السياسية مقللا في الظاهر من خطورتها . فحول الصراع الديني المير بين الكاثوليك والبروتستانت والعداوة بينهما الى مشكلة « كسر البيضة » كما سماها ، وتتلخص المشكلة في « هل من الأفضل أن تكسر البيضة من القمة العريضة أم من القاع الضيق » ، وسمى الكاثوليك « اتباع القمة العريضة Big — Endians والبروتستانت « اتباع القاع الضيق Little — Endians . وهذا تبدو القضية التي قاست منها إنجلترا سنين طويلة والتي أدت الى اضطهاد ديني وحرب أهلية وثورة قلبت

١٩ - وحدة لياسية في « ليليت » اختصرها « سويفت »

٢٠ - الجزء الاول ، الفصل الرابع

نظام الحكم من ملكية الى جمهورية ، تبدو في رحلة « ليليت » سخيفة وتافهة نتيجة للصورة المصغرة العابثة التي تظهر عليها . وتنحصر سخرية سوفيت في السبب العاثر الذي قدمه كتفسير للاضطهاد الديني الذي أدى الى موت الآف المواطنين الكاثوليك ، وهو رفض « اتباع القمة العريضة من » الاذعان لكسر بيضهم من القاع الضيق .

هذه القضايا السياسية والدينية التي اهتز لها كيان الامة بأسرها ، وان كانت تبدو في « ليليت » من عبث الانسان القزم ، ومثارا للضحك ، الا أنها كانت ذات عواقب وخيمة في انجلترا ، وهنا يظهر للقارئ الفارق الكبير . بين ليليت وانجلترا على الرغم من أوجه الشبه الواضحة بينهما ، فوجود « جليفر » وسط الاقزام وتصرفاته العاقلة وتسامحه واعتداله يعطى القارئ مقياسا انسانيا يحكم به على أهل ليليت ، كما يعطى أملا في استطاعة الانسان دراسة مشاكله بتفهم وعقل ، وتقديم حلول فعالة تتناسب مع مكانته في « سلسلة الوجود الهائلة » . والواقع ان سوفيت رفع « جليفر » في هذه الرحلة الى مكانة تستحق الاحترام ، واثني من خلال شخصيته في ليليت على الانسان العادي ، وعلى قدرته على التصرف الحكيم .

ولا يستخدم سوفيت طريقة السخرية المبنية على صلة « العدسة المصغرة » طوال رحلة ليليت . وانما يلجأ في الفصل السادس الى وسيلة أخرى أساسها فكرة « اليوتوبيا » أى الدولة المثالية الخيالية . وهنا يطرأ تغيير على الدور الذي يلعبه « جليفر » . فبعد ان كان مجرد شخصية عملية تلاحظ ما يدور حولها وتسجله وتتفاعل معه ، يصبح شخصية مثالية تقدمية عائدة من بلد مثالية ، حاملة معها اخبار هذه البلد التي فاقت بلاده في النظم السياسية والتعليم والأخلاق .

وتتحول ليليت الى شكل جديد من اشكال أدب الرحلات « اليوتوبية » وتتناول النواحي التي تبعث على الاعجاب بالانظمة والقوانين والتربية والتقاليد في ليليت ، والتي تفتقر اليها انجلترا . ويلاحظ أن النقد السياسي والاجتماعي والتعليمي الموجه الى انجلترا هو أساسا نقد أخلاقي . فبدلا من ان تسن ليليت « القوانين » لحماية الملكية الفردية وتثني في الافراد الخوف من القانون وتجبرهم على الاذعان له ، فانها تعمل على تشجيع الناس على الفضيلة ، فالنظم في ليليت تكرم أولئك الذين يحترمون القانون وتعاقب الخارجين عنه . وتهدف الانظمة والقوانين في الدولة الى اقناع المواطن بأن السلوك الفاضل في متناول الجميع وفيه مصلحة للجميع ، لأنهم يعتقدون أن « كل انسان يستطيع أن يتحلى بالصدق والعدل والاعتدال وما اليها من صفات » . وبناء على ذلك فان حكم البلاد ليس أمرا عسيرا ولا يتطلب

مهارة فائقة . وهذا ما يكتشفه « جليفر » أبضا في « برويد نجنج » ، وهو أن « تناول الشئون العامة للدولة ليس سرا من أسرار الكون » ، وكل ما هو مطلوب من الحاكم وأعوانه هو « الفضيلة والخلق الطيب والايمان وليس المواهب العقلية » . ولذلك فإن هدف التعليم في ليليت هو تكوين المواطن الصالح . ومن أجل هذا يفصل الاطفال عن أهاليهم في المراحل الأولى من حياتهم حتى لا تتساء تربيتهم ، ويلتحقون بمؤسسات الدولة حيث يعيشون حياة بسيطة ويتفادون العادات السيئة ويتدربون على الفضائل . وهذه هي الوسيلة ، كما رأها « سوفيت » ، لغرس « مبادئ الشرف والعدل والشجاعة والتواضع والرفقة والدين وحب الوطن » فيهم ، وهي الفضائل التي من أجلها يضحي المرء بالحب الأسرى .

ويلاحظ القارئ تناقضا في هذا الانتقال المفاجيء من ليليت بلد الاقزام الذي يجسد عددا كبيرا من نقائص وعيوب الأنظمة في انجلترا في القرن الثامن عشر ، الى ليليت البلد المثالي ، حيث يوجه التعليم والتربية والقوانين الى ترسيخ القيم الاخلاقية . فكيف يصور اقزام « ليليت » التفاهة والوضاعة والفساد والغرور ، وفي نفس الوقت يمثلون مزيجا من الحكمة والعقل والخلق القويم . لا شك أن سوفيت قد تنبه الى هذا التناقض الذي أضعف الشكل الفني للرحلة الأولى ، ولكن سوفيت المفكر تغلب على سوفيت الفنان . وعندما حاول أن يعطى تفسيراً للتناقض ، جاء التفسير واهنا ، وهو أن الأنظمة المثالية والسلوك الشريف والخلق الطيب ، التي وصفها « جليفر » ، ما هي الا اثرباها من آثار الماضي التي اندثرت بمرور الزمن عندما تعرض أهل ليليت لقوى الفساد .

وتنتهى الرحلة مرة ثانية ، كما بدأت ، بصورة غير مشرفة لأهل ليليت « بل ان الصورة تزداد قتامة في الجزء الأخير من الرحلة عندما يتطور الدور الذي يلعبه « جليفر » ، فبعد أن كاد هذا الدور يتلخص في الملاحظة الموضوعية والتعجب من الاقزام الذين يبعثون على التسلية والضحك ، بدأ يأخذ شكلا آخر عندما احتك « جليفر » الطيب الرقيق بأهل ليليت » ، وأخذ يلعب دورا فعلا في حياتهم . عندئذ يظهرون على حقيقتهم أى على جانب كبير من الفساد والنفاق والخداع والقسوة والشر ، بينما يبدو « جليفر » ليس أكبر حجما فقط وانما أعظم خلقا وسلوكا من أهل ليليت الذي لا يتناسب صغر حجمهم مع مدى خطورتهم واتساع شرورهم . لقد ساعد « جليفر » الليلييتين في حربيهم مع بليفسكو وأنقذهم من غزو أكيد ، ولكن عندما رفض أن يقضى قضاء تاما على العدو ، أثار غضبهم ، وأصر مستشارو الامبراطور على تقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة . وبعد الحكم عليه بالموت رأوا « تخفيف » الحكم بفقه عيني ، وتركه ليموت جوعا ، لأن ذلك سيسهل عليهم التخلص من جثته

الضامرة . عندئذ يقرر « جليفر » الهرب لأن بقاءه فيه خطورة على حياته وقد يعرضه دفاعه عن نفسه لتدمير « ليليت » ، وهو لا يرضى لنفسه ذلك الفعل القاسى . فيجمع حاجياته ويهرب أو لا الى « بليفسكو » ثم يبحر على مركب الى انجلترا ، وقد ملأ جيوبه بنماذج من حيوانات ليليت الصغيرة التى تسبب اثارا واهتماما كبيرين فى انجلترا ، وتؤكد حقيقة الرواية التى يسردها « جليفر » عن رحلته .

وبهذا تنقلب روح الفكاهة فى الرحلة الاولى الى نقد لاذع عندما يتضح أنه على الرغم من عظم حجم « جليفر » فإنه لا يملك القوة الكافية لمواجهة وضاعة أهل ليليت الاخلاقية فالقوة التى يتمتع بها « جليفر » فى أول الرحلة يكاد لا يعرف لها حدودا ، والصعوبات التى يلاقيها ترجع الى صغر ووهن الأدوات المتاحة له استعمالها ، فالحيال فى ليليت لا تعدو كونها خيوطا ، وجذوع الاشجار ليست الا عصيا من البوص ، وهناك مشاكل فنية كثيرة تطلب حلولاً سريعة . ولكن المشكلة الجادة التى يصعب التغلب عليها هى مشكلة الانسان أو المشكلة الاخلاقية . وعلى الرغم من قوة « جليفر » الجسدية الجبارة فهو ضعيف بمقارنته بأهل ليليت « فى خداعهم ونفاقهم وخيانتهم وحقدهم وكيدهم وغرورهم وحبهم لسفك الدماء ونكرانهم للجميل . فهم وان كانوا يبدون كالدمى ، الا أن نصيبهم من النقائص البشرية عظيم ، وقدرتهم على التدمير شامل . والخطر المحقق بـ « جليفر » اذن لا ينشأ من الظروف المادية المحيطة به وانما ينشأ من الطبيعة الانسانية القاصرة نفسها ، وعلى هذه الطبيعة تتوقف نوعية الحياة .



(٢) رحلة الى بروبد نجناج A Voyage to Brobdingnag

ويصور سويفت فى الرحلة الثانية الى بروبد نجناج بلاد المردة بنفس نسبة التفاوت فى الحجم الذى سبق أن صوره فى الرحلة الأولى ، ولكن بطريقة معكوسة ، فبينما « جليفر » هو المارد وأهل ليليت هم الاقزام فى الرحلة الاولى ، يصبح « جليفر » هو القزم وأهل ليليت هم المردة فى الرحلة الثانية . واذا ما استخدمنا صورة « سلسلة الوجود الهائلة » فيكون مكان « جليفر » فى أسفل السلسلة « ناظرا الى أعلى ، كما ينظر القزم الى المارد فى الرحلة الثانية ، بينما كان فى الرحلة الاولى فى أعلى « السلسلة » ناظرا الى أسفل ، كما ينظر المارد الى القزم . ويستطيع « جليفر » من علوه ان يلتقط فى نظرة واحدة شاملة

« لليليت » بأسرها . أما في « برويد نجنانج » حيث ينظر من زاوية ضيقة فانه لا يرى الا جزئيات صغيرة من العالم المحيط به . لقد أصبح « جليفر » هنا هو القزم « الليليتي » المسلى الذي لا أهمية له ، وأهل « برويد نجنانج » هم الكائنات المتفوقة ، ويبدو هذا التفوق أول الأمر على المستوى المادى ، أى انه تفوق فى الحجم ، ولكن فى نهاية الرحلة يبدو التفوق أخلاقيا أيضا ، وهذا هو التفوق الحقيقى .

ويهدف سوفيت منذ أول وهلة الى رسم صورة موضوعية لـ « برويد نجنانج » وأهلها كما بدت لأعين « جليفر » القزم ، مؤكدا فى كل خطوة بخطوة التفاوت بين حجمه الصغير والحجم الكبير للأشياء من حوله . فعندما تطلأ قدما « جليفر » لا يلاحظ بيوتا على الإطلاق لأنها خارج مجال بصره لصغرهما وانخفاضهما . وتنعكس الصورة فى « برويد نجنانج » ولا يكاد القزم « جليفر » يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة وسط سنابل القمح التى تشبه الغابة فى كثافتها . ويجعل سوفيت حقل القمح مكان أول لقاء بين « جليفر » والمرذة ليؤكد الشبه بين « جليفر » القزم والحيوان الصغير ، الذى يحاول أن يفر هاربا عندما يشعر بمنجل الفلاحين فى موسم الحصاد . وعندما تراه امرأة الفلاح تعتقد لأول وهلة أنه فأر أو عنكبوت ، فتصرخ وتراجع كما تفعل النساء فى انجلترا « عندما يرين تلك الحيوانات والحشرات . يستخدم سوفيت صور الحيوان هذه بكثرة خلال رحلة « برويد نجنانج » ، موعزا الى العلاقة بين « جليفر » والحيوان ، ولكنه يستخدمها فى أكثر الاحيان ليذكر القارئ بضالة حجم « جليفر » ولاتارة الضحك ، وتكرر هذه الصورة الحيوانية فى الرحلة الاخيرة أيضا فى بلد الجياد ، ولكنها تأخذ أبعادا خطيرة . اما فى « برويد نجنانج » « فجليفر » الحيوان الصغير لا يثير الاشمئزاز . بل أن مظهره وحركاته المسلية تدفع الفلاح الذى يكتشفه الى حمله فى جيبه مسافرا الى انحاء البلاد المختلفة لعرضه على الأهالى مقابل مبلغ من المال ، كما يفعلون فى السيرك .

وتطغى روح الفكاهة على الجزء الأول من رحلة « برويد نجنانج » حيث تكثر المواقف الفكاهية المبنية على فكرة النسبية فى الحجم . ففى أحد المشاهد يكاد الطفل المارد أن يتلع رأس « جليفر » ، وفى مشهد آخر يلقى مهرج البلاط القزم « بجليفر » فى صحن من القشدة حيث يكاد يفرق لولا أنه يجيد السباحة . ويسقط التفاح كالعنابل على رأسه ، وتهاجمه حداة ، ويتعثر فى قوقعة ويتعصر فى عظمة نخاع ، ويقع فى أسر قردة تصر على أن تدفع الأكل الى فمه معتقدة أنه أحد أبنائها . ويمتاز المشهد الأخير بروح الفكاهة والمرح التى لا تشوبها سخرية . ، ومع ذلك ففيه ما يذكر القارئ بأن « جليفر » ينتمى الى عالم الحيوان . وهذه هى الحقيقة الى لا نستطيع تجاهلها أو الهروب منها فى الرحلة الرابعة . وحتى فى هذه الرحلة الثانية لا يتصور ملك « برويد نجنانج » أول الأمر أن « جليفر » كائن عاقل .

وتبدو طبيعة « جليفر » الطيبة في أول رحلة « برويد نجناج » ، فهو لا يغضب. أو يثور عندما يجد نفسه في مواقف حرجة أو في مازق تكاد أن تودى بحياته ، بل انه يتقبل كل شيء بصدر رحب وبروح مرحة ، فيتقرب الى كل من حوله ، ويحبونه كما يحب المرء الحيوان الصغير الأليف . وليس هناك أثر لسخرية الكاتب وهو يسرد مغامرات « جليفر » في بلد المردة ، بل انه يميل الى الاعجاب بروحه الخفيفة .

وأقصى ما يصل اليه نقد سوفيت في هذا الجزء من الرحلة الثانية هو التهكم البسيط من هذا الكائن الصغير الذى يحاول أن يعطى لنفسه أهمية لا تتناسب مع حجمه . فحركات « جليفر » وإيماءاته بعد تعثره في كسرة من الخبز فيها مبالغة مضحكة ويصف « جليفر » الموقف قائلا :

لقد قمت من وقعتى في الحال ، وعندما لا حظت قلق الناس الطيبين من حولى أخذت قبعتى (التى كنت أضعها تحت ذراعى علامة السلوك الحسن ولوحت بها من أعلى رأسى هاتفا ثلاث مرات لأريهم أنه لم يتشبهى أي سوء من عثرتى . (٢١)

ويبدو « جليفر » بنفس المظهر المضحك الساخر الخفيف عندما يتصارع مع فأرين هائلين يهجمان عليه وهو نائم . ويظهر غروره عندما نراه يتسم بفخر مشيرا الى الفأر الذي قتله ، والدماء تتساقط من سيفه الصغير . فتنادى سيدته خادمتها لتتخلص من الفأر الميت ، وتمسك به الخادمة بملقاط ملقية به من النافذة ، ثم تضع « جليفر » على المنضدة وتمسح الدماء من سيفه الذي يعيده مثل البطل المغوار الى غمده . وغرور « جليفر » كان يبدو طبيعيا لو أن مغامراته كانت وسط أقرانه في الحجم ، ولكنها تبدو مضحكة متى رأيناها من خلال أعين المردة .

ولكن الرحلة الثانية لا تستمر طويلا على مستوى الفكاهة والمرح ، ولا تلبث سخرية سوفيت أن تطفو على السطح من جديد . فيستخدم المردة الطيبين لتوجيه ضربة قوية الى غرور الانسان ، عندما يقدم لأول مرة في الرحلات الشعور بالاشمئزاز من الجسم الأدمى الذي عرف به سوفيت ، والذي يتضاعف الى درجة تجعله يسود الرحلة الرابعة في بلاد « الهوينومز » ولعل في هذا الاشمئزاز ردا على فلاسفة القرن الثامن عشر الذين أعجبوا بجسم الانسان لكماله وابداعه اللذين يتناسبان مع وضعه في نظام الكون . والسؤال الذي يطرحه سوفيت بطريق غير مباشر عندما يصور المردة من خلال عيني « جليفر » هو : « كيف يبدو جسم الانسان للكائنات الأصغر منه بكثير ؟ كيف يبدو للحشرة مثلا ؟

(أى «جليفر») وتتوقف الاجابة على السؤال على وجهة النظر ، فالجمال والقبح مسألة نسبية .
ويجيب سوفيت على السؤال باتخاذ وجهة نظر « جليفر » الذي يشتمل لمنظر المردة الذين يرى دقائق
أجسامهم كأنه يتفحصها تحت مجهر مكبر ، فلون جلدهم مبقع ، ومسامهم كالثقوب الكبيرة ،
وشعرهم كالأسلاك الشائكة ، ورائحة أجسامهم تثير الغثيان . . ويبلغ الاشمئزاز اشدّه عندما يشارك
القارىء نفور « جليفر » من منظر الشجاذين الذين انتشر في أجسامهم السرطان والقمل . . وهذا
التركيز على قبح الجسم البشرى يهىء القارىء لنفس النفور والاشمئزاز اللذين يشعر بهما « جليفر »
عندما يواجه « الياهو » فى الرحلة الاخيرة ، وهم رمز للجسد والغرائز . ويلاحظ ان هذا النفور يمثل
الحرب التى خاضها سوفيت طوال حياته ضد الجسد ، وبعد واحدا من خصائص كتاباته . وأيا كان
التفسير الشخصى لهذه النظرة النافرة ، فالمهم أنه استخدمها استخداما فنيا ناجحا ليكشف بها عن
نواحي الانسان الحيوانية ، المادية منها والمعنوية .

ولا يتطرق سوفيت الى الرمزية فيما يتعلق بالنفور من الجسد فى رحلة « برويد نجانج » ، فاشمئزاز
« جليفر » ناتج فى الواقع عن قصور فى زاوية رؤيته لصغر حجمه . وهو لا يستطيع أن يرى الا
التفاصيل المكبرة من جسم المارد ، بحيث يرى الجزء وليس الكل ، وبذلك يفوته التناسق فى الشكل
الكلى وتبدو التفاصيل مشوهة .

وي فشل « جليفر » بنفس الطريقة فى تطبيق النظرة الشاملة على أخلاقيات اهل برويد نجانج .
وكما يفوته شكل « البرويد نجانجين » الجسدى الكامل ، يفوته أيضا مستواهم الاخلاقى الرفيع .
وهنا نتكشف سخرية سوفيت اللاذعة فى الرحلة الثانية ، ويبدو « جليفر » ضئيل الجسم وضعيف
الخلق عندما يتباهى بانجازات بلاده السياسية والتعليمية ونظامها الحزبى الرائع التى يعتبرها ملك «
برويد نجانج » عن حق فاشلة تماما . وفى مشهد ساخر يلخص فيه سوفيت وجهة نظر الملك ، يمكس
المارد « بجليفر » بين الابهام والسبابه ويربت عليه برقة مستفسرا بتهكم عن ميوله السياسية ، فيسأله
« وهل انت من حزب الاحرار » أم حزب « المحافظين » (٢٢) وكأنه يلقي سؤاله على حشرة صغيرة .

ولا يبنى سوفيت نقده لمجتمع « جليفر » على المبالغة فى مثالية مجتمع « برويد نجانج » فالمردة لا
يختلفون عن البشر الا فى حجمهم ، وهم مزيج من الخير والشر ومن الحكمة والحماسة ، ويتصفون
بالطيبة ولكنهم قساة أيضا فى بعض الاحيان . ويستخدم سوفيت صغر حجم « جليفر » ليظهر هذه

الناحية القاسية في سلوكهم وان كانت غير متعمدة ، وذلك عندما يطوف الفلاح « جلغير » في انحاء البلاد جريا وراء المكسب ، دون مراعاة للارهاق الذي يسببه « جلغير » الضعيف البنية . ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يوصف مجتمع « برويد نجنج » عامة بالقسوة المقصودة والشر المعظم المخطط ، كما هو الحال في مجتمع « جلغير » الذي تطور فيه الفساد والروح العدوانية ، حتى بلغت درجة من التعقيد يصعب معها تحليل أو تفهم دوافعها . بل يمتاز أهل « برويد نجنج » بالبساطة والتواضع والامانة وحسن المعاملة . وأهم من هذا فهم يحبون السلام ويكرهون الحرب ، ولا يسعون الى المجد الزائف ، وانما يتغنون الحياة الهادئة غير المعقدة . ويمثل ملكهم الصفات التي يعجب بها سوفيت : « التفهم الممتاز والعقل والخصافة » ، ويتخذ سوفيت من هذا الملك المارد حكما للمجتمع الانجليزي والاوربي الذي يفخر به « جلغير » . ويمثل في ردود أفعاله لكل ما يقوله « جلغير » عند وصفه لأنظمة مجتمعه السياسية والحروب التي يخوضها ، يمثل الحكمة الطبيعية والتجربة الانسانية التي تفوق نظرة « جلغير » المشبوهة للأشياء . ويستخدم الملك كمقياس للزيف الاخلاقي الذي يدافع عنه « جلغير » دون وعي ، ومن خلال وجهة نظره العاقلة يبدو « جلغير » قزما في قصوره الخلقية .

وتتضح سخرية سوفيت تدريجيا في المقابلة بين الملك و « جلغير » ، فعندما يطلب الملك منه تقريرا عن نظام الحكم في بلاده ، وعن السياسة والتعليم وتربية الطفل وسلوك المواطن ، يجب عليه « جلغير » باعتداد وحماس الوطني الذي يريد أن يظهر أمتة في أحسن صورة . ويشاركه القاريء في موقفه أول الأمر ، وينبهر بأسلوبه الخطابي في وصفه لعظمة انجلترا ونظامها الطبقي ودستورها وقوانينها ومجدها الحربي وتاريخها العريق ، في هذه الاثناء يترك الملك العنان « لجلغير » دون أن يقطع عليه حديثه . ويلاحظ القاريء صمت الملك الذي ينصت باهتمام وتركيز وتفكير ، وبعد قليل بداخله الشك في صحة وجهة نظر « جلغير » ، وهو شك مبني على العقل والتفكير المتزن ، ثم يبدأ الملك في التساؤل ، وي طرح السؤال تلو الآخر دون هوادة ، وهنا ينقلب الوضع ويغلب على « جلغير » الصمت ، بينما تبدو أسئلة الملك ثابتة نفاذة . وبدلا من ثناء « جلغير » المباشر على وطنه يظهر نقد وتهكم وسخرية الملك بطريقة غير مباشرة تتدرج نحو القوة ، الى أن يأتي النقد اللاذع والضربة القاضية في نهاية المشهد عندما ينطق الملك بحكمه بعد أن يكون القاريء قد انتقل بتعاطفه الى وجهة نظر الملك السليمة الصائبة .

والأسئلة البريئة في ظاهرها التي يطرحها الملك على « جلغير » كلها أسئلة « توطيئية » ، أي انها تحوي اشارة الى الجواب ، وهي في جميع الأحوال جواب بالنفي ، وقد رأى سوفيت أن تبقى أسئلة

الملك المحرجة ذات صبغة عامة تنطبق على كل زمان ومكان دون انتظار إجابة خاصة من « جلغير » ، مما جعل نقد المجتمع في رحلة « برويد نجنج » عاما شاملا أكثر منه معاصرا وانجليزيا كما هو في رحلة « ليليت » ، ومن بين أسئلة الملك : « ماهي الأساليب المستخدمة لتنمية أجسام وعقول شبابنا الارستقراطي ، وكيف يمضون السنين الأولى من حياتهم التعليمية ؟ » ويعطي هذان السؤالان للقارئ و « جلغير » معا دفعة الى التفكير جديا في نظام التعليم في أيامهما والحكم عليه بمقاييس رفيعة ، والتساؤل عن مدى نجاح ذلك النظام في اثراء مجتمعا والدور الذي يلعبه في تطور وعي شبابنا وتنمية فكره وايداعه وتذوقه للحياة . ويتنقل الملك بعد ذلك الى السؤال عن النظام المتبع في اختيار من يستند اليهم مقاليد الحكم والكفاءات المطلوبة لذلك : « هل يتوقف ذلك الاختيار على مزاج أمير او ملك ؟ او على مبلغ من المال يقدم لسيدة من سيدات البلاط او لرئيس وزراء . . . وهل هم متحررون من الجشع والتحيز والحاجة الى درجة تبعد عنهم اغراء الرشوة او غيرها من السلوك الخبيث ؟ وهل يرقون الى تلك الوظائف على أساس معرفتهم بالأمور الدينية وصلاحيات حياتهم وقداستها ؟ ويطرح الملك أسئلة مشابهة عن أعضاء مجلس الشعب والأسلوب المتبع في انتخابهم ، والدور الذي تلعبه الرشوة والفساد في ترشيحهم . وتليها أسئلة عن مفهوم العدل وتطبيقه ، وعن الحروب وجيوش المرتزقة ، والصراعات الداخلية في البلاد ويتضح من هذه الاسئلة أننا نستمتع في نفس الوقت بطريق غير مباشر الى مباهاة أحد أقزام « ليليت » بعظمة بلاده التي نراها من وجهة نظر ملك « برويد نجنج » فتبدو صورة للفساد والانحلال ، أما « جلغير » القزم ، جسما وعقلا وخلقا ، فيتحدى في الافتخار دون أن يعي الأثر المروع الذي يتركه على سامعه ، الحاكم العادل الذي يطبق المقاييس الأخلاقية في حكمه . ويسخر « جلغير » من ضيق أفق الملك الذي لا يستطيع أن يفهم عظمة انجلترا ومجدها كما يصورهما « جلغير » له . فتكون السخرية المضاعفة هنا في عدم فهم « جلغير » لتعجب الملك مما سمعته أذناه . ويحكم الملك على الاوضاع في انجلترا حكما لاذعا مريرا :

لقد ذهل (الملك) تماما للتقرير التاريخي الذي أعطيته عن أحوالنا خلال القرن الماضي . واعترض عليها قائلا بأنها ليست إلا سلسلة من المؤامرات والتمرد وجرائم القتل والمذابح والثورات والنفي . وكلها من أسوأ آثار الجشع والحزبية والانشقاق والنفاق والغدر والقسوة والحقن والجنون والكراهية والحسد والشهوة والنكاية والطموح . (٢٣)

وهكذا تتكشف أخلاقيات « جلغير » التي تتناسب مع حجمه « الليليتي » ، ويبدو التطابق بين

حجم الملك المارد وقيمه . ونستنتج من أسئلته « جليفر » أن البديهة والعقل والرحمة هي أصول من الحكم والسياسة ، وأن المؤهلات المطلوبة من المتقدمين لوظائف الحكم في الدولة هي التقوى والصلاح والبسالة والنزاهة والحكمة ، التي تتمثل في ملك « برويد نجنج » نفسه الذي يحترم المكاييد السياسية والغدر ، ويمجد المهارة التي تستطيع أن تنتج سنبلتين من القمح أو ورقتين من العشب في نفس التربة التي سبق أن أنتجت واحدة فقط ، ويستعصي على الملك الطيب الذي يحكم شعبا بسيطا أن يفهم أسباب الحروب والتعصب الديني والصراعات السياسية . فالحكم في « برويد نجنج » ليس وليد الرغبات والشهوات الشخصية ، ولا يعتمد على أسرار تعرفها القلة ، وإنما أساسه احترام القانون والخلق الفاضل . وتبدو القيم الأخلاقية واضحة في تعليق الملك الساخر على مباهاة « جليفر » ببلاده ونظمها ، ويحيى حكمه شاملا للجنس البشري بأجمعه في قوله :

لا يسعني إلا أن استنتج مما قلته أن أهل بلادك في مجموعهم هم جنس دنيء مقيت من الحشرات ، بل أنهم أبغض ما سمحت الطبيعة في أي زمن من الأزمنة أن يزحف على وجه الأرض . (٢٤)

ولا تنتهي سخرية سوفيت عند هذا الحد ، بل إن الحوار المذكور مع الملك ليس إلا مقدمة لسخرية أكثر حدة مما سبق . لقد باءت بالفشل المحاولة الأولى التي قام بها « جليفر » ليهرب الملك بعظمة وقوة بلاده . ومع ذلك فلم يظهر « جليفر » نفسه بمظهر كره في هذه المحاولة ، فهو مجرد الشخص المحب لوطنه ، المتحمس له ، الذي يتباهى بما يعتقد أنها إنجازات هائلة . وكما أن الملك في حكمته لا يستطيع أن يعقل اعتزاز « جليفر » ببلاده الوحشية فإن « جليفر » أيضا في جهله لا يستطيع أن يفهم موقف الملك الساخر . وبدلا من أن يلقي « جليفر » اللوم على الملك فإنه يبدو بمظهر الشخص المتسامح العاقل الذي يحاول أن يجد المبررات لموقف الملك ، فيقول في ترفع : « يجب أن نلتمس الأعذار للملك عاش حياة منعزلة عن بقية العالم حددت من معرفته وتفكيره » ، والسخرية هنا من « جليفر » لأنه في ادعائه التفهم والتسامح نحو ما يعتبره قصورا في تفكير الملك إنما يكشف عن ضيق أفقه هو .

أما في الحوار التالي مع الملك فيكشف سوفيت عن نقائص خطيرة في « جليفر » تجعله نموذجا للجنس البشري المدمر البغيض الذي أشار إليه الملك في تعليقه . وتصبح السخرية بذلك لاذعة إلى أبعد الحدود . ويظهر « جليفر » في أصغر حجمه وأقصى دناءته عندما يعرض على الملك هدية ثمينة يعتقد

انه لا يمكن لأحد في قواه العقلية أن يرفضها . وهذه الهدية هي « سر اكتشاف البارود » . ويعطي « جليفر » صورة كثيرة لخطورة هذا الاكتشاف ومدة أثره على البشرية من قتل ودمار . فيجيء رد فعل الملك عكس ما كان منتظرا . ارتاع الملك للتفاصيل الفظيعة التي رواها « جليفر » ، واعتبره مجردا من الانسانية لانه روج لتلك الافكار المروعة ، وحرّم عليه ذكر هذا الموضوع كلية . ولكن « جليفر » يفشل في فهم وجهة نظر الملك ، ويأخذ في السخرية منه ، الى ان تنعكس السخرية على « جليفر » نفسه ، فيعتبر رفض الملك لهديته « الثمينة » دليلا واضحا على « علمه المحدود . . . ومبادئه القاصرة ونظراته الضيقة » ويكمن التهكم هنا في أن قصور مباديء « جليفر » هي التي أعمتته عن الحقيقة ، حقيقة لا انسانيته ، وحقيقة انسانية الملك . ونلمس في الاقتباس التالي فزع الملك الواضح من الأساليب الفتاكة التي تستخدمها أوروبا ، والتي تجعل الانسان وحشا ضاريا :

لقد ارتاع الملك للوصف الذي قدمته لتلك الآلات الفظيعة ، وللاقتراح الذي عرضته عليه . لقد تعجب كيف تستطيع حشرة عاجزة ذئبة مثلي (هكذا كان تعبيره) أن تفكر بهذا الأسلوب الوحشي كأنه شيء عادي ، دون أن تبدي أي تأثير على الإطلاق لمشاهد الدم والخراب التي رسمتها كنتيجة طبيعية لتلك الآلات المدمرة . . . أما من ناحيته هو فقد صرح مؤكدا أن الاكتشافات الجديدة في الفن والطبيعة هي أكثر الأشياء التي تدخل عليه السرور ، ومع ذلك فهو يفضل أن يفقد نصف مملكته من أن يشارك في مثل ذلك السر الذي أمرني ألا أعود الى ذكره أبدا ، لو كنت أحرص على حياتي . (٢٥)

لقد نجح سوفيت في أسلوبه الساخر في هذا الجزء من الرحلة الثانية في تأكيد لا وعي « جليفر » الساذج وثقته العمياء بنفسه وآرائه . « فجليفر » في غمرة غروره في غفلة عن الأثر السيء الذي يتركه في حديثه على الملك ، وعن الصورة المروعة التي تحطمه كلية في نظر كل من الملك والقارئ اللذين يريان من خلال عيني الملك المارد العاقل الحكيم ، وبذلك يصبح « جليفر » الممثل الشرس لانسانية فاسدة قاسية . وإلى جانب السخرية المتضمنة في موقف « جليفر » من الملك ، هناك السخرية المتضمنة أيضا في حجم « جليفر » المثير للضحك بمقارنته بحجم الملك . فغرور « جليفر » كما هو الحال مع أهل « ليليت » يتنافى مع حجمه وخطابته وتشاخه ، وخاصة عندما تذكر أن الملك يستطيع أن يحتويه بين أصبعي الإبهام والسبابة .

وربما بدا للبعض أن سوفيت حين ينظر الى « جليفر » من علوشاهق ، أي من مستوى نظر المارد ،

يريد أن يفصل بين القاري وبين الجنس البشري بأجمعه . ولكن الواقع في هذه الرحلة غير ذلك ، لأن أهل « برويد نجناج » وهم أيضا ممثلون للبشرية بما فيها من عيوب ومحاسن . فالملك كائن ذكي وعاقل وفاصل ، وتمثل أخلاقياته أحسن ما في الإنسان من إيجابيات ، ومع ذلك فهو ليس نموذجاً مثالياً فوق مستوى البشر . ولا يجد القاري صعوبة في تطابق وجهة نظره مع وجهة نظر الملك والعدول عن وجهة نظر « جليفر » « الليليتي » . وقد توصل سوفيت في هذه الرحلة إلى الفصل بين طرفي النقيض في الإنسان : الطرف الدنيء الشرير والطرف العاقل الذي يجيد الحكم على الأشياء . وعن طريق التقابل بين الطرفين المجسدين في « جليفر » والملك نرى كلاهما على حقيقته ، وندين الناحية الشريرة ونتقبل الناحية الفاضلة .

أن رحلة « برويد نجناج » هجوم عنيف على سلوك ودوافع الإنسان الجنونية ، ودفاع عن السلوك الأخلاقي في جميع نواحي الحياة ، ومع ذلك فلا يشعر القاري أن سوفيت يلقنه درساً أخلاقياً أو موعظة ، لأنه يستخدم جميع أساليب الفنان الحق . فهو يضع نصب عينيه طوال الرحلة المقابلة التي بدأها بين الحجمين الكبير والصغير ، كما يستخدم التصوير الواقعي الدقيق إلى جانب الخيال الخارق ، ولا يبالغ في تصوير المردة البسطاء الذين يعيشون على سجيتهم وتحلون بالصفات الإنسانية . وفي جميع الأحوال يلجأ « سوفيت » إلى الصورة المرئية المجسدة التي تضمن نقطة القاري . وتروق كتابته على مستوى الفكاهة والفكر الجاد معا ، وهي مزيج متعادل من السخرية الناعمة في مظهرها واللاذعة في باطنها .

وعندما يعود « جليفر » إلى بلاده بعد نهاية رحلة « برويد نجناج » يتصرف وكأنه عائد مرة ثانية إلى ليليت . فتعوده على المردة يجعل من الصعب عليه أن يرى أهله في حجمهم الحقيقي ، بل يبدون بالمقارنة بمردة « برويد نجناج » كالأقزام . ويؤكد سوفيت هذه الصورة بتصرفات « جليفر » التي تبعث على الضحك ، والتي تثير في أهله الشكوك حول قواه العقلية . وهذا موقف يتكرر في نهاية الرحلة الأخيرة أيضا ، ويتضمن إلى جانب الفكاهة سخرية موجهة إلى أهل وطنه . ويقول « جليفر » في وصفه لعودته إلى إنجلترا :

وبينما كنت أسير في الطريق لاحظت صغر حجم البيوت والأشجار والماشية والناس ، فخيّل إلى أنني في « ليليت » وكنت أخشى أن أدهس كل مسافر قابلته في الطريق ، مما عرضني مرة أو مرتين للضرب بسبب وقاحتي .

وعندما وصلت الى منزلى ، الذي اضطرت أن استفسر عنه ، فتح أحد الخدم الباب ، فانحنيت لأدخل (كما تفعل الأوزة) خشية من أن يصطدم رأسى بالباب . وخرجت زوجتى لمعانقتى ، ولكننى انحنيت الى مستوى أقل من مستوى ركبتها ، اعتقاداً منى أننى ان لم أفعل ذلك لما استطاعت أن تصل الى مستوى فمى . وركعت ابنتى لتطلب بركى ، ولكننى لم استطع أن أراها الى أن نهضت . وكل ذلك لأننى تعودت لمدة طويلة أن أقف ورأسى وعينائى الى أعلى على مستوى ستين قدماً . ثم اقتربت لأرفعها بيد واحدة وضعتها حول خصرها . ونظرت الى أسفل الى الخدم ، والى واحد أو اثنين من الاصدقاء الذين كانوا فى المنزل ، وكأنهم أقزام وأنا مارد . . وبالاختصار فقد تصرفت على نحو يدعو للغرابة الى درجة أنهم كانوا جميعاً من رأى القبطان عندما قابلنى لأول مرة ، واعتقدوا أننى فقدت عقلى . وأنا أذكر كل هذا كمثّل للأثر الذى تركه العادة والتعصب فى حياتنا . . (٢٦)

وهكذا يبدو أن « جليفر » فى هذا التصرف قد أخذ يشعر بالهوة التى تفصله عن ذويه نتيجة لتجاربه الشخصية فى رحلاته . لقد بدأ ينظر الى أهله كما نظر الملك اليه . انها نظرة المارد الى القزم .



٣ - رحلة الى « لايوتا » و « بلنباربى » و « جلبدربى » و « لجناج » - A Voyage to Laputa , Balnibarbi , Glubbdubdrib and Luggnagg .

هناك ما يشير فى نهاية الرحلة الثانية الى أن « جليفر » بدأ يرى الأشياء من وجهة نظر أهل « برويد نجناج » الذين سبق أن انتقدهم وسخر منهم . وكان من أسباب انتقاده اهتمامهم الناحية الفكرية المجردة والبحث العلمى النظرى ، فقد انصب اهتمامهم على ما هو عملى ومفيد فى الحياة اليومية العادية ، وطبقوا دراساتهم للرياضيات تطبيقاً عملياً مستفيدين منها فى تطوير الزراعة والميكانيكا . ولم يستطع « جليفر » طوال بقائه فى « برويد نجناج » أن يقرب الى أذهان أهلها الأفكار المجردة . واعتبر فشله فى هذا نقصاً فى تكوينهم العقلى ، ومن الواضح من تعاطف سوفيت مع أهل « برويد نجناج » وسخريته من « جليفر » أنه لم يكن يحبذ الاتجاه العلمى النظرى الذى أعجب به « جليفر » ومال اليه عصره . ولم

يؤمن سوفيت بأن كثيرا من المزايا العملية قد تعقب اكتشاف نظريات علمية تبدو لأول وهلة عريضة للرجل العادي . وكان في رأيه أن هدف العلم والتكنولوجيا يجب أن يكون أولا وآخرها الفائدة التي تعود على الإنسان . انها بديهية لا يمكن انكارها . وفي الرحلة الثالثة يسخر سوفيت من بلاد فشلت في الاعتراف بتلك البديهية ، ويكشف عما لا بد أن يحدث في مجتمع أطلق فيه العنان للاتجاه النظري البحث .

وعلى الرغم من أن سخرية سوفيت موجهة في هذه الرحلة الى المواقف والأنظمة المعاصرة ، وإلى السياسيين ورجال العلم ومطوري الزراعة والمخترعين والمكتشفين ، إلا أنها ليست موجهة الى أشخاص أو سياسة بالذات ، كما هو الحال في رحلة « ليليت » فالسخرية أكثر شمولاً منها في الرحلة الأولى ، وقد صوبت الى السعي المحموم وراء كل جديد ، والافتقار الى ما هو عملي وما يمل به العقل ، وإلى الفوضى السائدة في القيم ، وقد أدخل « سوفيت » في هذه الرحلة كل ما تبقى من مادة لم يجد لها مكانا في الرحلات الأخرى مما يفسر التفكك البنائي الملحوظ . بعكس الوحدة الحركية والطابع المميز للرحلات الأخرى ، ومع ذلك فهناك على الأقل موضوع واحد مشترك ، وهو سوء استعمال الإنسان لعقله ، والواضح في الاتجاه الى الفصل بين العلم واحتياجات الإنسان .

ولم يكن « سوفيت » متبحرا في العلم ، ولكنه لم يكن جاهلا به تماما . لقد قرأ في العلوم المعاصرة وتطورها ، وكان على معرفة بديكارت ونيوتن ، كما كان متتبعا تقارير ومناقشات « الجمعية الملكية » . والشيء الذي راعه في مجال العلم هو غلو كثير من العلماء والباحثين في غرورهم وتعاليمهم ، وفي اعتقادهم بتفوقهم على الفرد العادي ، وتماديهم في أبحاث لا علاقة لها بواقع الحياة . ففلاسفة « الجزيرة الطائرة » تائهون في تجريدات الرياضيات والموسيقى والفلك ، وبدلاً من أن تتبع الرياضيات الأشكال الطبيعية للأشياء ، فقد شكل « اللايوتيون » الأشياء لتتفق مع الرياضيات . فقد مواعدهم من طيور وحيوان على مواعدهم بأشكال هندسية ، وأعجبوا بالنساء لا بجمالهن وإنما للتشابه بين أجسامهن وبين أشكال معينة . وطبقوا أسلوبا رياضيا معقدا في حياكة الملابس ، فجاءت غير متناسقة مع مقاييس أجسامهم . ومن الأدلة التي تشير الى بعد سكان هذه الجزيرة عن الواقع موقفهم من زوجاتهم وعدم شعورهم بالغيرة عليهن على الإطلاق ، فزوجاتهم أمام أعينهم ، ومع ذلك لا يلاحظون شيئا مربيا في سلوكهن . ويرمز « سوفيت » الى الرجل الذي يحيا حياته منقطعا عن العالم المادي بصورة إنسان ذي عين مصوبة الى داخله والعين الأخرى الى السماء . ويقدم وصفا لسلوك ومظهر هؤلاء الرجال العجيبين ومعهم مرافقوهم الذين سماهم « سوفيت » « بالمنهين » ومهمية « المنه » تنبيه الباحث الى مالا يسمعه ومالا يراه يخفق قرية منفوخة تحوي حبات من الفول عند شفثته

وأذنيه ، ليسمع ويتكلم عندما يخاطبه أحد ، ويحكى « جليفر عن عجائب سكان جزيرة « لا بوتا »
قائلا :

وكانت رؤسهم جميعا منحنية إما الى اليمين وإما الى اليسار واحدى اعينهم متجهة الى الداخل والأخرى متجهة مباشرة الى كبد السماء . وكانت ملابسهم الخارجية مزينة بأشكال من الشموس والأقمار والنجوم ، المتداخلة مع أشكال أخرى لآلات موسيقية مثل الكمان والفلوت والقيثارة والبوق والهارسيكورد وغيرها من آلات موسيقية نعرفها في أوروبا . ولاحظت هنا وهناك كثيرا من الأشخاص في زي الخدم يحملون في أيديهم قوبا منفوخا مثبتة في طرف عصي قصيرة ، وتحوي القرب كمية من حبات الفول الجاف أو الحصى الصغيرة الحجم . وكانوا يخفقون هذه القرب من آن لآخر قريبا من أفواه وأذان الواقفين بجانبهم . ولم أفهم دلالة هذا التصرف أول الأمر . ولكن اتضح لي أن هؤلاء الأشخاص منهمكون في تأمل عميق الى درجة أنهم لا يستطيعون الكلام ولا الاستماع الى حديث الغير دون أن ينبههم أحد الى ذلك بلمسة خفيفة على أعضاء حديثهم وسمعهم . وهذا هو سر احتفاظ من تسمح لهم ظروفهم المادية بـ (منه) كخادم في الأسرة . وهم لا يخرجون أو يقومون بزيارة اطلاقا الا ومعهم « المنبه » . (٢٧)

ويلاحظ في الفقرة السابقة بساطة أسلوب « سوفيت » المباشر ووضوح الصورة التي تعبر عن الفكرة . فالمجاز عنده ليس حلية وإنما هو أسلوب التفكير والفهم . وفي الرحلتين الأولى والثانية يجسد رؤيته للأشياء في صورة « نسبية الحجم » وتظهر الفكرة على نحو مبسط أساسه تكبير الصورة أو تصغيرها . وهذا أمر مستساغ لأن الأفكار التي يريد أن ينقلها الى القارئ تتفق مع مثل ذلك التجسيد . أما في الرحلتين الثالثة والرابعة فعملية التجسيد أكثر تعقيدا ، وعلى « سوفيت » أن يظهر براعته في إبراز الفكرة المجردة بالوضوح الحسي ووقعه . وترجع الصعوبة هنا الى أنه لا يمكن أن يرمز الى الصفات الذهنية والفكرية والمقاييس العقلية بالصورة « الكمية » أي بالحجمين الكبير والصغير ، فكيف يصور العالم الباحث الذي يخلق بفكره بعيدا عن الأرض وعن كل ما هو مادي ، وكيف ينقل الى القارئ أسلوب حياته غير الطبيعية ؟ لم ير « جليفر » في رحلاته العديدة جنسا من البشر في مثل غرابة أهل « لا بوتا » الذين يكرسون كل جهودهم لأبحاث عابثة في محاولة « لغزل خيوط العنكبوت » و « استخراج أشعة الشمس من الخيار » و « تليين الرخام لصنع وسائل صغيرة لحفظ الدبابيس » و « استخراج الحرير الملون من الذباب » ، واكتشاف طريقة « للبناء من أعلى الى أسفل » . ومع ذلك

نجح سوفيت في تجسيد هذه النظرة العجيبة للأمور التي تفصل بين عقل الانسان وجسمه . فالى جانب الأمثلة التي يذكرها سوفيت ليقرب الى الاذهان حماقة هؤلاء « العلماء الباحثين » وبعدهم عن الواقع في تجاربهم ، يستخدم صورة « المنبه » الساخرة التي تجسد فكرة الهوة الشاسعة بين « عقل » « أهل » لا بوتا « وحواسهم .

« والجزيرة الطائرة » ، وهو معنى كلمة « لا بوتا » ، ليست مجرد مجاز للعلم ، وانما هي أيضا صورة لما يحدث عندما تتركز السلطة السياسية في أيدي مجموعة من الناس غير العاملين الميالين الى التجربة والعفوية ، والبعيدون في اهتماماتهم وتفكيرهم عن احتياجات البشر الأولية . وتبدو مآسي وخطورة هذا النوع من الحكم عندما يزور « جليفر » « بالنباري » التي تحكمها « لا بوتا » فيقول في وصفه :

كان الناس في الشوارع ، وكان مظهرهم شاردا ، ونظراتهم شاحصة ، واجسامهم مغطاة باسمال بالية . ومررنا من أحد أبواب المدينة ومشينا حوالي ثلاثة أميال في الريف حيث رأينا عددا من الفلاحين يعملون في الارض ، ادوات مختلفة . ولكنني لم استطع أن اعرف ماذا كانوا يفعلون . كما انني لم ألا حظ ما يدل على احتمال وجود قمح أو حشائش بالرغم من أن التربة كانت تبدو ممتازة . (٢٨)

ان « لا بوتا » محكومة بمجموعة من الأشخاص الطائشين الذين يحكمون بمقاييس علمية مجردة ، ولا يأبهون بالمقاييس الأخلاقية وبواجب الانسان نحو أخيه الانسان ، فالجزيرة الطائرة عديمة الصلة بالبلاد التي يحكمونها ويستغلونها . ويشير « سوفيت » هنا بالذات الى حكم انجلترا الظالم لايرلندا . وقد جعل موقع « لا بوتا » الجغرافي ، باعتبارها جزيرة طائرة ، موقف قوة ، فهي تستطيع ، كما يقول جليفر « أن تحجب الشمس وتمنع المطر عن البلاد التي تقع في ظلها متى أرادت أن تنزل بها عقابا . وفي امكانها أن تحطم كل محاولة للمعارضة في البلاد التي تقع تحت سيطرتها بمجرد أن تهبط عليها بثقلها فتسحقها سحقا . ولا يسع القاريء الا أن يقارن بين هذا الحكم المستبد وحكم ملك « برويد نجنج » الحكيم المستنير :

وهناك نتائج أخرى خطيرة لدولة العلم النظري المجرد . فتركيز القوة والسلطة كما هما مركزان في « لا بوتا » يؤدي الى الطغيان والخوف . وتصبح الدولة المجردة ، كما صورها سوفيت ، هي الدولة البوليسية . لقد استحوذ على أهل « لا بوتا » حلم خرافي ، حلم القوة التي لا تعرف حدودا . ومن

الممكن أن يتصور القارئ ما الذي يحدث عندما تتركز السلطة المطلقة في أيدي حكام عديمي المسؤولية كالأطفال ، لا يسألون عن تصرفاتهم ولا يحاسبون عليها ، بينما يستمدون قوتهم السياسية من العلم الحديث ، وكان سوفيت على وعي عام بإمكانيات الاكتشافات العلمية الحديثة والقوة التي تحملها في طياتها . ولكنه أيقن ان العلم بدون العقل والأخلاق لا يؤدي الى ما فيه خير للانسانية . بل انه يصبح قوة مدمرة فتاكة . وقد اكتشف ببصيرته اللماعة اننا هنا لأول مرة بصدد وضع في منتهى الخطورة ، وهو طغيان غامر يستمد قوته من العلم وليس من الجهل كما سبق في التاريخ ، وبذلك تنتهي سخرية « سوفيت » بعكس الموقف الذي بدأ به . فيصبح العلم النظري المجرد تطبيقا عمليا يخدم أهواء أصحاب السلطة . هذه هي ثمار جنون الانسان وغروره الذي دفع به الى وضع ثقته المطلقة في العقل واعطائه قدرات خارج حدود طاقته ، التي توحى بأنه يستطيع أن يبني دولة مثلية على أساس مبادئ لا علاقة لها بالقيم الانسانية والاخلاق .

وقد تنبأ « سوفيت » في هذه الرحلة بمشكلة لم تنتبه اليها إلا أخيرا . وأوصى في سخريته من العلم الحديث بسؤال يشغل بال الكثيرين في عصرنا الحالي هو : ما الذي فعلناه بانتصارنا بعد أن وصلنا الى القمر وانتصرنا على الطبيعة ؟ لم يؤمن « سوفيت » باستطاعة الانسان ان يصل الى القمر وسخر من الفكرة ، وكان في ذلك غططا . ولكنه كان محقا فيما قاله عن الفصل بين العلم والقيم الاخلاقية الذي يؤدي الى الدمار . واعتقاده بأن العلاقة بين العلم الحديث والأخلاق معدومة هو السر في عدم اطمئنانه الى العلم الحديث في عصره .

وموقف « جليفر » في هذه الرحلة هو موقف الرجل العاقل المتزن الذي يتعجب مما يراه . وهو يلعب دور المتفرج الذي يلاحظ ويسجل تصرفات من حوله دون أن يتفاعل معهم أو يتأثر بأحلامهم وأوهامهم . ويحتفظ باتزانته وبتفكيره السليم في الجزء الأكبر من الرحلة الثالثة حيث تغلب روح الفكاهة على سخرية الكاتب ، فلا يشارك « جليفر » أهل « لابوتا » و « بالنباري » حماقتهم ، بل تبقى قدماء ثابتين في الارض بعيدا عن عالم الآخرين الخرافي ، وفي نفس الوقت لا تمس القارئ سخرية سوفيت فتفقده احترامه لنفسه ، بل يقف هو الآخر خارج نطاق ذلك العالم المصاب بلوثة الجنون . ولكن لا تلبث السخرية أن تأخذ لونا أكثر قتامة وشكلا أكثر عمقا . ويدخل القارئ مع « جليفر » من جديد عالم الاوهام وخداع النفس في الرحلة الى « لجنانج » .

يبني سوفيت سخريته مرة اخرى في هذه الرحلة على موقف خيالي خرافي . و « لجنانج » هي بلاد الـ

« سترلد برجز » **Struldbuggs** أي الخالدين ، الذين يشكلون نسبة صغيرة من سكان تلك البلاد . وكما هو الحال في جميع رحلات « جليفر » يصور الكاتب الفكرة المجردة وهي فكرة الخلود هنا ، في صورة مجسدة ملموسة . و « الخالدون يولدون ببقعة حمراء مميزة فوق العين اليسرى ، وتحول هذه البقعة في مراحل متأخرة الى اللون الأخضر ، ثم الأزرق وفي نهاية الأمر الى الأسود . وعندما يسمع « جليفر » عن هؤلاء « الخالدين » يسيطر عليه حلم الخلود الواهم الذي يجد فيه سعادة وحكمة لا حدود لها . وهنا تتجه السخرية في نهاية الرحلة الثالثة اتجاها جديدا ، فبعد أن كانت تتجه الى انتقاد المجتمع ، وحماقات السلوك التقليدي ، والعلاقات بين الناس ، والحكم والسياسة والحرب والتعليم والقانون ، أصبح هدفها الآن الأوهام التي تسيطر على بني البشر . فالحلم الخرافي المتعلق بفكرة الخلود يصعب مقاومته . والقلة هي التي تستطيع أن تستسلم لفكرة الموت ، اما الغالبية فتحلم بالأبدية وتمناها ويمثل « جليفر » حلم الغالبية . ولكن الأسلوب الخطابي الذي يستخدمه عندما يشير الى السعادة اللازمة للخلود ، كما يعتقد ، ينبه القارئ الى سخرية الكاتب من أوهام « جليفر » ، ويبدو تهكم الكاتب في مغالاة « جليفر » في الحماس لتلك الفئة الغريبة من الناس التي يتصور انها وصلت الى قمة السعادة ، فيقول :

صحت في نشوة ، بالها من أمة سعيدة ، أمة تسنح فيها لكل طفل فرصة الخلود . يالهم من سعداء ، أولئك الذين يستمتعون بأمثلة حية للفضيلة الغابرة ، ويجدون من حولهم أساتذة على استعداد لتلقيهم حكمة العصور السابقة . يالها من سعادة ليس بعدها سعادة حياة معشر الـ « سترلبرجز » الممتازين الذين يولدون معفين من تلك الكارثة التي تشارك فيها البشرية جمعاء متحررين في أذهانهم من وطأة كآبة النفس التي يسببها الخوف الأزلي من الموت . (٢٩)

وهنا يتسم الرجل الذي تحدث الى « جليفر » من « الخالدين » ابتسامة المجرب المشفق على سذاجة سامعه ، ويأخذ في وصف حياة الـ « ستلد برجز » كما هي في الواقع وليس كما تصورها « جليفر » . فيقول انهم يعيشون حياة طبيعية حتى سن الثلاثين ، ثم يبدو عليهم الاغتمام حتى سن الثمانين ، وعندئذ تظهر عليهم ليس مجرد حكايات وضعف المسنين عامة ، وانما صفات اخرى تنشأ من « المصير المريع » أي الحياة الأبدية - التي تنتظرهم . فهم لا يتصفون بالعناد فقط وضيق الخلق والطمع والاكتئاب والغرور والثروة . وانما يتصفون بفقدان المشاعر الطبيعية نحو الآخرين ، ويحسدون صغار السن على ملذاتهم ، كما يحسدون الموتى على تحررهم من حياة أصبحت كريهة إليهم . انهم يتذكرون

بشكل غير دقيق الاشياء المتعلقة بشبابهم وكهولتهم فقط . أما أولئك الذين هم أسعد حظا فلا يتذكرون شيئا على الاطلاق . وفي سن الثمانين يعتبرون من الأموات في نظر القانون . وفي سن التسعين يفقدون حواسهم وتستمر أمراضهم . ويحرمهم فقدان الذاكرة من سلى القراءة . وباندثار لغة الأكبر سنا منهم يصبحون غرباء وسط اهلهم . وبهذا يعيشون في وحدة ازلية قاتلة « ويوجه مظهر « الخالدين » المحزن المربع الضربة القاضية لأوهامنا .

وفي هذا الجزء من الرحلة ، الذي شهد بقوة سوفيت التصويرية ينجح الكاتب في اقناع القارئ بقبول فكرة الفناء بتصوير ملازماتها من الشيخوخة بكل تفاصيلها المساوية مجسدة في الـ « سترلبرج » المنحوسين ، الذين حرموا ملذات الحياة ونعمة الموت . وتبدو تعاستهم واحباطهم في الوصف التالي :

ان الحسد والرغبات العقيمة هي أقوى المشاعر التي تسيطر عليهم . ولكن الاشياء التي يبدو أنهم يوجهون ضدها مشاعر الحسد أساسا هي رذائل الأصغر سنا ، وموت الأكبر سنا . فعندما يتأملون الأول يجدون أنفسهم منقطعين عن أى احتمال للمتعة وعندما يرون جنازة يندبون ويتبرمون لأن غيرهم رحلوا الى مأوى للراحة لا أمل لهم فيه أبدا . (٣٠)

ويهاب الناس الموت في جميع البلاد ما عدا « لجنج » حيث يذكرهم « الخالدون » بواقع الحياة ومصير الانسان . اما « جليفر » فيتحرر الى حد ما من أوهامه ويستيقظ من احلامه ، ويتعلم أن الحياة تجربة صعبة وجادة ، وان الانسان محدود في امكانياته وقدراته ، وأن البشر هم دائما البشر لن يطراً عليهم تغيير ، ولا أمل للهروب من رذائلنا وتفاهاتنا . وينتهى « جليفر » بقوله « لقد كنت غاية في الخجل من الرؤى الممتعة التي شكلتها ، وأيقنت انه ما من طاغ يستطيع ان يخترع ميتة بشعة تمنعني من أن ألقى بنفسى بمنتهى الرضا هربا من تلك الحياة . ويقصد هنا حياة الشيخوخة المجسدة في « الخالدين » ولكن حياة « السترايد برج » كما وصفها « سوفيت » فيها الكثير من سلوك الانسان العادى ونقائصه ، حتى قبل أن يصل الى مرحلة الشيخوخة . ومهما تميز الانسان فانه ما زال بشرا . وبهذا فان الرحلة الى « لابوتا » التي بدأت وسط أناس تافهين عن واقع الحياة ، تنتهى بمواجهة حقيقة الوجود البشرى ، وتكشف عن قتامة لم يسبق لها مثيل في الرحلات السابقة . ومن ثم فهي تمهد الطريق للرحلة الأخيرة الى بلاد « الهوينوهمز » . و (الياهووز) .

ومن ناحية اخرى فان الرحلة الثالثة ، فيها عدا الجزء الأخير منها ، تتصف بروح الفكاهة والمرح ،

كما يفسر لنا السبب الذي دعا سوفيت الى وضعها في المكان الثالث من الرحلات وقبل الرحلة الأخيرة بالذات . فعلى الرغم من أن سوفيت كتب الرحلة الرابعة قبل الثالثة فقد فضل أن تأخذ رحلة « لايتا » الترتيب الثالث رغبة منه في اعطاء القارئ مهلة يلتقط فيها أنفاسه ، ويستمتع فيها بشيء من المرح قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة في اتجاه الظلام المحيط بالرحلة الرابعة التي لا أثر فيها للمرح المتوغل بشكل ملحوظ في جميع الرحلات السابقة ، وفي الثالثة منها بالذات .

وقد يكون هناك سبب آخر دفع « سوفيت » الى الترتيب الحالي للرحلتين الثالثة والرابعة ، وهو أن صورة « الهوينوهم » ، الحصان الانسان ، « والياهو » الانسان الحيوان ، تتطلب خيالاً خارقاً ، بعكس أقزام ومردة « ليليت » و « برويد نجناج » الذين هم كائنات بشرية يمكن أن يتصورهم القارئ دون صعوبة . ولكي يسهل « سوفيت » على القارئ قبول « الهوينوهم » و « الياهو » البعيدين عن التصديق ، فقد سبقهما بكائنات لا تقل عنهما غرابة في الرحلة الثالثة . ومتى تعود القارئ على أهل « لايتا » وأطوارهم يستطيع أن يستسلم دون مقاومة لخيال بلاد الجياد العاقلة الناطقة . ويمكن اعتبار الرحلة الرابعة أيضاً تنمة لسابقتها التي أبدى فيها الانسان رغبته الملحة في الحياة ، والتي وضع الكاتب خلالها سؤالاً نفاذاً وهو : وما هي الظروف التي يمكن فيها للانسان ان يقبل الحياة ، وما هي نوعية الحياة التي يريدها ؟



٤ - رحلة الى بلاد الهوينوهمز A Voyage to the Houyhnhnms

يبدو سوفيت في أوج عظمته كأديب ساخر في الرحلة الأخيرة الى بلاد « الهوينوهمز » التي هاجمها النقاد بعنف لأنهم أساءوا فهم معناها ، وكان « تاكرای » (١٨١١ - ١٨٦٣) **Thackeray** الروائي الفكتوري الشهير ، واحداً من أولئك الذين أغضبتهم الرحلة الى درجة انه نصح مستمعاته من السيدات ، في محاضرة ألقاها عن سوفيت في لندن « بالامتناع عن قراءتها لأن سوفيت كما وصفه ، « رجل فاجر تماماً ، يائس ، مجنون ، وعواطفه وحشية ، وقوته التي يتباهى بها وضیعة . وهو وصمة للحيوان كما يستحق أن يكون فعلاً . والجهل أحسن بكثير من « العقل » الذي يتشدد به » . ويصف « تاكرای » الأسلوب الذي استخدمه سوفيت في هذه الرحلة بأنه أسلوب « الياهو » الذي يسخر منه سوفيت نفسه . ويستمر في القول « انه وحش مريع يصرخ ويزجر ضد الانسانية . . قدر في ألفاظه ، قدر في فكره ، ساخط ، هائج بذىء » . وتدل كلمات « تاكرای » الحانقة أن هذه الرحلة قد صدمته صدمة قوية وأثارت الى أقصى الحدود . وهذا في الواقع هو التأثير الذي تتركه الرحلة على كثير من القراء

لأنها تصيبهم في كبرياتهم كبشر . فالسخرية هنا لم تعد مجرد هموم على سلوك الانسان المعاصر وحياته الاجتماعية ونظمة السياسية ، وانما هي أكثر شمولاً ، وتتناول جشع الانسان ودنائه وكبرياءه وأوهامه وتصرفاته الحمقاء في كل زمان ومكان .

ولا شك أن أثر الصدمة يرجع الى صورتى « الهوينوهم » (الحصان العاقل الناطق) « والياهو » Yahoo (الانسان الحيوان) اللتين يقارن بهما « جليفر » الانسان واساس المقارنة في هذه الرحلة يختلف تماماً عنه في رحلة « برويد نجنانج » . فمهما قبل عن الهوة التي تفصل بين « جليفر » وملك « برويد نجنانج » في السلوكيات والاخلاقيات فان المقارنة ما زالت بين صورتين من الجنس البشرى ، أى أن احتمال وصول « جليفر » الى مستوى أهل « برويد نجنانج » العقلاء ليس مرفوضاً تماماً ، بينما هذا الاحتمال غير وارد على الاطلاق في الرحلة الرابعة ، لأن « الهوينوهمز » ينتمون الى جنس مختلف كلية عن الجنس البشرى . وبذلك « فجليفر » لا ينتمى الى « الهوينوهمز » لا من قريب ولا من بعيد ، ولو انه يحاول دون جدوى أن يصل الى مستواهم الرفيع . ويقضى سوفيت اذن على الاعتقاد الراسخ الذي بنى الانسان على اساسه نظريته المتعالية ، وهو الاعتقاد بأنه الكائن الوحيد العاقل ، لأنه وهب العقل ويبدو في رحلة « برويد نجنانج » ان الأمل ما زال قائماً في وصول « جليفر » بمجهوده الى ما وصل اليه الملك بسجيته . ولكن في بلاد « الهوينوهمز » يجد « جليفر » نفسه مضطراً الى التخلي عما ادعاه من الخلق والعقل اللذين تحلى بهما « الهوينوهمز » وقد سبق ان لمح سوفيت الى القرابة بين « جليفر » و « الياهو » في المغامرة مع القرد الذي اختطف « جليفر » وعامله كوليده ، ويوحى هذا الحدث الفكاهى في الرحلة الثانية بحيرة « جليفر » في الرحلة الرابعة من حقيقة ذاته ، وبالكابوس الذي يعيش فيه حتى عودته الى اهله تاركاً بلاد « الهوينوهمز » وراءه وعلى ذلك فان قرد « برويد نجنانج » الى جانب الصور الهوائية الاخرى ، هى اشارة الى صورة « الياهو » المتطورة في الرحلة الأخيرة .

وقد بنى سوفيت الرحلة الرابعة ، كما بنى الرحلتين الأولى والثانية ، على موقف خيالى خرافى قدم فيه « جليفر » فى وضع وسط بين نقيضين . ففى « ليليت » و « برويد نجنانج » نرى جليفر بين المارد والقزم ، وفى الرحلة الأخيرة نراه بين « العقل » و « الحس » المجسدين فى « الهوينوهمز » و « الياهو » .

فبعد أن استولى القراصنة على سفينة « جليفر » واجبروه على تركها ، وجد نفسه فى بلاد ذات مساحات شاسعة مزروعة قمحا وشعيراً ، وهذه ملاحظة لا يفهم القارىء كنهها الا فيما بعد عندما يعلم ان الجياد العاقلة هم من سكان هذه البلاد . اما اول ما يقع عليه نظر « جليفر » فهم « الياهو »

وهي حيوانات فبيحة مفترزة غطى أجزاء من أجسامها شعر كثيف ، بينما كشفت أجزاء أخرى عن جلد أسمر ، ولم يكن لها ذيل ، وكانت مخالباها طويلة مما ساعدها على تسلق الأشجار في خفة السنجاب . وقد شعر « جليفر » بنفور قوى عندما اقترب منه أحد هذه الحيوانات ، وحدث في وجهه ، ورفع إحدى رجليه الأماميتين نحوه ، فصر به « جليفر » بمسطح سيفه . عندئذ صاح الحيوان بصوت عال ، وجمع من حوله أربعين حيوانا من جنسه أخذوا في العويل ولوي وجوهمهم ، وبدأ بعضهم يتمرجحون على أغصان شجرة وقف « جليفر » تحتها مدافعا عن نفسه ، ورموه بوابل من افرازات أجسامهم القذرة حتى كاد أن يخنق . وفجأة تفرق الجميع ، وظهر حصان يمشى بتؤدة الى أن وصل بالقرب من « جليفر » ، فنظر الحصان اليه متعجبا ، وفحص يديه وقدميه . ثم حاول « جليفر » ان يدلل الحصان ، ولكنه هز رأسه ، ورفع عنه يد « جليفر » بقدمه ، وأخذ في الصهيل بلغة غريبة . عندئذ حضر حصان آخر وحيا الأول باحترام ودخل ، كما يبدو ، في مناقشة طويلة معه عن شخص « جليفر » وبدأ يفحص يديه وملابسه . وكان سلوكها هادئا رقيقا يدل على تفكير منظم عاقل الى درجة جعلت « جليفر » يعتقد انها سحرة في مظهر جياذ . وقد دفع سلوكها « جليفر » الى الاعتقاد بأن حكام هذه البلاد لا بد ان يكونوا ذوى عقول فوق المستوى العادى بمراحل . ويجد الحصانان نفسيهما في حيرة من أمر « جليفر » كما يجد هو نفسه في حيرة من أمرهما ايضا . ويجتذب سوفيت القارىء بهذا الموقف الغريب وتلك الكائنات العجيبة ، ويستمر في القراءة ليكتشف السر وراءها .

يدو من هذه المقدمة أن سوفيت لجأ مرة أخرى في بنائه الساخر الى استخدام حلم أو خرافة يشترك في تصوره الناس جميعا . عدد لا يحصى من « الكائنات الشعبية وحواديت » الأطفال التي تتناول الحيوانات المتكلمة العاقلة . وهناك « حكايات » أخرى خرافية ، وإن كانت أقل شيوعا من النوع الاول ، تتناول فكرة الانسان الحيوان ، ولكن سوفيت كما تعودنا شكل الموقف الفولكلورى الأصيل ليتناسب مع أهدافه الخاصة . ففي الحكاية الشعبية أو « حدوتة » الأطفال يلعب الحيوان المتكلم دور المداهن للانسان الذي يطرى عليه لسبب أو لآخر ، أو يؤدى دور الواعظ الذى يعلق على سلوكياته . وفي بعض « الحكايات » يرافق الحيوان سيده الانسان في مغامرة سحرية . اما « الهوينومز » فهي من ابداع سوفيت الساخر ، ويستخدمهم على نحو مبتكر ، ليس كأداة للثناء على الانسان ، وانما كوسيلة لمواجهة الانسان بحقيقته وبسخر الصورة المتعالية التي رسمها لنفسه . أي أن هدف سوفيت هو أن يصدم الانسان بواقعه .

و « الهوينومز » كائنات لا علاقة لها بالجياذ الا في مظهرها الخارجى ، وهي مخلوقات تبعث على الاعجاب في تلاؤمها التام مع العالم الطبيعي . انها هادئة لطيفة عاقلة متزنة في اسلوب حياتها

وسلوكلها ، صادقة لا تتحدث الا عن الشيء الكائن . فهي لا تعرف الكذب ولا تحوى لغتها كلمة بمعنى « الكذب » ، وانما تعبر عنها ب « الشيء غير الكائن » . والفضيلة بالنسبة « للهوينوهمز » هي المعرفة وأساس تفكيرهم العقل والمنطق ، أى أن تفكيرهم مطابق لتفكير الفلاسفة .

وبلادهم تشبه الى حد كبير الكمال الذى تصوره افلاطون في « جمهوريته » المثالية التى يحكمها الفلاسفة ، فالسياسة بمعناها المعاصر لا وجود لها ، لأن المواطنين منظمون يقومون بدورهم بمسئولية تامة ، ويرون ما يجب عمله ويؤدونه . والحروب القائمة على المنافسات والمصالح المادية معدومة ، ويعيش « الهوينوهمز » حياة بسيطة يساهم فيها كل فرد من أفراد المجتمع ، ولا يعرفون النقود أو المعاملات المالية أو المصالح الشخصية . وبما أن حياتهم على الفطرة ، فهم يجهلون فنون الطب والجدل والخطابة . ولا يهابون الموت ولا يحزنون على موتاهم . ويعتبرون الأرض التى ينتمون اليها هي أهمهم الأولى . أما الزواج فهو غير مبنى على الرغبة الشخصية وانما على العقل . ولا مكان للحب والعاطفة الجاححة في حياة هذه الكائنات العاقلة . انهم يعيشون أزواجاً في بيوتهم الخاصة ، ولكنهم ينفصلون عن الأسرة عند الضرورة ، ويساعدون الآخرين عند الحاجة ، الى درجة انهم يتبادلون الأطفال في سبيل المجموعة . ولا يحبون اولادهم أو يظهرن نوحهم عاطفة الامومة والأبوة كما نعرفها . وانما يرعونهم في سبيل المصلحة العامة .

« والطبيعة » هي المقياس الذى اتخذته « الهوينوهمز » لحياتهم ، وهذا ما يشير اليه اسمهم كما شرحه « جليفر » ، فمعنى كلمة « هوينوهم » هو « كمال الطبيعة » وهي تعبر عن مثل أعلى بكثير مما يصبو اليه الانسان في لحظاته الروحية والعقلية ، وهي مثل كان يعتز بها معاصرو « سوفيت » الاغسطيون بالذات .

أما طرف النقيض الآخر فهو ممثل في صورة « الياهو » وهو أقوى رمز ورد في أي عمل من اعمال سوفيت . و « الياهو » نقيض العقل ، أي انه يرمز الى العنصر الحيواني في الانسان ، تلك الناحية غير المستنيرة ، غير المتطورة ، اللا عاقلة في الجنس البشري . انه يجسد اذن الغريزة التى يشترك فيها الحيوان والانسان معا . ويشعر « جليفر » باشمزاز لا حد له عندما يرى « الياهو » القبيح ظاهراً وباطناً . فشكله الظاهر ما هو الا انعكاس لأخلاقياته المنكرة الكريهة . انه جشع ، حائق ، حسود ، غيور ، مغرور ، بليد ، عبد للشهوة ولغريزة التملك ، خاوف كريباً وعقلياً وعاطفياً . انه أسير طبيعته الفاسدة وشهوانيته . وعلاقته ببني جنسه علاقة عدائية لأن رغباته لا تعرف الاعتدال . ويحكي « سيد » « الهوينوهمز » عن تصرفات معشر « الياهو » (٣١) فيقول : ان الجشع يبلغ بخمسة منهم الى

حد المشاجرة العنيفة حول غذاء يكفي خمسين « ياهوا » . فيكادون يقتلون بعضهم البعض لولا افتقارهم الى الاختراعات الحديثة المدمرة التي سبق أن وصفها « جليفر » لملك « برويد نجانج » . ويصف « السيد » كيف يحفرون الأرض بمخالبهم بحثا عن الأحجار الملونة ، ويحملونها الى « زريتهم » حيث يخبثونها بعيدا عن الأنظار . وإذا ضاعت منهم يكادون أي يموتوا حزنا عليها . وهناك شراب يتناولونه مصنوع من عصير نبات مسكر ، وعلى أثر تناولهم إياه يتعانقون أحيانا ويتشاجرون أحيانا أخرى ، ويولولون ويضحكون ويثرثرون ويتطوحون ويتعثرون ويتهاوون الى الأرض حيث ينامون وسط القذارة . وصورة « الياهو » تلك الكائنات التي لا تعرف لها حدودا طبيعية ولا تستطيع أن تتحكم في طبيعتها الفاسدة ، هذه الصورة مثل ناضج لأدب « سوفت » الساخر الذي يجمع في آن واحد بين السخرية من الصفات الجسدية والخلقية .

وهذه المقارنة بين « الهوينوهمز » و « الياهو » ، ا بين العقل والحسن المجردين ليست مقارنة بين نوعين مختلفين من البشر فلا يرمز « الهوينوهمز » أو « الياهو » الى الانسان على الاطلاق . وإنما الذي يرمز اليه هو « جليفر » الذي يشارك لسوء طالع في طبيعة كل من « الهوينوهمز » و « الياهو » طرفي النقيض . والحيلة التي يلجأ اليها « سوفت » في هذه الرحلة هي الفصل بين العنصرين الأساسيين اللذين يتحدان في الانسان ذي الطبيعة « الثنائية » حتى يتمكن « جليفر » من أن يتأمل كلا منهما في جوهره .

ولما كان « جليفر » حلقة الوصل التي تجمع بين النقيضين فقد وجد نفسه في وضع يسمح له بأن يكون حكما بينهما . ويبدو حكمه منذ أول وهلة في نفوره من « الياهو » وانكار قرابته لهم ، وانجذابه نحو « الهوينوهمز » وادعائه القرابة لهم . وتكمن سخرية سوفت في نظرة كل من « الياهو » و « الهوينوهمز » فبينما لا يجد « جليفر » أي وجه شبه بينه وبين « الياهو » يرى « الهوينوهمز » ذلك الشبه واضحا ، بل انهم يندهشون عندما يبدي « جليفر » ما يدل على العقل والقدرة على الكلام مثلهم ، فهو بالنسبة اليهم ليس الا « ياهوا » وللتأكد من ذلك يضع بعض « الهوينوهمز » « جليفر » جنبا الى جنب مع ثلاثة من « الياهو » للمقارنة . وتكون الصدمة المروعة عندما تنجلي الحقيقة « لجليفر » شيئا فشيئا . ويصف المشهد فيقول :

وبعد دخولي مباشرة وقف الفرس منتصبا من على حصيرته واقترب مني . وبعد أن تمنع في يدي ووجهي نظر إلي نظرة احتقار . ثم التفت الى الحصان ، وسمعت كلمة « ياهو » تتكرر مرارا بينها ، وهي كلمة لم أفهم معناها آنذاك ولكن لم ألبث أن عرفت ، فأصابني شعور بالخزي والعار الأزلي . وقد قادني الحصان الى مكان كالقضاء . وعندما دخلنا

رأيت ثلاثة من تلك المخلوقات المقيمة . . . وهم يأكلون بعض الجذور ولحوم الحيوانات ، اكتشفت فيما بعد انها لحوم حير وكلاب أو لحم بقرة ماتت في حادث او على أثر مرض ، وقد التفت حول اعناقهم حبال قوية عقدت الى عامود خشبي . وأمسكوا غذاءهم بمخالب اقدامهم الأمامية ، واخذوا يمزقونه بأسنانهم . (٣٢)

ويتكشف « جليفر » التطابق بينه وبين « الياهو » فيقول :

لا أستطيع أن أصف ارتياحي ودهشتي عندما تبينت في هذا الحيوان البغيض جسم انسان كامل . كان الوجه بلا شك مسطحا وعريضا . والأنف مفرطحا ، والشفتان سميكتين ، والفم عريضا . ولكن هذه اختلافات تشترك فيها جميع الأمم المتوحشة . . . أما قدما « الياهو » الأماميتان فلا تختلفان عن يدي اذا ما استثنينا طول الاظافر وخشونة راحة اليد وكثافة الشعر على ظهرها . وكان هناك نفس الشبه والاختلاف بين أقدامنا ، التي كنت أعرفها جيدا ، وان كانت الجياد تجهلها لا خفتائها تحت الحذاء والجورب ، كان التماثل واحدا في كل جزء من أجزاء أجسامنا باستثناء كثافة الشعر ولون البشرة اللذين سبق أن أشرت اليهما . (٣٣)

- والشيء الذي تعجبت له الجياد هي ملابس « جليفر » التي جعلته يبدو مختلفا عن « الياهو » ، وكانت تجهل انه يستطيع ان يخلعها متى أراد . أما « جليفر » فقد حمد ربه على جهل « الهوينهمز » الذي حال دون مطابقتهم « جليفر » بالياهو » تماما . ولكن لم يلبث أن اكتشفوا سر هذه الملابس ذات يوم عندما دخل حصان على « جليفر » فوجده نائما وقد خلع ملابسه ولم يستطع « سيد » « الهوينهمز » أن يفهم الحكمة في فكرة الملابس ، والدافع الذي يدعو أي مخلوق الى اخفاء بعض اجزاء جسمه الذي وهبته الطبيعة اياه . ومع ذلك فقد سمح « السيد » « جليفر » أن يحتفظ ببعض ملابسه عندما أخذ يفحصه من جديد . وفي هذه المرة وجد « جليفر » مطابقا تماما « للياهو » رغم بشرته الناعمة البيضاء وشعره القصير وافتقاره الى المخالب الطويلة ، وعاداته في المشي منتصبا على رجليه الخلفيتين ، وهي عادة اعتبرها « الهوينهمز » نوعا من التصنيع والتكلف . وتؤكد هذه المطابقة في مشهد « جليفر » وهو يستحم في النهر . وتراه أنثى « ياهو » شابة فيثير فيها رغبة شهوانية باعتباره واحدا من أبناء جنسها . وتقفز الى النهر وتعانقه بعنف ، ولا يستطيع أن يتخلص منها الا عندما ينقذه واحد من خدم

« الهوينوهمز » . وبعد هذه التجربة يصبح من المستحيل أن ينكر « جليفر » حقيقته « الياهووية » أو أن يخفيها .

ومع ذلك فقد اعترف « الهوينوهمز » بأن هناك اختلافا بين « جليفر » و « الياهو » وأساسه مظاهر العقل التي تبدو عليه والتي جعلته أحد خوارق الطبيعة . ولكن هذا الاختلاف يزيد من نفور « الهوينهمز » منه بدلا من أن يقربه منهم . فهم يرفضون ادعاءه العقل مؤكدين أن ما يتمتع به « جليفر » هو مجرد « مظهر » العقل الذي يرجع الى قدرته على « محاكاة » المخلوق العاقل . وهذا يجعل « جليفر » في نظرهم أحط من « الياهو » لأن مظهر العقل فيه ليس إلا « زيفا وخداعا » . ويشرح « جليفر » ما يعنيه « سيد » الهوينهمز فيقول على لسانه :

عندما يدعي مخلوق العقل ، ويبسدي في نفس الوقت القدرة على سلوك في مثل تلك الجسامة ، فانه يخشى أن افساد هبة العقل قد يكون أسوأ من البهيمية نفسها . ويبدو أنه كان على يقين من أننا نمتلك ، بدلا من العقل . صفات شكلت على نحو يزيد من ضرورتنا الطبيعية . (٣٤)

بدأ « جليفر » بالاعجاب « بالهوينوهمز » ثم انتقل بعدئذ الى قبول حكمهم عليه وعلى بني البشر عامة ، ولم يعد يطبق النظر الى نفسه فيقول :

إذا ما تصادف أن رأيت انعكاس صورتي في بحيرة أو في نهر ، أدت وجهي في انزعاج ، شاعرا بالبغض نحو شخصي . انني أحتمل مظهر « الياهو » العادي أكثر مما أحتمل مظهري . (٣٥)

وبذلك أصبح « الهوينوهمز » المثل الأعلى « لجليفر » رغم رفضهم المطلق له . ونراه في نهاية الرحلة منبوذا ومعزولا تماما ، فلا هو يريد أن ينتمي الى « الياهو » ولا يقبل « الهوينوهمز » انتماء اليهم . ومع ذلك كان يسعى الى عقلانية « الهوينوهمز » وحكمتهم الفطرية البسيطة معتقدا في النهاية انه بلغ مأربه . ولكن سوفيت ينكر امكانية ذلك بوضعه في موقف ساخر فضل « جليفر » فيه رائحة حصانيه وحديثها على صحبة زوجته واولاده ، فبدا وكأنه فقد عقله . ويصف « جليفر » عودته الى وطنه وأسرتة وما شعر به من اشمزاز في قوله :

٣٤ - الجزء الرابع ، الفصل الخامس

٣٥ - الجزء الرابع ، الفصل العاشر

لقد قابلتني زوجتي وأسرتي بدهشة وفرح عظيمين ، لأنهم كانوا يعتقدون أنني قد مت . ولكن يجب أن أعترف أن مظهرهم ملأني بالكراهة والاشمئزاز والاحتقار وبالذات عندما فكرت في القرابة التي تربطني بهم . وقد أجبرت نفسي ، منذ أن نفيت من بلاد « الهوينوهمز » على تحمل شكل « الياهو » والحديث مع « دون بدرودي منديز » إلا أن ذاكرتي وخيالي سيطرت عليهما فضائل وآراء « الهوينوهمز » ، تلك الكائنات السامية ، وحينما بدأت أفكر أنني ، بزواجي من واحدة من جنس « الياهو » ، قد أصبحت أبالعدد أكبر منهم ، شعرت بالعار والضيق والارتياح . (٣٦)

عندما دخلت إلى المنزل عانقتني زوجتي وقبلتني ولما كنت قد نسيت لمسة ذلك الحيوان المقيت ، بعد تلك السنين الطويلة ، أغمى علي مدة ساعة تقريبا ، والآن قد مرت خمس سنوات منذ عودتي الأخيرة إلى إنجلترا . ولم أستطع خلال السنة الأولى تحمل وجود زوجتي وأولادي بالقرب مني ، فلم أكن أطيق رائحتهما ولا أن أراهم وهم يأكلون في نفس الحجرة . وحتى هذه الساعة فانهم لا يجرأون على وضع أيديهم على خبزي أو أن يشربوا من نفس الفنجان . ولم أستطع أن أسمح لأحد منهم أن يمسك يدي . وقد اشتريت بأول مبلغ وفرته حصانين احتفظ بهما في اسطبل جميل . واعتبر « سايسها » أحب شخص إلي من بعدهما ، لأنني اشعر بانتعاش نفسي عندما أشم رائحة الاسطبل التي تعلق به ويفهمني حصاني إلى حد كبير . وأنا اتحدث إليهما مالا يقل عن أربع ساعات يوميا . وهما يجعلان السرج واللجام ، ويعيشان معي في ود عظيم ، ومع بعضهما في صداقة تامة . (٣٧)

ويبدو من هذه الفقرة أن سوفيت قد بدأ يوجه سخريته نحو « جليفر » وإن كان عدد من النقاد قد فشل في إدراك ذلك ، وأصروا على المطابقة بين « جليفر » والمؤلف . ولكن القارئ المقصر لا يفوته التهكم البارع في نهاية الكتاب عندما يتأمل « سوفيت » غرور « جليفر » الذي يعتقد أنه تخلص من الرذائل التي التصقت ببني البشر الذين ينتمي إليهم « جليفر » في الواقع مهما انكر ذلك الانتفاء . ويظهر تعالي « جليفر » على جنسه الذي لا مبرر له في قوله :

إن إعادة الوفاق بيني وبين جنس « الياهو » عامة قد لا يكون صعبا إلى درجة كبيرة ، لو أنهم اكتفوا بتلك الرذائل والحماقات التي خولتها لهم الطبيعة . وأنا لا استثار عندما تقع عينا

على محام او نشال بكباشي او احمق او لورد او مقامر او سياسي او قواد او طبيب او شاهد او غاو او وكيل او خائن وما الى ذلك . فهم جزء من طبيعة الاشياء . ولكن صبري ينفذ تماما عندما أرى كتلة مشوهة من المرض العقلي والجسدي نكبت بالغرور ولا يمكن ان يتبادر الى ذهني كيف يتاق الجمع بين ذلك الحيوان وتلك الرذيلة . (٣٨)

وتكمن سخرية هذا الموقف في كون « جليفر » نفسه مثالا لكائن ابتلى بالغرور . لقد سافر الى العديد من بلاد العالم ، وواجه مخاطر لا حصر لها ، ولكنه لم يتعلم شيئا من تجربته . ان الرحلات التي قام بها كانت الى أغوار الطبيعة البشرية ، وكانت أخطر مغامراته هي المغامرة الأخيرة التي أثبتت ضعفه تجاه الحقيقة التي اكتشفها عن نفسه وعن بني جنسه ، والتي أدت الى فقدانه الواضح لأنسانيته في تنكره لأسرته . وانتهى به الامر الى الوقوع فريسة لتلك الرذيلة التي طالما سخر منها في الرحلات السابقة ، وهي الغرور البادى في اعتقاده أنه قد بلغ أقصى درجات العقل والحكمة كما وجدها في « الهوينوهمز » . ويظهر تعاليه في الفقرة التالية عندما يشير الى العدوى التي بدأت تتسرب اليه مرة ثانية نتيجة احتكاكه ببني جنسه الذين فقد الامل في اصلاحهم . وما كان يجب أن يحاول ذلك ، بل أن مجرد المحاولة دليل على بدء تفشى « الياهووية » فيه ، لأنها تعنى انه عاد الى الأوهام التي لا تتفق مع العقل . ويقول « جليفر » في خطابه الى قريبه « سمبسون » :

يجب أن اعترف أنه منذ عودتي من رحلتي الأخيرة ظهرت في من جديد بعض مظاهر الفساد الناجمة عن طبيعتي « الياهووية » نتيجة اتصالي ببعض أفراد جنسكم ، وخاصة أفراد أسرتي ، وهو ما لم يكن منه مفر . والا ما فكرت في ذلك المشروع الجنوني الذي يهدف الى اصلاح جنس « الياهو » في هذه المملكة . ولكنني قد عدلت الآن والى الابد عن أمثال تلك الخطط الخيالية . (٣٩)

ويجب أن نتساءل هنا ما الذي كان سوفيت يعنيه من فكرة « العقلانية » التي سعى اليها « جليفر » ، وظن انه نجح في سعيه ؟ هل كان سوفيت يعتقد أن الانسان يستطيع أن يتوصل الى درجة « العقلانية » التي جسدها في « الهوينوهمز » ؟ وهل هذا مثل يحتذى ؟ يبدو من الرحلة الرابعة أن « العقلانية » بمقارنتها ببهيمية « الياهو » هي فعلا مثالا يحتذى . ولكن هل كان سوفيت يريد أن يصبح « جليفر » تجسيدا للعقل المجرد مثل « الهوينوهمز » ؟ لقد ظن كثير من نقاد سوفيت الأوائل أن هذا كان هدفة من

كتابة الرحلات . ولكن بعض النقاد فيما بعد رأوا أن المثل الأعلى ليس في تناول اليد ، بل أنهم ذهبوا الى أبعد من ذلك . وقالوا ان سوفيت كان يقصد توجيه سخريته الى العقل المجرد وعقلانية جمهورية « الهوينوهمز » المثالية . ولذلك أكدوا ضرورة الفصل بين « جليفر » المبهور « بالهوينوهمز » وبين سوفيت الذي يسخر من انبهار « جليفر » وسعيه الى المستحيل .

لا شك أن الجياد كما صورها سوفيت في رحلة « الهوينوهمز » هي حيوانات نبيلة جميلة في مظهرها وحركتها وسلوكها . وحياتها البسيطة بعيدة عن الادعاء والتكلف ، فهي اذن من صميم « الطبيعة » المتناسقة . ولكن ليست هذه هي الحقيقة بأكملها ، وهناك نواح اخرى يجب أن ندخلها في الاعتبار اذا ما أردنا ان تكون صورة كاملة صادقة لحياة تلك الكائنات الغريبة . وأول هذه الحقائق أن « الهوينوهمز » ليسوا من البشر ، وبذلك فلا يمكن أن تأخذ حياتهم كمثال أعلى للإنسان . والحقيقة الثانية أن حياتهم العقلانية محدودة وتفتقر الى الحيوية . فحديثهم محدود واهتماماتهم محدودة وموقفهم من الحياة محدود ، يتقبلون المصائب بصدر رحب ، يأكلون وينامون باعتدال ، يؤمنون بالمحبة للجميع كمثال أعلى ، ومن ثم فليس هناك علاقات شخصية قوية أو أفضليات بين الاصدقاء والاسر ، وينظم الاصدقاء الزواج في المجتمع باعتباره ضرورة بالنسبة للكائن العاقل ، وبحب الزوج زوجته واطفاله كما يجب غيرهم من أفراد المجتمع لا أكثر ولا أقل . وينظرون الى الجنس كناحية من نواحي الحياة الطبيعية ، ولكن هدفه ، مثل جميع الغرائز الاخرى ، عملى محض ، وهو انجاب الاطفال فقط ، اما لغتهم وفنونهم وعلومهم فكلها تؤدي مهمة عملية مقصورة على ضروريات الحياة الاجتماعية الهادئة المتناسقة . وهم لا يعرفون الغيرة او العاطفة الفياضة او المشاجرة أو السخط او الاستياء ، ويعيشون حياة قبلية منعزلة عن العالم .

هذه الحياة التي أعجب بها « جليفر » كل الاعجاب هي أيضا صورة للحياة المثالية كما تصورها معاصرو « سوفيت » الذين آمنوا بالعقل ، والطبيعة وقد رسم سوفيت هذه الصورة على نحو يوحى بأنه هو نفسه يعتبرها مثلاً ايجابياً اذا ما قورنت بصورته السلبية الساخرة « للياهوز » . ولكن سخرية سوفيت لم تكن أبداً بمثل هذه البساطة المبنية على المقارنة المباشرة ، بل هي دائماً مركبة ومصاغة في أسلوب غير مباشر . واذا ما أمعنا النظر في حياة « الهوينوهمز » فسنجدها قاصرة وسلبية الى درجة ليسوا فضلاء بالمعنى الايجابي . وافتقارهم الى العاطفة يجعل فضيلتهم ليست انتصاراً للعقل والاعتدال على النزعات والاغراء ، وانما يجعلها نتيجة مناعة طبيعية ضد الشهوة والغريزة ، بل ضد الحياة والحيوية . فهم لا يعرفون الغرائز الجنسية والملذات الحسية والعاطفة الانسانية العميقة ، والرغبات والخوف وحتى الافكار . ومعنى هذا أنهم ، وان كانوا لا ينحدرون الى حضيض البهيمية ، الا أنهم في نفس الوقت لا

يرتقون الى السمو والمجد . ولعل مقال ف . ر . ليفيز F.R. Leavis الناقد المعاصر المشهور ، بعنوان « سخرية سوفيت » هو أول اشارة الى موقف سوفيت السلبي بالنسبة « للهوينوهمز » أصحاب العقل ، والى سخريته من مثالية « جليفر » الذي وجد في الجياد العاقلة تجسيدا لايماهه بالعقل . ومنذ ظهور ذلك المقال وقارىء « سوفيت » يحاول أن يصل الى كنه سخريته في هذه الرحلة غير مكتف بالسخرية الظاهرة المباشرة الموجهة ضد « الياهو » . يقول « ليفيز » في مقاله مؤكداً القصور الملحوظ في « الهوينوهمز » العقلانيين :

يس « الهوينوهمز » بطبيعة الحال ، العقل والصدق والطبيعة ، وكلها ايجابيات « اغسطية » وكان سوفيت جادا الى أقصى حد في مناشدته اتباع هذه الايجابيات أصحاب العقل ، ولكن « الياهو » هم المخلوقات التي تنبض بالحياة . وكان سيد « جليفر » « الهوينوهمز » يعتقد أن الحيوان العاقل يكتفى بالطبيعة والعقل كمرشد له في حياته ، ولكن الطبيعة والعقل كما يكشف عنها « جليفر » يتصفان بسلبية غريبة والحيوانات العاقلة تفتقر الى كل ما هو في حاجة الى الارشاد . (٤٠)

وقد تنبه القراء والنقاد منذ ظهور مقال « ليفيز » الى صفة التركيب والاسلوب غير المباشر في سخرية « سوفيت » . ولم يعد قارىء الرحلة الاخيرة يرى في « الهوينوهمز » مثلاً أعلى يحتذى فتقول كاثلين وليامز Kathleen Williams ان « الهوينوهمز » لا يبدو للقارىء كائنات تستوجب الاعجاب بهم يثيرون الضحك احيانا بل والنفور أيضا ، ونشعر بالاشمئزاز من تفانى « جليفر » في حبهم » (٤١) . وعندما نستمع الى مناقشات مجلس « الهوينوهمز » التي تدور حول مصير « جليفر » و« الياهو » نصطدم بحقيقة ذلك الجنس الذي يخلو من أية مشاعر انسانية دافئة . ويتبين من نظرهم للأشياء تصور حياة العقل وحده ويتفق هذا التفسير الحديث لسخرية « سوفيت » من « الهوينوهمز » مع أسلوبه المعروف في السخرية ورفضه الدائم اعطاء القارىء اهدافا ايجابية واضحة لا لبس فيها . فسخريته تسبب للقارىء كثيرا من القلق والازعاج . انها ليست من النوع المدمر فحسب ، وانما تبعث على التفكير والتأمل .

The Irony of Swift, Scrutiny, 'March 1934 - ٤٠

Kathleen Williams, 'Gullivers Voyage to the Houyhnhnms' A Journal of English Literary History xv 111, December, - ٤١
1951 كمثل للنقد الحديث عن الرحلة الرابعة .

وعند وضع « الهوينوهمز » داخل اطار العصر « الاغسطى » نجد ان السخرية موجهة الى نظرة الاستنكار السائدة في عصر « سوفيت » نحو المشاعر والعواطف القوية التي وضعت تحت امرة العقل . فلم يكن للمشاعر مكان على الاطلاق في بحثهم عن الحقيقة . ولكن « سوفيت » كان يعلم جيدا ان القضاء على المشاعر او السيطرة عليها عن طريق العقل مستحيلة بسبب طبيعة الانسان « الثنائية » وبالكشف عن مخاطر الفصل بين العقل والعواطف كما في « الهوينوهمز » و « الياهووز » وبالحكم على الاول بالفضيلة والثانية بالرديلة ، وضع أصبعه على نقطة ضعف خطيرة في فلسفة عصره . وبهذا جاءت الرحلة الرابعة نقدا « للاغسطية » .

وقد تكون السخرية موجهة ضد سوفيت نفسه ، وهو الذى استولت عليه فكرة جمال العقل كما هو واضح من الرحلات السابقة التى يسخر فيها من كل ممن يفتقر الى العقل ، سواء أكان « جليفر » أو سكان البلاد التى يزورها . ولكن « سوفيت » كان متفهما لطبيعة الانسان وقدراته بما يكفى ليدرك ان الانسان لن يصل أبدا الى الحلم الذى يسيطر فيه العقل على الحياة . لقد وجد تسلية في بناء نموذج للمجتمع البشرى مفترضا انه يمكن اقناع الانسان ان يتصرف تصرفا عاقلا ، ولكنه لم يستطع أن يستمر في حلمه طويلا دون أن يتأكد من فشل الانسان وسخف الحلم . والحلم مبنى على نظام ديموقراطى كامل ، ولكن لا تلبث أن تتطور الديمقراطية الى دكتاتورية يطغى فيها العقل . ويتبدد الحلم من أول لحظة بسبب وجود « الياهووز » الفوضويين الذين يتحدون نظام وتناسق الحلم الخرافى .

ويعلم سوفيت جيدا أن الانسان لن يفلح في تجسيد حلم الانسان العقلانى ، وانه اذا اعتقد أن ذلك ممكن يكون قد وقع فريسة لغروره وأوهامه . ويصبح هدفا لسخرية « سوفيت » ، وهذا ما يحدث فعلا في الرحلة الرابعة .

ونحن هنا اذن بصدد الفكرة الأساسية في الرحلات وهى موقع الانسان الوسط في سلسلة الوجود الهائلة ، وغرور الانسان لادعائه العقلانية التى هى من صفات الكائنات السامية التى خلقت في مرتبة أعلى من مرتبة الانسان ، وهبوطه من ناحية أخرى الى مستوى الحيوان الذى هو أقل بكثير من مستواه الطبيعى . وفي صورتى « الهوينوهمز » و « الياهووز » والفصل التام بينهما يكمن السبب الذى دعا نقاد « سوفيت » الاوائل الى تأكيد سلبيته وتشاؤمه . ولكننا نستطيع ان نكتشف في هذه السلبية ، الواضحة في افتقار « الهوينوهمز » و « الياهووز » الى دفء العاطفة والحب الانسانى ، نستطيع أن نكتشف فيها اشارة الى الصفات الانسانية الايجابية التى يؤمن بها « سوفيت » وان كانت هذه الصفات غير موجودة في تلك الكائنات المجردة ، السامية منها والحيوانية ، الا انها تظهر من آن لآخر في مخلوقات

أخرى في الرحلات : في « جليفر » نفسه في الرحلة الاولى ، وفي الملك ومربية جليفر « جلمد لكلتش Glumdalitch » الطفلة الحنون في الرحلة الثانية ، وفي الفرس « الهوينومز » التي تحب جليفر وتحزن على فراقه وفي « دن بدرودي منديز » ربان السفينة التي تنقذ « جليفر » ، والذي يعامله بانسانية غامرة وتفهم عطوف في الرحلة الرابعة . ويؤكد وجود الشخصيات ما قاله سوفيت عن موقفه من البشرية جمعاء ، فرغم كراهيته للجنس البشري الا انه يحب الأفراد ، وقد عبر عن هذا الموقف لصديقه « بوب » فقال « لقد كرهت دائما جميع الأمم والمهن والمجتمعات وحبى كله للأفراد . فانا أكره ، على سبيل المثال - معشر المحامين ، ولكنني أحب المستشار فلان والقاضي علان . . وينطبق هذا أيضا على الأطباء (ولن أتحدث عن مهنتي) والجنود والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين وغيرهم . ولكنني اكره وأمقت أساسا ذلك الحيوان المسمى بالانسان ، وان كنت أحب من كل قلبى حون وبيتر وتوماس » . وقد وجد سوفيت في أصدقائه من يستحق حبه وإخلاصه ، ومنهم صديقه « اربثنت Arbuthtnot » الذي قال عنه سوفيت انه لو كان هناك عشرة من أمثاله لما رأى ضرورة لرحلة جليفر ، ولأشعل في الكتاب النار .

ولقد تأثر سوفيت ، باعتباره من رجال الكنيسة المسيحية ، بصورة الانسان الذي يحمل الخطيئة والشر في طياته ، وهي الصورة التي بدت واضحة في مواعظه وانعكست في الرحلات . ولم يعتقد في يوم من الايام في امكانية تغيير الطبيعة البشرية الثابتة ، ومع ذلك فقد حاول ، كما يقول متهمكا على نفسه ، في غمرة من الغرور وفي لحظة من الحماسة والجنون أن يحرك الانسان « ويغضبه » ليتخلى عن رذائله . فهدفه من كتابة رحلات جليفر كما قال ، هو « اغضاب العالم وليس تسليته » .



ان رحلات جليفر هو انتاج سوفيت الانسان الذي جمع بين صفات « الياهو » و « الهوينومز » فالغضب والغليظ والحدة والعنف والكره التي عبر عنها « سوفيت » كلها من صفات « الياهو » ولكنه وجهها ضد اسوأ الرذائل ، لأنه أراد الانسان ان يكون كائنا فاضلا وليس مجموعة مشوهة من الشرور . و « سوفيت » الكاتب الاخلاقي لا يسعه الا أن يثور ويزجر ويكشر عن أنيابه ، لأنه يود أن يكون الانسان انسانا وليس حيوانا . فالرحلات اذن نتاج عواطف قوية ايجابية وسلبية معا . ورغم محاولاته الايجابية في الاصلاح كان موقتا ان الفشل سواء مع الافراد او الجماعات ، وقدر لها ، لان السخرية وهي الاداة التي استخدمها « سوفيت » كالمراة يكتشف فيها الناظرون عادة وجوه الآخرين لا

وجوهم » . ومع ذلك فقد استمر « سوفيت » في المحاولة لشعوره الداخلي بالحاجة للاستمرار ، وللمتعة التي استمدتها من الكتابة الساخرة نفسها .

وهنا نجد أنفسنا ازاء الناحية العقلية والادبية والجمالية التي تقرب « سوفيت » من « الهوينومز » فرحلات جليفر هي انتاج روح متقدمة وعقل متيقظ تستمتعان الى اقصى الحدود بالنشاط الذهني . لقد وجد « سوفيت » متعة حقا في عملية الابداع وفي سخريته المركبة المدمرة وتحكمه المتمكن الماهر فيها . فالتهمك الساخر ليس مجرد معركة محتدمة ضد الرذيلة والشر ، وانما هي أيضا لعبة مسلية متحضرة توحى بالعقل المتنبه والوعي الاخلاقي . ولا شك أن « سوفيت » قد شعر بالاستمتاع الفني والذهني ، كما يشعر به القارئ في اقصى لحظات التوتر والشدة والغضب في سخرية الرحلات . فطبيعة التهمك الساخر هي تلقين الدرس الاخلاقي بأسلوب ممتع جذاب . وتجاهل عنصر التسلية والمتعة في هذا الأدب وما يوحى به من مستوى رفيع من التحضر ، تجاهل هذا يؤدي الى نظرة مبسطة غير وافية خادعة لعمل مركب عميق الأثر .

ولعلنا نستطيع أن نلخص هاتين الناحيتين الأساسيتين في الرحلات التلقينية الاخلاقية والفنية الجمالية في قصة رواها صديق للناقد صموئيل هولت منك **Samuel Holt Monk** قال انه صدم أحد معارفه صدمة قوية عندما أخبره انه . . ضحك كثيرا عندما قرأ رحلات جليفر ثانية . وعلق قائلا « وماذا كان يجب أن أفعله ؟ هل كان يجب أن أصوب مسدسا نحو رأسي ؟ لا . شك ان « سوفيت » نفسه كان يوافق على رد فعل الصديق الذي ضحك ولم ينتحر ، فهذان هما الاحتمالان الوحيدان أمام قارئ الرحلات . ولولا عنصر الفكاهة والمرح الكامن في التهمك الساخر للرجاء القارئ ومعه « سوفيت » الى الاكتئاب وربما الى الانتحار على اثر كشف النقاب عن الصورة القائمة للطبيعة البشرية في الرحلات . ففي « سوفيت » الساخر المتحضر هو الذي يضمن لنا العقل والاتزان .

وبهذا يتطور القارئ في فهمه وتقييمه لرحلات جليفر في كل قراءة جديدة لهذه التحفة الادبية ، متدرجا نحو نظرة الى الحياة والادب اشمل واعم . والتدرج هو من التسلية المجردة التي يجدها الطفل في الرحلات ، الى الاهتمام بالنقد الاخلاقي الموجه الى سلوك الانسان السياسي والاجتماعي والفردى الذي يبديه القارئ البالغ ، الى الاستمتاع الذهني بالناحية الجمالية والفنية الذي يشعر به القارئ المتحضر المثقف المرهف الحس . وفي هذا التطور دليل على الثروة الكامنة في واحد من اعمق وارفع واروع الامثلة الادبية في التهمك الساخر .

بعض المراجع الرئيسية

- 1 — Herbert Davis, Jonathan Swift : Essays on his satire and other Studies, V.U.P, 1946
- 2 — Bonamy Dobree , English Literature in the Early Eighteenth century, Oxford 1959
- 3 — Denis Douthett . m Jonathan Swift : a critical Introduction C.U.P. 1969
- ..4 —————) edit Jonathan (swift : a critical anthology , penguin ,1971
- 5 — A . E . Dyson , Essays , Studies , Swift the Matamorphosis of Iron 1958
- 6 — Irvin Ehrenpreis, The Personality of Jonathan Swift, Methuen 1958.
- 7 —F . R . Leavis , scrutiny , The Irony of swift march 1934
- 8 —F . P . Lock , The politics of Gullivers travels, Oxford ,1980 .
- 9 — Samuel Monk , sevanee review , The Pride of Lemuel Gulliver, L X 111, 1955.
- 10 — George Orwell Politics V. Literature : an Examination of Gullivers Travels, 1964, reprinted in Sonid orwell and Jan Angus (edits) The Collected Essays, Journalism and Letters of George orwell, Vol 4, 1968.
- 11 — Ricardo Duintano, Swift : An Introduction, O. U. P. 1955
- 12 — Ernest Lee Tuveson, Swift : A collection of Critical Essays, Preutice Hall, 1964
- 13 — David Ward, Jouthan Swift : An Introductory Essay.
- 14 — Basil Willey Eighteenth century Background, London 1946.
- 15 — Kathleen William, Jouthan Swift and the age of compromise, University Kansas Press 1958.

يتميز أندريه جيد بتحرره العقلي وبميله الشديد الى التجربة ، كما يعرف برغبته العارمة . في ارتياد المجالات الجديدة التي تخرج عن نطاق المؤلف . لذلك تبدو لنا شخصيته دائمة التفتح والتعطش الى كل ما هو جديد وفريد . من ثم يمكن اعتبار مؤلفاته الأدبية الزاخرة بالحياة الجياشة بحثا دائما ومحاولة متصلة لكشف الأسرار واكتناه الألغاز التي تتناثر على طريق الحقيقة . كما أن مؤلفاته - لا شك - بحث أصيل عن ذاتيته خلال هذا الوجود .

لاجرم أن يدعوا هذا الباحث عن الآفاق الجديدة الى الرحلة كوسيلة من الوسائل الناجعة لتجاوز حياتنا الأليفة وتحقيق الانفصال عن عالم الأسرة وما يمثله من قيود وأعباء . ولا شك أن المؤلف يدرك أن كل انفصال أو قطيعة يتضمن عواقب وخيمة وآثارا بالغة الخطورة ، إلا أنه على الرغم من ذلك يتحمل مسئولية هذه القطيعة مع الأسرة والبيئة والثقافة والعقيدة ، الأمر الذي سوف يترك في مؤلفاته آثارا من الصعب أن تمحى أو تختفي في وقت قريب .

وعلى النقيض من كاتب مثل « موريس باريس » الذي يؤمن بأن انسلاخ الشباب عن بيئته يحوله الى ضرب من « الحيوانات الصغيرة التي لا مأوى لها » يعتقد أندريه جيد أن قضية الانسلاخ ودور الرحلة في تعميق جذوره من

الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد

ناديه محمود عبدالله

أستاذ مساعد الأدب الفرنسي المعاصر
بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الأمر الحيوي بالنسبة للإنسان ، إذ أنه يذهب الى أن كل رسوخ هولون من التوقع والجمود ، وأن كل استقرار هو تهاة وانحدار . فالرحلة بالنسبة لأندريه جيد هي علامة قوة وشباب . ويجدر بنا في نظره ، أن نقاوم كل القوى العاشمة التي تحاول أن تستعبدنا ، وذلك بمحاولة التأقلم المستمر عن طريق الإنسلاخ الدائم . ولقد استخدم الكاتب في مؤلفه « صراع شجر اللبلاب » ألفاظ علم النبات للدلالة على أن الغرس الطيب هو عادة ذلك الغرس الذي زرع في أماكن عدة .

كما كتب أندريه جيد في دراسته حول موريس باريس « بصدد الرحلة :

« لقد سمحت لنفسي أن أنصح الآخرين بالرحلة ، بل فعلت أكثر من ذلك : لقد دفعت وأجبرت الآخرين على الرحيل ، وهناك من الناس من لم يجر قط ولكنه التقى بي في بلاد بالغة البعد ، ومن الناس من أجلسه في القطار ، ومن صاحبه في سفره بل لقد فعلت أكثر من ذلك ، إذ أني كتبت كتابا كاملا يتسم بالجرأة المدبرة تمجيذا لجمال الرحلة . »

انطلاقا من هذا التصريح ، سوف نستخرج مبدئين نقيم عليهما تصورنا لهذه الدراسة :

أ - أن أندريه جيد لا يكتفي بتأييد الرحلة فحسب ، انطلاقا من قناعاته الذاتية ، وإنما هو يبحث الآخرين كذلك على الارتحال .

ب - أنه يشرع في تحرير أدب كامل عن الرحلات يستلهم فيه اما ذكريات رحلات حقيقية واما رحلات خيالية أو رحلات تقوم على تقليد كتابات الآخرين : مثل كتاب ألف ليلة وليلة .

إن أندريه جيد مغامر جرى متفائل يسعى الى الاندماج في الحياة عن طريق اكتشاف عالمه الخاص في تفاعله مع عوالم الآخرين مدفوعا في ذلك برغبته في تحقيق قدره . ولما كانت حدود عالمه هي حدود العالم قاطبة ، فإن السعي الى الرحلة يصبح لديه سعيًا حقيقيا وراء المعرفة والاكتشاف ، كما يصبح انغماسا كاملا عبر الزمان والمكان لما يمثله الكون بالنسبة له ، من وحدة متكاملة يصعب فصل عراها .

ولكن ما هي رمزية الرحلة ؟ أليست ، قبل كل شيء ، ضربا من الهروب من الذات ؟ ان الرحلة ، في بعض الأحيان ، لا يمكن أن تتم الا في قلب الوجود . كما أن هدفها قد يكون البحث عن

الحقيقة أو السكينة والسلام ، كما قد يكون بحثا عن الخلود ، وفي أحيان أخرى ، سعيًا وراء اكتشاف مركز روحي .

وبالنسبة لهذه الحالة الأخيرة ، يمكن للرحلة أن تأخذ طابع التدرج الروحي ، وأن تظهر إلى العيان في صورة انتقال حول محور للعالم ، كما هو الحال في رحلة الاسراء للنبي محمدًا أو رحلة دانتي . ورحلات أخرى مثل رحلات يوليس وهرقل أو مينيلاس يمكن تفسيرها على أساس أنها بحث ذو طابع نفسي أو صوفي .

إن الرحلة تعبر عامة عن رغبة عميقة في التغيير الداخلي تنشأ متوازية مع الحاجة إلى تجارب جديدة أكثر من تعبيرها ، في الواقع ، عن تغيير مكاني .

وهذا هو يقين « يونج » على الأقل ، الذي تعبر الرحلة لديه عن عدم الرضا الواعي أو اللاواعي للفرد . وهو احساس يدفع الإنسان إلى البحث عن اكتشاف آفاق جديدة ، كما يتساءل « يونج » إذا لم يكن كل مطمح إلى الرحلة هو رمز إلى السعي وراء - « الأم المفقودة » . إلا أن المحلل النفسي « سيرلو » يعتقد ، على العكس من تصور « يونج » ، أن الرحلة تعبر بالأحرى عن الهروب من الأم . على كل حال إن هذا موضوع يثير كثيرا من الجدل ولم يدل فيه بعد بالرأي القاطع .

كما تعبر الرحلة ، وفقا لبعض التفسيرات المعاصرة ، عن الرغبة في الرجوع إلى المصدر أي إلى حالة اللاوعي ؛ من ثم تكون الرحلة ضربا من التعبير عن حاجة الإنسان إلى التبرير ، إلا أننا لسنا نعرف إذا كان المقصود بهذا التبرير هو لون من الحماية الذاتية أو العقاب الذاتي !

أندريه جيد رحالة

يتميز هذا الكاتب ، كما أشرنا إلى ذلك ، بحساسية دينية وعاطفية عميقة . لذلك نراه تواقا إلى مد آفاقه إلى ما لا نهاية . ولقد دفعه حبه الشديد للرحلة ومتعتها الكبيرة التي يحظى بها . من ثم قام بتمجيد أرض « أفريقيا الفاتنة » هذه الأرض المضيئة التي تعدنا بكثير من الأحاسيس النادرة . ولقد دفعه شغفه العظيم هذا بالرحلة إلى تجاوز الأخلاقيات التقليدية لوطنه وإلى إعلان أسفه على رفض الفرنسي

مراجعة أفكاره وتصوراتهِ القبلية تجاه العادات والتقاليد الأجنبية ، كما يدفعه يقينه الراسخ بدور الرحلة في اكتشاف الآخرين الى تقديم نفسه كوسيط متطوع يقود الآخرين أو الراغبين منهم الى « الطرقات المقدسة » التي يعرفها جيدا نظرا لما عقده فيها من أواصر عديدة ومتينة . انه يجعل من نفسه إن صح هذا التعبير « خلية اتصال » من أجل أصدقائه وخلانه الذين يلجأون اليه حينما تدفعهم الرغبة الى التعرف على « فضائل » الأرض الأفريقية .

لا غرابة إذن أن يكون أثره عظيما على كثير من الأدباء ؛ ونود أن نذكر منهم بوجه خاص « بيير لويس » PIERRE LOUYS و« فرنسيس جام » FRANCIS JAMMES وفالبي لاربو VALERY LARBAUD . ولقد تبعه هذا الأخير الى كثير من المدن الجزائرية ومدن المغرب العربي ، الأمر الذي دعم لديه تقديره الكبير وإعجابه العظيم بمؤلف « الأغذية الأرضية » . كما تبع أندريه جيد ، من جهة أخرى ، في نزعته الى التنقل والارتحال عدد كبير من الفنانين ، الأمر الذي نسج علاقات قوية وحركة تبادل حميم بين فرنسا والبلاد الأجنبية .

ان أندريه جيد ، هذا الرحالة الابدي ، لا يكف قط عن إثارة دهشتنا وإعجابنا ، فهو دائب الحركة والتنقل لا يكاد يستقر في مكان . ويحلوه ان يشير الى هذه السمة بقوله في « مفكرته اليومية » بأن « الاسكندر الأكبر لم يكن يتقدم نحو الاراضي الجديدة كرحالة وانما كغازي يبحث عن حدود العالم » . ان الاستقرار في مكان محدد يذكر كاتبنا بركود المستنقعات . لذلك نراه سريع الحركة ، لا يطيل الإقامة في مكان واحد . ولقد دفعه حبه للترحال بين البلاد الأجنبية الى التجوال المستمر ، مما دفع بعض أصدقائه ، خاصة « آدمون جالو » بوصف عاداته هذه بالنزعة الى « الهجرة » أو هوس « التجوال على الطرق العامة » .

ويكفي أن نتصفح « مفكرة » جيد لنجد الدلائل القاطعة والمذهلة على نزعة الترحال هذه . ويمكن تقسيم رحلات الكاتب بين فترتين جد متميزتين :

أولا : ما تعارف النقاد على تسميته بالمرحلة الأفريقية ، بين ١٨٩٣ و ١٩٠٣ ، وهي فترة الرحلات الأفريقية ؛

ثانيا : الفترة الممتدة من ١٩٠٣ الى ١٩٥١ التي يزور خلالها على التوالي إيطاليا ، تركيا ، المغرب ،

تونس ، الكونغو ، تشاد ، الجزائر ، جزيرة سان لويس ، الاتحاد السوفيتي ، اتحاد غرب أفريقيا ، مصر ، اليونان - وغيرها . . . وهو يعود على بعض هذه البلدان أكثر من مرة ، خاصة شمال أفريقيا . وليس من شك في أن أرض أفريقيا ، بوجه خاص ، هي التي تفتنه وتبهره . من ثم نراه يسعى الى استنفاد كل امكانياتها والتعرف على « بدائية » الطباع والعادات الأفريقية :

لا شيء يساوي حقا في الادب ، كما يدون الكاتب في مفكرته ، أكثر مما تعلمنا إياه الحياة .

لقد استطاع جيد أن يوازن بين وصف البيئات الأجنبية وحركة استبطانها ، ومن هنا قدرته الخارقة على تحويل انطباعاته وملاحظاته الى عمل بالغ الذاتية ، وهو الأمر الذي جعل من « رحلات » الكاتب شهادة انسانية حية يندرج من خلالها وصف العالم الخارجي تحت ظلال الادراك الأنطولوجي .

وفي الواقع ، لا تعد زيارة الكاتب لأفريقيا أو بالأحرى اختياره لهذه القارة مجرد صدفة ، فلقد تلقى جيد دعوتين في هذا الصدد : أما الدعوة الاولى فلقد وجهها اليه ابن خالته « جورج بوشيه » الذي عرض عليه رحلة علمية الى أيسلندا ، والثانية فلقد عرض عليه من قبل صديقه « بول - ألبرلورانس » الذي دعاه الى جولة فنية في أفريقيا . وبعد تردد طويل ، يميل الكاتب الى قبول الدعوة الأخيرة . على هذا النحو يبحر أندريه جيد الى افريقيا خلال شهر أكتوبر ١٨٩٣ في صحبة « بول - ألبرلورانس » . يمكننا أن نتخيل ما كان قد آل اليه حال أندريه جيد اذا قبل الرحلة الى أيسلندا . أو بالأحرى اذا لم يكن قد ذاق متعة السفر الى القارة السوداء ؟

ان عرضا سريعا للرحلات الست التي قام بها الكاتب الى شمال افريقيا بين عام ١٨٩٣ وعام ١٩٠٣ سوف توضح لنا جيدا تعلق الكاتب الشديد بهذه القطعة المفضلة من الأرض :

١ - في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٨٩٣ يرحل أندريه جيد الى مدينة « بسكره » بالجزائر صحبة بول - ألبرلورانس ، ويقيم فيها حتى نهاية يناير ١٨٩٤ . وبلغ إعجابه بهذه المدينة حدا كبيرا لدرجة أنه يعاود زيارتها أكثر من عشر مرات . لقد وصل اليها مريضا لدرجة أنه أحس بأن - حياته في خطر . ولقد دفعه الخوف من الخطيئة الى البقاء على وفائه لحبه الطاهر الذي ربطه طويلا بآبنة خاله « مادلين روندو » ومع ذلك ، فان سفره الى شمال افريقيا كان لأسباب أخرى ، أو على الأقل ، هذا هو ما يقوله لنا في كتابه « اذا لم تمت حبة الغلال » :

« أجل ، يكتب في مؤلفه كنت أنا وبول عاقددين العزم عند رحيلنا وإذا طلب مني كيف استطاع بول ، الذي تلقى - لا شك - تنشئة خلقية ، ولكنها تنشئة كاثوليكية وليست متزمنة ، في وسط فنانين واثارة مستمرة من قبل الرسامين وثماندهم ، أن يبقى بعد سن الثالثة والعشرين عفيفا ، أجب بأن أقول هنا حكايتي وليست حكايته وأن هذه الحالة شائعة أكثر مما نعتقد (. . .) واني لا تذكر أنه في محادثتنا قبل الرحيل كنا نتدافع نحو مثل أعلى من التوازن والكمال والصحة » .

٢ - في شهر فبراير ١٨٩٤ يرحل أندريه جيد الى تونس ومنها الى الجزائر مرة أخرى حيث يقابل في بداية عام ١٨٩٥ إسكار وايلد ولورد ألفريد دوجلاس . ومرة أخرى تعد هذا الإقامة بالنسبة له إقامة « فردوسيه » ، يعود منها سليبا معافى ومتحررا من كل النواحي الجسدية والأخلاقية خاصة بعد أن كشفت عنه حجب نفسه ، كما يقول « مفاجئات الواحة المتأججة » . ولا شك انه وجد هنا طريقه بعد أن فشلت تجاربه الجسدية مع المرأة ونجحت نوازه المربية مع مرشده الشاب .

ولدى عودته الى فرنسا يتزوج أندريه جيد من « مادلين روندو » في الثامن من أكتوبر ١٨٩٥ . وهو الزواج الذي يقوم على أوهام كل من الطرفين .

٣ - وفي فبراير ١٨٩٦ يرحل العروسان الى شمال أفريقيا لقضاء شهر العسل . ويمكثان شهرين متنقلين بين تونس والجزائر . وخلال هذه الرحلة سوف ينفجر التناقض القائم في نفسية الكاتب بين المتطلبين اللذين يتنازعانها : فهو من جهة لا يستطيع أن يسيطر على هذا « الجزء من كيانه » الذي يدفعه الى تذوق كل أنواع الملذات ابتداء مما هو أكثرها بشاعة في نظر البشرية ، ومن جهة أخرى يشعر بتأنيب الضمير تجاه زوجته التي يدفعها كرها منه لا طوعا نحو الأماكن التي تجلت له فيها « غوايته » الأفريقية ، ولا شك أن هذا التمزق الذي يحدثه لديه فوضى الانطباعات الحسية والرغبة في السيطرة على النفس بالإضافة الى تأنيب المجتمع الصامت وضغط الضمير المتبرم سوف يساعد على خلق شخصيه « اللا أخلاقي » لديه ، وهي الشخصية التي يقدمها لنا وهي تسعى الى تحقيق لون من التوازن الغريب بين الاحتفاظ بطهارة العلاقة الزوجية واضفاء الشرعية على كل أنواع الملذات الأخرى ، وسوف تطبع هذه الازمة حياته ومؤلفاته بطابعها الحاد المتوتر .

٤ - في أبريل ١٨٩٩ يذهب جيد الى مدينة القنطرة بالجزائر حيث يقضي شهرا كاملا . وسوف يسجل الكاتب خلال هذه الإقامة ادنى اهتماماته وأقلها شأنا ، كما سوف يتابع تسجيل خلجاته الداخلية بطريقة

مستمرة . على هذا النحو يعمل على خلق الجو الروحي الذي تنمو فيه أحلامه وأوهامه . ووفقا لمنهج الكاتب الثابت ، نراه بقيم ادراكه للعالم الخارجي على أدق خلجاته النفسية وفي شبه اتحاد كامل مع أعمق وأصدق مكنونات وجدانه .

٥ - وفي ديسمبر ١٩٠٠ تفود أندريه جيد رحلته الافريقية الخامسة الى قطاع بركه - توغرت . كذلك تعد هذه الرحلة خامس رحلاته الى واحة بركه التي تمثل بالنسبة اليه مرفأ سلام وسكينة كما تمثل مصدر لذة ونعيم . وسوف يترجم فيما بعد افتتانه العظيم وانبهاره الشديد الناتجين عن صدمة الالتقاء بين روحه وهذه الارض الساحرة . فهو لن يكتفي بوصف المظاهر الخارجية للبلد من مشاهد وآثار وأناس وأزياء وطنية فحسب ، وانما يسعى كذلك الى النفاذ الى قوار الاشياء يقينا منه بأن رجل البيئة المحلية الذي يزور كوخه وخيمته انسان مثله يتمتع بطريقته الخاصة في المعاش ، كما يتميز بنمط حياته وأفكاره ومعتقداته وقيمه . من ثم يستطيع أندريه جيد تحويل أحاسيسه وانطباعاته الى عمل فني وزياراته وجولاته الى رحلات فنية .

٦ - وأخيرا يحاول أندريه جيد خلال خريف ١٩٠٣ أن يدفع الخمول الذي ينتابه منذ مدة ، وذلك بالشروع في رحلة سادسة الى شمال أفريقيا . وهو يجوب هذه المرة الجزائر بلا هدف واضح ، ومرة أخرى تقع بركه في مسار رحلته . وسوف يسجل بدقة كل انطباعاته ويعد صفحات مفكرته ، وأهم ما يعنى بوصفه الاحداث التي تؤثر في حواسه وجدانه . الا أنه لن يحول هذه الاحداث الى نسيج روائي الا فيما بعد . ومن الواضح أن الأرض الافريقية لا تمثل بالنسبة للكاتب مجرد اطار عابر ، اذ أنها امتزجت لديه بمعاناة حقيقية كما ارتبطت بحالاته النفسية المتغيرة .

ولقد أوضح لنا أندريه جيد في « مفكرته اليومية » بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٣٥ الأسباب التي تدفعه الى البحث عن « المكان الآخر » .

« ان الذي يشكل جاذبية وفتنة المكان الآخر ، وهو مانسميه البرانية ، وليس مرتبطا بكون الطبيعة أكثر جمالا ولكنه يعود الى أن - كل شيء يبدو لنا جديدا ، وأنه يفاجئنا ويتجلى لنا ظريفا في ثوب من البكارة . انها ليست « الاوراق » « الاعرض » بقدر ما هو « الشدى الذى لم يختبر بعد » .

ان البحث عن « البرانية » يتحول لدى جيد الى اكتشاف لعالم غريب . ولقد كتب في هذا الصدد :

« لا استطيع مقارنة البرانية » أفضل من مقارنتها بملكة سبأ التي تأتى الى جوار سليمان تقترح عليه ألغازا . »

ان تعطش الكاتب الى المغامرات والحرية والاحلام يؤكد لديه رغبة الهروب من بلده « كوفرفيل » . ولربما كان ينزع ، لا شعوريا ، الى الهروب من ذاته والمطالبة بشرعية وضعه كغريب . ولا شك أن رمزية الغريب تعنى ، هنا ، حالة من حالات ضياع النفس أو فقدان جانب من جوانبها الضالة أو التي تندمج بعد في هويتنا الشخصية .

ويبدو أن افريقيا وحدها هي التي استطاعت أن تنسى جيد حالة العزلة التي عانى منها في « كوفرفيل » ، والتي مكنته من استغلال كل طاقاته الكامنة وامكانياته الراكدة . ان التعرف على افريقيا يتيح له تحقيق الانتقال العنيف من ايقاع حياة جامدة « لا يحدث فيها شيء » ، الى حالة من التحرر الذي يصل اليه بفضل اصراره وعناده ، وسوف تظل تجربته الجنسية الاولى مرتبطة بشمال افريقيا حيث استطاع أن يصل الى ذروة النشوة الحسية وقمة لذة المغامرة واكتشاف الذات عبر الآخر . وسوف تطبع هذه التجربة معظم مؤلفاته . ولا شك أن جيد سوف يظل دائما آمينا مع نفسه ، ذلك أنه لن ينسى أبدا البحث عن ذاته في كل مشهد أو منظر يحظى برؤيته كأنما هو يسعى ، في نهاية الامر ، الى اكتشاف لغزه أو سره الخاص . ألم يكتب لنا ، في هذا المعنى ، في « مذكرات رحلة في منطقة بريطانيا » ؟ :

« لقد كان يبدو لي أن المشهد الطبيعي لم يكن الا اسقاطا لذاتي المنبعثة فيه ، إلا جزءا نابضا من كيان - أو بالأحرى لما كنت لا أشعر بنفسى الا من خلاله ، كنت أعتقد بأننى مركزه » .

في هذه الاحوال يمكننا أن نعتبر أن أية رواية يقدمها لنا جيد لرحلة من رحلاته تمثل انعكاسا لرغباته اللاشعورية ولربما ، فيما يخص شمال افريقيا ، تعبر بطريقة غير مباشرة عن ميوله الجنسية المكبوتة .

إلا أننا نميل الى الاعتقاد ، في أعقاب الشاعر بودلير ، أن جيد ينظر الى الرحلة نظرتة الى ضرب من الشوق العاطفي الذي يؤدي الى خلق العمل الفني ، في هذه الحالة تصبح روايته نصا فرويديا حقيقيا يترجم تسامى غرائزه بواسطة تسامى عملية الخلق الفني . ولا شك أننا هنا أمام حالة من النشوة العقلية التي تنتج عن عملية التحرر التي يحققها انجاز العمل الفني الذي يعبر في هذا الصدد عن فحص منهجي للذات .

يبدو أن جيد يبحث خلال رحلاته وجولاته العديدة في افريقيا عن الطابع المحلى من خلال حياة الجماعات وتحركاتها المكثفة . ونرى أن الحضارة الاسلامية هي التي تسود في مؤلفاته ، وذلك في صورة

لوحات للمساجد ومآذنها ، - وللعادات والتقاليد المحلية . ويحاول جيد أن يرى كل شيء في إطار الاسلام بحيث تصبح كل المدن الشرقية بالنسبة اليه سباحة في « لون فجر اسلامي ، وذات مآذن خيالية شاهقة » .

أو كما يقول هو عن أجواء هذه المدن : « كانت المآذن المدببة تمزق السحاب وكانت هذه المآذن شاهقة الى درجة أن السحب كانت تظل عالقة بها ، كما لو أنها رايات من اللهب . »

وفي مكان آخر نراه متأثرا أمام هذه المآذن التي ينطلق منها دعاء المؤذنين الى درجة أنه يكتب في « رحلة أوريان » :

« كانت نغمات هذا الدعاء مذهشة الى درجة أننا بقينا بلا حراك ، في حالة من النشوى . »

ويذهب جيد في اعجابه بدعاء المؤذنين الى حد الاعتقاد بأن الاهازيج الهادئة التي تصحبه يصعب تجاوزها ، وهو الأمر الذي يدفعه الى تكرار اعجابه في عبارات مؤثرة ، جميلة الجرس والايقاع . انه يقول في « رحلة اوريان » :

« ولكن ، عبر فجر ما زال بعد ناديا ، لم تكن تصدر الا بعض الهمهمات المجهولة التي كانت تضيع في فراغ الفضاء . وفجأة ينطلق مع بزوغ الشمس نشيد من مثذنة ، النشيد الأول نحو الشمس الصاعدة ، نشيد مؤثر وعجيب كدنا نبكي تأثرا به . كان الصوت يرسل ذبذبات حادة . وتفجر دعاء ثم دعاء ، واخذت المساجد تستيقظ مترنمة عند التقائها بأول - شعاع من أشعة الشمس . . وكان المؤذنون يتجاوبون في الفجر كما لو أنهم طيور القبر . »

اننا هنا ، لا شك بصدد فنان موسيقى ، وليس أمام كاتب واصف للطبيعة ، - يعبر عن نفسه ! ويتميز ولع جيد بالحضارات الأخرى المغايرة للحضارة الأوروبية الصناعية بالاهتمام كذلك بالتفاصيل والسمات المحلية المميزة . من ثم نراه يعنى بوصف رقصات الدراويش وصيحاتهم ، ولا يفوته ان يصور لنا انطباعاته في هذا الصدد .

ولا يسعنا في هذا المقام الا الاعجاب بقدرة الكاتب الفائقة على تصوير أدق الخلدات وأكثر اللحظات الانسانية قربا من الاتحاد بالمطلق والدوبان فيه .

لقد قضى جيد ، على هذا النحو ، عشر سنوات من الرحيل والانتقال عبر شمال افريقيا ملتصقا فيها بنظراته كل ما يلتقى به من مشاهد طبيعية ومن حيوانات ونباتات محلية ومستمتعا بركة الجو ودفء الشمس . ولا شك أن ذلك كله كان له بالغ الأثر في توجيه صدمة سيكولوجية له نتيجة اللقاء المفاجيء بين روحه وهذه الأرض الفريدة . لا غرابة إذن أن تصبح افريقيا ، من الآن فصاعدا جزءا لا يتجزأ من عالم أندريه جيد . لقد أصبحت انعكاسا لقدره ومرآة لمغامراته واكتشافه وفشله أحيانا . ان هذه القارة ، التي تغوص على هذا النحوي قرار كيانه ، تصبح علامة دالة على مؤلفه الأدبي الذي يصبح ، ضمن هذا التصور ، مؤشرا دقيقا لمشاغله واهتماماته الشخصية .

على كل حال ، لقد حاول جيد في كتابه « اذا لم تمت حبة الغلة » أن يبرر وضعه بالقاء نظرة فاحصة الى الوراثة على فترة العشر سنوات هذه التي قضاها في افريقيا . لقد كشف القناع عن نفسه بصراحة لا تحتل الرياء حينما أوضح أنه يفضل سيطرة الدفعات الغريزية للحياة على هيمنة الضمير والحس الخلقى . الا أنه يبدو أن الكاتب يحاول هنا في الواقع اصفاء طابع انساني على صورته وذلك بتحديد لها بعدا خياليا وضربا من الكثافة والعمق ونوعا من التسلسل المنطقي .

لقد كانت الرحلة الافريقية فرصة خلاص وتحرر بالنسبة لأندريه جيد وذلك بالقدر الذي استطاع فيه أن يتخلص من تربيته الخلقية المترتبة وأن يحقق نوعا من الارضاء والاشباع النادر لحواسه المرفهة . ألم يقل لنا ، في « الاغذية الارضية » بأن « كل لحظة من حياتنا لا تعوض أساسا » . ان الانطلاقة الافريقية قد حققت لأندريه جيد مجموعة كاملة من الملذات التي حققت لجسده وروحه التضرع والتألق والانطلاق . لقد كتب لنا في هذا الصدد « أندريه روفير » احد مؤرخي حياة أندريه جيد عام ١٩٢٧ :

« ان جيد في دفعته الحسية ، يتجاوز حدود العادة مدفوعا بحيوية جسدية وسفسطة عاص توحى بأن خطيئته لم تبلغ بعد حد الكفاية . انه في حاجة الى كل الثمرات المحرمة حتى يعصرها بلذة وتلذذ . »

يميل جيد ، كما نرى ، الى الاستمتاع بأحاسيسه الآنية ، ويحنج الى تلقى متع « الروائح والألوان والاصوات » في كل لحظة كما لو أنها تنبعث من الطبيعة بفضل قوة حلولية . من هنا اعتقاد الكاتب بالطابع الخير للطبيعة وطيبة كل الثمار التي تقدمها للانسان ، مدفوعا في ذلك بقوة حسية لا تقاوم . ولا

يحاول جيد أن يتجنب دعاء الطبيعة ، بل على العكس ينغمس فيها نشوانا وجدلانا متغنيا بكل أعمالها البديعة كالشفق وفتنة الصحراء وشدو العصافير والسحر ونسيم الليل وغير ذلك . . ولا شك أن ذلك كله يغمره في نوع من السكر الحسي الذي يتأرجح بين البراءة والخبث .

وليس من شك في أنه لم يفهم الاسلام حق فهمه . خاصة أنه يضع كل انطلاقاته الشخصية في « الاغذية الارضية » تحت راية الحضارة الاسلامية . فالاسلام لا يعرف هذه - « النشوى الحسية » التي يحاول جيد أن يتذرع بوجودها فيه ، اذ أنها أقرب الى المتعة الطبيعية التي كانت تتميز بها العقائد الوثنية . ان جيد يحلم في الواقع بالخلاص من تربيته الدينية المتزمتة التي تلقاها في فرنسا ويحلم بالتالي بجنة وهمية لا مكان فيها لقانون أو الزام خلقي . ولا شك أنه وجد في مدينة بسكره جنة أحلامه ، الامر الذي يبرر هذه الرحلات المتعددة التي قام بها الى هذه الواحة الجزائرية .

لاجدال في أن نزعة التنقل والارتحال في افريقيا قد احدثت تغييرا كبيرا في نفسية الكاتب سواء في سلوكه أو مفاهيمه الفكرية والفنية ، ويبدو واضحا أن الكاتب قد اهتم ، خلال جولاته العديدة ، بالآداب الشرقية . غير أن تذوقه لهذه الآداب ظل في أغلب الاحيان سطحيًا ، الامر الذي يتضح لنا بسهولة حينما يميل الى وصف العالم الشرقي فتكثر أخطاؤه ويبدو جليا سوء فهمه وتعثر تفسيراته . وفي الواقع . لم يقدم له من الشرق أكثر من بعض المواد الضرورية لتأكيد وبلورة مفاهيمه الفنية الجديدة التي كان يطمح اليها . ومن ثم تظهر لنا نزعته الى « البرانية » في صورة اتجاه الى غنصر شاعري بالغ الخصوبة ، والى مصدر عظيم وهائل من مصادر الانفعالات الجمالية والاخلاقية . لاعجب اذن ان تكون هذه الفترة ، التي قضاها جيد في الارتحال والتنقل بين ربوع شمال افريقيا بالغة الاهمية بالنسبة لفهم كثير من القضايا التي تعالجها مؤلفاته الادبية وعلى رأسها كتابه : « اذا لم تمت حبة الغلة » على كل حال ان هذه الفترة تتميز بطابعها العملي والتجريبي الذي يضيف على رحلات أندريه جيد قيمة موضوعية أساسية .



بالنسبة لرحلات الكاتب الأخرى ، فهي لا تمثل - بالرغم من تعددها - نفس الاهمية التي تحتلها رحلاته الى شمال افريقيا . وتستغرق هذه الرحلات مدة طويلة تمتد من عام ١٩٠٣ الى عام ١٩٥١ ، وعلينا الآن أن نتبع الكاتب في جولاته الأخيرة هذه .

تعتبر الفترة الواقعة بين ١٩٠٣ و ١٩١٢ فترة هادئة الى حد كبير ، اذ يكرس فيها أندريه جيد معظم

وقته لتحرير « مفكرته اليومية » التي كان قد بدأ في تحريرها منذ عام ١٨٨٩ وكذلك مؤلفه « الباب الضيق » الذي نشره عام ١٩٠٩ .

ولقد قام الكاتب خلال هذه الفترة برحلات عديدة داخل فرنسا تتخللها فترات اقامة في منطقة نورمانديا . كما يساهم بفعالية ملحوظة في تأسيس مجلة الدراسات الأدبية : « المجلة الجديدة الفرنسية » (N.R.F.) وابتداء من عام ١٩١٢ نراه يبدأ من جديد في التنقل والترحال .

يلذهب أندريه جيد ، خلال عام ١٩١٢ ، الى ايطاليا ، بينما هو في الواقع كان ينوى ، في الأصل ، الذهاب الى تونس ثم الجزائر حيث كان يتوقع اللحاق بأندريه - بنيامين كونستان . وهو فعلا يأخذ القطار الى مارسيليا في ٢ مارس بنية الابحار الى تونس يوم ٤ مارس . الا أنه لأسباب ستظل غامضة ، سوف يغير رأيه في آخر لحظة ويأخذ القطار الى ايطاليا حيث ينوى الاقامة في مدينة فلورنسا ، ويوضح لنا ذلك جيد في مفكرته قائلا :

« لم أذهب الى تونس . اننى اتخلى عن تونس وأسرع الى فلورنسا خشية سوء الجو وبسبب عدم الصبر . »

ولكننا نتساءل لماذا هذا التغير المفاجيء ؟ ولماذا لم يخش سوء الجو من قبل ؟ وأخيرا لماذا هذا القلق وفقدان الصبر ؟ يا ترى ماذا دار في خلد الكاتب خلال هذين اليومين بين ٢ و ٤ مارس حتى يغير مشروعه الاول ؟ ان الغموض يخيم تماما على هذا الموضوع .

بعد انقضاء عامين على زيارة ايطاليا ، يتوجه الكاتب الى تركيا حيث يقضى شهورا في زيارة مدنها الرئيسية مثل القسطنطينية وبروس وكارا - هيسار وقونية وغيرها . ومرة أخرى نراه يسجل في دفاتره كل انطباعاته التي سرعان ما يقوم بتنميقها وتفخيمها خياله المتدفق السخي ، وسوف ينتج عن ذلك كتاب جميل اسمه « العتبة التركية » **LA MARCHÉ TURQUE** يكتظ بالملاحظات النفسية البالغة الصراحة . وهو ، في الواقع . لم يعجب بأى شيء في تركيا . ولقد كتب ذلك صراحة في أول مايو ١٩١٤ :

« أيا قرن الذهب أيا البوسفور ، يا شاطئ سيكوتارى وأشجار أيوب ! اننى لا أستطيع أن أهب قلبي الى أجمل منظر في العالم اذا لم أحب الشعب الذي يقطنه . »

من الواضح أن أندريه جيد لا يستطيع أن يصف شعبا من غير أن يرتبط به عاطفيا ، وهو لم يعجب بالأتراك ولم يحبهم ، وكثيرا ما يخط قلمه كلمة « قبيح » التي تتكرر أكثر من مرة . انه يقول مثلا عن الأتراك : « الشعب قبيح ، انه الرغبة التي خلفتها الحضارات » وهو يرى أن اللباس التركي قبيح كذلك ، ويعتقد أن ذلك يتلاءم مع أرض الاناضول التي تثير حفيظته وامتعاضه . ويدفعه هذا الامتعاض الى كيل النعوت القبيحة الى سكان هذه المنطقة والى تحقير الحضارة التركية التي لا يرى فيها أى قدر من الاصاله والابتكار . وليس من شك في أنه يبالغ كثيرا حين يقول :

« أتعجب ببعض العمارة أو بظاهر مسجد ما ؟ حيثلذ سرعان ما نعلم انها من صنع الألبان أو الفرس . كل شيء أتى الى هنا بالقوة الغاشمة ، وبقوة المال . فلم ينبثق أى شيء من التربة ولا نعثر على شيء أصلى تحت هذه الرغبة الكثيفة التي أحدثها . الاحتكاك الطويل لكل هذه الاجناس والاحداث والمعتقدات والحضارات . »

ويمكن تفسير هذا التحيز الواضح ضد تركيا على أساس أن الرؤية الاولى لشمال افريقيا كانت لدى أندريه جيد بمثابة النموذج المثالى للاطار الشرقي ، ولربما يكون الكاتب قد حاول أن يجد في تركيا نشوته الافريقية فأسقط في يده حينما وقع على وحشة المنظر وسوء طالع الوجوه الكالحة التي قابلته في هذا البلد . على كل حال ، اذا كانت قونيه تعد بمثابة مدينه القيروان ، الا أنه شتان بين هذه المدينة ومدينة القيروان أو حتى واحة بسكره . ولقد دون في مفكرته في هذا الصدد :

« بفضل موقعها بالنسبة للجبل القريب والسهل ، تذكرنا قونيه بشدة بواحة بسكره . ولكن كم تعد هذه الجبال أقل روعة ، شكلا ولونا ، من جبال « خادو الأحمر » ، وكم هو أقل جمالا من الصحراء هذا السهل ، وكم هي أجمل أشجار النخيل من هذه الاشجار ، وأولئك العرب من هؤلاء الأتراك . »

وفي مكان آخر يقارن الكاتب جمال الطابع المحلي لشمال افريقيا بالمناظر القبيحة القميثة التي شهدناها في تركيا حيث « كل شيء متسخ ، ملتو فاقد الأصالة والبريق » ، الأمر الذي يدفعه الى تقديم هذه الملاحظات المؤلمة : « هل كان علي أن آتى الى هنا حتى أعرف كم كان طاهرا وخالصا ما رأيته في افريقيا . »

أخيرا ان هذه الادانة القاطعة وهذا الهجوم العنيف وهذا اللوحة القائمة كلها أمور تدل على خيبة أمل

الكاتب - من غير شك - في العثور على مبتغاه في تركيا . من ثم نراه يصل الى هذه النتيجة في مؤلفه « العتبة التركية » :

« ان الدرس الذي استخلصه من هذه الرحلة يتناسب مع امتعاضي من هذا البلد . وحينما سأحتاج الى هواء الصحراء والى روائح عنيفة ووحشية ، فاني سأذهب الى الصحراء من جديد للبحث عنها » .

اذن افريقيا أبدا ودائما !

وفي عام ١٩٢٣ ، يلبي أندريه جيد دعوة الجنرال ليوتيه الى المغرب حيث يذهب في صحبة صديقه بول ديجماردان . ويمكث الكاتب في المغرب من ٢٨ مارس الى ٢٠ أبريل ، وفي الرابع من سبتمبر خلال العام نفسه يسافر الكاتب من جديد الى تونس حيث يقضي شهرا كاملا .

ومن يوليو ١٩٢٥ الى يونيو ١٩٢٦ مدفوعا برغبته العارمة في « الزهد » وتطويع النفس ، يرحل مرة أخرى الى افريقيا . ولكنه يتجه هذه المرة الى الكونغو حيث قام برحلة طويلة يكتشف فيها أن له « قلب رسول اجتماعي » . وفي الواقع ان ما يؤثرفيه خلال جولاته في القارة السوداء هو استغلال الاستعمار والرأسمالية البشع للسكان السود الذين تقوم باستعبادهم قلة من المستغلين البيض . وسوف يحرر « رحلته الى الكونغو » عام ١٩٢٧ و « العودة من تشاد » عام ١٩٢٨ حيث يدين الاستعمار والرأسمالية اللذين اتحدا في سبيل قهر السود . ويوضح جيد بفخر في مفكرته بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧ أن موظفا كبيرا في وزارة المستعمرات أنبأه بأن كتابه عن الكونغو كان المرجع الوحيد خلال المؤتمر الدولي بجينيف الذي نوقش فيه مشروع قانون لتنظيم عمل سكان المستعمرات .

وسوف يكلف أندريه جيد فيما بعد (خلال عام ١٩٣٨) من قبل لجنة التقصي بوزارة المستعمرات باعداد تقرير تفصيلي عن العمالة واليد العاملة الاهلية في منطقة غرب افريقيا الفرنسية . الا أن التقرير الذي يحرره يظهر ثقة الكاتب في المؤسسات الفرنسية ، اذ انه يصل الى أن السكان المحليين يعاملون جيدا وأن الادارة الفرنسية تنصفهم ، كما انها قضت على نظام الرق المستتر في القرى النائية ، واقامت جمعيات لرعاية اليد العاملة الوطنية وتقديم كافة أنواع المساعدات لها .

ويقضي أندريه جيد شهر يوليو من عام ١٩٢٨ في تونس ، ثم يمضي الشتاء التالي في التنقل بين

ربوع الجزائر ، وأخيرا يعود مع نهاية عام ١٩٣٠ وبداية ١٩٣١ الى تونس حيث يصطحب « اليزابيث فان رايسلبرغ » الى واحات الجنوب التونسي . ونراه يسجل في مفكرته بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٣٠ بهذه المناسبة :

أن واحة جابس ، التي لم أكن أعرفها بعد ، تبدو لي من أجمل الواحات التي رأيته . . . وما كنت أظن نفسي قادرا على مثل هذا الاعجاب . اني لو عثرت على جابس في سن العشرين لكنت - كما يبدو لي - أفدت أكثر من افادتي من بسكره .

ويبحر أندريه جيد في عام ١٩٣٢ الى طنجه حيث يقيم شهرا كاملا ، ومنها يتجه الى فاس . ويصف لنا أجواء هذه المناطق في مفكرته قائلا :

« زرقه ملائكية - ولا حتى لفحة واحدة . ان الانسان يشعر بالذنب اذا لم يبحر أمام بحر مثل هذا » .

وفي عام ١٩٣٦ يقضي شهري فبراير ومارس في واحة غور الصغيرة ، ثم في جزيرة « سان - لويس » حيث يشاهد - مبهورا ، عيد الأضحى الذي يفسر معناه على أنه « تجسيد المجرى » ويرى فيه رمز الفداء والتكفير والتضحية .

خلال هذه السنة (١٩٣٦) نفسها يتلقى جيد دعوة لزيارة الاتحاد السوفيتي حيث يذهب لاكتشاف عالم قد « يتحقق فيه ما لم يحلم به أحد » ويكون لقاءه حارا ومصحوبا برايات النصر . الا أن هذه النشوى سرعان ما تزول فيصاب بخيبة الأمل حينما يزور المصانع والحقول وحضانات الأطفال وأخيرا الوحدات الصناعية والكولخوز . لقد تبين له أن جميع هذه التنظيمات الجماعية سيئة الإدارة . من ثم أخذ ينتقد تسلط الجهاز الإداري على هذه التنظيمات في الاتحاد السوفيتي - والطابع الموجه لسياسة هذه الدولة . وسوف يسجل عام ١٩٣٦ في كتابه « العودة من الاتحاد السوفيتي » كل انطباعاته عن هذا البلد ، كما سيبين حكمه السلبي على الشيوعية عن رغبته الصادقة في اتخاذ موقف بالنسبة لكبرى قضايا العصر ومشاكله في شكل التزام من أي نوع كان . وسوف يصدر أندريه جيد بعد مضي عام من رحلته منشورا سياسيا عنوانه لمساة على عودتي من الاتحاد السوفيتي « يقدم فيه عددا من الاحصائيات التي استقاها لدى التروتسكيين .

وفي عام ١٩٣٩ تشد مصر انتباه الكاتب . ومرة أخرى نراه يصدم في البداية اذ أنه يعلن في « مذكرات من مصر » الصادرة بتاريخ ٢ فبراير ١٩٣٩ أنه عانى الجحيم في شوارع القاهرة ، وأنه لم يستطع إقامة أية علاقة قوية مع أهلها . الا أنه سرعان ما يجعل بعض الراحة في مدينة الاقصر . وسوف يقيم الكاتب في « وينتر بالاس » (القصر الشتوى) بالا قصر الذي يبهره بحدائقه الغناء الزاخرة بكل أنواع الزهور النادرة . ولقد أعجبه هذا الاطار الفردوسى الذي كان يحلوه الجلوس فيه ومشاهدة عمال البساتين وهم يؤدون عملهم في رشاقة وفي حركات منسقة توحى له ، بفعل خياله الجامح ، أنه يعيش في جنة الخلد . من ثم تحلو مصر في ناظره ويحظى شعبها لديه بكل مظاهر الحب والاعجاب . ومع ذلك ، نلاحظ أن « مذكرات من مصر » لا تشير كثيرا الى الآثار الفرعونية ولا تذكر الا تلميحا مرور الكاتب بالاسكندرية والقاهرة والاقصر والكرنك وطيبة ووادى الملوك ومدينة حابو ونجع حمادى وأبيدوس ودندره وإسنا وادفو ورشيد .

وفي السادس من مايو ١٩٤٢ يرحل الكاتب الى تونس حيث يستقر في البداية بمدينة تونس نفسها ، ثم في بلدة سيدى - بوسعيد من ٢٥ يونيو الى ٢٣ سبتمبر عند بعض الاصدقاء . وفي السابع والعشرين من مايو ١٩٤٣ يغادر تونس الى الجزائر ثم الى المغرب . وبعد عودته في السادس والعشرين من يونيو ١٩٤٣ الى الجزائر حيث يدعوه الجنرال ديغول الى العشاء اثناء اقامته في بلدة البيار . وسوف يشير في « مفكرته » الى هذا اللقاء بقوله :

« مقابلة ديغول كانت بالغة الود والبساطة ، كما أن الاحترام والتقدير اللذين أظهرهما نحوي كادا يقنعاني بأن شرف ومتعة اللقاء كانا له . »

وفي السابع من فبراير ١٩٤٤ يستقر جيد في مدينة فاس . الا أنه يتلقى أمرا بالذهاب الى مدينة الجزائر في أسرع وقت . وبدوا أن الجنرال ديغول كان يفكر في أن يوكل اليه دورا سياسيا ، الأمر الذي يفسر لنا استدعاه على وجه السرعة الى مدينة الجزائر ، المقر المؤقت لحكومة فرنسا الحرة .

وفي ابريل ١٩٤٥ يقوم برحلة ترفيهية جديدة الى الجنوب الجزائرى وفي الأيام الاخيرة من ديسمبر ١٩٤٥ ، وخلال شهرى يناير وفبراير ١٩٤٦ يعود الى مصر ومنها ينتقل الى بيروت التى دعى اليها . ويتم استقباله رسميا في بيروت يوم ٢٩ مارس ١٩٤٦ من قبل عديد من الشخصيات السياسية . وسوف يلقي في بيروت محاضرة عنوانها « ذكريات أدبية ومشاكل حالية » حيث يقص حياته كأديب

ويعلم عدم ايمانه الا بقيمة فعالة واحدة وهى الفردية . وبعد برهة من الزمن يلقى في الاذاعة اللبنانية حديثا يظهر فيه ادراكه لدوره كممثل للأدب الفرنسي ووعيه باسهام الثقافة الفرنسية في لبنان .

وفي عام ١٩٤٧ يحصل على جائزة نوبل التي ترد له اعتباره بعد أن كان قد تعرض في السابق الى كثير من التهجم والنقد . وحتى بعد بلوغه سن الثامنة والسبعين ، لا يتخلى عن ميله الى الرحلة والسفر ، اذ أنه يعتقد بأن التخلي عن الرحيل هو علامة الأ فول . ولا شك أن حب الكاتب للحياة وملذاتها سوف يظل مرتبطا ، في المقام الأول بالنسبة اليه ، بفترات اقامته في شمال افريقيا . ولقد كان ينوى في أخريات حياته الذهاب الى مراكش ، الا أن المنية منعه من تنفيذ هذا المشروع الأخير .

ومع ذلك ، فان أندريه جيد لم يكن يرى أن كل هذه الرحلات كافية لاشباع غلته الى السفر والارتحال ، ولكن أظهر ، في أكثر من مناسبة ، أسفه على عدم ذهابه الى نهاية العالم والى منطقة الاستواء على وجه الخصوص . لقد كان يود أن يرى كل بلدان العالم ، وأن يعود اليها اكثر من مرة ولكن الكسل والملل كانا ، في النهاية ، أقوى منه .

أدب الرحلات : الرحلة الواقعية والرحلة الخيالية

لا شك أن الرحلة الواقعية ، أى الرحلة التي قام بها صاحبها فعلا ، هى الأصل في أدب الرحلة عند أندريه جيد . ويمكننا أن نميز - في هذا الصدد ، من جهة مفكرته اليومية التي يدون فيها بدقة ملاحظاته وانطباعاته الآنية والمقابلة فيما بعد للشرح والتفسير والاطناب ، ومن جهة أخرى روايات الرحلات التي أشرنا الى كثير منها في الصفحات السابقة حيث تخضع الملاحظات الواقعية الحقيقية للتضخيم من قبل خيال الكاتب الفياض وتحت تأثير قراءات الكاتب العديدة للمؤلفين العالمين . وليس من شك في أن الأدب العالمى يزخر بقصص الرحلات التي ترمز ، الى قدر ما وفي أشكال وصيغ مختلفة ، الى السعى أو البحث عن الحقيقة .

بالنسبة لأندريه جيد يمكن للكتب أن ترمز بفضل عالمها الخيالى ، الى المكان الذي يصعب الوصول اليه ، فكل رحالة ، سواء كان يبحث عن حقيقة ملموسة أو حقيقة روحية ، يسعى الى البحث عن ذاته ان لم يكن يعمل على الهروب منها . من ثم تصبح الرحلة ، على ضوء هذا المعنى ، مرادفا لضرب من الرفض المستمر للذات .

ومن الواضح أن كاتبنا قد دفع الاعتراف ، في اختباره الدقيق هذا لذاته ، الى الحد الأقصى مما يمكن التفوه به . كما أنه اذا كان كل حدث ينطلق عند جيد من الأنا ، الا أن هذا الأنا لا يخلو من بعد عالمي - بعبارة أخرى ان الحقيقة النفسية التي يصل الى تسجيلها الكاتب من خلال تجربته الذاتية لا تخرج عن اطار التجربة العامة للانسان . وقد يلجأ الكاتب في سبيل تحقيق هدفه الى خدعة استخدام « أنا » الآخر ، ان صح هذا التعبير . أنه يقول لنا في هذا الصدد في مفكرته :

« ان انتصار الموضوعية ، هو أن تسمح للروائي باستعارة « أنا » الآخر . لقد خدعت الناس بسبب توفيقى الكبير في ذلك ، اذ اعتبر بعض الناس كل كتبي مجموعة من الاعترافات المتتابة » .

يمكن القول اذن بأن جيد تحدث عن ذاته بواسطة مخلوقاته الخيالية ، وان تطلعه الى معرفة الآخرين قد زود الأدب الفرنسي بكثير من الوثائق النفسية عن تصوراته لمختلف شعوب المعمورة ، وعلى وجه الخصوص شعوب الشرق . وهو خلال تنقلاته العديدة ، قد استطاع أن يجنى محصولاً ضخماً من الاحاسيس والانطباعات النادرة التي أثرى بها ، فيما بعد ، شخصياته الروائية . هذا بالإضافة الى تحليله لذاته نستشفه عبر معظم هذه المخلوقات الوهمية . على هذا النحو نكتشف أن نزعة الى الهروب والانطلاق واغراء المجهول والبحث عن « المكان الآخر » تشكل مجموعة من الموضوعات الرئيسية التي تنتثر في مؤلفاته . ولقد عبر عن هذا المعنى الناقد المعاصر « مارك بايجدير » بقوله :

« عنده لا يوجد الانسان بدون الفنان ولا الفنان بدون الانسان » .

كانت الرحلة بالنسبة لأندريه جيد ، بمثابة مغامرة أتاحت له الاتصال المباشر بالعالم الخارجي . واذا كان شمال افريقيا يعد ، من الآن فصاعداً ، موقعا « أدبيا » فذلك ليس بفضل الاقامات المتعددة لكثير من الكتاب بقدر ما هو راجع الى الاهمية التي أولاها له أندريه جيد في مؤلفاته ، ومن بينها خاصة « اذا لم تمت حبة الغلة » . لقد صار شمال افريقيا متصلاً اتصالاً وثيقاً بأندريه جيد اذ أنه منمق أو مشوه بفضل أحاسيسه وانطباعاته . ، ولقد كان ميل الكاتب الى التحليل النفسي والى فحص انطباعات الذات يدفعه الى نبذ كل الاعتبارات الأخرى ذات الطابع السياسي والى تعميق فهم وتحليل مأساته الداخلية . ولما كان عاجزاً عن الانفصال عن مشاكله وقضاياه الذاتية نراه يصب تأملاته على أهم مشاغله وهواجسه النفسية . انه يمزج مؤلفاته بعصارة فكره ، الأمر الذي يجعل هذه المؤلفات تعبر تعبيراً مباشراً عن الأحداث التي تأثر بها وتحمل عدداً مهماً من الأنباء والمعلومات الخاصة بحياته

الفكرية والأخلاقية والعاطفية . غير أن كل نظرة يلقيها الكاتب على سريره تستطيع أن تضفي مغزى عالميا على أقل مغامرة من مغامراته الشخصية .

أن الموضوعات الرئيسية التي تعالجها مؤلفات جيد لا تشكل صورة مطابقة لحياته ، ولكنها مرآة لها ان صبح هذا التعبير . ويتعذر علينا أن نفهم أدب - جيد اذا لم نطلع على انطباعات رحلات الكاتب التي دونها هنا وهناك . وعلى الرغم من تعدد الأنواع الأدبية وتنوع الأنشطة الثقافية التي عرفها الكاتب ، وعلى الرغم من شغفه بالاطلاع وتمثل الانتاج الفكري العالمي ، نجد أن الأدب الشرقي يحتل المكانة الرئيسية والسائدة في مؤلفاته . ويظهر الأدب الشرقي في صورتين :

١ - في صورة الأدب الذي حرره بنفسه ويخص في الجزء الأكبر منه منطقة شمال افريقيا .

٢ - في صورة الأدب المعزوم الذي تناوله بالنقد والتعليق : مثال ذلك - التحليل المطول الذي قام به ، خلال « خطاباته الى أنجيل » طوال الفترة الممتدة من ١٨٩٨ الى ١٩٠٠ ، لترجمة كتاب ألف ليلة وليلة التي قدمها « ماردروس » .

ويتضح أن معظم الأحكام التي يطلقها الكاتب على هذه الترجمة ذات طابع ذاتي ، الأمر الذي يدل على حسن استيعابه لأداب وتاريخ المنطقة .

ويمكننا القول في هذا الصدد بأن أندريه جيد يعد من أوائل الداعين للأدب الشرقي في فرنسا . من هنا نفهم نشاط المجلة الفرنسية الجديدة (N.R.F) التي عملت من جهة على تعريف العالم الخارجي بالأدب الفرنسي ، ومن جهة أخرى على تعريف الفرنسيين بالأدب الاجنبي . لاجرم أن يكون الأمر الجوهري بالنسبة لأندريه جيد ، على شاكلة « مونتاني » MONTAIGNE الذي كان يرى في الرحلة فرصة « لحك وصقل عقله مع عقل الآخرين » هو توصيل خبرته وتجاربه الى الغير . من ثم يمكن اعتبار مجمل مؤلفات أندريه جيد الخلاصة المركزة لخبرته في الحياة وتأملاته التي جمعها في رحلاته عبر العالم .

لقد دون الكاتب تفاصيل رحلاته العديدة الى شمال افريقيا في « مفكرته اليومية » وبلورها ، بوجه خاص ، في مؤلفه « اذا لم تمت حبة الغلة » ولقد نشر هذا الكتاب الأخير عام ١٩٢٠ ، وهو لا شك

يعبر عن ذكريات الصبا . ويروي لنا جيد في هذا الكتاب استيقاظ حواسه وتفتحها على الحياة مع التأكيد على أن تطور وجدانه كان مطابقا لمنطق تطور شخصيته نفسها . ولا شك أن التفسيرات الخاطئة أو الصحيحة أو المعقولة التي يقدمها لنا الكاتب تعطينا فكرة عن مدى الإضافات الخيالية التي يلجأ إليها أندريه جيد حينما يختص الأمر برحلاته وجولاته في شمال افريقيا . الا أنه اذا كان الكاتب يفحص ذاته ويحللها عبر الأحداث التي يسوقها ، فان العناصر الخاصة بتاريخ حياته تعد ، مع ذلك ، قليلة ولا تخرج عن كونها نقاط انطلاق للبحث والتحليل . فالكاتب يطور الأحداث بتعليقاته ، الأمر الذي ينقلها بالتدريج من مستوى الاعتراف الى مستوى العمل الفني .

من جهة أخرى ، يحاول جيد في هذا الكتاب تفسير سلوكه في شمال افريقيا كنتيجة لتربيته في الطفولة ، بعبارة أخرى انه يريد أن يقنعنا بأن بدايات حياته هي التي قادت الى ماصار اليه ، اذ أن الحبة التي انبثقت ونمت هي نفسها الحبة التي ذوت ، وكل فرد منا يحوى في قرارته مجموعة امكانات متعاضده تشبه البراعم ، ويكفي أن نسمح لبرعم مصاب بالنمو حتى يولد لنا زهرة ذابلة . من ثم اذا كانت طفولة الكاتب رديئة المنبت ، لا غرابة - في نظره اذن - أن تكون النتيجة نباتا رديئا . ومن هنا يرى الكاتب أنه متسق مع نفسه .

ان اندريه جيد يعتقد بأنه وجد في شمال افريقيا الأرض الاجنبية التي تنبعث منها اصداء غامضة تأخذ عليه لبه وعقله جميعا . من ثم تفيض كل أحاسيسه وتنفجر كل رغباته التي استطاع أن يكتبها وأن يبقى عليها حبيسة في وجدانه الى هذه اللحظة . وهو يشعر بتحرر تام يسمح له بالاختلاط بمختلف الفئات الاجتماعية وتلقى ، من غير تمييز ، كل أنواع التجديد التي يمكن أن يعثر عليها في بلد أجنبي ، كما يدفعه هذا التحرر والانطلاق الى تمجيد القيم الجديدة التي يشيد عليها مفهومه الخاص للأخلاق . ومقابل غالبية - الروائيين الرحالة الذين أقاموا نزعتهم الى « البرانية » على الوصف الدقيق للمظاهر المختلفة والنادرة التي تقابلهم في عادات وحضارات الشعوب الأجنبية يتميز أندريه جيد بابتكاره ضربا من « البرانية الشخصية » . اذ أن ضميره المتفتح أمام كل المشاهد الغريبة والنادرة سوف يظل دائما مسرحا لانطباعات تتدافع وتتنافس من خلالها عواطفه ومشاعره . ولما كان الكاتب ينزع الى لون من الحياة الحسية القوية ، فانه وجد في البيئة الأجنبية البسيطة نمطا من الحياة الأولية التي تستطيع أن تنقع غلته وتشفي جوعه الى كل الأحاسيس المباشرة والطبيعية . لا عجب اذن أن يكرس الكاتب الجزء الثاني كله من مؤلفه « اذا لم تمت حبة الغله » الى تبرير هذه الحقيقة البالغة الأهمية بالنسبة له ألا وهي : لا يجدر بنا أن نعارض قط حياة الغريزة . ويفسر الكاتب هذا الادعاء باضفاء حكمه قيمة على هذا

البعد الغريب لسلوكه بزعمه أن السلوك الغريزي يتفوق على القيم الخلقية المكتسبة . وتماديا في رغبته في تبرير سلوكه الشاذ هذا يزعم أن ارادته لا تلعب أي دور في هذا الصدد ، وأن مسئوليته ليست محل تساؤل ، إذ أنه حينما يخلى بين نفسه وبين تذوق ثمار هذه الأرض وملذاتها لا يقيم بينها في الواقع ، أي اختيار سابق أو عمد ، ان الكاتب يريد أن يحيا حياته الحاضرة وأن يغمض عينيه عن عواقب أفعاله حتى لا يكدر نعيمه أو ينغض عليه شيء متعته ولذته .

وتمثل عقد الطفولة التي يفصلها لنا الكاتب تفصيلا في الجزء الأول من كتابه « اذا لم تمت حبة الغلة » البذور التي قادته « حتما » الى ما صار اليه . من ثم يحاول جيد أن يفيد من قوانين الوراثة ودروس الحتمية والفرويدية ليشرح لنا سلوكه البالغ على ضوء عقد الطفولة ، وهو يبرع جدا في سوق مثل هذه المبررات وتصنيفها .

فمن الناحية الدينية يبرز لنا قسوة وتزمت التربية البروتستانتية التي تلقاها في طفولته وشبيته . ويبدو أن هذه التربية تؤكد في المقام الأول دور الضمير الذي تمثل هنا في مجموعة من المواقف الخلقية القائمة على ضرب من الاتفاق المطلق . من ثم لم تكن طفولته الا مجموعة من المحرمات والنواهي ، وسوف يرى نفسه كل يوم في مواجهة التمييز بين الخير والشر . ومن الناحية الاجتماعية يتضح لنا أن أسرة الكاتب من جهة الأب هي أسرة برجوازية من رجال القضاء . ومن جهة الأم أسرة من البرجوازية العليا المقيمة في مدينة « روان » شمال غرب فرنسا من هنا يرث أندريه جيد لونين من السلوك الاتفاقي والنمطي : نمطية السلوك البروتستانتي من جهة ونمطية السلوك البرجوازي من جهة أخرى ، الأمر الذي يؤكد تأثير القيم التقليدية والمحافظة على طفولته . وأخيرا من الناحية الجنسية يؤكد الكاتب على جميع مظاهر الاحباط التي كان ضحية لها خلال طفولته ، ويبرز دور البيئة البرجوازية والبروتستانتية المتزمته في اخمد دفعاته الجنسية ، وخاصة بعد نزعاته الشاذة ، الأمر الذي أحدث به صدمة عاطفية قوية وجعله يعيش في جو الركود النفسي والخمول .

لا جرم أن مؤلف أندريه جيد « اذا لم تمت حبة الغلة » لا يشكل وثيقة نفسية فحسب تشرح لنا سلوك الكاتب وتبرره إبان رحلاته الى شمال افريقيا ، إذ أنه ، بالاضافة الى ذلك ، يمثل تقريرا سياسيا واجتماعيا هاما عن شمال افريقيا وافريقيا السوداء وكثير من البلدان الأخرى التي زارها . ولقد لمس جيد بنفسه بؤس المهاجرين السوريين في مارسيليا حيث يتجمعون في انتظار سفرهم الى المكسيك بحثا عن عمل . ويقص علينا الكاتب آلامهم ومشاكلهم بأسهاب وبنبهة لا تخلو من الحرقرة والأسف . ولقد لاحظ كذلك في مارسيليا أن ما يسمى بالحى العربي ليس الا ملجأ للبؤس والتعاسة والشقاء .

أما على المستوى السياسي فإن أحداث تركيا هي التي سوف تستوقفه في كتابه «العتبة التركية» هذا بالإضافة إلى العداوة المعلنة التي أظهرها نحو هذا البلد . وهو يعتقد بأن مذبحه الأرمن ليست فعلا يتميز بالوحشية النادرة بقدر ما هي دليل على فشل النفوذ أو التأثير الفرنسي في هذه المنطقة وارتباط هذا البلد بسياسة المانيا . ولقد عبر عن رأيه هذا في كتاب له إلى الكاتب «موريس باريس» الذي كان يخالفه في الرأي :

« هل كانت هناك جدوى من كتابة مقالاتك المدوية لدى حودتك من آسيا الصغرى ، أيا باريس . . اني ما زلت أتذكر الحنق الذي أحدثته لدى هذه المقالات ، أنا الذي اعود أيضا من هناك ، لقد بدا لي أن بعضا من رجاحة العقل كانت كافية لفهم كم كان عملنا ونفوذنا هناك مضطربا وزائلا ، ان لم نقل ، ميثوسامته . »

ولقد قام جيد ، بجانب التقارير الاجتماعية والسياسية ، بتقديم صورة للأحداث العسكرية التي كانت تدور في شمال افريقيا . فلقد شاهد محاولة الأمريكيين لاحتلال تونس وفشل هذه المحاولة ثم شاهد استقرار القوات الالمانية والايطالية في مدينة تونس في ٣٠ نوفمبر ١٩٤٢ وأخيرا تحرير تونس من قبل قوات الحلفاء في ٨ مايو ١٩٤٣ . كما أنه سيشهد بعد مرور عام من ذلك ، الثورة الاهلية بالمغرب العربي .

ويعبر جيد في تقاريره العسكرية عن وجهة نظر المقيمين في مخابثهم وعن تعقيباتهم على البيانات الرسمية ، ويقدم لنا صدى الخطب السياسية وتعليقات الصحف المحلية . انه يعنى ، في الواقع ، بلعبة الحرب وتطور المعارك بين القوتين المتحاربتين حول تونس أكثر من اهتمامه بانعكاسات الصراع على المستوى الدولي . ونراه بعد وصف دقيق للعمليات العسكرية الدفاعية والهجومية ولمدى الخراب والخسائر المادية الناتجة عنها ، يهتم بسرد وقائع الحصار وتصوير المحاصرين بكل ما تمثله من مشاكل وآلام مثل نقص المواد الغذائية وانقطاع الغاز والكهرباء والماء واختفاء الوقود وتسعيرة السلع النادرة والسوق السوداء . . الخ . كما يعنى بتقديم صور للخلافات التي تدب بين جنود المعسكر الواحد كالألمان والايطاليين ومعلومات قيمة عن عقلية المتحاربين وسلوك ومواقف السكان المحليين .

كل هذه الكتابات تبين ، كما نرى ، عن شخصية الكاتب على الرغم من طابعها الوثائقي والاعلامى . كما أن الكاتب كثيرا ما يتأثر بمشاهداته فيرفع صوته شاجبا الظلم ومدينا كل صنوف

الاستغلال التي تتعرض لها الشعوب المستعمرة . هذا - بجانب نزعتة الأصلية الى الهروب في الرحلة والاستفادة منها في تنويع انتاجه واثراء معارفه وخبراته بالنفس البشرية وأغوارها .

مهما يكن الأمر ، تظل مفكرته اليومية الوثيقة الأساسية والمرجع الرئيسي بالنسبة لكل من يهتم بحياته وأعماله . ففي هذه المفكرة قد دون - أندريه جيد أفكاره وتأملاته وانتقالاته ودفعات حماسه وثورات غضبه وحنقه ، باختصار كل خلجاته كانسان وكاتب . ولا شك أن قدرته على الافادة من كل ملاحظاته وتأملاته للمظاهر والأشكال الخارجية قد زود أعماله بقدر كبير من المفاهيم الانسانية ذات الفائدة العامة . واذا كان حبه للاستطلاع وفضوله من السمات التي تتجاوز كل حد ، فهما ، من غير شك - صفتان تؤكدان رغبته في تعميق معرفته لذاته وميله الى تفهم العقلية المغايرة لعقليته شحذا لروحه الناقدة وتجديدا للمصادر التي يمكنها أن تغذي أعماله ومؤلفاته بالموضوعات الجديدة الثرية بأبعادها ومعانيها .

ونلاحظ وجود مسافة زمنية طويلة بين تحرير مفكرته اليومية الذي جرى في الفترة الممتدة من ١٨٨٩ الى ١٨٩٣ وبين نشرها عام ١٩٣١ ، وقد يكون ذلك دليلا قويا على ميل الكاتب الى صقل صورته أو اسطوره ككاتب أمام جماهير القراء . ولقد قام الكاتب ، عند نشره لهذه المفكرة ، باختيار بعض الاجزاء المتبقية عنده بعد عملية تدمير أولية ، وذلك بغرض تكريس صورته المثلى لدى قرائه المعجبين . ولا يجب أن ننسى ، في هذا الصدد ، النزعة النرجسية لدى الكاتب ، هذه النزعة التي تؤكد لها الخطابات الطويلة التي أرسلها أندريه جيد طوال سنوات عديدة الى زوجته مادلين رونديو ، والتي يحاول فيها أن يبرز ذاته في أحسن مظهر وأفضل صورة معتمدا في ذلك على أسلوب منمق ومتقن النسق والايقاع . ان جيد حين يتحدث عن ذاته انما يتحدث عنها في صورتها المثلى وليس كما هي في الواقع قاصدا بذلك تكريس هذه الصورة للأجيال القادمة . الا أن زوجته قد أحست بهذه الخدعة ، وقامت في لحظة غضب باحراق كل هذه الخطابات التي كان قد وجهها اليها الكاتب . ولقد أعلن جيد أن فقدان هذه الرسائل يعد أكبر خسارة بالنسبة له ، اذ أنه فقد ، مع ضياعها ، كل العناصر اللازمة لاقامة الدليل على تكوين شخصيته على هذا النحو وفي الوقت نفسه جزءا كبيرا من مذكرات شبابه .

لا شك أن أندريه جيد حينما يسجل ذكريات الرحيل والانتقال يحول مشاكلها الفردية الى صورة أدبية ، لا سيما حينما يعالج فيض عواطفه وانفجار حواسه ، وتدفعه ذاتيته العارمة الى اصفاء حماسه وجيشان أحاسيسه على مناظر الطبيعة نفسها . ولا يغير من طبعه تعب الرحلة أو اجهاد المرض أو حسرة

خيبات الامل العابرة . لذلك نراه دائما قوي التأثير مستجيبا لكل نداء توجهه اليه الغريزة أو الطبيعة . ويتميز جيد عن غيره من كتاب عصره بصراحته المطلقة التي تجعله يطلعنا على أدق خلجات نفسه الخفية وعلى أعماق مكنونات وجدانه الحميم .

أن أندريه جيد يكتب - من غير شك - بحثا عن ذاته وابتغاء حل صراعه وعقده النفسية بوضوح وبصيرة . ومن هنا تمثل الرحلة من بين ما تمثله بالنسبة له ، مخرجا يتغلب به على غواية الجنس واغراء الشهوات ووسيلة تسمح له بالقضاء على تسلط الغرائز وملاحقتها له خلال رحلاته المتعددة . من هنا يقدم لنا أدب الرحلة عند جيد مزيجا من الوقائع والمطامح والآمال .

ومن العسر علينا أن نفصل بدقه في هذا الأدب بين ما يتصل بالواقع وما يتصل بالخيال طالما أن الكاتب العبقرى يبرع ، بطريقة منقطعة النظير ، في المزج التام بين ذاته الحميمة وبين العناصر الخارجية ، بحيث يتبدى له كل عالم يلتقي به أو يكتشفه في صورة كل متناسق ، وبحيث يصبح كل عنصر جزءا لا يتجزأ من تركيب شمولي وليس عنصرا قائما بذاته لا يدرك الا في فرديته وخصوصيته الأساسية .

على هذا الأساس يقوم أدب الرحلات عند أندريه جيد على هذه المبادئ الرئيسية :

أ - تشكل الرحلة الواقعية أو المعاشة نواة المؤلف الأدبي .

ب - تضاف الى ذلك المؤثرات المختلفة الناتجة من القراءات العديدة لكتاب الرحلات الفرنسيين والأجانب .

ج - بالاضافة الى ذلك ، لا يجب اهمال دور الخيال وأهميته .

لقد رأينا كيف ينطلق جيد من عالم الواقع ، وكيف ينتقي منه الانطباعات المؤثرة القوية ، وكيف يمزج ذلك بخياله الخصب الخلاق فيخرج لنا تركيبا رائعا تتحد فيه روحه بالعالم وتضفي عليه حياة جياشة بفضل ذاتيتها المتدفقة . أما بالنسبة للقراءات التي يفيد منها الكاتب في تدعيم خياله وتغذيته بالصور والمقارنات فهي جد طويلة وليس بوسعنا الا الوقوف عند بعض معالمها البارزة .

لقد اهتم أندريه جيد اهتماما كبيرا بالفكر والأدب الألماني فقرأ لجوته ونيثشه وشوبنهاور وهابن وفشته ونوفاليس ، كما اهتم بالأدب الانجليزي فقرأ أعمال شكسبير وديكنز وأوسكار وايلد وكونراد ويليك ، وبالأدب الأمريكي فاطلع على أعمال شتاينبيك ووايتمان وآلان - ادجار بو ، وبالأدب الايطالي فقرأ لدانتي وبيترارك وبالأدب الروسي فقرأ لدوستوفسكي وتولستوي وتور جنيف وبوشكين ، كما كانت له اهتمامات خاصة بالأدب والحضارة اليونانية واللاتينية فقرأ الياذة والأوديسا والانيادة وتاريخ هيرودوت وتاريخ حرب البيلوبونيز ، من غير أن ننسى المراجع الأساسية في هذا الصدد مثل « الاسطورة الذهبية للارساليات » و « عادات وأخلاق المسلمين » و « النيل والحضارة المصرية » .

ومجدربنا الا ننسى أيضا المؤلفات الأجنبية الخاصة بالشرق مثل : « الرحلة الى الشرق » لهرمان هس (ترجمة جان لا مبير وقدم له جيد نفسه عام ١٩٤٨) . و « يوسف في مصر » لتوماس مان ، و هيرودياس « لفيليبز ستيفن . من جهة أخرى ، لقد أظهر الكاتب اهتماما خاصا بأعمال سابقة من الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن الشرق أو حتى لمحو اليه أو تخيلوه تخيلا أمثال راسين في مأساة « بجازيت » وفولتير في قصتي « زاديغ » - و « كانديد » ويلزك في رواية « سرازين » وفكتور هيجوفي ديوانه « الشرقيات » ، وبالنسبة لمعاصريه : كلوديل في « معرفة الشرق » وبير لويس في « أغنيات بيليتس » مارتان دي جار في « الاعتراف الافريقي » ومونفور في « التركية » وسانت اكزيبوري في « رحلة ليلية » . أضف الى ذلك كتاب الأيام لطف حسين وألف ليله وليلة وكثيرا من قصائد الرعاة للكتاب اللاتين وأخيرا الكتب المقدسة الثلاثة الخاصة بديانات التوحيد ، ولا شك أن تأثير هذه القراءات لا يتم عند جيد بطريقة النقل وانما عبر عملية من التفاعل مع الواقع المعاش بواسطة الخيال الذي يلعب دورا كبيرا لا بد لنا من الوقوف عنده .

فما هي الطريق اذن التي تقود الكاتب من الوثيقة الانسانية التي تشكلها الرحلة الواقعية الى الوثيقة الخيالية التي تشكلها الرحلة المروية ؟ ليس من شك في أن الاماكن التي تغنى بها الشعراء والكتاب وأحاطوها بهالات الحب والحنين والود والوفاء جد متوفرة في الأدب العلمي . في هذه الاماكن التي تقطنها الأحلام وترفرف عليها أجنحة الخيال يبرز الماضي بصفة خاصة لارتباطه بذكرياتنا الأولى ، هذه الذكريات التي لا تخلو من مسحة حزن ، الا أنها مسحة محبة الى النفس ، فهي متصلة اتصالا وثيقا بهذه السعادة التي فقدناها والتي نود أن - نحياها في وجداننا الى الأبد .

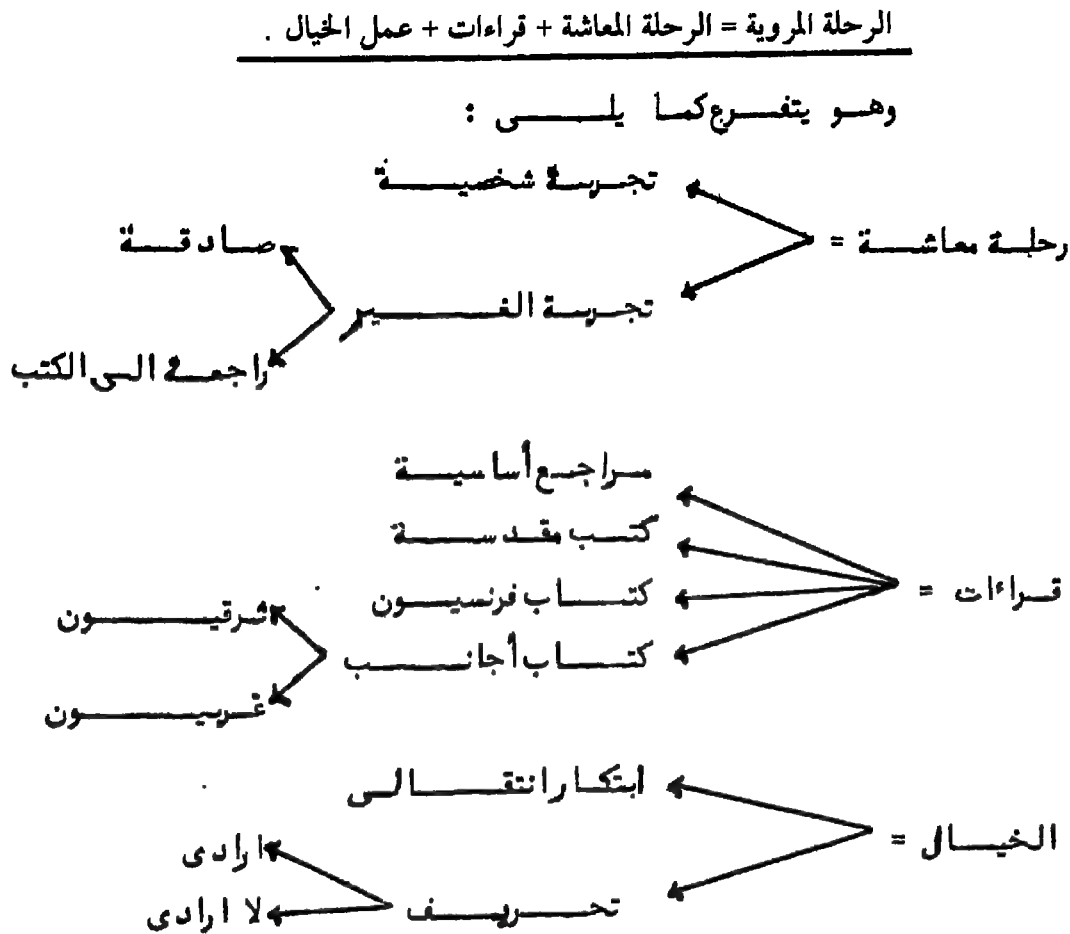
لا شك أن جيد كان يحاول عند تأليفه لكتبه احياء ماضيه وتحليل الخوارج والأحاسيس التي تتصل به . الا أنه لما كانت ذاكرته تخونه دائما ، فهو كان غالبا ما يلجأ الى خياله لتعويض هذا النقص . ولم

يكن يتحرج في اضافة تجارب الغير اذا أعوزته الخبرة الشخصية أو اضطرته الحاجة الى ذلك . من ثم كثيرا ما تتميز تجاربه التي يرويها لنا ببعض الغموض والتناقض . وغالبا ما يقوم الخيال في هذه الظروف بوظيفتين متميزتين :

١ - وظيفة الاختراع أو الابتكار الانتقالي الذي يساعد على سد نقص وفراغات الذاكرة ، وهي ترادف « الفراغات الفكرية » التي ينسبها فرويد الى عمل الرقابة خلال الحلم .

٢ - عملية تحريف الذكرى ، وهي إما إرادية خاصة حينما يحذف الكاتب عمدا بعض التفاصيل خشية الفضيحة أو رغبة منه في تقديم صورة مثالية لذاته ، واما لا ارادية حينما يعتقد الكاتب أنه يقص فعلا حقيقة جربها وعاشها .

ويمكننا تمثيل هذه الأفكار بالنموذج التالي :



ان الرحلة المروية تنشأ من مجموع هذه التقاطعات وتعطينا وثيقة انسانية معقولة ، ولكنها غير قابلة للتأكيد في جملتها .

وهناك مؤلفان آخران للكاتب يستحثان منا وقفة متأنية ونظرة فاحصة نظرا لارتباطهما أيضا بانطباعات وذكريات عالم الرحلة ، ونعني بهما كتابي : « الأغذية الأرضية » و « اللا أخلاقي » الصادرين تباعا عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٢ ، أي خلال الفترة الافريقية لرحلات الكاتب ، ونحن نكاد نستشف منهما طبيعة المادة المكونة لأحداثهما وهي تعطينا انطبعا قويا بالحضور الافريقي .

في كتاب « الاغذية الارضية » ترتفع أحاسيس الكاتب ومشاعره الى درجة النشوى عند التغني بأعجاد الشرق والغرب على السواء ، حيث يمتزج تنوع المناظر الطبيعية وتجدد الرؤية الشعرية لدى الكاتب مع بلوغ حواسه الى ذروة اللذة في مقطوعة سيمفونية واحدة . ونسوق مثالا على الأحاسيس البصرية التي تمتاز بالوصف الشعري الذي فجرته احدى مناظر الطبيعة الساحرة :

« لقد رأيت تحت شعاع الصباح المائل جبال الأحمر خادو وهي تتورد وتكاد تشبه المادة المشتعلة .

« لقد رأيت الريح وهي تدفع الرمل من قرار الأفق وتثير لهثات الواحة التي أصبحت مثل سفينة ترعبها العاصفة » .

« لقد رأيت على طول الطرق المهجورة هياكل نياق بيضاء » .

وفي مكان آخر تشدنا أحاسيس الشم والتذوق :

« كان هذا الشارع من مدينة الجزائر يعبق ظهرا برائحة الينسون والشراب الممزوج بالعلقم . وفي مقاهي بسكره العربية لم يكن يشرب الناس الا القهوة وشراب الليمون والشاي . الشاي العربي ، حلوى بالفلفل ، زنجبيل ، ... » .

وحيثما يصف أندريه جيد مدينة بليدا ، فان جماع أحاسيسه يولد لنا فنا بالغ الدقة تمتاز فيه العناصر التصويرية والموسيقية والشاعرية في تركيب بديع :

بليدا ، أيا بليدا ! يازهرة الساحل ! أيتها الورد الصغيرة ! لقد رأيتك دافئة عاطرة . زاهرة بالأوراق والأزهار ، بعد هروب جليد الشتاء . في حديقتك المقدسة كان مسجدك الأبيض الناصع يشع بروحانيته ، والشجر المتسلق ينحني تحت الزهور . وكانت شجرة الزيتون تختفي تحت أطواق النباتات ، والنسيم الطيب يحمل شذى أزهار شجر البرتقال ، وحتى شجر اليوسفي النحيل كان يعبق » .

ولا شك أن عبور الكاتب بمدينة الجزائر وبسكركه وشمته وعماش وتوغرت كانت يشكل في « الأغذية الأرضية » ذريعة يصطنعها لادخال عناصر البيئة المحلية في أوصافه ، فهو حينما يصف لنا ساعات السكينة والراحة اللذيذة التي كانت توفرها الحدائق الغناء حيث تعبق الزهور وتنفوح الروائح الزكية ويتجول النحل ، وحينما آخر يحدثنا عن الواحات العائمة في الصحراء كالجزر في البحر ، وحينما آخر يتوقف عند القوافل المتعبة المكدودة التي تتأرجح بين اليأس والرجاء ، وأخيرا تحتل الصحراء في هذه الأوصاف المكان الأعظم . وتظهر الصحراء في صورها المختلفة من رمال متحركة أو كثبان تشبه أمواج البحر ، ومن مناطق جرداء ينبت فيها نبات الحلفا وتكثر الشعابين ، ومن مناطق صخرية تتأرجح فيها نار الشمس ، ومن أراض صلصالية لا تخلو من فرص الحياة حينما يتوفر الماء .

ويصل خيال الكاتب أحيانا الى درجة تشخيص المدن التي يزورها ، فهو يقول في « الاغذية الأرضية » :

« لقد رأيت أزمير ترقد كالنبت الصغير ، ونابولي مثل السابحة المثيرة وزغوان كراع من قبائل البربر تحصر خدودها جميعا عند اقتراب الفجر . أما مدينة الجزائر فترتجف حبا تحت أشعة الشمس وتدب عشتا في أحضان الليل » .

كما يغلد المدن الاسلامية :

« انك لم تر جدران هذه المدينة الاسلامية . . هذه الجدران العميقة حيث انصب ضياء الشمس خلال النهار ، جدران ناصعة البياض كالصلب . . أيتها المدينة لقد بدوت لي بلمورية شفافة ! »

الا أن الكاتب يبرز في مؤلفه « اللاأخلاقي » بصورة أوضح حنينه الدائم الى الحياة الغريزية . كما أنه يتم بالخطوط العريضة المميزة للمناظر الطبيعية فيبدو لنا ، في هذا الكتاب ، دقيقا بفضل ايجازه واقتصاده في ذكر التفاصيل . ولقد فرضت عليه الطبيعة التونسية هنا وجودها كما فرضه من قبل موقع بسكره الجزائري . ونحن نرى بطل هذا الكتاب : ميشيل اللاأخلاقي وهو يتجول في نفس الأماكن التي خلبت لب المؤلف ، الأمر الذي يسقط رغبات الكاتب على بطله على الرغم من ادعاءات الاستقلال والتباعد التي يبرزها بين الفينة والفينة تجاه هذا الأخير . ونحن كثيرا ما نتساءل أمام هذا الكتاب : أهو يشكل وثيقة صادقة أم هو من نسج الخيال ؟ وفي الواقع ، ان اتفاق الصدف هنا لبالغ الدلالة . لا شك أن أندريه جيد أفاد كثيرا من تجربته الحية على مستوى وصفه للطبيعة وعلى مستوى تأثيره بها وأحاسيسه وخلجاته . وليس غريبا بعد ذلك أن يتولى خيال الكاتب الخصب ربط القطبين

الذائق والموضوعي لديه ربطا محكما ، فذاتية الكاتب ، كما أوضحنا ، ذاتية غامرة تبت حياتها وروحها الجياشة في الطبيعة ، وموضوعية الطبيعة بدورها تتلاشى تدريجيا لتتوجد بخيالات الكاتب وأوهامه .

ونحن نشعر منذ مقدمة « اللا أخلاقي » أن نشيد الكاتب الموجه الى الصحراء ، في هذا البلد المشع بمجده ورونقه وبهائه ، سوف يظل بالنسبة اليه الصورة الكاملة للرجبة . يقول أندريه جبد :

« لا شيء يثبط التفكير أكثر من الحاح صفو السماء فهنا يصبح كل بحث مستحيل طالما أن اللذة تتبع الرغبة عن كذب . »

وهو في كل رحلة الى شمال افريقيا يقول بتجديد وتنشيط أحاسيسه التي ظنّها زائلة ، وها هو ذا لدى عودته الى تونس يكتب في « اللا أخلاقي » :

« عند تفجر أحاسيس جديدة ، كانت تتحرك بعض أجزاء منى وبعض القدرات النائمة التي احتفظت ، نظرا لعدم استخدامها ، بكل أسرار شبابها . »

وكان الشعب العربي يبهره ويفتنه وهو يصفه بقبوله :

« ان الشعب العربي يتميز بصفة رائعة ، وهي أن فنه فن يعيشه ويتغنى به ويبدده كل يوم . »

لقد رحل الى شمال افريقيا ايضا لا أمل في شفائه ، فكانت واحة بسكره ومدينة تونس كشفا حقيقيا بالنسبة له . لقد بعث في هذه الاماكن بالمعنى الكامل والحقيقي للكلمة ، لقد استرد وجوده وذاتيته ، فلا عجب أن يكون هذا البعث معجزة . يقول جيد :

« ذات يوم صحوت ، فجأة ، وسط اللازورد ، وجريت فور نهوضي الى أعلى سطح . وكانت السماء صافية بين طرفي الأفق . ونحت أشعة الشمس المتوقدة بدأت تتصاعد الأبخرة وتغلقت بها الواحة كلها بينما نسمع في الارحاء البعيدة هدير الوادي الغائر . وكان النسيم نقيا وجميلا الى درجة شعرت فيها بالتحسن . »

لقد استولت أضواء تونس فعلا على لب الكاتب وبهرته حتى حسبها أقرب الى الوفرة والسخاء منها الى الحدة والقوة ، كما عنى بمراقبة تتابع الفصول حيث يتناول برد الشتاء القارس مع ريح السموم الملتهبة خلال الصيف . وهو يصف في واقعية واعتدال جمال الحداثق التونسية والسلام الذي يغمر بساكنيها المثمرة ويبرز افتتانه أمام « هذه الاماكن الهادئة المليئة بالظل والنور التي تبدو في مأمن من

الزمان » . وتبرز واقعية الكاتب كذلك في هذه الصورة التي يرسمها للمرأة التونسية ، وهى هنا أم بشير :

« كانت امرأة رائعة ، راسخة ، ذات جبهة عريضة يعلوها وشم أزرق ، كانت تحمل سلة غسيلها على رأسها مثل حاملات القرابين القدامى ، وكانت تتلفح برداء فضفاض داكن الزرقة يبرز فوق الخصر ثم يسقط دفعة واحدة حتى القدمين » .

وعلىنا الآن أن نتساءل : كيف يقبل رجل غربي حضارة مغايرة تماما لحضارته بكل هذا الاقتناع والتحمس ؟ وكيف تهتز جوارحه وتنفض ذاتيته تجاوبا مع كل ما يحيط بها من مظاهر جديدة وفريدة خلال تنقلات الكاتب في الشرق ؟

ومن الواضح أن جبد لا يأخذ عن الشرق الا ما يلائم هواه أو مزاجه ، ولا يجب أن ننسى أنه يبحث فيه عن تجديد قواه الروحية ، أو على الأقل يجرى وراء هذا الوهم ، كما يبحث عن أحاسيس الانسلاخ الشامل الذي يحققها له شعور البرانية . من ثم يعمل هذا التوافق بين العالم الشرقى وبين رغبات الكاتب الدفينة على خلق نوع من الاتحاد والالتحام لديه بين البيئة الخارجية وبين ذاتيته . لذلك ليس غريبا أن تكون هذه الزيارات والرحلات العديدة ذريعة لوصف مشاعر الكاتب وتقديم بعض نظرياته الشاذة الغريبة . من ثم هو يخلق حولنا جوا خاصا يطبعنا بروحه ويشركنا مع الكاتب في انفعالاته وردود فعله ازاء الاشياء والعالم الخارجى .

ولا شك أن موقف الكاتب هذا قد يعبر عن كبت عميق لديه ، وهو حينما يفصح عن ذلك فانما يعمل على اشباع نزعاته الخفية التى تثور في أعماق سريره . وقد يكون هذا الموقف ناتجا عن الضغوط الخارجية التى تعرض لها الكاتب خلال طفولته والتى تحولت ، مع الزمن ، الى ضرب من الالتزام الداخلى . ولقد رأى بعض النقاد في شخصية أندريه جيد « سجين القيود البروتستانتية وهو نمط الشخص الكاتب لرغباته عند فرويد » .

ونحن إذا أخذنا بنظرية الكبت عند جيد ، نستطيع أن نفهم بوضوح أكبر مؤلفاته وسلوكه ومواقفه المختلفة من قضايا العصر والحياة . وتمثل حالته - لا شك - النموذج التقليدي لما يمكن أن تؤدي اليه الرغبات المكبوتة بعد تحريرها وانطلاقها من قيودها . ومن هنا يمكننا أن نفسر أدب الرحلة عند جيد على أساس أن التقاء كاتب بشمال أفريقيا كان بمثابة رد فعل ضد مختلف الصدمات العاطفية التى أصابته

خلال الطفولة . كما أن موقفه الجديد تجاه التزم وأحترام التقاليد يبرر بشكل ما عيوب تربيته ونقائص سلوكه . ولا شك أن كل هذه التحولات سوف تطبع أعماله الأدبية بآثارها العميقة .

على كل حال ، ان الرحلة الواقعية ورحلة الاحلام والافادة من المصادر المختلفة لأدب الرحلات تعد من العناصر الأساسية التي تسمح لنا بابرار سميتين من سمات أندريه جيد :

أ - هاوى الرحلات .

ب - رائد الأدب الشرقي المعاصر في الغرب .

إذا كان جيد يتميز بالروح الفردية ، فهو ينطلق بحثاً عن آفاق - جديدة لاثراء فلسفته الخاصة وأسلوبه الجمالى الخاص . وهو يصل الى تحقيق اكتمال ذاته عن طريق النشوى الحسية ، الا أنه على الرغم من تنوع المناظر والمشاهد التي يقدمها ، لا يصور لنا الا رؤيته الخاصة للوجود . وليس من شك في أن الرحلة من بلد الى بلد ، والحياة في وسط اجنبي قد أتاحا للكاتب فيها أفضل للغرب ، وهو القائل « يجب المغادرة لتعميق المعرفة » . ولقد أتاح له اقاماته المتعددة في الاطلاع على غط من المعيشة مغاير لما اعتاده وعاش عليه ، وحتى الموسيقى الشرقية أثرت فيه بأنغامها الراقصة وألحانها القائمة على الطرب . وفي الشرق رأى الوجه الحقيقي للغرب وفهم رسالته التي كان لزاما عليه أن يحققها ، وهي تطوير شخصية الانسان وروحه الفردية بواسطة الثقافة .

الا أن جيد حينما تغلب عليه دفعة الحياة ورغبة العيش الرغيد سرعان ما يتخلى عن شخصيته الغربية ويندفع وراء حماسه العارم ؟ وهو حينئذ يقطر لنا انطباعاته تقطيراً حتى نرشفها رشفات حثيثة وحتى يدفع الغربي الى الاحساس بالجمال الآخر . من ثم تظل ذات جيد ، مهما تنوعت الاماكن والظروف هي المركز الاول لأدب الرحلة عنده . ولقد قال الشاعر بودلير : « ان الرحالة الحقيقيون هم أولئك الذين يرحلون من أجل الرحيل » . الا أنه لا شك أن - الرحلة الوحيدة الجديدة بهذا الاسم هي الرحلة التي يقوم بها الانسان في داخله ، وهو الامر الذي يتحقق مع جيد . فهذا الكاتب ، الذي كان يحلم بكل مجهول ومستعصي المنال ، وهذا الباحث عن كل احساس جديد ، لا يفي في البحث عن صورته الذاتية بكل ما تحمله من عقد ومظاهر الكف . غير أنه لن يعثر الا على ما حاول الفرار منه ، أي على ذاته نفسها .

مراجع البحث :

BIBLIOGRAPHIE**1 — ETUDES:**

ARLAND Marcel, Essais et Nouveaux Essais critiques, Gallimard, Paris, 1952.

ARNAUDIES Anne, Le Nouveau Roman, Seuil, Paris, 1974.

BARTIHES Roland, Le degre zero de l' ECRITURE, Seuil, Paris, 1972.

BASTIDE ROGER, Anatomie d' Andre Gide, P.U.F., Paris, 1972.

BARTHOLD V., La Decouverte de l' Asie, Payot, Paris, 1947.

BOISDEFRE Pierre de, Vie d' Andre Gide, 1869-1951, ESSAI DE BIOGRAPHIE CRITIQUE, Hachette, Paris, 1970.

BRACHFELD Georges, Andre Gide and the Communist Temptation, Droz, Geneve, 1959.

BUCHET Edmond, Ecrivains intelligents du XXeme Siecle, Correa, Paris, 1945.

CANCALON ELAINE Davis, TECHNIQUES ET PERSONNAGES DANS LES RECITS D' Andre Gide, Lettres Modernes, Paris, 1970.

CHADOURNE Jacqueline, Andre Gide et l' Afrique, Le role l' Afrique dans la vie et l' oeuvre de l' ecrivain), Nizet, Paris, 1968.

DALLENBACH Lucien, Le Recit Speculaire, Essai sur la mise en abyme, Seuil, Paris, 1977.

FAYE Jean- pierre, Theorie du recit, Hermann, Paris, 1972.

FONVIELLE- ALQUIER Francois, Andre Gide, ed. pierre Charron, Paris, 1972.

FREYBURGER Henri, L' Evolution de la disponibilit  Gidienne, Nizet, Paris, 1970.

GOT Maurice, Andre Gide, C.D.U., Paris, 1962.

LAMBERT Jean, Gide Familier, Julliard, Paris, 1958.

- LOTTMAN Herberst, Rive Gauche, Seuil, Paris, 1981.
- MACHERY Pierre, Pour une theorie de la productoin litteraire, Maspero, Paris, 1974.
- MANSUY Michel, Etude sur L'imagination de la Vie, Jose Corti, 1970.
- MARTIN Claude, Andre Gide, Seuil, Paris, 1974.
- La Maturite d'Andre Gide, Klincksieck, Paris, 1977.
- MARTIN P., L'Orient dans la Litterature Francaise au XVIIe et au XVIIIe siecle, Hachette, Paris, 1906.
- MAUCUËR Manreca, Gide, l'indecision passionnee. ed. du Centurion. Paris, 1969.
- MICHAUD Gabriel, Gide et L'Afrique, ed. du Scorpion, Paris, 1961.
- MERCEAU Felicien, Le Roman en liberte, Gallimard, Paris, 1978.
- MOUTOTE Daniel, Le "Journal" de Gide et les problemes du moi, 1889-1925, P.U.F., Paris, 1968.
- Les Images vegetales dans L'oeuvre d'Andre Gide, P.U.F., Paris, 1970
- Painter Georges, Andre Gide, Traduction de l'anglais par Jean-Rene Major, Mercure de France, Paris, 1968.
- Riviere Jaques, Etudes, (Baudelaire, Gide, Romeau, etc.), Gallimard, Paris, 5291.
- Rousset Jean, Narcisse Romancier, Jose Corti, Paris, 1973.
- SCHLUMBERGER Jean, E veils, Gallimard, Paris, 1950.
- Madeleine et Andre Gide, Gallimard, Paris, 1956.
- SCHVEITZER Marcille, Gide aux oasis, ed. de la Francite, Bruxelles, 1971.
- SCHWOB Rene, Le vrai drame d'Andre Gide, Paillart, Paris, 1932.
- SIMON E., Patrie de L'Humain, Gallimard, Paris, 1948.
- STEEL David, Le Theme de L'Enfance dans L'oeuvre d'Andre Gide, These d'Universite, Lille, 1974.
- THBERRY Jean- Jacques, Andre Gide, Gallimard, Paris, 1968.

II — ARTICLES:

- BARTHES Roland, Introduction a l'analyse structurale des recits in Communications, n°8, Seuil, Paris, 1966, pp.1 a 27.
- BOIDEFFRE Pierre de, Des Vivants et des Morts, in Temoignages, Paris, 1954, p. 151 a 153.
- BIASI Pierre - Marc de Les Figures de l'Avenir, in Litterature, n°17, Fevrier 1965.
- BONAPARTE M., L'inconscient et le temps, in Revue francaise de Psychanalyse, n°11, 1939, pp.61 a 105.
- BONNEFOY G., Les Triomphes de la fiction in Les Nouvelles Litteraires, n°2369, 19 fevrier 1973.

CAHIERS Andre Gide, N°1, Fevrier 1952.

CAHIERS de la Quinzaine, Andre Gide, 6eme cahier de la XXeme serie, Debat sur Andre Gide au studio Franco- Russe, 1930.

CHADOURNE M., Les Voyages de Gide au Tchad, in La Revue Europeenne, 1928.

DOSSIER Andre Gide, (coupures de presse) , Bibliotheque Jacques Dou- cet, Paris.

ESTEVE, Le Moi selon Marcel Proust Paul Valery et Andre Gide, in Cahiers du Sud, n° 28, 1938.

GRENIER J., Barres et Gide au Liban, in Combat, 8 novembre 1946.

RAYNALD Hermile. L'Espagne musulmane. in La Nouvelle Revue, 1881.

III — DIVERS:

CORRESPONDANCE RILKE/GIDE 1909 — 1926, ed. Correa, Paris 1952.

LOCOSTE J. Le Romantisme dans L'oeuvre romanesque d'Andre Gide Memoire de D.E.S. presente a Paris.

MARGARET Boule, La Remese en question du personnage, These dacty- lographiee, Paris, 1976.

TAILLIART C.E., L'Algerie dans la Litterature Francaise, RTese pour le doctorat es- lettres, Paris, 1925.

YAGHMAI S. Les Elements autobiographiques dans l'oeuvre romanesque d'Andre Gide, These d'Universite, Paris, 1962.

الرحلة في القصة الفلسفية خلال القرن الثامن عشر

عشر

تأثرت القصة الفلسفية في القرن الثامن عشر بالقصص الاخلاقية وقصص المغامرات التي حظيت إبان هذه الفترة بازدهار لا نظير له . ونال السفر والارتحال أهمية قصوى في هذا النوع من الرواية الذي يعد امتدادا لأدب « البيكارسك » (Picaresque) في اسبانيا في القرن السادس عشر .

ويقص علينا مؤلفو روايات « البيكارسك » مغامرات بطل آفاق غالبا ما ينتمى الى العامة ولا تتوافر بصده معطيات مسبقة تنبئ عنه ، فهو بطريقة أو بأخرى صعلوك تتقاذفه المغامرات واللقاءات المتعددة التي يسوقه اليها تجواله ، وهذا النوع من الروايات غنى بالاحداث التي تتعدد مسارحها ، كما يمثل الطريق والنزل العناصر التقليدية للآطار الذي يغلب عليه .

وتتطور شخصية الافاقة في جو أخلاقي يدعو للارتياب ، وتنتمى الشخصيات التي يلتقى بها خلال اسفاره الى كل الطبقات الاجتماعية بدءا من الطبقة الارستقراطية وانتهاء بالصيغ بالخصوص وقطاع الطرق ، وهو في ذلك يشهد جرائم غامضة ، وتتوالى نصب عينيه النكبات ، ويصبح لزاما عليه أن يشق طريقه في عالم يسوده الدهاء والخداع . يكتمل لدينا صورة البطل من خلال المغامرات والمكائد التي تتميز كل منها باستقلاليته عن الأخرى ولا يربط بين مجموعهن سوى شخصية البطل .

الرحلة في القصة الفلسفية خلال القرن الثامن عشر

جنات خالد غازي

مدرس الادب الفرنسي الحديث

بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

فقصة جيل بلاس دي سانتيان (١٧١٥ - ١٧٣٥) (**Gil Blas de Santillane**) للروائي لوساج (**Le Sage**) على سبيل المثال تدور في اسبانيا وعلى طول الاثنى عشر جزءا التى تقع فيها الرواية يتعرض البطل (**Gil Blas**) لمغامرات عديدة عنيفة متباعدة الأحداث .

واستلها ما من نموذج « البيكارسك » اختار كاتبنا الفرنسي اسبانيا مسرحا لأحداث قصته ، غير أنه يندر أن يظهر الأغراب بها ، فاسبانيا في القصة قناع تخفى وراءه نقده اللاذع لفرنسا .

ويقدم لنا لوساج (**Le Sage**) في قصته صورة لتقاليد مجتمع الصالونات وللتقاليد البورجوازية والقروية الفرنسية .

وتنقاد شخصية جيل بلاس (**Gil Blas**) في تيار سريع من الخطوب ودوامه من الأحداث لتصبح حياته مغامرة مستمرة مقاليدها في يد الظروف التى يتعرض لها . ونشأة بطلنا متواضعة ، فعلى ظهر دابة مسنة يملكها عمه ، رجل الدين ، يغادر جيل بلاس (**Gil Blas**) أوفيدو (**Oviedo**) ، البلدة التى شهدت ميلاده ، ليقطع اسبانيا طولا وعرضا ويحوزته أربعون دوقا لتبدأ مغامراته مع أولى خطواته خارج منزل أسرته .

ويستولى سائل على نقوده ثم يخدعه طفيل ويقتاده للصمصص أسيرا في مجاهل الغابة . ويفر جيل بلاس (**Gil Blas**) هاربا ليجد نفسه سجيناً في سجن « استورجا » (**Astorga**) بسبب خطأ لم يرتكبه ، ويستقر رأى جيل بلاس (**Gil Blas**) على صرف النظر عن الدراسة بجامعة سلامنك (**Salamanque**) التى كانت تمثل هدفه الاصلى ، ويقرر العمل خادما ليجوب الطرقات حرا طليقا كسابق عهده حيث يلقي عددا من المحتالين ومثلهم من الشرفاء . ويلتحق جيل بلاس (**Gil Blas**) بخدمة العديد من السادة المتباينين ظروفًا وطبائعا ، فهو تارة طاهى وتارة أخرى ممرض وأحيانا كاتم للأسرار وأحيانا أخرى سكرتير الخ ، ويخدمته لعدد من الشخصيات الهامة ذات النفوذ يرقى جيل بلاس (**Gil Blas**) درجات المجد والثراء حتى انه يتمكن من امتلاك قصر في أسبانيا ويتزوج ابنة أحد مزارعيه .

وبفقد زوجته يعود الى طريق المغامرة وينتهى به الحال الى أن يصبح سكرتيرا للدوق أوليفارس (**Olivares**) وبعد سبعة عشر عاما في هذه الوظيفة يعتزل العالم نهائيا ليعيش في هدوء وعزلة .

ولا شك أن حيوية النص وتنوع أحداثه تقرب قصتنا هذه من أدب الرحلات والمغامرات كما تقربها غزارة العبارات وروح النقد من القصص الاخلاقية . وتصور لنا هذه القصة كافة ظروف الحياة الانسانية ، فحياة السفر والقصور والبورجوازية وحياة القرية تتلاقى معلنة مجيء القصة الواقعية مع ديدرو (Diderot) .

أضف الى ذلك أن هذه القصة التي تتخذ من اسبانيا إطارا لأحداثها تتكرر في قصص أخرى مثل قصة « الفلاح الوصولي » (Le Paysan Parvenu) لماريفو (Marivaux) ١٧٣٦ وهي تتخذ من فرنسا مسرحا لأحداثها .

وبصفة تقريبية نجد ان هذه الرواية تحذو حذو قصة جيل بلاس (Gil Blas) فجاكوب (Jacob) القروي الساذج الذي يدهش لكل شيء يفتتح بسعادة بالغه على حياة الترف والمتع الحسية الدقيقة التي تقدمها له العاصمة باريس .

ويستغل هذا الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً ملاحظته ويصل الى أهدافه بواسطة إعجاب النساء به ، وهو لن يعدم وسيلة للارتقاء في هذا المجتمع . هذا الأخيل كما يشير الى ذلك عنوان القصة يدهش لكل ما تقدمه له باريس ، وسرعان ما يبدأ في تبني سلوك تهكمي ، ولذا يصبح له دور في اللعبة الاجتماعية .

وتدور قصة (Le paysan parvenu) « الفلاح الوصولي » كسابقتها جيل بلاس دي سانتيلان (Gil Blas de santillane) حول محور التقابل بين الخادم وسادته . والتكوين الروائي في قصة ماريفو (Marivaux) يقابل القروي بساكن الحضر ومتع الريف بفساد المدن ؛ ولجاكوب (Jacob) الذي اختار « سيد الوادي » اسماً يناديه الباريسيون به ، مداخله الى صفوف القوم في باريس . وقد أمدّه ثراؤه بنوع من السلطة والثقة بالذات ، غير انه لم يستطع التكيف مع عادات عليّة القوم ، وبقي في داخله احساس بغربته عن هذا المجتمع ؛ ورغم اعتلائه قمم المجد والجاه يفشل جاكوب (Jacob) في تغيير طبيعته وسلوكه ، وتصرفه هذه الاستحالة عن المحاولة فيعود الى الريف حيث يمكنه أن يجد ذاته ويبقيها على سجيته ، وقد تبين لجاكوب بعد اختلافه الى هذه المجتمعات وولوجه فيها ان فسادا خفياً يخلف كل شيء ، كما اكتشف ان كل من يحيطون به يمثلون الدناءة والحقارة وقد ابتعد ماريفو (Marivaux) بذلك عن « الوقاحة » المرحّة غير المؤذية التي يتميز بها الافاق في أدب البيكارسك »



بعد استعراضنا لبعض مواصفات رواية « البيكارسك » التي تتخذ من السفر والارتحال محورا لها سنوف نتعرض بالتحليل لقصة فلسفية وهى قصة « جاك القدرى وسيدته » (Jacques Le Fata) (liste et son Maître) (١٧٧٣) لدينس ديدرو (Denis Diderot) لبيان الاهمية التي اوليت للرحلة في الفكر الفلسفى في القرن الثامن عشر .

وتدين هذه القصة بالكثير الى رواية « البيكارسك » الانجليزية والفرنسية ويمكننا ذكر « تريسترام شاندى » (Tristram Shandy) للكاتب ستيرن (Sterne) كأحد مصادر الهام ديدرو (Diderot) الخاصة بهذه القصة . وقد ضمن هذا الاخير قصته افكاره الفلسفية ، ولم يأل جهدا في تبيان إنكاره لرواية المغامرات التي تنتمى اليها قصته .

ومن العسير حصر هذه القصة في نوع محدد من أنواع الرواية ، فنصها به عناصر الحكاية الخيالية والاساليب الفنية للقصة والمسرح والتصوير ، كما انها تتميز بثناء وتنوع كبير . وتضيف الاستطرادات لهذه الرواية بُعداً اضافياً وعمقا خاصا .

ومن خلال قصته هذه يظهر لنا ديدرو (Diderot) ككاتب واقعى وفيلسوف ومصور لعادات واخلاقيات عصره فى آن واحد ، ويختار كاتبنا أجواء اجتماعية متباينة اطارا لموضوعه مضيفا اليها بُعدا فلسفيا واخلاقيا .

وتفيض هذه الرواية بحيوية وديناميكية ويتجسد لنا من خلالها عالم مركب متعدد العناصر يشبه الكرنفال . ونجد هذه العناصر المتعددة والمتناقضة للوهلة الاولى التي نسج منها المؤلف قصته ، نظيرا لها فيما يسميه ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine) في دراسته عن ديستوفسكى (Dos- tolevski) « الرؤى الكرنفالية للعالم » . (١)

ويحدد تأثير الكرنفال على الادب قبل كل شئء المساحة الكرنفالية التي تقع كما في رواية « البيكارسك » خارج الحدود المعتادة . من هنا تبدولنا الاهمية القصوى للارتحال وهو المحور الرئيسي للرواية محل دراستنا ، فالاسفار تعطى للشخصيات فرصة اللقاء الحر والاتصال وتوطيد علاقات من

— Mikhail Bakhtine ' La Poétique de Dostolevski ' Seul, 1970, p 159.

(١)

نوع خاص على غرار تلك التي نلقاها في الكرنفال ، وتتميز الشخصيات الكرنفالية بانطلاقة وحرية غير محدودة . فتصرفاتهم وحركاتهم تجد في الكرنفال تلقائية لا تلقاها في عداه . وهم يصبحون بذلك « ومن وجهة نظر المنطق المعتاد والمألوف شواذا وغريبى الاطوار . » (٢)

ولما كان الكرنفال مجالا خصبا للحرية واعمال الخيال فكل قلب للنظام الاجتماعي يصير فيه أمرا عاديا نظرا لارتباطه بالرؤية الشعبية للوجود ، وبالتالي يمضى فيه كل تدرج اجتماعي لتنشأ بدلا منه علاقات ملائمة لطبيعة الكرنفال . هذه العناصر الكرنفالية التي أوجدها موضوع الارتحال لا يمكنها بالتالى النشوء والاستمرار الا في جو عام يسوده المرح والغبطة ؛ فهناك تنطلق الضحكات التي يكون مبعثها إما التهريج المبتذل أو المحاكاة الساخرة . والادب الكرنفالى على غرار الكرنفال ذاته يخالف مكانيا أى مجال تقليدى . فهذا العرض « بدون مطلع درج » (٣) يشاهد ويمثل في مكان عام ، في الشوارع والطرق ويمكننا القول في مكان مفتوح تسود الألفة والحرية فيه بين البشر . ولا شك أن هذا الجح من الألفة قد أثر تأثيرا قويا على ابتكار شخصية « جاك القدرى » (Jacques Le Fataliste) ، ويصرح المؤلف بذلك في الصفحات الاخيرة لقصته :

« كانت نهاية رحلتهم وشيكة مما لم يمكن جاك من اعادة قصص حبه » (٤)

وفي قصتنا يبدو لنا موضوع السفر الشائع في مؤلفات القرن الثامن عشر في صورة مغايرة تماما للمألوف . فالواقع أن القارئ لا يدرك من خلال النص بداية رحلة جاك وسيده أو مسارها أو نهايتها ولا يمدد المؤلف بأى ايضاح في هذا الشأن :

« من أين جاء ؟ من أدنى الاماكن وأقربها . وإلى أين هما ذاهبان ؟ أيدرك المرء وجهته ؟ » (٥)

وتبقى مراحل النص واضحة المعالم وكذلك طبوغرافية الاماكن مما يجعل القارئ على شاكلة البطل في العمل الادبي هائما على وجهه في ترحال لا بدء له ولا نهاية . وتدور القصة في أساسها حول سفر

— Ibid, p 170.

(٢)

— M. Bakhtine, op. cit. p 170

(٣)

— Denis Diderot, Oeuvres Romanesques, Edition de Henri Benac, Garnier Freres, 1962, p. 767.

(٤)

— Ibid. p. 493.

(٥)

السيد وتابعه جاك الذي يروى مغامراته العاطفية ليقطع الوقت . ونحول الاحداث العديدة التي يتعرضون لها وكذلك روايات الاشخاص الذين يلقونهم دون استرسال جاك في سرد قصته . ويشكل جهل جاك وسيده بالطريق وتعرضهم للتقلبات الجوية والدروب غير الممهدة حائلا آخر دون المضي في السرد ، فكم من مرة عاد جاك وسيده أدراجهما بحثا عن ساعة أو حافظة فقدت منها . وبعد السفر هنا بالنسبة لديدرو (Diderot) ذريعة يبرز من خلالها أهمية المناظر الطبيعية في الريف وكذلك بؤس القرى في القرن الثامن عشر . ففي عام ١٧٥٠ كان الفلاحون في فرنسا يمثلون عشرين مليوناً من مجموع السكان الذين يتراوح عددهم بين ثلاثة وعشرين وأربعة وعشرين مليوناً . ويوضح لنا هذا معالم فرنسا وقت ظهور قصتنا هذه . ومن ثم تصبح رواية « جاك القدرى » (Jacques Le Fata) (liste) وثيقة شاهدة على سنوات البؤس وأزمة ١٧٧٠ التي هزت الاقتصاد الفرنسي .

وبصور لنا ديدرو (Diderot) من خلال سفر الشخصيتين الرئيسيتين في قصته حال عصره . فالقارئ يلتقى بادیء الأمر بالفلاحين الذين يدركون سوء وضع قراهم ، فقد حدث أن أصيب جاك في ركبته وتولت قروية تضميد جراحه في كوخها وسمع بطلنا ، زوج القروية يلومها على استضافتها إياه :

« انه عام سيء ومن سوءه نكاد بالكاد نكفى حاجتنا وحاجة اطفالنا ، فالحبوب باهظة الثمن ولا يوجد نبيذ وليس هناك بجانب هذا كله فرصة عمل » . (٦)

وتسود البطالة ويصبح الفلاحون أكثر الطبقات احساسا بوطأة البؤس فهم يستدينون ويلاحقهم الدائنون بلا هوادة أو رحمة .

وفي فندق الوعل الكبير « حيث نزل جاك وسيده ، لقي الاثنان فلاحا من نوع آخر ، يدل مظهره على سعة ذات اليد فهو يملك خيولا وماشية ومحرثا ، غير أن سوء المحصول أجأه الى الاستدانة واثقلت الضرائب كاهله حتى بات عسيرا عليه أن يجد مخرجا من حالته هذه .

ويلاحظ جاك انه في هذه الظروف العصبية ينخفض معدل الوفيات وتحدث دفعة ديموغرافية قوية تزيد من حدة الموقف في الريف الفرنسي . وتدفع غريزة البقاء الفلاح الى التنقل وتغيير مهنته أو بلدته

ويتبع ذلك هجرة واسعة من الريف . ونتيجة لذلك تتمزق الاسرة . أما الفلاحون الذين يبقون في قراهم فسوء الحال يوصلهم الى الشحاذة والسرقة وفي بعض الاحيان الى القتل للوفاء بالتزاماتهم واحتياجاتهم . ويغشى اللصوص وقطاع الطرق الريف ويقع جاك فريسة لثلاثة محتالين يسلبونه كل ما يملك .

ونظرا لندرة السلع أصبح وجود الصائدين في الخفاء طبيعيا ومقبولا فحين يتوقف جاك وسيدته بعد سفر دام أربعة أيام عند نزل يجد ان فيه كل ما يشبع فيها شهية أضناها صوم لاختيار لها فيه ، وتعزو صاحبة الفندق وفرة هذه الاشياء الى وصول الصائدين الذين يعملون في الخفاء .

وتدل وقفات جاك وسيدته على خصائص وسمات الريف الفرنسي ، فحين تقودهم أقدامهما وسط الحقول أو على قارعة الطريق نجدهما يفيضان شوقا الى الافضاء باعترافاتها الى اللقاءات المتنوعة . وغالبا ما تكون هذه الوقفات في فنادق وملاهي ، الا انها أحيانا ما تكون في اماكن لا تتميز بخاصية فيما عداها كالوكر على سبيل المثال .

وتصبح هذه الاماكن شاهدا على ما يروى من قصص تتلاحق فيها الأحداث ويتعدد فيها الرواة .

ونسوق مثالا على ذلك النزل الذي تجمع أمامه حشد من الناس يستمعون بشغف لحلاق يحكى قصته السيد لوبيلوتييه (Le Pelletier) وكذلك الملهى الذي كان مسرحا لحادثة القروية ذات الجرة المكسورة والوكر الذي ألبأ ارتفاع منسوب المياه في التربة الى المسافرين ليستمعوا لقصة مدام لابومريه (Mme de la pommeray) الغربية .

وفي هذه الاماكن المفتوحة التي تستقبل كافة الرواد يشترك الجميع في الاحتفال . وهذا النوع هو الموضوع الذي ينفرد السفر بتقديمه الى الادب ويلاحظ تودوروف (Todorov) :
 « السفر يسمح للكاتب بربط كافة المواقف مع ابقاء البطل الواحد (وظيفة أولى)

للتعبير عن انطباعاته عن كل الاماكن التي ترد في كتابه (الوظيفة الثانية) وكذلك تقديم نماذج ما كان النص ليستوعبها بدون الارتحال (الوظيفة الثالثة) » (٧)

— Tzvetan Todorov, *Théorie de la littérature*, Seuil 1965, p. 20.

وفي قصتنا هذه تظهر الوظيفة الثانية ، فالكاتب لا يسهب في وصف الاماكن التي يقف عندها بطله
أما الوظيفتان الاولى والثالثة فينالا كل الاهتمام .

ويعد « جاك » بطل القصة بدون منازع يحيط به العديد من الشخصيات المتباينة طباعا والمختلفة من
حيث المستوى الاجتماعي ونوعية المغامرات ، ويطور الكاتب شخصياته بسهولة ويسر في جو
كرنفالي . ويبقى المؤلف قريبا من الاجواء المحيطة ، فأحداثه مسرحها اطار معروف لدى معاصريه
وهو لا يتعد عن الحياة اليومية ، فغاياته تجسيد كافة نماذج الشرائح الاجتماعية في عصره بالشخصيات
التي يقدمها والتي يواكب فيها الارستقراطي رجل الدين ويدانيهم أناس يشغلون كافة الوظائف
والمهن .

ويتخلل الصفحات بذلك عرض حقيقي لشخصيات وحرف متعددة . فالخلاق يصبح راويا يحكى
القصص الغريبة ليسلى بها المغفلين ويجتذب بها زبائنه وتستوقف رواياته المتسكعين في الطرقات
فيستمعون له في شغف ودهشة .

وفي موقف آخر يلتقى جاك ببائع متجول يذكى بضاعته ويحاول إغراءه بشراء ساعة من الذهب .
وكم كانت دهشة جاك حين عرف ساعة سيده فخطفها ولاذ بالفرار يتبعه البائع صائحا وجامعا الناس
حولها . ويمثل الاثنان أمام النائب العام الذي يقضى بالعدل حاميا بذلك بطلنا جاك . وتعدد
الشخصيات الكرنفالية فنجد الخياط وصانع الاقفال والحلوان وغيرهم . وهكذا يقدم لنا المؤلف
صورة لمجتمع القرن الثامن عشر مع ابراز خصائصه .



وتتمتع الشخصيات الكرنفالية بحرية كاملة في الفكر والتعبير والحركة ومن هنا تبدو فريدة في
نوعها . ويجسد جاك البطل الرئيسي في روايتنا الشخصية غريبة الاطوار على أفضل ما يكون . فخارج
الجو الكرنفالي نجده تابعا لسيده .

أما في المجال الكرنفالي فهو « المجنون » الذي يوجد ترابط بين افكاره وعباراته واتجاهاته (٨) وجدير
بالذكر اننا لا نعني هذا الجنون بمعناه الحقيقي وانما بالمعنى الذي ساقه هيغل :

(٨) يرى ميشيل فوكو ان المجنون في القرن الثامن عشر يعود الى وضعه كشخصية اجتماعية ومعادلة الناس للمرة الاولى ويفسرون عنه والجدير بالذكر ان الجنون يعود ببطء لتأخذ
مكانته في الصورة الاجتماعية المألوفة .
— Michel Foucault, *Histoire de la Folie à l'âge classique*, Gallimard; 1972, p. 372.

« ليس الجنون فقداناً كاملاً للعقل وأنا مجرد تناقض » (٩) .

وقد مارس جاك عدة مهن ولعب ادواراً متعددة ، فقد كان على التوالي جندياً وفلاحاً وتابعاً لسبينوزا (Spinoza) ورسولاً للصهبا .

ولما كان قد أُجبر على التزام الصمت في طفولته^(١٠) فقد أصبح ثثاراً مدركاً لعييه هذا بل وغيوراً عليه ممن يفوقه ثروة مثل مضيعة الفندق . غير ان فعله يعادل قوله ، وعشقه للعمل معين لا ينضب فهو يصنع الحديث ويروي بطريقته وكما يحلوه .

ويزاوج جنون الثروة لديه جنون الخيال ويوصف في ذاته بالجنون فهو يستعيز عن الحضور بالغياب .

وهكذا يطلق جاك لخياله العنان كما في حادثة المشائق التي ينصبها رجال الاقطاع أو يرى أشياء لاوجود لها . ويحسم خيال جاك له الاحداث ويغير الكثير من أبعادها مما يقصيه عن عالم الواقع المحيط به .

وتجمع شخصية جاك كافة التناقضات الانسانية فهو يدعى حق التفكير وصياغة الحقائق مهما كانت درجة تناقضها . ويلفت نظره الى الامر بحكمة :

« قد لا يكون على الارض رأس بها قدر التناقضات الموجودة برأسك »^(١١) وكل شيء ممكن بالنسبة لجاك حتى أكثر الامور تطرفاً ؛ ويكاد يكون الحد الفاصل بين العقل والجنون لديه واحياً حتى لا نقول معدوماً . وكذلك فالتغيير بينهما تعسفي فكما يقول « يتبع المرء هواه الذي يسمونه عقلاً أو عقله الذي عادة ما لا يكون سوى نزوة على شيء من الخطورة »^(١٢)

ويطرح جاك كما يطرح الكاتب في رواية « ابن أخ رامور (le neveu de Rameau) مشكلة الشخصية :

— Philosophie de l'esprit, Germer Baillere, traduction Vera, 1867, p. 37

(٩)

(١٠) وكان ذلك بطريقة غير مألوفة فقد كان يقطع الوقت بالصمت ويعدو في حجرته واضعاً على فمه كمامة .

— Oeuvres romanesques, p. 545.

(١١)

— Ibid., p. 503.

(١٢)

« هل يمكنني الا أكون أنا ؟ وحينها أكونها هل يمكنني تغيير ذاتي ؟ أو أكون أنا والآخر^(١٣) فهو على التوالي ذاته والآخر . وقد قضى دور المجنون والمهرج هذا على وحدة شخصيته^(١٤) وجعله يعاني من ازدواجية داخلية^(١٥) ويحول اغترابه عن ذاته دون كونه « ذاته » وهي عملية يشير اليها (Derrida) في كلماته هذه :

« بادخال وجود آخر على الذات تعرضها للتقلب والتغير »^(١٦) وكنموذج لعدم الاذعان « يعيش « جاك » ويعايش » حياته بكل حدثها . وهو في سبيله لتحقيق ذلك يطبق فلسفة شخصية وتعسفية تعسف الحياة نفسها .

ولكن الم يلتفت اليه سيده لصفات المرونة والندرة التي يتسم بها ؟ فهو يلقي على الحياة نظرة بعيدة وقصبة عن الانكار وبتخطيه لكل المألوف والمتفق عليه يقضي على رتبة الحياة ذاتها .

وعلى النقيض منه نجد أن سيده رجل التقاليد والقوالب ، فهو يستخدم العبارات التقليدية حتى تؤكد له التجربة خطأها . فنراه على سبيل المثال يردد لنفسه عبارة : « انه في كل الاحوال هو السيد » وقد اعتاد الوقوع في الخطأ وغالبا ما يكذب حدسه فهو لا يرى الامور الا من زاوية واحدة . وفي الوقت الذي تثرى فيه عبارات جاك بعدة معان نجد أن لحديث السيد معنى واحدا ولهذا نجده يحد من حرية جاك في القول ويفهم جاك عدم جدوى قول كهذا :

« أليس لكل انسان طباعه ومصلحته وذوقه وأهواؤه التي تحدد لنا اذا كان يبالغ أو يهون من الامر »^(١٧)

وتصاحب آليه الحديث عند السيد آليه في الحركة فقد يتميز بتكرار حركات ثلاث : الاستنشاق بالتبغ والنظر في الساعة واغراق جاك بالاسئلة .^(١٨)

(١٣) يرى جان فابر في جاك انسانا فعلا انهمايا اعماله مقدرة بالطبع ولكنه مدرك لكل تصرفاته ولا يمكن ارجاع أي منها الى آلية حيوانية .

— Ibid., p. 498.

Sagesse et Morale dans Jacques le Fataliste dans " The Age of Enlightenment " , Mélanges Besterman, Ed. Andrews, Oliver and Boyd, 1967 p. 178.

(١٤) في رواية (Le Neveu de Rameau) نجد أن البطل كان يردد لواحظ بذاته مع كونه آخر أي عنه . من هذا المنطلق يمكننا تفسير ما يقوله لذاته : لو كان قد ترك عند موته بعض مذكرات القيثارة في حافظته ما كنت لأرجعت بين أن أكون ذاتي أو أكون اياه .

Denis Diderot, Oeuvres Romanesques, p. 406.

(١٥) يمكننا الاضافة انه يعيش ازدواجية خارجية أيضا ما دام « سانشو » (Sancho) ظلا لسيدة كما يوضح المؤلف ذاته . Ibid., p. 553.

— Jacques Derrida, De la Grammatologie, Les Editions de Minuit, 1967, p. 221.

(١٦)

— Oeuvres romanesques, p. 544.

(١٧)

(١٨) تشير هنا الى بعض المعاداة والزمات الحركية يرجعها البعض الى الجنون

وتتسع دائرة الشخصيات الكرنفالية وينضم فيها الى جاك وسيدته نماذج غريبة من المعتوهين . فلو بللوتهيه (Le Pelletier) تتملكه عادة الاحسان الى حد أن المخيطين به يعتبرونه مصابا « بنوع » من الجنون فقد أمسى معدما بعد ثرائه نظرا لانه كان يحسن الى الناس بدون تمييز ، حتى لقد وصل به الامر الى التسول ليتمكن من الاحسان الى الآخرين .

أما جوس (Gousse) فهو شخص غريب الاطوار لا يعرف له مبدأ^(١٩) ومصاب بنفس داء لوبلوتيه . فهو أسير لعادته نجده لا يتردد في اعطاء كل ما يملك الى المعدمين ويسمح لنفسه ببعض الغش لتعويض نقوده . ونسوق هذا مثالا على غرابة أطواره فهو يرفع قضية على نفسه ويكسبها ويجد نفسه رغم ذلك في السجن .

وتتسلط على بونديشيري (Pondichery) فكرة كونه شاعرا ولا ترده رداءة أبياته عن فكرته فهو أسير لعادته نجده لا يتردد في اعطاء كل ما يملك الى المعدمين ويسمح رداء أبياته عن فكرته هذه ولا يدري هو نفسه سببا لتسلط هذه الفكرة عليه بيد أنه يرد على لائمية لرداءة أبياته بقوله : « بما أنني غير مستطيع منع نفسي من كتاباتها فلا مفر لي من الابيات الرديئة . »^(٢٠)

لم يحقق كل من القائد جاك وصديقه ذاتيتهما الا من خلال مبارزات مستمرة ، الا أن كلا منهما كان يجب الآخر ، ولكن أبسط الأمور تدفعهما الى شهر سيفهما ، كما كانا يتصفان بكل ما يحتاج اليه القائد الماهر من صفات وكان ذلك موضع جنونها .^(٢١)

وتتملك الشخصيات الأخرى انواعا متباينة من الجنون مثل جنون الرغبة لدى الأب هدسون « الوحش ذو الطاقة » والمركز ديزارسيس أو مدام دي لا بومريه التي تتميز بحدة متطلباتها . وتطغى على الأب هدسون :

« الرغبات العارمة وحب لا يكبح جماحه للتمتع والنساء »^(٢٢)

— Oeuvres romanesques, p. 555.

(١٩)

— Ibid., p. 527.

(٢٠)

(٢١) وبعد ديجلان مبارزا عنيدا لا يبدأ له بال حتى يقتل شريفة

— Oeuvres romanesques, p. 557.

Ibid., p. 754.

انظر الى

— Ibid., p. 673.

(٢٢)

وتشكل اللذة إحدى ركائز حياته مما يجعل من رغبته العاطفية رغبة واحدة متسلطة عليه فلا يدخل شيء في حساباته إلا الإيقاع بالنساء واغرائهن ، كل النساء واشباع حواسه ويمثل المركز داي زسيس الاب هدرسون في تحول عاطفته وولعه الى هوس ، وفيما عدا موضوع رغبته لا وجود لشيء في حياته أو أفكاره ، ويتحول ولع مدام لابومديه بالمركز داي زسيس الى غيرة جنونية وتتملكها رغبة في الانتقام منه ويصبح جنوبها في ذهنها علامة قدرة . فكل قواها المدفونة سوف تستغل في تحقيق هدفها الماكيا فيلبي وسوف يمكنها بذلك أن تعيش انتقامها بكل حدته . ولا يوجد تكافؤ بين الدافع وهو هجرانها وبين حدة انتقامها .

وكما في حالة الاب والمركز داي زسيس نجد أن الرغبة تحجب الرؤية عن مدام دي لابومديه ولن تعي هذه الشخصيات حدودا لافعالها . وبما أنه لا حدود للجنون فكل السدود والحواجز تنهار أمام المسار الاعمى للرغبة الجائعة والغيرة^(٢٣) .

ويغلق الأبناء غير الشرعيين دائرة الشخصيات الكرنفالية . فوجودهم خارج الدائرة يجعل هناك بينهم وبين المجانين وغريبي الاطوار المنفصلين بطبيعتهم عن المجموع وليس ابن الثكلي ديجلان (Desglants) ابنا غير شرعي فحسب ولكنه ايضا صعلوك وغريب الاطوار فقد أنهض بصراخه ذات ليلة ، كما يسوق لنا جاك ، كل أفراد القصر بما فيهم حارسته العجوز الثقيلة الحركة :

« جيء بالحارسة فخطوها البطيء ما كان ليعينها على قطع الطريق بسرعة ولما اجتمعنا أراد منا أن نهضه ونلبسه ثيابه وأن نذهب به الى قاعة الاستقبال الكبرى ليعتلي مقعد والده الوثير . وأبدى رغبته في أن يمسك كل منا يد الآخر راقصين في دائرة » .^(٢٤)

وجاء الى الوجود طفل آخر غير شرعي نسب لفرط الشبه بينهما الى الأخ جون ، فقد اعتاد هذا الأخير أن يزوج فتيات قريته وقد تمرس في هذا العمل حتى أن احداهن أنجبت :

« طفلا ممتا يشبه الأخ جون كما تتشابه نقطتا ماء » .^(٢٥)

وليس ابن الأنسة أجاثا (Mlle Agathe) والفارس سان أو انابنا^{002tdv} Saint ouin غير شرعي فحسب ولكنه مبتور الصلة بأبويه فقد قام على تربيته وبياشره السيد .^(٢٦)

(٢٣) نلاحظ أن ديدرو (Diderot) يبرز لنا في الحيلة اليومية التي يصفها موشوعات غير مألوفة فهدر ترض حالات صداقة وحب وغيره قلبها تحدث بذات الحدة التي يصفها بها . وتعرض حياة حافلة بالأحداث .

(٢٤)

— Oeuvres romanesques, p. 751.

(٢٥)

— Ibid., p. 535.

(٢٦)

(٢٦) نشير أيضا الى الابن غير الشرعي الوهمي الذي كان يمكنه المجهى الى الوجود من العلاقة الزمنية بين الراهب (Hudson) هدرسون ومام دي لا بومديه

Oeuvres Romanesques, p. 684.

والمعهود في الشخصيات الكرنفالية نجد أن حرية النماذج التي نتعرض لها في التصرف والحديث تصاحبها حرية في الحركة ، ومن ناحية المدلول الرمزي نجد أن للحركة في الرواية أهمية كبرى ، فهي أما مكملة للقول أو مستعاض بها عنه . وفي كتابه « تقرير ريتشارد سون » (Elogesur Richardson) يصرح ديدور (Diderot) :

ان الحركة أحيانا ما تكون رفيعة ومعجزة مثل الكلمة «^(٢٧) وتصبح الحركة من هنا رمزا لحرية الاجسام ومحسنا بديعيا لأفكار ومشاعر الشخصيات . وتأثر بدكار (Descartes) الذي تستند نظرية التعبير في القرن الثامن عشر إلى مذهبه : توافق حركات الوجه العضلية واعتمالات النفس . «^(٢٨)

وبواسطة الحركة يتحول الصمت إلى حديث يكشف غموض الأفكار ويبرز الانفعالات . وتندرج الحركة من مجرد التغيير في قسمات الوجه أو عبوسه إلى حركة الجسم ككل . ويعتبر اكفهرار أو اشراق وانبساط أساريه مرادفا للطبيعة ذاتها ، ففي اسطورة الخلق هناك توافق بين تعبير وجه الطبيعة وتعبير وجه مخلوقاتها .^(٢٩)

ويجسد جاك الرجل « الطبيعي » الذي لا يعرف أي عقبة فهو يطلق الجراح لحركاته ويعبر عنها كاملة . ونسوق مثلا لتعبير وجهه عن الامتعاض حين تذوق الخمر الرديئة . وفي مواقف أخرى نجده يحك جبهته وينفض أذنيه تعبيرا عن حيرته . وتنطق بالحركة معالم الوجه ويستعاض بها عن الكلام وتظهر بواطن الأفكار . وقد يستعان بالحركة أحيانا بين اثنين للتخلص من ثالث كذلك الموقف الذي لم يرغب فيه السيدان يسمعه جاك : «

« أشار السيد إلى المضيضة إشارة فهمت منها أنه ليس على ما يرام وان بذهنه خلل . «^(٣٠)

وتغني الحركة عن التعليق وتفسر بصورة مباشرة وبدون اللجوء للكلمات فكر المتحاذين ، وفي رواية (Gacques le Fataliste) نجد أن لحديث الأيدي أهمية كبرى في أداء نوع من التمثيل الصامت والانفصاح عن مشاعر لا تشير إليها الكلمات كاحساس الحزي ومثال ذلك اخفاء مدام ديزارسيس (Mme des Arcis) وجهها بيدها أمام زوجها . وقد تستخدم الأيدي كقناع تتوارى

— Oeuvres Esthetiques, Garnieres, 1959 p. 35

(٢٧) الأعمال الجمالية

— G. Matore et A. J. Greimas : " La naissance du genie au XVIII^{eme}

(٢٨)

in Le Français Moderne siècle " ١٨

Oct. 1957, p. 271.

(٢٩) نشير هنا إلى ابن أخ رامو (Le Neveu de Rameau) حين ربطت الطبيعة ابن أخيها انقلب محتها وانقلب ثانيا وانقلب ثالثا وقد تغيرت ملامح القائل وفق قوله

— Op. Cit., p. 487.

— Ibid., p. 598.

(٣٠)

خلفه الاحاسيس الحقيقية أو تفصح عن قلق ونفاذ صبر كما في حالة السيد حين استيقظ قبل جاك ورغب في أن ينهض هذا الاخير فلم يتورع عن لكزه بيده ليوقظه .

وتجىء بعض الرجفات والعادات الصغيرة لتبرز الانفعالات المختلفة ونسوق أمثلة لها فمنها فتح السيد وغلقه لعلبة تبغه تعبيراً عن سامة ووحدته بدون جاك وكأن حركته علامات وقف للزمن دقيقة بعد أخرى حتى يغلبه النعاس .

وفي حين أنه يأخذ تنشيقاً من علبته وينظر الى ساعته تعبيراً عما يعتل في نفسه اثر سرد جاك لحكاياته نجد أن حركاته وهو يستمع للمضيقة لا مبعث لها سوى العادة . وغالباً ما يكون الجسم كله وحركته تعبيراً عن ديناميكية الحياة ذاتها ، فالشخصيات تتحرك وتجتاح المساحة المخصصة لها بل وتغشاها . وقد يعبر بالجسم عن السأم كما يبين لنا ذلك المركز ديزاريس الذي مل زيارة مدام لابوريه :

« كان يتلفظ بكلمة ثم يستلقي في المقعد الوثير وتعبث يده بنشرة مكتوبة لم يقذف بها ليحدث كلبه أو ليغفو . » (٣١)

وعلى عكس ذلك البطء المعبر عن الملل نجد أن حركات الجسم السريعة تبرز العجلة وحيوية العلاقات الانسانية . ويجسد لنا ذلك اندفاع جاك نحو منقذه وعناقه المتكرر له . وفي الكرنفال يترجم الجسم المتغير الشكل ، الذي عرف كيف يعبر عن السعادة مشاعر الألم .

فالقروية تشد شعرها ياساً أمام جرتها المكسورة وتشبه في حركتها هذه جوستين التي تشهد مشهداً فريداً : -

« انتزعت غطاء رأسها وشدت شعرها ورفعت عينيها الى السماء » (٣٢) وتعتبر هذه الحركات العنيفة في ذروتها عن مخاوف يصعب التغلب عليها والحركات التي تفصح عن وجود الانفعال تخفيه أيضاً . فهي توارى الغش والنفاق وتخفيها وتصبح بذلك أداة ضرورية للشخصية الكرنفالية . فنحن نرى على سبيل المثال القس هدسون (Hudson) المتهم لأسباب واضحة بخطف بائنة الحلوى يدافع عن نفسه أمام : وجهها وذوياً مردفاً عبارته بحركات ذات الايعاز الديني . فحين تدق الاجراس :

— Oeuvres Romanesque. p. 600.

(٣١)

— Oeuvres Romanesques, p. 697.

(٣٢)

« يفرض هدسون على المجتمع الصمت ويخلع قبعته راساً بيده على صدره صليبا . » (٣٣)

ويصنع الجنون هذه الشخصيات المتتمية لأوساط اجتماعية متباينة والمتميزة بطبائع مختلفة فلا يمكن ادراجهم بين الشخصيات الطبيعية إذ أن لكل منهم خاصية منفردة . ويقرب انفرادهم وتميزهم بينهم رابطا اياهم بوثق حب التظاهر والمفاخرة سواء على مستوى التصرفات أو الحديث أو الحركة . وبذلك يتضح لنا أنه على حين يبدو العمل الادبي متشعبا تشكل الشخصيات رابطا موحدا له بذلك الجنون الذي يجمع بينهم .

وهم بذلك يضيفون نوعا من التوازن والاستمرارية على العمل . ولهذه الشخصيات جاذبية فهي عميقة ومتقلبة تماما كالشخصيات الكرنفالية التي لا يمكنها التحكم في ذاتها وينبعث منها نوع من المغناطيسية لا يمكننا تجاهلها في انجذابنا نحو دوامة الكرنفال وهم بذلك يضيفون نوعا من التوازن والاستمرارية على العمل . ولهذه الشخصيات جاذبية فهي عميقة ومتقلبة تماما كالشخصيات الكرنفالية لا يمكنها التحكم في ذاتها ، وينبعث منها نوع من المغناطيسية لا يمكننا تجاهلها في انجذابنا نحو دوامة الكرنفال ونزيد على ذلك أن هناك علاقات كرنفالية سوف تنشأ بين هذه الشخصيات المتباينة .

ويسود الرواية من بدايتها نوع من عدم التناسب وعدم التوافق . ويعلن عنوان القصة في وضوح عن وجود من الديالكتيكية بها . « جاك القدري » وسيد **Jacques le fataliste Et son maître** () فالعنوان يرسم العالم الرئيسية لطبيعة العلاقات بين الاثنين ، بين جاك وسيد ، وبين الخادم والسيد ومنها الى العلاقة بين السيادة والعبودية وهذه العلاقة القائمة على التبعية المتبادلة يبرزها الكاتب مؤكدا على كونها .

« لا يصلح ولا يحسن شيئا إلا معا ولا قيمة لهما متفرقين تماما مثل دون كيشوت وسانشو » (٣٤)

فعلى غرار ما يفعله سانشو يعارض جاك سيده ولكنه يصبح فيما بعد مساعدا له . والسيد بدون جاك كالأسان الآلي وذاك بعيدا عن سيده يفرق نفسه في أكثر المغامرات جنونا وتؤثر تبعية كل منهما للآخر على سير حياتهما ونمطها .

— Oeuvres Romanesques, p. 674.

(٣٣)

— Oeuvres Romanesques, p. 553.

(٣٤)

وكلمة سيد تقيم علاقة سيد بعبد ، فالسيد هو الذي يأمر وينهى تابعه ؛ ومن ناحية أخرى فالسيد يتجاوز بمعلوماته وعلمه تابعه وهو بذلك يلقنه المعرفة . وفي كافة الاحوال نجد ان فكرة عدم المساواة سائدة وكذلك فكرة قلة شأن التابع بالمقارنة بسيد . فكما تقضى وظيفته نجد أن جاك يتنقل بين أكثر من سيد حتى يستقر به الحال مع سيده الحالى .

وفى بدء الامر نجد أن بينهما علاقة سيد ومسود فكلاهما يحترم القوانين التى يفرضها التدرج الاجتماعى . فجاك على سبيل المثال يستخدم فى مخاطبته لسيده لفظ الجمع دلالة على الاحترام ، على حين تثبت حرية انتقاء السيد لالفاظه فى محادثة جاك .

وتصاحب السيادة الكلامية (فى القول) سيادة حركية ، فالسيد لا يتورع عن ضرب خادمه فهو صاحب الامر والنهى ويرغب فى أن يطاع . ويتضح لنا هذا من حديث المضيف التى تقضى يوما بحكم عملها بين جاك وسيده :

« ليأمر أحدكما ويطيع الآخر ويعمل ما فى وسعه » (٣٥) ويذعن جاك للأمر برغم نزوعه الدائم الى الاستقلال واثبات ذاته . ويذهب فى اذعانه الى التقريب بين علاقة التبعية بين الكلب وسيده والعلاقة بين الأدميين :

« سأل جاك سيده اذا كان قد لاحظ انه مهما بلغ يؤس الناس من العامة فهم يقتنون كلابا وهذه الكلاب على اختلافها قد لقنت حركات متشابهة كال دوران والسير على رجلين وعلى القفز أمام الملك والملكة وعلى الاستلقاء كالموتى . وتخلص جاك الى ان هناك رغبة تتملك كل انسان فى التحكم فى غيره ومن هنا فلكل كلبه » (٣٦) وصورة اخرى لعلاقة السيد بتابعه تبدو جلسيه حين يفقد السيد جواده فيستولى على جواد جاك ويذهب السيد الى اقصى من ذلك حين يشتري جوادا جديدا ويحتفظ رغم ذلك بجواد جاك متعللا بأن معرفته به أوطد .

وفرض التدرج قوانينه حين يتناول السيد العشاء مع المركز ديزاريس فجاك فى هذا الوقت يبقى فى الفندق مع سكرتير المركز . وتبرز الصفحات الاخيرة من الرواية أهمية السيادة واليد العليا للسيد الذى يفر هاريا على جواد جاك مرسلا ذلك الأخير ليسجن بدلا منه .

—Ibid., p. 663.

—Ibid., p. 667.

والغريب ان ذلك الذي يتمتع بالسيادة والتفوذ لا شخصية له على حين يحظى الخادم ، رغم كونه مجرد تابع ، بشخصية قوية وان كانت غير واضحة كل الوضوح ؛ فجاء بالنسبة لغير سيده « السيد جاك » ومن هنا فبعض اللبس يشوب العلاقة بين السيد والتابع المسود ، وتخلق بينها الظروف التي تحيط بمغامراتهما نوعا من المساواة تذهب في بعض الاحيان الى اعلاء التابع على حساب سيده . ويفرض الموقف الكرنفالي نفسه هذا ليقيم ما نتفق مع باختين على تسميته « الحياة المقلوبة رأسا على عقب » (٣٧)

والاختلافات بين جاك وسيده لا يتطرق اليها الشك وتبقى لقلب جدلية العلاقة بين السيد والتابع ويسمح جاك لنفسه قبل كل شيء بتقييم سيده ويبدى دهشته لتوافر بعض المميزات لديه .

« يريحني أن أعرف فيك انسانيتك فهي صفة قلما تتوافر بين السادة وتابعيهم » (٣٨) ويفوق جاك سيده ثقافيا فهو يدير حوارا شيقا ويعرض فلسفته الخاصة في الحياة ولا يقف الامر عند القول انما يتعداه الى الفعل فهو يلقي نفسه في المخاطر ولا يتردد في المجازفة .

ويبدى جاك بعض التعنت في الرضوخ والطاعة ويمثل أمامنا « موقف عزل الكرنفال وخلعه » (٣٩) ويصبح السيد الملك خادما تابعا ويمسك بالسلطة مهرجا . وواقعة الاطاحة بالملك هذه تعقب حادثة مدام دى لا بومريه . ويعترض جاك على سلطة سيده نظرا لكونها قابلة للجدل وكما قبل جاك أن يأمر السيد وينهى ، على السيد الاذعان للامر وقبول دور التابع لخادمه . هذا التغير في الموقف يدعو جاك الى اللقاء عبارة مثل :

« يسوس جاك سيده » (٤٠)

فهو يصبح طاغية وبذا يجسد حلم أبزاخ رامو (Le Neveu de Rameau) وهو رمز الضعف والمهانة في ان يصبح حدا ويحكم بدوره .



ويسود خلف الأقنعة عدم التوافق وعدم التناسب وهو عامل ضروري في الكرنفال يرمز الى ازدواجية الطبيعة الانسانية . وعلى النقيض من الأقنعة الحقيقية التي تندر في جاك القدري (Jacques le

—M. Bakhtine, Op. Cit., p. 170.

(٣٧)

—Oeuvres Romanesques, p. 559.

(٣٨)

—M. Bakhtine, Op. Cit. p. 170.

(٣٩)

ويحتل العرش بدلا من الملك تابع أو مهرج مما يبدي العالم مقلوبا بروية كرنفالية ومعطية معنى عكسيا .

—Oeuvres Romanesques, p. 665.

(٤٠)

(Fataliste) نجد ان النص يفيض بالاقنعة الغير حقيقية كالنفاق والكذب ^(٤١) وتظهر وفرتهم كيف تتعايش العناصر المتناقضة والمتكاملة في الوقت ذاته كالحير والشر الصدق والكذب ، الحقيقة والخيال .

ولا يحتل التنكر مكانا كبيرا في الرواية . فالقناع يرتدي مرة واحدة بدافع من الغبطة ورمزا للاحتفال ^(٤٢)

وترتدي بعض الشخصيات الثانوية الأقنعة لتتميط اللثام عن الحقيقة للآخرين ، فالجاسوس على سبيل المثال يرتدي كل انواع الملابس لمباغطة صانعه الحلوى وهي متلبسة بواقعة الخيانة ، ويتنكر القائد جاك في زي فلاح ليجد الصديق الذي كان قد فرق بينهما ، غير أن ذلك كله لا تأثير له على الحكمة الروائية وإذا وجد له تأثير ما فهو سريع وعابر .

ويحذر بنا الوقوف قليلا أمام وفرة الأقنعة التي تخفي النفاق والكذب فالخداع يبدو كظاهرة تكاد تكون عامة وكما يلاحظ جاك :

« كان الانسان وسوف يكون دوما وعلى التوالي خادعا ومخدوعا . » ^(٤٣) وتعتبر وفرة الأقنعة المعنوية دليلا ملموسا على المانوية أي عقيدة الصراع بين النور والظلام التي تسود العالم ويزيد النفاق والكذب من حدة اللبس السائد للوهلة الأولى في الرواية لكونها مغلفين بالطيبة والثقة . وسيستخدم القناع هنا في اخفاء أكثر الأعمال شرا ومنح مرتديه حرية زائفة ولا يتفق على الاطلاق ظاهر وباطن الشخصيات المقنعة وتتوه تدريجيا حقيقتهم .

وباماطة اللثام عن نفاق رجال الدين تسنح للكاتب فرصة انتقاد رجال الدين في عصره . فبدافع الغيرة من القس ملاك يذهب راهبان الى حد رشوة طبيب ليشهد بأن القس ملاك مجنون ، ولا يغفلان في الوقت ذاته عن مصالحهما المادية فهما يكيلان المديح كيلا للقس ملاك أمام مرديه من علية القوم . ويث الكاتب بين طيات هذه الأحداث نقده اللاذع كما يسوق لنا مثالا آخر ، فرجل الدير هدرسون المنافق يحدث وخطيب ديني بارع يرى المحيطون به في كلامه أكثر صور الحديث صدقا . فهو يرتل

(٤١) لم تكن الحقيقة لتقال سافرة في القرن الثامن عشر فقد كان مألودا وقتل جر حامة من الفهر والرقابة ويشير Francis Pruner الى كتابه L'Unité Secrete de Jacques le Fataliste, Minard, 1970, p. 322.

(٤٢)

—Oeuvres Romanesques, p. 610.

(٤٣)

—Ibid. p. 701.

الصلوات عن ظهر قلب وقد كون لنفسه بذلك صورة الرجل الورع . وقد استطاع ان يلين شكيمة رجل البوليس بأحاديث محورها أن قبل بحيثه :

« كانت الأمور الروحية مهمة الى حد الفضيحة وكادت الخسارة تلحق بالبيت » (٤٤)

ويقنع مظهره الخادع اسقفاء حتى ان هذا الأخير لا يساوره الشك في فضيلة رجل ديره . غير أن « القول والفعل » لدى رجل الدير هرسون لا يتفقان بالمرّة، فوسائله الى الرذائل تمخدع ضحاياه . (٤٥)

وتناقض أقواله أفعاله بل وتتناقض أفعاله فيما بينها . فعل حين يطرد من البيت مرتكبي الفضائح لا يتورع هو عن فعلها فهو يسجن بائعة الحلوى في قصره . ويتبع بائعة هوى الى مسكنها . . الخ بل يستخدم المكان المقدس المخصص للاعتراف فيما نجعل من الأفعال .

وهو يأمر السيدة موضع ثقته والتي تعاونه ان تتقن اداء دورها وان تذهب لدى سيدة حسنة السمعة غير أن هذا لا يمت للحقيقة بصلة فسمعتها الطيبة مردها اتقانها الظهور بمظهر الورع .

وتخدع الراهبتان الجديدتان اللتان يداخلهما بعض الشك في رجل الدير هرسون وفي مكان اقامة هذه السيدة وفي عشيقه رجل الدير هرسون بل وفي الدير ذاته ولن يسقط قناع هرسون مطلقا ، بل وأكثر من ذلك يكافأ على خدماته بدير وفي الخيرات، وبهذا يكون قد نجح في تغليب المظهر على الجوهر والخيال على الحقيقة .

ويثبت لنا الكاتب أن القناع وسيلة هامة وضرورية أيضا للطبقة الارستقراطية وهم على شاكلة رجال الدين يستخدمون الحب قناعا مما يسمح بوجود الخدع . فالحب كاحساس له أبعاد قدرية (٤٦) فالانسان يتفانى في الاحتفاظ به رغم كل شيء وفي مواجهة الجميع . ويكاد يبدو ان الانسان كلما رقي درجات السلم الاجتماعي كلما مزقته الغيرة وسيطر عليه حب التملك والميل للانتقام . ومن ثم يرتبط الأصل

— Oeuvres Romanesques.

(٤٤)

(٤٥) لا يجهل القاريء حقيقة وأعماله ومن لم يرى الشخصية من كافة جوانبها وبعد الشاهد الوحيد على ارتداء الشخصيات القناع وعلمهم انه وعلى حين يصبح هذا القناع غير مظهر لا يخلفه بالنسبة لجميع الشخصيات يكون شغافا للقاريء .

(٤٦) يتساءل جاك : الناعهار في ان تصبح أولا نصيح عاشقين ؟

النبل بالاحاسيس الوضيعة . وعلى النقيض من ذلك نجد أن للعامة البعيدة عن الاصول العريقة أحاسيس نبيلة ، فجاك على سبيل المثال لا يعرف الغيرة وشهرة الانتقام فهو يتقبل عدم استمرار الحب ودوامه بوعي وواقعية . فالحب كأي أحساس في الحياة يتحكم فيه التغير والتبديل .

ويصبح المركيز ديزارسيس ومدام دي لا بومريه على التوالي خادعين ومخدوعين وكلاهما ذو أصل عريق وعاشق للآخر ، غير أنه يجيء اليوم الذي يتصرف فيه المركيز عنها : حينئذ تلجأ مدام دي لا بومريه الى خطة مبدئية لاكتشاف الحقيقة التي تخفيها عنها .

وترتدي هنا القناع للكشف عن الحقيقة . فعلى المكران يخترق القناع ليفصح المركيز ديزارسيس عن مشاعره وتبدأ لعبة واعية اختيارية .

وتؤكد مدام دي لا بومريه لعشيقها براءتها وتصبح الخدعة جلية حين تدعى انها قد ملت صحبته وتعيد بذلك الأسلحة الى مطلقها عليها تجبره على البوح بالحقيقة .

وتقضي مدام دي لا بومريه في لعبة الصراحة الى نهاية الشوط فمن ناحية تدعى تغير مشاعرها تجاهه ومن ناحية أخرى تدعي انها ما كانت ترتكب خطأ اخفاء هذا التغير الذي يعتري مشاعرها .

ويقع المركيز في الشرك ويخدع الى درجة يدلي فيها بما كان يخفيه ويبلغ في انخداعه الحد الذي يرى معه ان مدام دي لا بومريه امرأة صادقة أمينة وفاضلة . ويرى هنا أن للكذب مميزات فقد سمح لمدام لا بومريه ليس فقط بمعرفة الحقيقة ولكن بأن تخطى بصفات اضافية في نظر عاشقها ، غير أن هذا الاعتراف يشعل لديها الرغبة في الانتقام وهي لهذا تدبر خطتها بعناية :

« حين هدأت غضبتها الأولى وذافت بعض الراحة فكرت في الانتقام واي انتقام ذلك الذي يخيف في المستقبل كل من تسول له نفسه ان يخدع امرأة فاضلة » (٤٧)

وسوف تفعل ما تتراءى لها بالمركيز ديزارسيس الذي ارتكب خطأين : أولهما خداعها وثانيهما اخفاء ذلك عنها . وسوف تلهو به بدورها بوعي وذكاء وحنكة لا يثنى عنها عن بلوغ هدفها شيء .

وهي تستخدم لأغراضها ذكائها وثروتها ولا تترك للصدف شيئا حتى انها تعطي سيدات (Ais non) اينون اللاتي سيساعدنها في خططها الميكافيلية تعليمات مدونة لما يجب ان يلتزم به في سلوكهن . وفي كل سطر من سطورها هناك قناع ، فالكلمات والافعال تغطيها كلمات في التعبد والتصوف .

وتنهج مدام لابومرية فهمها الهدف منه اخفاء مشاعرها الحقيقية ومن هنا ينشأ التعارض بين أفعالها وأقوالها من ناحية واحاسيسها من ناحية أخرى وتستمر اللعبة « فقد كانت تراعي في علاقتها بالمركز اظهار تقديرها وصدقتها وثقتها على أفضل ما تكون صورها . (٤٨)

وقد توقعت مدام لابومرية كل ما سوف يحدث : فالمركز ديزارسيس يقع في حب اينون التي يعتقد انها مخلوق ملائكي . ولم تكن مدام دي لابومرية تنتظر غير هذه اللحظة لتقف حائلا بين لقاءاتها بما يعذب المركز فكلما بعدت معشوقته عنه كلما تاق اليها وتقود مدام دي لابومرية اللعبة بسادية ومازوشيه في آن واحد فهي تتعذب بدورها وتتلذذ بعذابها وهي تحدته عن ولعه باينون وتستمتع اليه وهو يبالغ في تصوير حبه لغيرها وتتوالى الخطط وتشعب لتنتهي يوما بزواج المركز باينون وتتصر مدام دي لابومرية غير انها لا تستمتع طويلا بلذة النصر . فهي لم تكن تتوقع ان تمسك المركز ديزارسيس بزوجه بعد معرفته بماضيها ووقعت في الشراك الذي نصبته لغيرها . فلم تكن قد وضعت في حسابها القدر الحقيقي لمشاعر المركز لاينون مما ضاعف من ألمها بعد أن سقط قناعها وفقدت مكانتها فأصبحت في الحضيض بعد سموزوارتفاع المركز واينون من العبودية الى السيادة .



ويسمح عدم التناسب من ناحية أخرى بالتقارب والاتحاد الوثيق بين « الأعلى » والأدنى . فالكرنفال مرتبط بصورة خاصة بطقوس شعبية تطبع الرواية بطابع سحري غريب . ويعني بالأعلى هنا الموضوع الميتافيزيقي كالقدرة ، اما الأسفل الذي يرتبط به فهو عدة موضوعات تتصل بالعامية . فالرواية تلمس بعض المشاكل الهامة التي ارتبط بها فلاسفة عصر التنوير ، فهي تطرح مشكلة القدرة أي الوجه المقابل لمشكلة الحرية .

ومحور مناقشات جاك وسيده وهي معتقدات يصعب النقاش والبت فيها . فجاك التابع والشعبي النشأة قادر على مناقشة الأمور الفلسفية . (٤٩) فمكتبة سيده المنتمية الى طبقة النبلاء مكتته من تنمية

— Ibid., p. 621.

(٤٨)

(٤٩) كان ديدرو (Diderot) نفسه ابن صانع مدى

مداركه ومعلوماته وها هو ذا يماثل سيده ان لم يفقه اهتماما بالمشكلات الفلسفية ، وكنوع من التناقضات الغربية نجده أيضا لبقا ومحدثا بارعا لماحا في ملاحظاته ، وتتعارض فلسفته مع فلسفة سيده الذي يؤمن بالحرية الانسانية . ويرفض جاك فرض الحاكم الحر .

وهو يتبع القائل الذي يعد من مريدي سبينوزا . وقد تعلم من تجاربه ان الحرية زائفة . إذ أن « الأسطوانة الكبرى » فقط يمكنها ان تقرر سير الأحداث التي تبقى اسباب وجودها وسيرها غامضة وليس للانسان أي تأثير عليها .

واسلوب جاك على النقيض من سبينوزا مادي :

« كان العالم المادي والمعنوي يبدو لديه فكرة عقيمة خالية من أي معنى » (٥٠)

فالمادة هي الموجود الوحيد بالنسبة لجاك على حين يؤمن سيده بخلود الروح ووجود الله والشیطان . وفي مناقشة له عن الحسية يرفض جاك الأفكار الغريزية والفطرية فالمعرفة بالنسبة له مصدرها الاحاسيس والذاكرة . :

« كان يحاول اقناع سيده ان كلمة الألم خالية من كل فكرة وانها تكتسب معنى في اللحظة التي تذكر فيها الذاكرة بأحاسيس اعترتنا أو خالجتنا من قبل . » (٥١)

غير ان هذه التأملات الفلسفية تقع في مجال شعبي وفي اطار قريب نسبيا من الريف الفرنسي في القرن الثامن عشر . فرواية جاك القدري (Jacques le Fataliste) تمجد جذورها الى الحياة الواقعية واليومية في الحقبة التي تدور فيها كما رأينا من قبل ، كما أن الوقائع الاجتماعية والسياسية تحتل فيها مكانة هامة .

هذا التمزق بين طريقة التفكير (المناقشات الفلسفية) وغط الحياة (فرنسا في القرن الثامن عشر) تصبحه سخرية تصل الى حد الاسفاف لنلاحظ بادیء ذي بدء تغليب وجود الجسم والوظائف المتعلقة به ، فغالبا ما يكون محور الموضوع العظم أو الساق والركبة والأجزاء الدقيقة المتصلة بها .

—Oeuvres Romanesques, p. 670.

(٥٠)

—Oeuvres Romanesques, p. 509.

(٥١)

فالجسم كمبدأ حيوي يعرض ويوصف فهو مانح الانسان حركته وديناميته ومستقبل لأكثر الأحاسيس تنوعا ، ومن هذا تظهر أهمية الحقيقة المادية للجسم وتدعم الفسيولوجية الفرضية المادية . وترجع الصورة لبعض الشخصيات الحقيقية والخيالية في الرواية الى سخرية خالصة فراهب القرية نوع من الأقزام أحذب ذو أنف معقوفة لجلاج وأعور كأقرب ما يكون الى الشخصيات الخرافية .

فحين يشفى جاك من جرح ركبته يفكر في العاجزين وذوي العاهات لخوفه من البقاء معوقا . ونجد في الرواية أيضا وصفا طبيعيا للطبقات الدنيا فعلى حين يمضي جاك وسيد الليل عند بائعات الهوى تعترض رجل الدير هديسون :

« إحدى هذه المخلوقات التي تستجدي المارة » (٥٢)

وتكون الوظائف الجسمية في رواية « جاك القدرى » (Jacques le Fataliste) نوعا من اللزمات وهي عودة الى المرحلة الفمية (لذة البلع) فالطعام والعشاء والالتهام معان تتردد كثيرا في النص . كل شيء يصلح ذريعة لاحتساء الخمر ، الأمر الذي يتم معه في سر تغير ملامح الشارين .

وتخلق حالة المثالة جوا من الغبطة الجماعية يسقط الفواصل الاجتماعية كما في الكرنفال . فجاك لا تفارقه قنيتته يرتشف منها رشفة ثم يساء لها .

وكثيرا ما يمتدح جاك الخمر ويتغنى بمزاياها ممجدا ديونيزوس آله الخمر ، فالخمر قادرة على تقريب رؤيتنا للعالم من السخرية وهي رمز الحقيقة السافرة التي يتغنى بها هذا المتعبد .

وجو الحرية هذا يقويه ويدعمه هذا النوع من العلاقات اللفظية التي تفرض نفسها بفقدان التدرج والمسافات بين الأفراد في الكرنفال ، فلا حائل يقف أمام أقاصيص ولغة العامة . كما يظهر على السطح كلمات جديدة أخفتها الذاكرة ولم تنسها . وينقطع الخيط بين منطوق الكلمات ومسمياتها . ويظهر السباب وغلظ القول بدون حرج ، فالسيد يقذف بتابعه للشياطين ويطلق على جلاده لفظ كلب لاعنا جاك . . الخ ولا يحكم عدم التناسب الدائم والمستمر العلاقات التي تربط بين شخصيات الرواية فحسب بل والقيم المطلقة أيضا كالخير والشر ، الحقيقة والخيال التي تربط بصورة وثيقة في روايتنا هذه .

وتظهر لنا أعالي الأشياء وأدناها في صورة متعددة فهي حين تدور المناقشات الفلسفية المجردة في اطار حقيقي ملموس نجدها تختلط بوظائف جسمية لفظية أو بكلمات مبتذلة .

ويسود جو عام من البهجة يشغل المساحة الكرنفالية . فأصداء الضحكات تدوي وهي ضحكات صادقة مرحة يشوبها بعض اللغز والسخرية ولما كان الضحك إحدى ركائز الكرنفال فاننا نجد في الرواية أساليب وطرق لإضحاك متعددة ترمي مجتمعة الى ابراز هذا « الضحك الواعي »^(٥٣) الذي يشير اليه أحد نقاد « جاك القدري » (Jacques le Fataliste) ويكسوقائمة اسماء الاعلام في القصة طابع التهريج والتهكم . لنذكر على سبيل المثال اسم التابع الذي يثير عدة تعليقات ، فالاخ جان (Jean) شقيق جاك يصحبه في رحلاته واسفاره الأخ ملاك Ange كذلك يصعب التمييز بين الشخصيات التي تحمل اسم جازون (Jason) وهو اسم ذو معنى مما يؤدي الى اللبس وهو أحد مصادر الضحك في الرواية ويقدمهم جاك بهذه الكلمات :

« كانوا باعة متجولين . كان لجدى جازون عدة أبناء ، كانت اسرة جادة يستيقظون في الصباح ويرتدون ثيابهم ويلهبون الى اعمالهم ثم يعودون ويتناولون عشاءهم . كانوا يعودون دون أن ينبسوا ببنت شفة »^(٥٤)

لا يمارسون فقط مهنة واحدة ولكن يعملون كالرجال الآليين بحيث يصعب التمييز بين الواحد والآخر . وكأنما يؤدي التشابه في الأسم الى تشابه في الأفعال والحركات مما يضيف عليهم طابع الفريق المؤدي لرقصة واحدة . ويتكرر اللبس مع والد جاك الروحي فكلاهما يسمى « العجيب » .

ومن الاستهانة والاحتقار والتهيثوات أيضا الضحك . ففي واقعة نيكول على سبيل المثال تندب المضيفة نيكول التي وقعت في برائن اثنين من نزلاء الفندق اساءا معاملتها ، يكتشف القارئ بعد أربع صفحات وعلى أثر سؤال لجاك عن عمر نيكول ورد المضيفة بأنها لم تتجاوز العام والنصف ، ان الحديث يدور حول كلبة صغيرة وفي سرقة حافظة نقود جاك نجد ان جاك بعد ابلاغه الشرطة على السرقة يسترد حافظته ولكنها خالية ، فالقاضي قد أعطى ما بها من نقود للساقة التي ادعت ان هذه النقود كان جاك قد اعطاها اياه لقاء خدماتها الجلييلة .

(٥٣) Robert Loy, Diderot's determined Fatalist. King's Crown Press (Jacques le Fataliste) Columbia University, New York, 1950, p. 127 — رواية نقدية لرواية

— Oeuvres Romanesques, p. 606.

(٥٤)

ويضبط الناس السيد الذي خدعه القديس أوين (Ouin) متلبسا مع أجاثا ، ويصر دو العقل الغليظ غير الثاقب بعد رؤيته لصانعة الحلوى مع عشيقها انه ما كان يمكن ان يكون غير زوجها :
« صانع الحلوى هو الذي يشاركها فراشها »^(٥٥)

ونجد أيضا ان بعض المواقف منشؤها الملهاة والدعاية بهذا النوع من الضحك يشبه في سخريته ضحك الحكايات الشعبية فالمضيف تغرق وجهه جاك بمحتوي الزجاجات التي تفتحها وديجلان (Desg- lands) يغمر بالبيضة التي كسرها في يده . وجه غريمه والقصة مليئة بالحركات المضحكة التي تعود في أصولها الى حركات الملهاة ، فالفلاحة يدفعها زوجها فتسقط بطريقة تثير الضحك .

وينزع جاك أكثر الشخصيات تهريجا سزج الجواد ليسقط سيده الذي ينتقم بدوره ويضرب جاك ومن ناحية أخرى نجد أن الحركة تبرز الهوة بين سبب غضب جاك واثره .

فجاك يطلق مسدسه لينتقم لشرفه من المحتالين الذين قدموا له طبقا به العظام المتبقية من طعامهم ونهاية هذه القصة لا تقل تهريجا عن بدايتها فجاك يسلبهم ملابسهم بعد اجبارهم على خلعها وعلى الاستغراق في النوم . والحدث الحزين يصبح احيانا مصدرا للضحك كتلك المرة التي : « انتفضت المضيفة واقفة ووضعت يديها في خاصرتها ناسية انها كانت تحمل نيكول وسقطت تلك الأخيرة مذعورة تتخبط في وثاقها وظلت تنبح واختلطت بنباحها صيحات المضيفة وضحكات جاك »^(٥٦)

لتسود الفوضى عارمة فلا يمكن التمييز فيها بين الصرخات والضحكات والنباح ، ونصبح هذه الفوضى مصدرا عاما للضحك .

وتكثر المداعبات اللفظية المتنوعة التي تسر القارئ وتثير ضحكه جاعلة من رواية « جاك القديري » (Jacques le Fataliste) عملا مضحكا وساخرا وكثيرا ما تظهر تلقائيا بعض العبارات الغريبة في الأحاديث والخطب لوبللوته (Le Pelletier) على سبيل المثال يضرب اوبورتو (Auber tot) وهو يستجدي الناس من أجل فقرائه ولا يتمالك هذا الأخير نفسه فيصفعه ويرد لوبللوته من فوره :

— Oeuvres Romanesques, p. 586.

(٥٥)

— Oeuvres Romanesques, p. 499.

(٥٦)

« هذا نصيبي فأين نصيب فقراي » . (٥٧)

وحين تمل الطبية التي تعالج جاك من الاصرار على أن يتناول مريضها شوائه بالسكر تصرخ قائلة :
« ليكن سوف يكون اذن من نصيب أولادي ومن نصيبي » (٥٨) وتختلط الاجابات والردود السريعة
أحيانا بالوقاحة فعندها يسأل الناس جوس (Gousse) عن اخبار ابنه الذي يتمتع بعينين جميلتين
وقوام ممتلئ وبشرة صافية يصدم جوس سائليه قائلا بدون مقدمات :

« على ما يرام أفضل كثيرا من غيره . . لقد مات » (٥٩) فجوس من الشخصيات التي تحب اللعب
بالكلمات . وحديثه يشبه أحاديث شخصيات مولير . ويبرز المؤلف ذلك بنفسه فالغاية الحقيقية من
المعنى كثيرا ما تبدو وتظهر لتصبح مصدرا للدعاية . .

فلو كان قد حظى بزوجة تشكو « أطفال ثلاثة على عاتقها لرد عليها من فوره » اتركهم من على
عاتقك » (٦٠) ويحمل صاحب الفندق ملامح شخصيات مولير فهو لغضبه من استضافة زوجته لجاك لا
يكف عن ترديد عبارة واحدة .

« بالله ماذا كانت تفعل أمام بابها » . (٦١)

وتضاف السخرية الى العبارات الهازلة وتظهر على مستوى الكلمات والتكوين الروائي وبذلك
تتضمن القصة سخرية على سخرية فالراوي لا بد له من مستمع . والكتابة التي تصل من خلالها
الرواية يكون الراوي فيها مؤلفا والمستمع قارئاً .

وبالتالي لا يمكن للقارئ المستمع خلال هذا الدور المزدوج أن يبقى سلبيا وفي « هذا ليس
بقصة » (Ceci n'est pas un conte) لنفس الكاتب نراه يدرس العلاقات بين الراوي
والمستمع فيقول :

« حينما نروي حكاية نفترض مستمعا نتوجه اليه الا انه حينما تطول الرواية بعض الشيء فمن
الصعب الا يستوقف المستمع الراوي أحيانا » (٦٢) وتصبح مشكلة الراوي الأولى هي العلاقة بين
الراوي والمؤلف وفنه فهو يفكر في عمله الأدبي ونحن كقراء نكون أمام عمل يتكون ويفضح الخدع في

— Ibid., p. 546.

(٥٧)

— Oeuvres Romanesques, p. 546.

(٥٨)

— Ibid., p. 554.

(٥٩)

— Ibid, 553.

(٦٠)

— Ibid., p. 507.

(٦١)

— Oeuvres Romanesques, p. 793.

(٦٢)

الأعمال الروائية ونصبح أمام سخرية من الشكل ومن المعنى الذي يظل دائما مثار الأسئلة والذي قد يقضي عليه .

ويوصي المؤلف بأنه يريد اشباع وارضاء قارئه وخدعته فهو يستمر بأحداث روايته كما يحلو ويجعل منا نحن القراء ضحايا كما يجعل من المفاجأة وسيلته . فحين نحذر وجهته ونتكهن بها عن مساره بغير خطته تماما مثل جاك الذي يظن ان كل شيء مكتوب في الورقة الملفوفة . فالمؤلف لديه خطته وحبكته الروائية معدة حتى وان بدا لنا أنه يخلط بين الأحداث أو يوقفها حيناً ويجعلها تستمر حيناً آخر

وتوضح لنا ذلك العلاقات بين الراوي والشخصيات ، وذلك من خلال موضوعية الراوي الذي يستخدم أكثر اشكالها شيوعاً في النصوص وهو استخدام ضمير الغائب « فرجاءك من يدي سيده وكان يبدو على وجهة ونبرة صوته الصدق لدرجة أن . . (٦٣) » والراوي يعلق على الأحداث وعلى أقوال أبطاله بأكثر الطرق محايدة وبدون أدنى تدخل منه كقوله « كان كلاهما على حق » .

غير انه يحدث ان يتحول الراوي الى بطل بدوره ويصبح ذا وجود مادي ملموس مثلهم يشاركونهم مغامراتهم ويشهدوا معهم .

« سمعت المضيف يصرخ من زوجته يا الله ماذا كانت اذن فاعلة عند بابها » (٦٤)

هذا التحول غير المحسوس من الغائب الى المتكلم تمكنه من مشاركة شخصياته حياتهم والاختلاط بهم مطالباً بحقوقه كمؤلف شاهد على مايرويه من أحداث . فالقصص يصير على ان تؤخذ ذاتيته في الاعتبار وهو بهذا يكشف عن خدع الأعمال الروائية وهو يتدخل مشوها حوار شخصياته : فكلمة (Engastrimute) من وحي افكاري اما الكلمة في النص الأصلي فهي (Ventriloque) (٦٥) ومعناها المتحدث من بطنه .

وهو بهذا يضع نبرة على وجود المؤلف الذي لا يمكنه الظهور الا من خلال مخلوقاته وتزخر القصة في هذا الشأن باعترافاته . فهو يتحمل مسئولية الكلمات الغريبة كالحائف من الماء على سبيل المثال : (Hydrophobe) ؟ جاك قال (Hydrophobe) ؟ لا يا قارئى لا . . أعترف انها ليست منه ولكن بقسوة النقد هذه التحداك ايها القارئ تقرأ حواراً واحداً في أي عمل ملهاة كانت أم مأساة بلغت درجة جودته بدون ان تقع عينك على كلمة للمؤلف في فم أحد شخصياته » . (٦٦)

— Oeuvres Romanesques, p. 500.

(٦٣)

— Ibid., p. 507.

(٦٤)

— Ibid., p. 719.

(٦٥)

— Oeuvres Romanesques, p. 762—763.

(٦٦)

وقلب دور الراوي يتم عن طريق السخرية . فالمؤلف الراوي موجود وغائب على التوالي يظهر ثم يختفي ويعلن عن نفسه ثم يتوارى فقد أخذ على عاتقه ان يروي لنا حكايات هوبادتها غير انه سرعان ما يعطي الكلمة لرواة آخرين كجاءك أو سيده أو المضيفة أو الخلاق ؛ ويجد القاريء نفسه بين عدة رواة وهو اسلوب لا يطمئنه . ويذهب المؤلف الى أبعد من ذلك فهو يقترح على قارئه بثقة متناهية أن يكون مؤلفا بدوره وهو يسخر منه ويضلله ليمسك من جديد بمقاليد النص وكثيرا ما يرهق المؤلف الراوي نفسه فهو يرتب بدقة متناهية لكل شخص مكانها :

« السيد الى اليسار مرتديا طاقية نومه ورداءه مستلقيا بتكاسل على مقعد وثير ومنديله ملقى على المقعد وفي يده علبة نشوقه . والى الخلف المضيفة في مواجهة الباب قريبة من المائدة وأمامها كوبها . جاءك بدون قبة الى اليمين مرتكز بمرفقيه على المائدة مطرق الرأس بين زجاجتين إفترش اثنان على مقربة منه الأرض » . (٦٧)

هذا الوصف المفصل يدعو القاريء للدهشة فالراوي لم يكثرث على حد الاطلاق باعطائه هذا الفيض من التفاصيل عن مسرح الاحداث أو وصف الأحداث واطارها أو وصف لأحاسيس شخصياته الخ . .

وهو يفسر رفضه هذا حتى لو أدى ذلك الى ان يخيب ظن قارئه : « اذا ظهرت لي قليلا من الامتنان لما أقوله فاحفظني لي بالكثير لما لم أقله » (٦٨)

ويبدو من هذا أن كل محاولة من جانب الراوي للافصاح عن ذاته والمثول في روايته تقابلها رغبة مضادة في الاختفاء .

ويصبح قارئه أيضا مستمعا له يوافقه حيناً ويعارضه حيناً آخر . وهو يعبر عن ذاته بكافة أنواع الاعتراضات وهذا القاريء وفقا لهوى المؤلف موجود ابتداء من الصفحات الأولى غير ان مهمته لا تقتصر على كونه قارئاً فهو مخاطب له دور في النص وجانب من الحوار يشارك به في إعادة بناء الجوال العام للرواية وهو ليس بالشخص السلبي المتقبل لكل ما يقال له ، فالكاتب يتحدث الى ذهن حاضر للنقد يشير ويثار .

وعلى غرار السيد الذي يخطئ في تكهناته واستقراءاته نجد أن القاريء يغربه أكثر من مرة . وبلغت الكاتب نظره لذلك ويقوم نيابة عنه برأب الصدع وتصحيح الخطأ وتكثر الاصطلاحات التي تبرز قرب

— Ibid. p., 622.

(٦٧)

— Oeuvres Romanesques, p. 499.

(٦٨)

وقوع القاريء في الخطأ كقوله « سوف تعتقد » سوف تقول « وكما أبرزنا ذلك من قبل فالقاريء هذا مستمع ومخاطب في آن واحد .

هذه العباران تظهر في النص كالألزمة ، والقاريء ليس كالسيد في ارتكاب الأخطاء فقط وإنما يحافظ وتقليدي مثله . فهو يطالب الراوي « بالحقيقة » ولا شيء غيرها لادراكه ان هذا الأخير يميل الى تشويه الأحداث والمبالغة فيها .

وتتضح محافظة من اخلاقيات متمثلا باخلاقيات القرن الثامن عشر نجده يدين سلوك مدام لابومريه لما دبته من انتقام قاس ، ويلتمس العذر للمركيز ديزارسيس في خداعه لها ولكن يلوم عليه زواجه من بائعة هوى .

ويحظى القاريء بحرية زائفة وتتوطد صداقة بينه وبين الراوي ، فهذا الأخير يقيم معه حوارا ذا نبرة هادئة مطمئنة مألوفة . فهو يحترم رغباته ويسعى لارضائه وي طرح عليه اسئلة يستنبط منها رأيه : - « اترغبون في الذهاب اليهم لم البقاء معي ؟ » (٦٩)

وأحيانا يمثل لرغباته الملحة فيما يطالبه بسرد قصة فهو يقص عليه على سبيل المثال قصة الشاعر بوند بشيري (Pondichery) ويذهب الى حد الاعتذار عن فجوة في النص توقعا منه للايضاح الذي يحق للقاريء طلبه . كما يشير من بعيد أو قريب الى بعض الأحداث لأنها لم تطرأ على باله . والى جانب هذا كله يطالب الراوي بحقه بطريقة غير ملفتة في بادئ الأمر فهو يجعل القاريء مطمئن الجانب ومن ناحية أخرى يسلبه هذا الاطمئنان .

« أنت ترى أيها القاريء كم أنا مفضل ولا رجعة الى غيري في . . . » (٧٠)

ومن هنا تنتفي صفة الامتنان بالجزء الثاني من العبارة . فسطوة الكاتب تمارس تحت قناع الكلمات . فالرواية لا وجود لها بدونه فهو يوصلها الى الغاية التي تحلو له وهو يوفر للقاريء عدة امكانيات فيما يختص بسير الأحداث ويحرمه منها في الوقت ذاته . :

« من أي نقطة بداية نختارونها لمسارهم ما كانوا ليسيروا عشرين خطوة » (٧١)

وهنا ينزع الراوي قناعه ويواجه قارئه صراحة بأنه كثير التساؤلات ويرفض إرضاءه . فحين يرغب القاريء في معرفة نهاية مطاف قافلة القائد جاك يعقب عليه في حدة « برب السماء أيها القاريء أعلم

— Oeuvres Romanesques, p. 555.

(٦٩)

— Oeuvres Romanesques, p. 551.

(٧٠)

— Ibid., p. 515.

(٧١)

أحد وجهته (٧٢) « ولا يقف عند هذا الحد نقد ينصاع لرغبة القاريء ويحييه على أسئلة يكون قد رفض الخوض فيها من قبل . ولم يتم ذلك بغير تهكم منه وهو يمضي في النص بأكثر الطرق مناقضة لأداب السلوك . فحين يضغط القاريء عليه ليعرف وجهة جاك وسيده يحييه قائلا :

« أين ؟ يالك من قاريء فضولي وفيم يهتك هذا الأمر ؟ ان كانت وجهتهما بونتوازا وسان جرمان هل يفيدكما هذا في شيء ؟ فإذا ما أصررتن سأقول لكم كانا يقضيان الى . . . نعم ولم لا ؟ الى قصر رحيب » (٧٣) ويثير القاريء حنق الراوي الذي يقف حجر عثرة أمام اعتراضاته فحين يعترض القاريء على اختيار اسم « عجيب » يغضب الراوي ويويخه بحدة :

« بريك هل هناك ذوق في اختيار اسم شخص ؟ فالشوارع تعج بكلاب الحراسة التي تدعى « بوميه » دعوا عنكم اذن هذه الرقة المصطنعة » (٧٤)

ويذهب الى أبعد من ذلك فهو يستعذب إثارة دهشة القاريء البورجوازي المحافظ فهو يقص عليه ما لا يتوقعه ويسمعه من الألفاظ ما يأبى سماعه .

والقاريء ليس مخطئا فحسب وإنما أيضا محل نقد وحكم وهو يجد نفسه شيئا فشيئا سجيناً لتناقضاته الشخصية وسجيناً لطبيعته نفسها :

« أينما وليتم وجوهكم فأنتم مخطئون » (٧٥)

وتعود جدلية السيد والعبد للظهور هذه المرة على مستوى الانتاج والخلق والابداع الروائي . فالراوي يرفض اتباع القاريء ويجعل منه ضحيته ولا يستحي من تضليله مهما بدا ذلك متناقضا . كل ما يهم أن تبقى للراوي اليد العليا وتستمر علاقة السيادة والنفوذ على القاريء لصالحه .

وفي ختام القصة يترك الراوي للناشر الحلبة ليختفي الى غير رجعة ولكن اليس الناشر هو الراوي والمؤلف الذي يسخر مرة أخرى من قارئه ما دام يسترسل في السرد ابتداء من القصر ذلك المكان الرمزي .

(٧٢)

— Ibid., p. 537.

(٧٣)

— Oeuvres Romanesques, p. 513.

(٧٤) تقع المقارنة هنا في تسمية الكلاب باسم القائد الروماني الكبير بومبيوس .

— Ibid., p. 702.

(٧٥)

— Oeuvres Romanesques, p. 714.

وتتوالى الضحكات ليعود الكرنفال كأجل ما يكون وتستمر السخرية الى ما لا نهاية وكما يلاحظ « كيمبف » :

« لا يستولي القاريء على العمل الأدبي ويتمكن منه وإنما يحدث العكس . فالقاريء لا يلعب دورا في القصة وإنما هو مقيد يلعب به وهو لا يشترك بل يقتسم مع الشخصيات مآسيها مستعبدا مضطهدا . (٧٦) »

يوفر الكرنفال في النهاية حلا مناسباً للهيكل الروائي في « جاك القدري » (Jacques le Fatale) liste والكرنفال كمسرح للأحداث يقدم مكانا مميزا لتطورات « المجنون » الذي يزعج الناس بوجوده ويربك نظام العالم في الوقت الذي يضيء عليه شيئا من العمق .

وزمرة الشخصيات المتعددة تتطور على هذا المسرح وتجد وحدتها في غرابتها . ويطلق تأثيرها للابتكار العنان .

هذه الشخصيات المتمتعة بحرية قصوى في التصرف والحركة تتصرف على نحو يناقض المنطق المعتاد فالذي يحكم العالم الذي خلقه المؤلف منطق الكرنفال ، وسيطر عدم التناسب على العلاقات بين الشخصيات الكرنفالية وهو يعكس بدوره تنوع خبراتهم ويدور حول محاور ثلاثة متكاملة أولها يثبت حقيقة وجود جدلية السيد والتابع التي تحكم العلاقات بين جاك وسيدة .

ويتصرف جاك القدري كرجل حر بينما يتصرف سيدة الذي يؤمن بالقدرة غير المحدودة كرجل آلي . أما ثاني هذه المحاور الذي يعد سندا للقناع فهو يكشف ازدواجية الدور الاجتماعي المليء بالكذب واللبس وتأرجح ذاتية الشخصية ، فالقناع رمز للازدواجية الانسانية التي يتخوف منها . أما المحور الثالث فمن خلاله تصلنا رسالة الرواية الساخرة وهو يخدم الوصول الى حقيقة الشخصية وتواكب الموضوعات الفلسفية الموضوعات العادية .

وتسود الكرنفال الحرية ، فقواعد لغة غير معمول بها وتخلص سذلك الشخصيات الكرنفالية من التعقيدات اللغوية .

والخدع تستخدم كحجر زاوية للرواية وتعج بها كافة المواقف الكوميدية والخطوط . ويختلط النقد بالتهريج خاصة على مستوى كتابة الرواية الأمر الذي يضع البناء الروائي ذاته موضع التساؤل .

ويعد هذا العمل مشاركة في « الضحك الجماعي المتجدد ودعوة للتفاؤل وتتنصر » المعرفة البهيجة ، داخل حرية غير محدودة تسود العالم . وتتبدد الرؤية المهزوزة التي تبدو سائدة للوهلة الأولى .

وهكذا يحكم موضوع الارتحال ، وهو موضوع اساسي في أدب القصة كما يقول ميشيل بوتور (Michel Butor)^(٧٧) ، هيكل الرواية محل الدراسة ، فهذه الفوضى الظاهرية وهذه الدوامة من الأحداث التي يخلقها تستعيد توازنها بواسطة السبر ويسير تتابع الأمكنة غير محددة من قبل والتي تمر بها الشخصيات وفق خطة زاهرة بالمعاني .

BIBLIOGRAPHIE

I. ETUDES

ALYN Marc, **Le Diderot de Bores**, Uzès, Editions du salin, 1975.

BAKHTINE Mikhail, **La Poétique de Dostolevski**, traduit du russe par Isabelle Kolitcheff, Présentation de Julia Kristeva, Seuil, 1970.

L'oeuvre de Francois Rabelais et la culture populaire au Moyen Age et sous la Renaissance, traduit du russe par Andree Robel, Gallimard, 1970.

BATLAY Jenny et FELLOWS Otis, " De l'amour ou des amours dans **Jacques le Fataliste** ", dans **Melanges Wade**, Geneve, Droz, 1977.

BRISSENDEN R. F., **Virtue and distress : studies in the Novel of sentiment from Richardson to Sade**, New York, Barnes & Nobe, 1974.

BUTOR Michel, **Repertoire II**, Editions de Minuit, Collection " Critique ", 1964.

Repertoire III, Editions de Minuit, Collection " Critique ", 1968.

CATRYSSSE J., **Diderot et la mystification**, Nizet, 1970.

CHOUILLET Jacques, **Diderot**, Societe d'edition d'enseignement superieur, 1977.

" Sens, contre—sens et non—sens : l'allegorie du chateau dans **Jacques le Fataliste** " dans **Melanges Wade**, Geneve, Droz, 1977.

La Formation des idees esthetiques de Diderot, 1754—1763, A. Colin, 1973.

DERRIDA Jacques, **De La Grammatologie**, Editions de Minuit, 1967.

DIECKMANN Herbert, **Cinq lecons sur Diderot**, Geneve, Droz, et Paris, Minard, 1959.

FABRE Jean, " **Sagesse et MORALE DANS Jacques le Fataliste** " dans **Melanges Besterman**, St. Andrews, Oliver & Boyd, 1967.

FONCK Gonthier, " **Schiller et Jacques Le Fataliste de Diderot** " dans **Hommage a Maurice Marache**, les Belles—Lettres, 1972.

FOUCAULT Michel, **Histoire de la folie a l'age classique**, Gallimard, Bibliotheque des Histoi- res, 1972.

Gandon Yves, **Du Style classique**, A. Michel, 1972.

- HEGEL, *Philosophie de l'esprit*, traduction Vera, Germer Baillere, 1867.
- Huet Marie—Helene, *Le heros et son double. Essai sur le roman d'ascension sociale au XVIIIe siecle*, Librairie Jose Corti, 1975.
- KEMPF Roger, *Diderot et le roman ou le demon de la presence*, Seuil, 1972.
- LEFEBVER Henri, *Diderot*, Editeurs francais reunis, 1949.
- LEWINTER Roger, *Diderot ou les mots de l'absence*, Editions du Champ Libre, 1976.
- LOY Roger, *Diderot's determined fatalist. A critical appreciation o Jacques le Fataliste*, New York, King's Crown Press, Columbia University, 1950.
- MAY Georges, *Quatre visages de Diderot*, Boivin, 1951.
- PARIS Jean, *Rabelais au futur*, Seuil, 1970.
- POULET Georges, *Etudes sur le temps humain*, Plon, 1953.
- PROUST Jacques, *Lectures de Diderot*, A. Colin, 1965.
- PRUNER FRANCIS, *L'unite secrete de Jacques le Fataliste*, Minard, 1970.
- SMIETANSKI J., *Le realisme dans Jacques le Fataliste*, Nizet, 1965.
- TODOROV Tzvetan, *Theorie de la litterature*, Seuil, 1965.
- WALTER Eric, *Jacques le Fataliste de Diderot*, Hachette, Collection " Poche Critique ", 1975.
- WEISZ Pierre, *Incarnation du roman. La realite et les formes*, St—Aquilin de Pacy, Mallier, 1973.

II. ARTICLES

- ARASSE Daniel, " L'image et son discours : deux descriptions de Diderot ", in *Scholies*, 1973—1974, pp. 131—160.
- BATLAY Jenny et FELLOWS Otis, " Diderot et Sade : affinites et divergences ", in *L'Esprit Createur*, Winter 1975, pp. 449—459.
- OROGYANYI Gabriel, " The Funioararration in Diderot's Jacques le Fataliste ", in *Modern Language Notes*, May 1974, pp. 550—559.
- BUFFAT Marc, " La Coincidence ", in *Communications* 19, 1972, pp. 6—18.

بين الفن والتاريخ يأخذ التراث الاسلامي مكانته كحقيقة منبثقة من دوافع القيم الروحية والموضوعية التي تؤكد وجود الانسان المسلم في الزمان والمكان . واذا كان هذا التراث قد اندفع الى الوجود عن طريق العقل والوجدان فقد سبقتهما في ذلك « اليد » التي أبدع الله تكوينها وصاغ شكلها ، وأودع أطراف أصابعها سر الوجود وحقيقة الحياة ومستقبل الانسان . وهذه « اليد » كالقلب والعقل ذكرها الله في محكم كتابه في مائة وواحد وعشرين آية ، جاءت متفرقة في العديد من السور القرآنية (١)

وتأخذ حقيقة « اليد » كما خلقها الله فيما تأخذ لتكون صانعة لاستمرار الانسان ودوامه ، ومكونة لحضارته وممهدة لوجوده ومثبتة لحياته على هذه الارض كأرقى المخلوقات ، وهي وحدها لا العقل والوجدان التي عبرت عن حقيقته الاولى ، حيث استطاع بها في دورة من دورات وجوده ، أي منذ عرف باسم الانسان المنحني PITHECATHROPUS الذي عاش على هذه الارض منذ آلاف السنين ، أي منذ العصر الجيولوجي الثالث ، المعروف باسم البلايستوسين المتأخر حيث عملت هذه اليد في اشعال النار واستعمال الادوات - المستمدة من الاحجار والعظام وفروع الاشجار - وهي التي

الخط العربي بين الفن والتاريخ

محمود حلي

(١) محمد فؤاد عبد الغالي : المعجم المفهرست لالفاظ القرآن . ص ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .

تلك اليد البدائية وأضفى عليها خصائص انسانية ، دون تغيير بالغ في شكلها أو بنيتها . . . الا أن « اليد » لم تصبح ذات فاعلية كبيرة الشأن الا بعد أن تطور اللحاء الدماغي البشري ، وبذلك صارت « اليد » تعبر عن اللمسات المميزة للانسان والمتعلقة بالحس والادراك والارادة والعقل » (٢) .

هذه هي البداية الحقة لمفهوم الانسان ، لتتعلق يده لتعمل وتشيد ولتقيم له ما يريد هو أن يقيمه ، فبنت له الاهرام ، وأقامت له المعابد ، ونسجت له الثياب وصنعت له الاثاث ، ومهدت له الطريق وزرعت وجنت ومضت قدما لا تكل ولا تستريح لتقيم للانسان حضارته وترفع من شأنه ليكون سيد الوجود كما أراد الله له أن يكون .

يتداعى بنا هذا المدخل العلمي البحث الى مصادر الفن الاولى حيث نجد في كهف يرجع الى ما قبل التاريخ ، وعلى فراغ جدران مغارة بوادي « سورة » بحلف الكبير بليبيا ، رسما لفنان بدائي يمثل يد انسان كبيرة الحجم يمر من تحتها ثلاثة أشخاص فما هي الدلالة الطقوسية التي حاول فنان هذا الكهف أن يعبر عنها بهذا الرمز ، يذهب تفسيري احتمالا أن هذا الزميل المصور أراد أن يعبر عن أن هذه « اليد » وهي هنا في معناها المطلق هي سبيل الانسان الى الحياة

أخذت به ليرتقي الى عصره الرابع حيث عاش مايعرف باسم « انسان نياندرتال » - NEAN- DERTAL وهو ذلك الانسان الذي صنعت يده الادوات واشعلت النار وانتهت به الى عصره الخامس حيث عرف لأول مرة باسم الانسان العاقل في العصر الثلجي HOMO SAPIENS DILUVIALIS الذي أطلق على عصره الجيولوجي « البلايستين الرابع » حيث عملت يده في أعمال فنية كصناعة الفخار ، والرسم على جدران الكهوف ، وكان هذا العصر هو المهد لعصر « الهولوسين » عصر الانسان العاقل الحديث HOMO SAPIENS RECENS وهو العصر الذي شيدت « اليد » بمهارة أعمالا يدوية لها مفهوم الحضارة في معناها التمهيدي .

ولنضيف الى هذه الخطوات التاريخية التي خطاها الانسان في اعماق الزمان ، حقيقة علمية « تأت لنا من علم » الحفريات التثريجية « الذي ذهب في ان اليد البشرية أقدم من الانسان نفسه فشكلها وبنيتها ترجع الى سنوات لا يمكن التكهن بها ، وهي أي هذه « اليد » تعتبر من حيث بنيتها بدائية غير متطورة ، كما أنها لا تصلح للتسلق ، وفضلا عن ذلك نجد أن يد الانسان أقدم من لحائه المخي ، وكل ما هناك أن تطور مخ الانسان خلال النصف مليون سنة الاخيرة هو الذي بدل

(٢) الكمار لون كوكليج : يد الانسان ليمزه عن الحيوان . مجلة فكر ولن العدد ٣ ص ١٦ المانيا الغربية ١٩٦٣

المنطقة كلها ، وإن هذا التقارب نراه في طبيعة
تجانس العرق العربي وتفاهمه بلغة واحدة ذات
لهجات متباينة يتيسر فهمها رغم اختلاف
المواطن وتباعد البيئات . ونأخذ فيما نأخذ على
سبيل المثال كلمة اللات وهي آلهة العرب قبل
الاسلام أيا كانت مواطنهم ، والتي جاء ذكرها
في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة النجم
١٩ - ٢٠ .

« أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى »
ومناة هذه كانت من آلهة النبطيين وكانوا يطلقون
عليها اسم « منوتو » وكان أهل تدمر يطلقون
عليها اسم « منوت » كما نجد « عبد منت »
عند أهل ثمود .

وعلى هذه الصورة تتميز مجموعة شعوب
الجنس العربي الذي يسمى خطأ الجنس
السامي^(٣) الذي له صفات تشريحية ولغوية
معينة مشتركة « فين اللغات السامية من التشابه
الكبير في الأصوات والصيغ والتراكيب
والمفردات ما لا يمكن معه أن ينسب تقاربها إلى
حدوث اقتباسات فيما بينها في العصور التاريخية
وإنما لا سبيل إلى تفسير هذا التقارب إلا
بافتراض أصل مشترك لها »^(٤) .

وحروف العربية تبلغ ثمانية وعشرين
حرفا ، ذهب بها القدماء أنها جاءت بهذا القدر

ذاتها دون معتقدات ودون لغة وكتابة ، أي
الحياة لذاتها وبذاتها . وتلك حقيقة تشدنا إلى
دراسة تاريخية وتحليلية إلى ما يمكن أن نطلق
عليها « الأنا اليد » التي أخذت مفاهيمها لتكون
دلالة على مصدر ذاتية الإنسان المعقدة ، كما
تدل على وجوده البحث لأنه بها أمكنه أن يقول
« أنا يد فأنا موجود » ، بهذا يتبلور المعنى
الرمزي في صورة كهف « وادي سورة » بحلف
الكبير بليبيا . لتعني أن يد الإنسان تدفع به قدما
وتعطيه الأمل لمستقبل كل الأجيال القادمة .

هذه قصة « اليد » والخط لسان اليد فهي التي
كتبت وابدعت ، وشكلت فنونه . أما قصة
الكتابة فهي قصة الحضارة بنفسها ، نراها في
كل مكان ونجدها أينما أينعت المدنية وازدهر
الرقى ، والكتابة وجدت لحاجة الإنسان إليها ،
تطورت معه ، وارتفعت بارتقائه وأخذت
سبيلها إلى قمته مع تقدمه العقلي والدوقي ،
ولا توجد حضارة أولت فن الخط ذلك الاهتمام
القيم مثل حضارة الشرق الاسلامي .

وقبل أن نتناول بعضا من الآراء التي بحثت
مصادر الكتابة العربية أريد أن أقف عند ثقل
موضوعي قد يكون له أهمية ذات شأن في تقارب
اللغات وتشابه أبجديتها التي كانت سائدة في

(٣) ليس هناك ما يسمى بالجنس السامي أو الشعوب السامية إنما الكلمة اصطلاح حديث خرج علينا به الأستاذ شلوتزو وقصد بها الشعوب التي تسكن الجزيرة العربية ومنطقة
الرافدين والشام الكبرى وسيناء .

(٤) سبتيو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة . ترجمة د . سيد يعقوب بكر ص ٤٤ : القاهرة بدون تاريخ .

والعرب من أهل الجنوب كانوا يعبدون هذا الإله الذي مازالت أطلال معابده قائمة حتى الآن في « الحريصة بحضرموت » . وإذا أخذنا كل هذا وربطناه بطبيعة الصحراء التي تشكل المحافظة المطلقة على الجنس واللغة والعادات والمعتقدات ، فالأمر يذهب بنا إلى مضمون اللغة وحروفها إنما كانت لها دوافعها الطبيعية في الوسائل والغايات التي لا علاقة تربطها بالخط المسماري السومري الأكادي ، ولا بحروف المسند الذي يحدثنا عنه ابن خلدون فيقول « وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغته في الأحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباً التبابعة في العصبية والمجددين للملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين » (٦) .

ولسنا هنا في موضع مقارنة بين الجنوب والشمال أي بين « اليمن » (الجنوب) ، والشام (الشمال) ولكن إذا كانت حروف « المسند » وهو الخط الحميري مختلفة في صورتها عن رسم الحروف الآرامية « العربية الشمالية » ، فاللغة كانت واحدة مثل الأصول

مثل منازل القمر المقسمة إلى ثمانية وعشرين قسماً « ولما كانت المنازل القمرية يظهر منها فوق الأرض أربعة عشر منزلة وينيب تحت الأرض أربعة عشر كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة ، وهي الألف والباء ، والحاء المهملة والهاء المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء والواو والياء المثناة تحت ، وما يدغم منها أربعة عشر حرفاً أيضاً بعدد المنازل الغائبة وهي التاء المثناة من فوق والتاء المثناة ، والدال المهملة والذال المعجمة والزاء والذاي والسين المهملة والشين المعجمة ، والصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والضياء المعجمة والنون والجيم المعجمة » (٥) .

وهذه المنازل القمرية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة يس الآية ٣٩

« وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »

وإذا تناولنا هذا التصور مع مفهوم الشهور القمرية التي أخذوا بها ورجعنا إلى أن الأكاديين وهم سلالة عربية كانوا يعبدون الشمس أبناً لآلهة القمر « سين » وأن البدو الآراميين

(٥) التلغيطي : صبح الاعشى ، الجزء ٣ ص ١٦ ، ١٧ القاهرة ١٩٦٣ والحروف العربية ومنازل القمر ، قد يكون أول من قالها سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة ، انظر ابن التميمي ، القهرست ص ١٠ طبعة بيروت المصرية ١٩٦٤ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧٦ القاهرة بدون تاريخ كتاب الشعب .

لقد أصبحت الحروف الآرامية منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد حروفا للغة عالمية ، فاننا نجد فيما نجد كتابة آرامية عثر عليها في صقارة عن رسالة بالآرامية من أحد ملوك فنيقية ، ووجدت نقوش آرامية قديمة في واحة تيماء شمال الحجاز . . . وقد عثر على بردي آرامي في جزيرة الفنتين بأسوان وعثر في بابل على ألواح للمحاسبة كتبت بالآرامية (١٠) .

ومن الخط الآرامي خرج الخط النبطي الذي كتبت به مملكة « سلع » - البتراء - PETRA النبطية (١٦٦ ق م - ١٠٦ م) ورغم الاختلاف البين في رسم الحروف النبطية والعربية « فقد أثبت البحث العلمي الدقيق أن العرب الشماليين اشتقوا خطهم من آخر صورة من خطوط النبط . . . ولم يتحرر الخط العربي من هيئته النبطية بحيث أصبح خطأ قائما بذاته الا بعد أن استعاره العرب الحجازيون لأنفسهم بقرنين من الزمان وما تزال في الكتابة العربية حتى يومنا هذا في بعض الأقطار وفي كتابة المصاحف بوجه خاص آثار نبطية لم يستطع أن يتخلص منها الخط العربي على طول الزمن » (١١) .

العرقية فأهل الجنوب كانوا من العرب العاربة ، وأن نسبهم كما تتحدث عنه المصادر العربية « متصل باسماعيل بن ابراهيم الخليل كما يحكي هشام بن الكلبي » (٧) فاللغة كانت لغة الشمال وذلك لأن هذا الشمال « الآرامي » كان له تاريخ قديم ضارب في اعماق « المكان » نرجع به على وجه التقريب الى « القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وفي نقش مسماري للملك الاكدي « نرام - سين » - NARAM-SIN يذكر أرض « ايرم » وكانت تقع في الجزء الجنوبي من الرافدين » (٨) و « ارم » ذكرها الله في القرآن الكريم في سورة « الفجر » الآية رقم ٨ ، ٧ « ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد »

وكانت اللغة الآرامية وحروفها قد أصبحت منذ قيام الدولة الفارسية « الكيانية » ACHAEMENIA الذي يسميهم « المسعودي » ملوك الفرس الاولى « لغة الهلال الخصيب » بأسره وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق البردي ، اذ كانت الرقم الفخارية في طريقها الى الزوال شيئا فشيئا (٩) .

(٧) المسعودي : مروج الذهب الجزء الثاني الطبعة الرابعة من ٧٠ القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

(٨) سبتي موسكاتي : نفس المصدر ص ١٧٦ .

(٩) جيمس هنري برستد : انتصار الحضارة ترجمة الدكتور احمد فغري ص ٢٦٦ القاهرة ١٩٦٩ .

(١٠) عبداحميد زايد : نظرات هابرة في العلاقات بين لغات الشرق الاصل القديم

(٢) مجلة عالم الفكر ص ١٧٣ الكويت - وزارة الاعلام .

(١١) ابراهيم جمعه : قصة الكتابة العربية ص ١٧ سلسلة اقرأ ٥٣ .

الجنندل « ومنها جنوبا الى مدينة « مدين صالح » ثم الى « يثرب » لتستقر بعد ذلك في مكة موطن قريش .

وهذه المسيرة لا تستند على أي شواهد أو براهين ، غير ما ذهبت به « نبيه عبود » لتقول : « أنه يبدو من الغرابة لأول وهلة أن الخط العربي الشمالي لم يكن له شأن في الجنوب » (١٢) ولا شك في أنها قد استندت في هذا الرأي على جميع النصوص العربية اينما وجدت خارج الجزيرة العربية الأمر الذي جعلها تذهب في أن هجرة الحروف العربية انما وجدت خارج الجزيرة العربية ، لأنه حتى الآن لم يعثر على أي نقوش أو خربشة تعطينا أي دليل على أن هناك غير المنطقة الشمالية هي وحدها التي تواجد بها كتابات نبطية عربية . وفي ذلك الكتاب الذي أصدرته وزارة المعارف في المملكة العربية السعودية عام ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م تحت اسم AN INTRODUCTION TO SAUDI ARABIAN ANTI-QUITIES وبه إمامه مصورة مقتضبة النص تدل أن مدن « عسير » و « نجران » و « مدين صالح » و « العلا » و « تباه » وغيرها من المدن ، وحيث عثر على خطوط « ثمودية » و « لحائية » و « الصفوية » وهي مشتقة من الخط « النبطي » في صورته « الآرامية » وليس في صورته العربية التي نجد

ولا شك في أن الخط النبطي العربي وهو من خطوط الشمال ، يكاد أن تكون صورته أقرب شكلا الى الخط العربي في شكله المتطور ، الأمر الذي جعل الدارسين لهذه المادة وأصلها ، يذهبون الى أنه الخط الأم أو هو الخط العربي في تصوير مغاير .

والانباط سكان البتراء وهي هذه المملكة التي قامت على مفهوم سياسي لعرب المنطقة الشمالية الذين أقاموا في هذه النواحي وظل سلاطنتهم السياسي قائما أكثر من خمسة قرون جاعلين عاصمتهم مركزا عظيما للقوافل التجارية بين أقصى الجنوب في بلاد اليمن وبين موانئ البحر المتوسط والطرق البرية عبر الاناضول ، حتى ازال الرومان مملكتهم ودمروا عاصمتهم « تدمر » وحملوا ملكتهم العربية اسيرة الى روما .

وأيا ما كان التاريخ فقد ظهرت الكتابة العربية لتحل طبيعيا اينما تواجد العرب في المكان ، ولقد ذهب بعض الدارسين لمادة الكتابة العربية ان جعل مصدرها مدينة « حران » ومنها انتقلت شمالا الى « بصرى » و « أم الجمال » ثم الى « زبد » لتصعد شمالا الى ناحية الشرق حيث مدينة « تدمر » لتسير نحو الجنوب الشرقي حيث مدينة « أنير » ثم « الحيرا » ثم الى الغرب في مدينة « دومات

٣ - بالظفر الى اسوار نجران مدينة شمر وملك ابنائه .

٤ - على القبائل وجعلهم فرسان الروم ولم يبلغ ملك مبلغه .

٥ - الى اليوم . مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول (بالاله) سعد الذي ولده .

ويذهب الدكتور « حسن ظاظا » أن الخط المستعمل في هذا النقش هو الخط النبطي ، واللغة العربية المستعملة تعرضت هي ايضا لتحريفات نبطية وأن « ديسو » و « ماكليز » لا يعتبران هذا النص عربيا ويضعانه في كتابها في الباب الخاص بالنصوص النبطية (١٣) .

وقد نكون أقرب الى الحقيقة اذا قلنا ، اذا كانت الحروف العربية قد جاءت بصورها من الشمال فهي ولا شك قد تبلورت وتشكلت بين « مكة » حيث البيت العتيق والمدينة ، وأن سكان قلب الجزيرة قد تعالوا على غيرهم من الشعوب المحيطة بهم بلغتهم العربية السليمة التي جاء القرآن الكريم ليكون معجزة دين ومعجزة بلاغة ولغة ومعجزة حروف مكتوبة ، لأن الكلمة كانت لديهم صورة رمزية لحروف ينطقونها في سليقة فطرية لا نجد لها نظيرا مطلقا عند أي شعب من شعوب المنطقة بل ولا حتى الكثير من البطون العربية المختلفة ، وذكر لنا « الفارابي » المتوفي سنة ٣٣٩هـ - ٩٥٠م في مقدمة كتابه « الالفاظ والحروف » « لقد كان

نماذجه الاولى على وجه الاحتمال في نقش « النمارة » الذي عثر عليه الاستاذ « رينيه ديسو » R. DUSSAUD شرق « حوران » ونقش « زيد » في جنوب شرق « حلب » ومؤرخ سنة ٥١٢م ونقش « حوران » في « اللجا » مؤرخ سنة ٥٦٨م ، بيد أن أهمها على الاطلاق هو نقش « النمارة » الذي وجد على قبر « امرئ القيس بن عمر » وعليه تاريخ بالتقويم البصري الذي بدأ سنة ١٠٥م ويحتوي على خمسة أسطر :

١ - تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اصر التاج ،

٢ - وملك الاسدين ونزار وملوكهم وهرب محجو عكدي وجاء

٣ - يزجي في حبيج نجرن مدينة شمر وملك معدو وبين بنيه

٤ - الشعوب وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ - عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم بابكسول بلسعد ذو ولده

وأقرب معنى لنقش النمارة قد يكون على هذا النحو :

١ - هذا جسد امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حمل التاج .

٢ - وملك الاسد ونذار وملوكهم وهرب محج لليوم وجاء .

(١٣) الدكتور حسن ظاظا : الساميون والغامم من ١٦٥ وماش من ١٦٧ الاسكندرية ١٩٧١ .

الحروف رمز للفظ واللفظ رمز للفكر ، وتغيير الحروف يشكل تغيير الرموز الامر الذي يؤدي الى خروج الرمز من التجريد الى الواقع وهنا يتشكل الاساس اللغوي عند الشعوب .

ويستقيم منطق الاعجاز لدى اصحاب اللغة العربية ابان جاهليتهم في معلقاتهم ، التي لم يتبق منها غير سبعة أو عشرة على رأى آخر والتي نجد فيها أن التصور العربي الذي أحاط بالكلمة الموزونة يشكل في ذاته قمة اللغة وقمة التصور حتى أنهم كتبوها على « القباطي » بماء الذهب وعلقوها على استار الكعبة ، وأطلقوا عليها « المذهبات » ومنها معلقة امرئ القيس والتابغة الذبياني ، وزهير بن ابي سلمى ، ولييد ، وطرفة ، وعلقمة ، والاعشى ، ومن هذه الحقيقة نأخذ الدليل على استعمال الكتابة ومعرفتهم بها كما يؤكد لنا قول امرئ القيس :
لمن طلل أبصرته فشجاني
وقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهتما
كخطك في رق كتابا منمنما

وأصحاب هذه الاصالة الشعرية والكلمة العربية الموزونة امتد بهم الفهم والمعرفة الواعية الفذة ليسير بهم الزمن قدما الى هذا الحقل الذي

لقريش أجود العرب انتقاء الافصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها ابانة عما في النفس ، وعندهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعندهم أخذ اللسان العربي بين القبائل « (١٤) . ويذهب الفارابي في رأيه هذا بأن اللسان الكامل » لم يأخذ لا من لحم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاة وغسان وايباد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون (بالسريانية) ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم أهل اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا يتقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت الستهم » (١٥) .

ولم يبق غير « قريش » من بين كل العرب في استواء لغتهم ومنهم أخذت العربية التي وجدنا فيها أن الصلة بين الدلالات اللغوية والادراك العقلي هي القاعدة التي يتناولها علم اللغة لتجديد القيم السوية عند الشعوب وذلك لان

(١٤) أ . ليش : المعجم اللغوي التاريخي القسم الاول ص ١٢ القاهرة ١٩٦٧ .

(١٥) نفس المصدر : ص ١٢ ، ١٣ .

وحين جاءت حركة الفكر الاسلامي لتأخذ سبيلها الى صميم الخط العربي لتكون دافعا من الدوافع الرئيسية للتذوق الفني الذي وقع في نفوس المسلمين ايا كانت مواطنهم « تشكيلا رفيعا ظهر واقعه ليصل التركيب الحرفي للفظ مكتوب الى المستوى الرفيع الذي كان عليه التركيب اللفظي المنطوق » (١٧).

وكان لهذا المذاق دوافعه المبكرة عندما تحول العرب الى الدين الاسلامي وعند أول آياته التي نزلت على رسول الله عليه الصلاة والسلام في سورة العلق ١ - ٥ حيث قال الله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »

ومن هنا التزم المسلمون بكتابة السوحي وحفظ القرآن في الفؤاد ، وبواسطة الخط الذي وقع في نفوسهم موقع الالتزام وموقع الحق الامر الذي نجده في اقوالهم « الخط الحسن يزيد الحق وضوحا » (١٨).

والموازنة بين التجويد والمثالية في الكلمة المكتوبة كما هي في الكلمة المنطوقة تأخذ لها آصرة محكمة تربط بين الاثنين وذلك لأن « البيان في اللسان والخط في البيان » ، كما كان يقول عبد الحميد الكاتب ، وعلى هذا النحو

تناوله « الخليل بن احمد الفراهيدي » عبقرى العرب الذي كتب كتاب العين الذي أصبح من بعده بداية للمعجمات الضخمة والقواميس الموسوعية التي لا نجد لها نظيرا أو مقابلا عند أي امة من الامم ، قديما أو حديثا ، وبعد الخليل بن احمد تناول هذه المادة تلميذه « سيويه » ومن ثم أصبحت المعاجم اساسا للفكر الاسلامي اللغوي حيث تدفقت « الجمهرة » لابن دريد ، و « التهذيب » للازهري و « المحيط » لابن عباد ، و « المجمل » لابن فارس و « الصحاح » للجوهري و « اساس البلاغة » للزمخشري و « القاموس المحيط » للفيروزآبادي .

وكان من الطبيعي ان تظهر مثل هذه المعاجم الموسوعية وذلك « لأننا عرفنا اللغة العربية أول ما عرفناها في القرن الخامس الميلادي ، تامة في الفاظها وصيغها وصرفها ونحوها وأوزانها وفي قوة التعبير بها . تلك اللغة لم تزل بخصائصها الجاهلية من كلمات وأحكام وصرف ونحو وتركيب لغة الكتابة في كل صقع نزله العرب فكانوا فيه قاطنا أو مهاجرين الى حين . وعلى الرغم من أن لكل صقع عربي لهجته يتكلمها اهله ، فان اهالي الاصقاع المختلفة يتفاهمون بلغة الكتابة اذا تحدثوا ويفهمونها اذا قهرت عليهم ولو كانوا أميين » (١٦).

(١٦) مجلة الادب والفن : دكتور عمر فروخ ، الثقافة العربية الجزء الرابع ص ٢٠ ، ٢١ السنة الأولى لندن ١٩٤٤ .

(١٧) محمود حلمي : لقاط في مدخل الفن الاسلامي - دراسات أثرية وتاريخية ص ٤٣ مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ١٩٧١ .

(١٨) عبداللهم القرطبي : بهجة المجالس وائس المجالس ص ٣٥٧ القاهرة ١٩٦٢ .

العمل الفني قائما على التجريد التصوري الذي لا سكون فيه بل هو حركة مستمرة متدفقة (٢٠) .

وهكذا ومن أعماق هذا المفهوم الباطني ارتفع الخط العربي الى مستوى الكلمة المنطوقة « لأن الكلمات نفسها موزونة في لغتنا العربية ومشتقاتها تجري كلها على صيغ محدودة الاوزان المرسومة كأنها قوالب البناء المعدة لكل تركيب وفعال اللغة ومنسوبة الى أوزان مميزة في الماضي والمضارع والامر ، وفي الاسماء والصفات التي تشتق منها على حسب تلك الاوزان ، ولا نظير لهذا التركيب الموسيقي في لغة من اللغات الهندية الجرمانية ولا في كثير من اللغات السامية » (٢١) .

« واذا كان امتياز الحروف بالدلالة على الحساسية الموسيقية حقيقة ملموسة لا مجال فيها للمحال فالأذن العربية تميز بين الصاد والضاد وبين الدال والذال ، وبين الحاء والخاء والهاء ، وبين الصاد والسين والشين ، وبين الجيم والعين والغين ، وبين القاف والكاف والحاء ، وقلما يميز الناطقون باللغات الاخرى بين هذه الحروف » (٢٢) .

يحدثنا « القلقشندي » في قوله : « اما الموازنة بين الخط واللفظ ، فالأصل في ذلك ان الخط واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها : من حيث أن الخط دال على اللفظ والالفاظ دالة على الافكار . ولاشتراك الخط واللفظ في هذه الميزة وقع التناسب بينهما في كثير من أحوالهما وذلك لانهما يعبران عن المعاني . الا أن اللفظ معنى متحرك ، والخط معنى ساكن ، وهو وان كان ساكنا فانه يفعل فعل المتحرك بايصاله كل ما تضمنه الى الافهام وهو مستقر في حيزه قائم في مكانه ، كما أن اللفظ فيه العذب الرقيق السائغ في الاسماع كذلك الخط فيه الرائق المستحسن الاشكال والصور » (١٩) .

وحقيقة الحركة هذه التي حدثنا عنها « القلقشندي » في الحيز الساكن اي في الحرف المكتوب المجود ، كانت من الحقائق التي استوعبها الفن الاسلامي وأقام أصوله عليها والذي بها وعند مفهومها الباطني بنى الفنان المسلم واقعية الشكل الخارجي والتزم التحرر في تناوله الفني للاشكال . واعاد رؤيتها من جديد في صورة تركيبية مختلفة عما هو قائم في الطبيعة الموضوعية ، والتي بها أصبح مفهوم

(١٩) القلقشندي : نفس المصدر ص ٥ .

(٢٠) محمود حلمي : نفس المصدر

(٢١) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية ص ١٠٥ السلسلة المكتبة الثقافية ، القاهرة - بدون تاريخ .

(٢٢) المصدر ذاته ص ١٠٨

قد اسقطت على هذه الحروف المكتوبة ، ومن هنا أصبحت الجمالية الموضوعية للحروف العربية تأتي بطبيعتها عند الخطاط المجود « ان تبدأ أولاً بتقويمها مبسولة لتصبح صورة كل حرف منها على حياها ، ثم تأخذ في تقويمها مجموعات مركبة ومتفاوتة القياس والشكل » .

واذا كانت المملكات جميعها وغيرها من الشعر الجاهلي قد كتبت بالذهب على قماش « القباطي » وعلقت على الكعبة فهي ولا شك لم تكتب بالخط العربي النبطي انما كتبت بالخط العربي « المكّي » أو « اليثري » الذي ذهب فيه « البلاذري » « اجتمع ثلاثة نفر من طيء وهم مرامر بن مرة ، واسلم بن سدره ، وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من أهل الانبار ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الانبار ، وكان بشر بن عبد الملك أخو اكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي ثم « المسكوني » صاحب دولة الجندل يأتي الحيرة فيقيم فيها الى الحين ، وكان نصرانيا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وابوقيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلمها الهجاء ثم أراها الخط فكتبا » (٢٤) .

ثم هناك هذه الحقيقة التي تناوها علماء التجويد الذين أتوا برسوم « صوروا فيها الحلق واللسان لبيان مخارج الحروف . والقالب الا يتجاوز ذلك فيها وقد يصورون في حفظها الوجه جميعه ولكن على قلة ، وعندنا شرح للشافعية الحاجبية في الصرف للحسن بن ابراهيم النيسابوري المعروف بنظام ، في اواخره صورة الحلق واللسان والشفيتين لبيان مخارج الحروف » (٢٣) .

وجاء الخط العربي المجود ، جاء ليرتفع الى هذا المستوى الذي تقوم عليه لغتنا العربية ، ولذلك نجد أن الشكل في الخط العربي هو بالضرورة رابطة بين الشعور الانساني والموضوع الخارجي ، أي بين الذات والحروف ، وهذا يعني ان ثمة تكامل قائم قيا بين الحيز والصيرورة ، واتحاد وثيق بين الباطن كجوهر والشكل كمعنى ، على نحو لا نجده في أي فن آخر حتى في الموسيقى والشعر وهما من الفنون السمعية وهو من فنون الرؤية والمكان ، واذا كان « الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى كما يقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، فان الخط المجود وسيلته اليد الشاعرة التي تسمع وترى . وذلك لأن كثافة الحروف قد تلاشت داخل الحيز وان قيا جمالية

(٢٣) احمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ص ٢٥ - القاهرة ١٩٤٢ .

(٢٤) البلاذري : فتوح البلدان - ص ٤٩٥٦ ، ٤٥٧ - القاهرة ١٩٥٩ .

انظر ايضاً ابن النديم ، الفهرست ص ٥ ، ٦ طبعة بيروت المصورة ١٩٦٤ .

ورواية « البلاذري » لا تستند الى أي برهان علمي يمكننا الاستناد عليه ومن هنا لا يسعنا الا أن نأخذ من هذه الرواية . الا أن هناك نفرا من العرب كانوا على بينة من الخط والكتابة العربية قبل الاسلام الذي جاء « وفي قریش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب » (٢٥) وكانوا يطلقون على خطهم « الخط المكي » افتعلت بعض المصادر صورة منه نسبوها الى « ابن النديم » وهي هذه البسمة التي اوردها « بوب » في الكتاب الذي أشرف عليه وسماه « موسوعة الفن الفارسي » (٢٦) وهذه البسمة اذا وضعت في موضع للمقارنة مع أي نموذج من أوراق البردي المصرية التي عثر عليها في « كوم اشقوه » وهي مدينة « افروديتوبولس » وتقع على بعد ثلاثة أميال في الجنوب الغربي من مدينة مشطة بمركز ابوتيج (٢٧) من مجموعة دار الكتب المصرية أو مجموعة الارشيدوق رينر التي منها « بردية اهنسيا » (٢٢هـ - ٦٤٣م) أو على الشاهد الحجري الخاص « عبدالرحمن بن خير » (متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم ١٥٠٨/٢٠) فائنا نجد ان لا صلة تربطها مع خطوط هذه الشواهد الاثرية التاريخية المؤكدة التي يستدل منها على وجه اليقين أن الخط العربي المستعمل آنذاك كان خطأ لنا ولكنه لا يتماثل مع خط هذه البسمة ، وانه لم يكن يتشابه مع

خط آخر كان هو ايضا شائعا وله شأن كتبت به مدينة يثرب ، وهو ذلك الخط الذي شاع استعماله بعد ذلك في مدينة الكوفة ، وهو الخط الذي شاع وانتشر لأن مصاحف عثمان كتبت به .

ولا شك أن أول تجويد الخط العربي ظهر بفضل كتابة « المصحف الامام » الذي امر الخليفة الثالث عثمان بن عفان بجمعه على أكمل صيغة عربية وهي لهجة « قریش » وارسلت هذه المصاحف ، وكانت ستة ، الى الامصار ، وترتب على ذلك ان شاع منذ ذلك الحين خط هذه المصحف وكتبت به كافة بلاد الخلافة الاسلامية .

ومن هنا نجد أن العناية بتجويد الخط العربي انما يرجع أولا الى كتابة القرآن الكريم ، ومن ثم وقع الثقل على الكتابة العربية عندما عربت الدولة الاموية الديوان الاسلامي .

ولسنا ندرى أين ذهبت نسخ « المصحف الامام » الستة ، وأغلب الظن أنه لم يعد باقيا شيئا منها الآن ، وان هذه المصاحف الموجودة في متحف « طوب قابو » باستانبول في الحجرة التي يطلقون عليها (سونت أوده سي) والمكتوب على رق ، ليس هو بمصحف عثمان الذي

(٢٥) نفس المصدر - ص ٤٥٧ .

(٢٦)

A.U.POPE, SURVEY OF PERSIAN ART, OXFORD 1937.

(٢٧) ادولف جرومان : اوراق البردي العربية ، السفر الأول - ص ١١ القاهرة ١٩٣٤ .

القاضي ، فأخذه أبو بكر الخازن وجعله في جامع (عمرو) وشهره وجعل عليه خشباً منقوشاً ، وكان الامام يقرأ فيه يوماً وفي مصحف اسماء يوماً ولم يزل على ذلك الى أن رفع هذا المصحف واقتصر على القراءة في مصحف اسماء وذلك ايام العزيز بالله لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة (٢٨) .

وليس لاحد أن يزعم ان في حوزته أحد من مصاحف الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » ما لم يخضع هذا المصحف للفحص العلمي الشامل الدقيق ، ومن دراسته وتحليل الرق الذي كتب عليه ومن فحص كيميائي للحبر الذي كتب به ، تقول الرواية أن « زيد بن ثابت » هو الذي كتب المصاحف العثمانية أو على الأقل كتب بعضها منها ، ولا بد أن الحروف التي كتب بها هي دون شك حروف الخط المدني في أبسط صوره ، وليس من الصعب علينا أن نحصر رسم الحروف التي كانت مستعملة آنذاك ، ومقارنة كل حرف منها بالحروف التي نجدها في مصاحف عثمان الاربعة الموجودة الآن . « والتي يسود الوهم أن عثمان كتبها وهي ١ - مصحف طشقند ٢ - مصحف المشهد الحسيني / بالقاهرة ٣ - مصحف الآثار الاسلامية باستانبول (متحف الآثار الاسلامية التركية TURK VE ISLAM ESER- LERI MUZESI) ٤ - مصحف متحف

استشهد عليه ، ولا يمكن بحال ما أن تكون هذه هي حقيقة هذا المصحف وذلك لسببين بينين ، أولهما أن الحروف عليها رقت متكامل ، الامر الذي لم يكن شائعاً في عصر الخلفاء ، وثانياً أن الحروف على درجة ملحوظة من الاتقان .

وهناك مصحف آخر نسب الى « عثمان بن عفان » يوجد بدار الكتب المصرية (رقم ١٣٩) والمصدر في ذلك أتوا به من كتاب « الخطط التوفيقية » الذي نقل مؤلفها « علي باشا مبارك » عن المقرئ الميزي انه كان في الجامع العتيق ، وهو ايضا مكتوب على رق غزال والكتابة الكوفية في هذا المصحف موجودة ، ويمكن بالمقارنة مع رسم الحروف أن يرد مصدرها الى الكتابة الكوفية التي استعملت في القرن الخامس الهجري ، والدليل على ذلك أن هذه المصاحف الاخرى المعروضة في دار الكتب المصرية والمكتوبة على رق ، والتي ترجع الى القرن الرابع الهجري هي أقل جودة من مصحف عثمان هذا المزعوم . ويحدثنا المقرئ الميزي أنه « حضر الى مصر رجل من أهل العراق واحضر معه مصحفاً ذكر أنه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنه الذي كان بين يديه يوم الدار ، وكان فيه اثر الدم ، وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر ، ودفع المصحف الى عبدالله بن شعيب المعروف بابن بنت ولد

المصاحف قد قارب الكمال في الاتقان الكلي بما يتعلق بكتابه « حتى اذا كانت نهاية القرن الهجري الثالث بلغ الرسم ذروته من الجودة والحسن ، وأصبح الناس يتنافسون على اختيار الخطوط الجميلة ، وابتكار العلامات المميزة حتى جعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس ، ولألف الوصل فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة كما يقول الزرقاني » (٣١) .

وبعد المحاولة الاولى في تحسين الخط العربي أثناء كتابة المصحف الامام ابان خلافة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م) ، تأتي المحاولة الثانية في الاسلام التي كان للعصر الاموي الفضل فيها بجانب فضله في نقل صناعة الورق من اطراف بلاد الصتن الى الشام حيث تمكن المسلمون بعد ذلك من تطوير صناعته . وأول ما عرف من الورق عرف باسم القرطاس الشامي ، الذي حددت به أنواع الكتابة العربية الاولى ، وذلك لان الورق كان يصنع بمقاسات معينة لا سبيل الى تغييرها ، واشتملت احجامه على مقاس « الطومار » وهو نصف الدرج الذي كان يصنع من نبات البردي الذي أهمل استعماله بعد ذلك وكان مقاس « الطومار » وهو أكبر مقاس في ورق الكتابة ،

طوب قابو باستانبول . وخلاصة القول - كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد - أن هذه المصاحف الاربعة رغم نسبتها الى عثمان ليست بخط واحد ، ولا قياس واحد ، ولا عصر واحد ، ونرجح أنها نقلت عن أصل عثماني قديم ، أي عن أحد المصاحف التي أرسلها عثمان الى الامصار لذلك اطلق عليها مصاحف عثمانية ، ثم توسعوا فجعلوا بعضها بخط عثمان « (٢٩) .

واذا لم يكن لدينا دليل قاطع على أن هذه المصاحف هي مصاحف الخليفة الثالث عثمان بن عفان فليس لنا أن نأخذ بمثل هذه الروايات التي لا سند عليها ، وتبقى الحقيقة لدينا في نسخ من القرآن كتبت بالخط الكوفي سجل عليها وقفية مؤرخة سنة ١٦٨ هجرية (٧٨٤ - ٧٨٥ م) وهي محفوظة بدار الكتب المصرية . وكذلك « هناك قطع من القرآن مكتوبة بالخط الكوفي على رق غليظ وهي ذات قيمة أثرية عظيمة ، وأغلب الظن أنها ترجع الى ما بين آخر القرن الثاني الهجري وآخر القرن الرابع ، واقدم هذه القطع تشمل قسماً كبيراً من الجزء الخامس والعشرين وفواصل آياتها ورود صغيرة مذهبة » (٣٠) . وفي الواقع أن رسم

(٢٩) الدكتور صلاح الدين المنجد : دراسات في تاريخ الخط العربي - ص ٥٠ ، ٥٥ بيروت ١٩٧٢ .

(٣٠) ادوارد روبنسون : أوراق البردي والمخطوطات العربية بمكتبة « جون ويلاندر » بمانشستر . مجلة الادب والفن - ص ٧٩ ، ٨٠ - الجزء الرابع - لندن ١٩٤٤ .

(٣١) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن - ص ٩٤ ، ٩٥ الطبعة الرابعة - بيروت ١٩٦٤ .

المصدر : محمد عبد العظيم الزرقاني : منازل العرفان في علوم القرآن ٤٠١/١ القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

النديم ، « كان قطبة هو الذي استخرج الاقلام الاربعية ، واشتق بعضها من بعض ، وكان اكتب الناس على الارض العربية (٣٣) . وقامت شهرته على ابداعه أقلاما جديدة لم تكن معروفة لدى أهل المدينة ولا أهل كة ولا الكوفة والبصرة . وهذا يعني أن هذا الخطاط الاموي قد خرج عن الخط « المبسوط » اليابس والتزم الخط « المقصور » الذي يسمى بالخط « اللين » والذي كان شائع الاستعمال في مكة وفي المدينة « وخط التقوير أو المقصور أو المستدير استعمال في كتابة رسائل النبي عليه الصلاة والسلام وبه ايضا كتبت مصاحف عثمان (٣٤) ويذكر لنا « القلقشندي » نقلا عن الشاطبي صاحب « الابحاث الجميلة في شرح « العقيلة » والخط العربي المعروف الآن بالكوفي في عدة اقلام مرجعها الى اصلين وهما التقوير والبسيط . فالتقوير هو المعبر عنه الآن باللين وهو الذي تكون عرفاته وما في معناها منخسفة منحطة الى الأسفل كالثلث والرّاقع ونحوهما . والمبسوط هو المعبر عنه الآن باليابس ، وهو ما لا انخساف وانحطاط فيه كالمحقق وعلى ترتيب هذين الاصلين الاقلام الموجودة الآن . ثم قد ذكر صاحب اغاثة المنشئ ان أول من نقل الخط العربي الكوفي الى ابتداء هذه الاقلام المستعملة

وبعده تأتي المقاسات المختلفة التي لكل منها نوع من الخطوط استخدموه ليلائم قطع الورق .

وقبل أن نتكلم عن سبيل الخط العربي الى الاصلاح والتقويم والتحسين والتجويد والجمال ، علينا أن نذكر الكتابة العربية في إعجازها وفي رقتها لأهمية هذا وذاك . لقد كان الاعجام سليقة فطرية عند العرب ، أما الرقش فقد كان له وجود قائم قبل يحيى بن يعمر وأبي الاسود الدؤلي « ولدينا حديث عن هذا الشأن جاء به ابن الاثير قال « أن النبي عليه السلام قال اذا اختلفتم في الباء والتاء فاكتبوهما بالباء وبهذا كانت النقاط توضع في المصاحف ، انما وضعت على الباء والتاء وهذا ما ذكر في كتاب (المحكم في نقاط المصاحف لابي عمر الداني) ومن ثمة تأتي رواية « معاوية » التي يرويها عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال « كتبت بين يدي معاوية كتابا فقال لي : يا عبيد ارقش كتابك فاني كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا معاوية ارقش كتابك » قال عبيد وما رقتش يا أمير المؤمنين ، قال : أعط كل حرف ما ينوبه من النقاط » (٣٢) .

وأول من ظهر في العصر الاموي (٤١) - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) كما يحدثنا ابن

(٣٢) د . محمد حمد الله : صدمة الكتابة في عهد الرسول والصحابة - مجلة فن وفكر ص ٢٦ العدد ٣ السنة الثالثة - المانيا الغربية ١٩٦٤ .

المرجع المعين رواية السوطي ، وابن عساكر .

(٣٣) ابن النديم : الفس المصدر ص ٧ .

(٣٤) ابراهيم جمعه : قصص الكتابة العربية - ص ٢٧ ، ٢٨ مجموعة القرا .

الان في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة بني العباس « (٣٥) .

ولدينا نماذج متباينة من الخط « المقصور » وجدناها في أوراق البردي ترجع الى نهاية القرن الاول الهجري . وما نقله ايضا المؤرخ المصري « القلقشندي » قال أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب . . أن جودة الخط انتهت الى رجلين من أهل الشام يقال لهما : الضحاك ، واسحاق بن حماد وكانا يخطان الجليل ، وكأنه يريد الطومار أو قريبا منه « (٣٦) » ولدينا نصوص تدل على أن الخلفاء الامويين كانوا يكتبون رسائلهم بقلم الطومار . . ويذهب الجهشيارى أن الوليد بن عبد الملك كان أول من كتب من الخلفاء في الطومار « (٣٧) .

وإذا كان للعصر الاموي الفضل الأول في تجويد الخط العربي فله كل الفضل بجانب فضله هذا نقله لصناعة الورق ، وأول ما عرف من الورق عرف باسم القرطاس الشامي - الذي حددت به أنواع الكتابة العربية الاولى وذلك لان الورق كان يصنع من البردي الذي أهملت صناعته واستعماله بعد ذلك ، وكان مقياس الطومار وهو أكبر مقاس في ورق الكتابة وبعده تأتي المقاسات التي لكل نوع منها نوع من

الخطوط استخدموه ليلائم قطع الورق هذا ، والطومار كمقاس للورق له عدة أنواع :

١ - الطومار البغدادي وعرضه ذراع مصري واحد . ٢ - الطومار الحموي وعرضه دون قطع البغدادي بقليل . ٣ - الطومار الشامي وهو دون قطع الحموي بقليل . ٤ - الطومار المصري وهو دون قطع الشامي بقليل . ٥ - الطومار المغربي وهو دون قطع المصري بقليل .

وحسبي أقول حقا اذا قلت أن القلم الجليل الذي عاصر تاريخ الخط العربي ومازال قائما حتى الآن قد ابدعه الخطاط الدمشقي عند رغبة الخليفة الاموي السادس « الوليد بن عبد الملك » (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) لانه أمر أن تعظم كتبه ويجلل الخط الذي يكتب به أو على حد قوله كما يذكر « الجهشيارى » « تكون كتبي وكتب الناس الى خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض » (٣٨) .

وقد صار هذا القلم الاموي فيما بعد يسمى بالقلم الطومار وهو أكبر الاقلام « وقدر الكتاب مساحة عرضه بأربعة وعشرين شعرة من شعر البرذون وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم في

(٣٥) القلقشندي : المصدر السابق ص ١١ .

(٣٦) القلقشندي : المصدر ذاته ص ١٢ .

(٣٧) الدكتور صلاح الدين المنجد : نفس المصدر ص ٨١ .

(٣٨) نفس المصدر ص ٨١ .

كما أبدع أخوه يوسف السجزي خطا جديدا أطلق عليه «خط التوقيع» «لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به على ظهر القصص . وإن ذا الرياستين الفضل بن هارون أعجب به وأمر أن تحرر الكتابة السلطانية به دون غيره وسماه القلم الرياسي»^(٤٢) وقد أعطانا أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (٢٢١هـ - ١٤١٨م) نماذج من حروفه في كتابه «صبح الاعشى» .

وعن إبراهيم السجزي أخذ الخطاط الاحول المحرر أو أحمد الاحول كما أطلق عليه الاستاذ بهجت الاثري وهو من صنائع البرامكة كما يقول عنه محمد طاهر الكردي الذي حدد ثقله «بأن خطه مع روعته وبهجته لم يكن مهندسا»^(٤٣) وهو ذات الرأي الذي وصفه به من قبل أبو جعفر النحاس في كتابه صناعة الكتاب وقال عنه «كان خطه يوصف بالبهجة والحسن من غير احكام ولا اتقان وكان عجيب البري للقلم»^(٤٤) ومهما كان من أمر فقد أبدع «الاحول المحرر» عدة اقلام استمد اصولها من القلم الجليل ، منها ذلك القلم الذي سماه خط

الزمن المتقدم في أيام بني امية فمن بعدهم»^(٣٩) .

ثم أتى بنو العباس بخلافتهم العباسية (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨م) ليظهر أول ما يظهر خطاطان أصلهما من دمشق الاموية ، وهما «الضحاك» و «اسحاق بن حماد» وقد عاش الاول في عهد «أبي العباس عبدالله السفاح» والثاني في عهد خلافة «أبي جعفر المنصور» و «أبي عبدالله محمد المهدي» وكانا يخطان (بالقلم) الجليل على حد قول «أبي جعفر النحاس» في كتابه صناعة الكتاب «وكانه يريد خط الطومار أو قريبا منه»^(٤٥) .

ومن بعدهما ظهر «إبراهيم السجزي» الذي تتلمذ على «اسحاق بن حماد» وأخذ عنه قلمه الذي عرف باسم القلم الجليل واستنبط منه خطين جديدين متجانسين هما خط الثلث وخط الثلثين ومات «السجزي» سنة ٢١٠هـ هجرية ، والسجزي كما يقول الشيخ عبدالرحمن بن الصايغ في تحفة اولي الالباب نسبة الى اقليم سبجستان»^(٤٦) .

(٣٩) القلقشندي : المصدر السابق ص ٤٩ .

(٤٠) القلقشندي : المصدر ذاته ص ١٣ .

(٤١) المصدر السابق ، حاشية على هامش - ص ١٢ .

(٤٢) المصدر ذاته ص ١٠٠ .

(٤٣) محمد طاهر الكردي : تاريخ الخط العربي وادواته . ص ٣٠٩ - القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م .

(٤٤) القلقشندي : المصدر ذاته - ص ١٢ .

انتشر الخط في مشارق الارض ومغاربها» (٤٦).

ولابن مقله « بخط يده رسالة في علم الخط والقلم موجودة او حبيسة دار الكتب المصرية وتحتوي على القوانين والقواعد في رسم الحروف العربية الموجودة ، معتمداً على منهج قطر الدائرة التي تبنى عليها جميع أقواس الحروف الابدجية المفردة واعتبر الألف (القطر) هو الاساس الهندسي لضبط الحروف » (٤٧).

استوزره الخليفة العباسي أبو الفضل جعفر المقتدر بالله (٢٧٩هـ) ثم استوزره الخليفة ابومنصور محمد القاهر بالله (٣٢٠هـ) وقطع يده الخليفة ابو العباس احمد الراضي بالله (٣٢٢هـ) فقال « يد خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن دفعتين تقطع كما تقطع ايدي اللصوص » (٤٨).

واذا كان ابن مقله هو أول من كتب الخط البديع الذي تطور بعد ذلك الى خط النسخ فله أيضاً ستة أقلام هي الجليل ، وخط الثلث ، والثلث الخفيف ، وقلم التوقيعات ، وقلم

النصف ، وآخر سماه خفيف الثلث ، وثالث سماه المسلسل الذي يكتب متصل الحروف : « وكان الخليفة المأمون معجباً بخط « الاحول المحرر » كما كان استاذاً للخليفة المقتدر وأولاده » (٤٩).

يبد أن دور العراق العباسي في تجويد الخط العربي قد تمثل في ثلاثة من كبار الخطاطين وافذاذهم وابعدهم شهرة وصيت وعلم وفن . الاول هو الوزير « ابن مقله » والثاني « ابن البواب » والثالث « ياقوت المستعصي » .

الاول : « أبو علي محمد بن مقله » (٢٧٢ - ٣٢٦هـ / ٨٨٥ - ٩٠٨م) قال عنه « مستقيم ذاده سليمان سعد الدين افندي » في كتابه تحفة خطاطين « أنه مقله حدقة الزمان ، وهو ذلك الاكاديمي الذي منهج لنا الخطوط العربية وضبط نسب حروفها وحدد شكلها واحكم العلاقات الهندسية التي بينها حتى اصبحت علماً له مناهج مدرسية محكمة ، وهو الذي اعتمد عليه القلقشندي في كتابة مادته عن الخط العربي في موسوعته العلمية التاريخية المؤلف في مصر سنة (٨٢١ - ١٤١٨م) وقال عن ابن مقله « هو الذي هندس الحروف واجاد تحريرها ، وعنه

(٤٥) تركي عطيه عبود الجبوري : الخط العربي الاسلامي ص ١٤٣ بغداد ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

(٤٦) القلقشندي : نفس المصدر ص ١٣ .

(٤٧) تركي عطيه عبود الجبوري : المصدر السابق ص ١٥٥ .

(٤٨) محمد طاهر الكردي : نفس المصدر ص ٣٥٢ .

المقتدر ، وخلع عليه خلع الوزراء في سنة ستة عشر ، واستقل بأعباء الوزارة أمرا ونهيا ، وبذل فيها ما مبلغه خمسمائة ألف . . ثم استوزره . . الراضي ثم جرت خطوب أوجبت أن الراضي حبسه بداره ثم ضيق عليه وسعى به اعداؤه الى الراضي فقطع يده اليمنى « (٥١) » ومات في حبسه مقتولا ، ومن شعره يشير الى قطع يده .

ما مللت الحياة لكن توثق
ت بإيمانهم فبانت يميني
ثم احسنت ما استطعت بجهدي
حفظ ارواحهم فما حفظوني
ليس بين اليمين لذة عيش
ياحياتي بانت يميني فيميني
وفي ثرى بغداد توسد جسد ابن مقلة الوزير
ليختلط التراب بالتراب ، وفي تاريخ بغداد ظل
الخطاط المجدود حيا يعيش أبدا مع الزمان .

واخذ الخط عن ابن مقلة محمد بن
السهماني المتوفي سنة ٤١٥هـ ، ومحمد بن
اسد البزاز البغدادي المتوفي سنة ٤١٦هـ ، ومن
بعدهما ظهر مجود عظيم عرف باسم « ابن
البواب » .
وابن البواب هو « أبو الحسن علاء الدين

الرقاع ، وقلم الغبار ، وكانت مكانة ابن مقلة
بين معاصريه كأستاذ ومقتن فنون الخطوط
العربية وموضع تقدير ومن ذلك « قال ابوحيان
التوحيدي في رسالته علم الكتابة مارواه عن
الزنجي « اصلح الخطوط واجمعها لاكثر
الشروط فاعلية اصحابنا في العراق ، فليل له ما
تقول في خط ابن مقلة قال : ذلك نبي فيه ،
افرخ الخط في يده كما أوحى الى النحل في
تسديس بيوته » (٤٩) .

وابوحيان التوحيدي هو ذلك المعلم المحقق
الناقد الوراق الناسخ وفي رسالته هذه « يشير
ابوحيان مشكلات كمشكلات هذا العصر في
الفن وفي قواعده ، وأهمها وحدة الفنون ، فهو
اذا تحدث عن حسن الخط وعن دور القلم ،
فانما يتحدث عن الفن بصورة عامة وذلك انه
كخطاط ووراق ، وكأديب مبدع وباحث ، لا
يستجلب امثلة ولا تدور افكاره الا من معين
مهنته وفنه » (٥٠) .

وبين الخطاط المجدود والوزير الكبير
تأرجحت حياة ابن مقلة ، تأرجحت بين
عبقريّة الفنان ومأساة الوزير . الذي انتهى به
الأمر الى قطع يده ثم قطع لسانه ، وذلك لان
الوزير كان له رغبة في الدنيا « استوزره الخليفة

(٤٩) ناجي زين الدين المصرف : بذائع الخط العربي ص ٤٥٩ بغداد ١٩٧٢ .

(٥٠) الدكتور عفيف جهني : دراسات نظرية في الفن العربي - القاهرة ١٩٧٤ .

(٥١) محمد بن علي بن طباطبا : الفخري - ص ٢٠١ القاهرة بدون تاريخ .

علي بن هلال « قال عنه القلقشندي هو الاستاذ ابوالحسن » الذي أكمل قواعد الخط وتممها واخترع غالب الاقلام التي اسسها ابن مقلة ^(٥٢) أي أن ابن البواب « هذب طريقته ونقحها وكساها طلاوة وبهجة » ^(٥٣) .

ولابن البواب رائدة تناولت منهجه في تجويد الخط العربي مطلعها :

يامن يروم اجادة التحرير
ويريد حسن الخط والتصوير
إن كان عزمك في الكتابة صادقاً
فارغب الى مولاك في التيسير
أعدد من الاقلام كل مثقف

صلب يصوغ صناعة التعبير
والاقلام التي كتب بها ابن البواب متعددة
منها قلم النرجس وقلم الريحاني والقلم المنشور
والقلم المرصع والقلم اللؤلؤي والقلم الواشي
والقلم المدمج والقلم المسلسل والقلم
الحوائجي . وذهبت شهرة ومكانة الحسن بن
علي بن هلال لتصل الى قرية الشاعر المعري
وهو الكفيف ليقول :

ولاح هلال مثل نون أجادها
بماء النضار الكاتب ابن هلال
وكان « ابن البواب » زاهدا متواضع الثياب
كب اللحية ، وكان على خلق ، هادئ النفس

نقي السريرة حافظا للقرآن والحديث استن
لنفسه سنة ان يختم كتاباته على نحو لم يكن عند
غيره مثل « كتبه علي بن هلال . . حامدا لله على
نعمه ومصليا على نبيه محمد وآله وعترته » ويظهر
فضل ابن البواب وفضل علمه واستاذيته في
كتابة الخط العربي المجود أنه لما مات رثاه أحد
الشعراء فقال :

واستشعر الكتاب فقدك سالفاً
فجرت بصلاً ذلك الايام
فلذلك سودت الدوي وجوها
أسفا عليك وشقت الاقلام

ولدينا الآن نماذج مختلفة من خطوط ابن
البواب المختلفة نجد بعضها في متحف الآثار
الاسلامي التركي وله ايضا بمتحف « الطوب
قابو » نماذج من خطه .

وتوفي ابن البواب سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م أو
سنة ٤٢٤ هـ (١٠٣٢ م) ودفن بجوار قبر الامام
ابن حنبل ببغداد .

وعن ابن البواب اخذ الخط « محمد بن
عبدالمملك ، وعنه أخذت الشیخة المحدثه
الكاتبه زينب الملقبة بشهدة ابنة الأبري ، وعنها
أخذ امين الدين ياقوت » ^(٥٤) وهو ثالث الثلاثة
الكبار في العصر العباسي ويعرف باسم ياقوت

(٥٢) القلقشندي : نفس المصدر ص ١٣ .

(٥٣) محمد طاهر الكرمي : نفس المصدر ص ٣٣٤ .

(٥٤) القلقشندي : ذات المصدر ص ١٤ .

التاريخ المحتمل الذي مات فيه ياقوت المستعصمي (٥٧).

وإذا أخذنا بهذا التاريخ على وجه اليقين فلا يمكن بحال ما الا أن نقول أن ياقوت المستعصمي ينسب الى الخليفة العباسي أبو احمد عبدالله المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢ - ١٢٥٨م) وبهذا تسقط الرواية التي تنسب ياقوت الى السلطان السلجوقي «ملكشاه» الذي توفي سنة ٤٨٥هـ. ان بين سنة ٤٨٥هـ وسنة ٦٩٩هـ التي توفي فيها ياقوت حوالي ٢٣٤ عاما وتكفي هذه السنوات العديدة لكي نتأكد من أن الرواية التي قالت بأن ياقوت كان من ممالك السلطان ملكشاه هي رواية لا تستقيم مع الواقع والحقيقة التاريخية.

لقد اطلق على ياقوت المستعصمي لقب قبلة الكتاب ، لأنه قد تمكن عن جدارة بالكتابة بالاقلام السبعة وهي الثلث والنسخ والمحقق والريحاني والتوقيع والرقاع . وفي متحف الآثار الاسلامية التركية العديد من المصاحف المذهبة التي كتبها ، وكذلك بمتحف قابو العديد من نماذج المختلفة الخطوط .

وفي عصر الخليفة العباسي «أبو احمد عبدالله

المستعصمي (ياقوت بن عبدالله الموصل) الذي عرف ايضا باسم ياقوت الرومي مات سنة ٦٩٩هـ - ١٢٩٩م) وأصله من مدينة أماسيا من الاناضول السلجوقي « (٥٥) وتاريخ وفاة ياقوت وترادف اسمه بلقب الملكي نسبة الى السلطان جلال الدين ابوالفتح ملكشاه ٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) قد التبس على الكثير ممن تناول سيرته ، فقد ذكر الخطاط محمد طاهر الكردي ان المستعصمي توفي سنة ٦١٨هـ (٥٦) . وجاء في مصور الخط العربي الاستاذ ناجي زين الدين المصنف أن الذي مات سنة ٦١٨هـ هو ياقوت عبدالله الحموي وهو غير المستعصمي بيد أن الخطاط الكردي لم يكن على يقين من هذا التاريخ فأعطانا تاريخا آخر لوفاة المستعصمي هو ٦٩٩هـ ذكر في تحفة الخطاطين . ولا بد أن هذا التاريخ هو التاريخ الاقرب الى الصواب بدليل اننا نجد في متحف الآثار الاسلامية التركي باستانبول مصحفا مذهبا بخط النسخ مؤرخ ٦٨٥ هجرية (١٢٨٦م) (رقم ٥٠٧) جاء في آخره « وكتب ياقوت المستعصمي في سنة خمس وثمانين وستمئة بمدينة السلم بغداد حامد الله تعالى على نعمه ومصليا على نبيه محمد وآله الطاهرين ومسلما ، ومن ذنوبه مستغفرا » (آخر الصفحة رقم ٢٥٧) . وبذلك يكون عام ٦٩٩هـ هو

(٥٥) الآثار في الفن الاسلامي : اوغور دوران : مكتبة الآثار في الخط الاسلامي ص ٢٠ استانبول ١٩٧٦ .

(٥٦) محمد طاهر الكردي : نفس المصدر ص ٣٦٩ .

(٥٧) الدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق : الفن الاسلامي - ص ١٧٤ - بغداد ١٩٦٥ .

المعتصم بالله » حلت الكارثة الفادحة بأرض المسلمين في شهر المحرم من سنة ٦٥٦هـ يناير ١٢٥٨م هب اعصار هبجي مدمر واندفعت جحافل المغول بقيادة السفاح هولاكو » فخربت بغداد الخراب العظيم واحترقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ماكانت في الدنيا مثلها « (٥٨) .

وكان لابد أن ينتقل الثقل الحضاري من الشرق الى الغرب . انتقل الى مصر بعد موقعة عين جالوت التي انتصرت فيها جيوش المسلمين بقيادة « قطز » على جيوش المغول يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٧هـ - ١٢٥٨م وكان من الطبيعي أن ينتقل بعد هذه الاحداث الجسام الثقل الحضاري من بغداد الى القاهرة وان يتحول مسيرة تجويد فنون الخط والكتابة الى مصر المملوكية ويذكر الفلقشندي ليصل بين العراق ومصر » وعن ياقوت أخذ الولي العجمي « وهو ولي الدين علي بن زكي وعنه اخذ عفيف الدين محمد الحلبي وعنه اخذ ولده الشيخ عماد الدين ويقال انه كان كابن البواب في زمانه ، وعن الشيخ عماد الدين بن العفيف اخذ الشيخ شمس الدين بن ابي رقية محتسب الفسطاط ، واخذ عنه الشيخ شمس الدين

محمد بن علي الزفتاوي الذي صنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها اليه في صناعة الكتابة . وعنه تخرج الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الأثاري محتسب مصر الذي نظم في صنعة الخط ألفية سماها « العناية الربانية في الطريقة الشعبانية » (٥٩) » وعن الزفتاوي اخذ ايضا نور الدين الوسمي وعنه اخذ ابن الصايغ شيخ كتاب مصر في عصره ٨٤٥ هـ وله رسالة في تعليم الخط « (٦٠) .

لقد كان لمصر اiban الخلافة العباسية دورها في تجويد الخط العربي حتى أن بغداد عاصمة العالم الاسلامي في ذلك الوقت كان اصحاب الفكر فيها يحسدون أهل مصر على الخطاط « طبطب » و « ابن عبد كان » كاتب الانشاء في سلطنة احمد بن طولون ٢٥٤هـ - ٨٦٨م وذهب قولهم « بمصر كاتب ومحرر ليس لامير المؤمنين بمدينة السلام مثلها » (٦١) .

بيد أن مفهوم الخط العربي وتجويده في مصر اiban العهد الطولوني ومن بعده العهد الاخشيدي لا يخرج عن كونه عباسي المظهر والسمات ، ولدينا فيما لدينا لوحة تأسيس المسجد الطولوني بالخط الكوفي وهي على درجة متواضعة من الاتقان .

(٥٨) ابوالحسن تقي بردي : النجوم الزاهرة - الجزء ٧ ص ٥٠ القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٢م .

(٥٩) تاجي زين الدين المصنف : نفس المصدر ص ٣٧ بغداد ١٩٧٢ .

(٦٠) الفلقشندي : نفس المصدر ص ١٤ .

(٦١) الفلقشندي : نفس المصدر ص ١٣ .

فارس والعراق والشام والاندلس ومصر ، ومن ثمة باتساع ارض المسلمين كلها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وذلك على هدى من الفكر السني الذي انطلق من هذه المدارس التي أسسها الوزير العالم نظام الملك « أبو علي حسن الطوسي » وعند ابعاد مفكرها وعلماء العصر من الذين انسابت آراؤهم الى عقول المسلمين لتغير ونزول الصدا العباسي وتعسف الفواطم واستبداد آل بويه . في ذلك العصر ظهر المجددون الذين عملوا على تطور اشكال الخط الكوفي وغيره من أنماطه التقليدية وادخلوا عليه العديد من الاشكال المتباينة حتى أصبح يسمى الخط الكوفي الهندسي والكوفي المزهر والكوفي المضفر . وأول ابداع سلجوقي من هذا الخط الكوفي نراه في جامع دوغان بايران ٤١٧هـ - ١٠٢٦م . أما أجمل الامثلة منه فنجده في الجزء الاعلى من المحراب الخزفي في جامع علاء الدين بمدينة قونية وهو الجامع الذي بناه السلطان السلجوقي كليج ارسلان ٦١٧هـ - ١٢٠٠م وفي هذا المحراب نجد ابتكار خطاطي عصر السلاجقة من خط الكوفي المزوي الذي أصبح بعد ذلك وسيلة تعبيرية جمالية رائعة للتذوق الذهني حتى أصبحت الكتابة الكوفية لأول مرة في تاريخ الفنون وفي تجويد الخط العربي تشكيل تعبيرى ينبثق عن العلاقة التي بين ما هو قائم في الحيز وبين الارتباطات الدوقية عند الخطاط المسلم ، حتى أصبحت الكتابة العربية الكوفية تبدو في صميم شكلها

واذا كانت مدرسة مصر لها التبعية الفنية لكل ماكان قائما في بغداد فانها قد شكلت بعد ذلك مدرستها حين انتقلت الخلافة اليها بعد الكارثة المغولية ، وعلى الاخص حين جاء ذلك المجدد الكبير « الحسن بن علي الجويني » المتوفي سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م وهو ذلك الخطاط الذي قالوا عنه « لم يكتب بعد ابن البواب اجود منه » .

وفي العصر الفاطمي (٢٩٧ - ٥٦٧هـ / ٩١٠ - ١١٧١م) ظهرت كتابة عربية بالخط الكوفي محفورة بالجامع الازهر ٣٦١هـ - ٩٧١م واخرى محفورة على الخشب في جامع الحاكم بأمر الله الذي تم سنة ٤٠٣هـ - ١٠١٢م ثم هذه الكتابة الحجرية التي نجدها على وجهة الجامع الاقمر الذي انجز في عهد الأمر باحكام الله الفاطمي ٥١٩هـ - ١١٢٥م الذي يتميز عصره بظهور الخط اللين المستدير بجانب الخط الكوفي الذي تحول في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر السلجوقي الايوبي ٥٦٩هـ - ١١٧٤م الى تصور مختلف تعددت فيه نماذجه وتنوعت أشكاله ، وأجملها على الاطلاق المحراب الذي اقامه الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ٤٢٧هـ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤م في المسجد الطولوني .

وكان للعصر السلجوقي قبل العصر المغولي قوة إبداعية تدفقت على العالم الاسلامي في

انها ضرب من التلاقي الروحي بين خطوط افقية واخرى رأسية تماسكت عند زوايا انخفضت حداثها وصلابتها . ومن هنا جاءت الكتابة الكوفية لها اوزان متباينة الابعاد ، التداخل الذاتي فيها له حركات مكانية ذات تفاعل متغيرة التردد الايقاعي وهذا ما جعل منها كتابة ذات قيمة فنية واثرية لا نظير لها . ومن ناحية اخرى نجد أن مميزات الخط الكوفي انه مصدر تلاقي روحي بين الافقية والرأسية التي قام عليها النمط المعماري للمسجد . أما الزمن المتخلل بين أبعاد الحروف الكوفية فقد وضع الغموض في هذه الكتابة ، الامر الذي أدى الى صعوبة فهمها وحكم على قارئها أن يكون صاحب ذهن مشع وحس لماع وذوق متجاوب أما هذا الجلال الذي يبدو عليها ويحيط بها فيرجع الى ان تشكيلها الفني قد طرح فيها صورة تجريدية مطلقة اخذت سبيلها الى التراث الفني الاسلامي كصلة بين الافقية والرأسية في معمار المسجد .

يقول الاستاذ يوسف احمد « وبظهور خط النسخ انسحب الخط الكوفي الزاهر من ميدان الكتابة الاجتماعية ، ورضي أن يكون زاهدا ناسكا قانعا يسكن المساجد والمحاريب وزخرفة المصاحف ، فكان يكتب في المساجد والمصاحف تبركا وحلية ، وفي القصور والاسوار وغيرها

للحلية والتاريخ لأنه طوع كاتبه يتمشى معه في كل زخرف وهندسة وتشكيل ، مع بقاء حروفه على قاعدتها » (٦٢) .

وتصل قمة الخط الكوفي الى ذروتها في المصاحف السلجوقية التي ترجع الى القرن الحادي عشر والثاني عشر ، وبالمتحف البريطاني نسخد من القرآن الكريم تحتوي على صفحات جميلة محلاة بوحدات زخرفية من صفائير وتفريعات نباتية تحمل مميزات العصر السلجوقي المبتكر وخصائصه التي انفرد بها . وقد كتب هذه النسخة الخطاط المجود أبو القاسم بن ابراهيم وتاريخها جمادي الاول سنة ٤١٧هـ / ١٠٢٦م وتستقيم هذه الدررة الجمالية في التشكيل الكوفي المنحوت على الخشب في لوحة توجد في متحف جلال الدين الرومي بمدينة قونية وعليها « يا حضرة مولانا » في تكوين مبتكر من الافقية والرأسية والعلاقة الروحية التي تجمع بينها بأبعادها الدوقية .

وفي عهد السلاجقة تحول خط المصاحف من الكوفي الى خط النسخ الذي اصبحت له مكانته الفنية الرفيعة ولدينا أمثلة عديدة منه في متحف الآثار الاسلامية التركية ، « وأقدم مصحف مكتوب بالخط النسخي الفني موجود بمكتبة شيلستر يتي بمدينة دبلن » (٦٣) .

(٦٢) يوسف احمد : الخط الكوفي ص ١٣ القاهرة بدون تاريخ .

(٦٣) الدكتور محمد عبدالمعز مرزوق : المصنف الشريف ص ٣٤ بغداد ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

والمكتبة هي : CHESTER BEATTY, DUBLIN

المدرسة السلجوقية فهذا لا يعني إلا أن العكس كان هو الصحيح وإن المدرسة السلجوقية كانت حلقة اتصال بين عصر ذهب وعصر جديد أخذت فيه مظاهر الحضارة الإسلامية تشكل في ذاتها اتجاهات فنية إسلامية جديدة أشعل جذوتها المفهوم السني نفوس المسلمين ومدرسة الاتابكة في الجهاد التي منها مدرسة نور الدين محمود الحربية التي وقفت لترد الصليبيين والقرامطة وفرق غلاة الشيعة والرافضة وعلى رأسهم أمثال ابن العلقمي الذي يقول عنه ابن تغري بردي « أنه كان رافضيا خبيثا حريصا على زوال الدولة العباسية » (٦٥) . وكذلك نجد الحشاشين وبني بويه والفواطم والمنغول ، ورغم المحن والمصائب وضياح الكثير من تراث المسلمين من جراء سقوط بغداد وتكالب هذه الفرق على اخماد الحضارة الإسلامية ، ففي هذا العصر نجد أن الفنون الإسلامية في مصر لها مميزات حضارية قيمة مختلفة عن هذا الذي كان قائما من قبل إبان العصر العباسي الذي ارتكزت اتجاهاته الفنية على التطور التاريخي للفنون الذي يسير على الوتيرة الواحدة .

وفي هذا العصر الذي يمكن أن نسميه « عصر ما بعد المدارس النظامية » نجد الكتابة الكوفية وخط النسخ جنبا إلى جنب ، الأمر الذي كان متبعا في كتابة المصاحف السلجوقية

وقد تفاعلت الرؤية الفنية لحروف خط النسخ السلجوقي مع الاستاذ « د . بارت » فكتب عنها يقول « والحقيقة أننا نستطيع أن نقول أن نظرة إلى صفحة من القرآن في العصر السلجوقي تعطي من السرور النفسي ما تعطيه تلك النظرة إلى صفحة من موسيقى باخ » (٦٤) .

وإذا كانت مدرسة الخطوط المجودة المصرية لها مكائنها المميزة إبان الدولة الفاطمية ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ / ٩١٠ - ١١٧١ م والدولة الأيوبية ٥٦٩ - ٦٥٠ هـ / ١١٧٤ - ١٢٥٢ م فهي قد لامست السميت في عصر المماليك البحرية والبرجية ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م والذي يعد عصرهم بحق من ازهى عصور الفن الإسلامي . لقد أخذت المدرسة المصرية المملوكية مكائنها في الابداع الفني المتعدد الذي نراه بيننا الآن في القاهرة المملوكية من عمارة وخزف ونسيج وزجاج وحفر وتكفيت وفنون الكتاب من خطوط مجودة وتجليد وتذهيب . وإذا كان هذا الثقل الفني قد ظهر في أواخر العصر الفاطمي واثناء العصر الأيوبي فذلك إنما اتى بدوافع تكونت من البنية الإسلامية السنية التي أخذت تتسرب في أواخر العصر الفاطمي الجوائر لتعلن عن نفسها ، وكان لابد أن يتغير التكيف الشكلي للحروف العربية ونوع الكتابة ، وإذا ما نسبت هذه الأعمال إلى

(٦٤) د . بارت : الفن الإسلامي بين بلاد فارس - ص ١٧٦ - كتاب تراث فارس القاهرة ١٩٥٩ .

(٦٥) تغري بردي : نفس المصدر ص ٤٧ .

وسبعين ورقة عظيمة الحجم والسبك ويقال ان هذا المصحف اعظم مصاحف العالم حجبا ، والصفحات الثلاث الاولى مكتوبة بتمامها بحروف ذهبية ، والعنوان شديد التنيق والزخرفة (٦٦) وهو من مقتنيات مكتبة جون ريلاندر بمانشستر .

ذهب البعض ان الخطوط المصرية لا ترتفع الى مستوى المدرسة السلجوقية ، وبنوا رأيهم هذا على أن مصر تعلق بخط الطومار التقليدي والسلاجقة جودوا خط النسخ وجاء هذا الرأي مع مقارنة بين المصاحف السلجوقية المكتوبة بخط النسخ والتي قالوا أنها أرفع مستوى من خط المصاحف المملوكية التي كتبت بخط النسخ المستدير الجلي ، وفي تصوري أن هذه المقارنة لا تقوم الا عن القياس الشكلي للأنماط في تصورها الخارجي ، والأنماط هنا لا يمكن أخذها بدلالات لها ميزان خارج عن الموازين التي يجب ان يقاس الخط العربي بها وهذه المقاييس ذوقية قبل كل شيء وترجع الى حساسية الكلمة ووقعها الخطي عند الموجود ومن ليس لديه صلة بهذه الحساسية فليس في وضع ان يحكم على مثل هذه الامور ، التي تتعلق بمفهوم الفن الاسلامي الذي لا يقوم الا على خصائصه البهتة بمقوماتها الذاتية وعند دوافعه الروحية المنبثقة من واقع العقيدة الاسلامية في مفهومها الالهي .

وهو كتابة أسماء السور بالخط الكوفي والصورة بخط النسخ ، وهذا ما كان متبعاً أيضاً في كافة الاعمال الفنية الاخرى ، وتأخذ على سبيل المثال المحراب الفاطمي في جامع ابن طولون وتابوت الامام الشافعي المحفوظ بالمتحف الاسلامي بالقاهرة (رقم الاثر ٤٠٩) ومحراب مشهد السيدة رقية (رقم الاثر ٤٤٦) . وهكذا تبلورت مفاهيم الفن الاسلامي وبدأ خط الثلث يأخذ لنفسه مميزات مختلفة اذ أصبحت حروفه كبيرة ومستديرة ولهذا اطلقت عليه اسم خط الثلث المملوكي أو الجلي المصري الذي نجد منه نماذج كثيرة لدينا في دار الكتب المصرية التي بها المصاحف الضخمة الكبيرة مثل مصحف السلطان قلاوون ٦٩٢هـ - ١٢٩٣م ومصحف السلطان حسن ٧٤٨هـ - ١٣٤٧م ومصحف السلطان شعبان ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م ومصحف الامير سرعتمش (٧٧٦هـ - ١٣٧٤م) ومصحف السلطان برقوق ٨٠٠هـ - ١٣٩٨م ومصحف السلطان المؤيد ٨١٥هـ - ١٤١٢م وهناك مصحف عظيم القيمة هو المخطوطة الضخمة التي تحمل اسم خاتم الاشرف قانصوه الغوري السلطان المملوكي ٩٠٦ - ٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م قبل الاخير لمصر ، وهو كان يذل المال بسخاء ، وأغلب الظن أن المصحف كتب بناء على طلبه بعيد سنة ست وتسعمائة هجرية . وهذه المخطوطة مكتوبة على اربعمائة

الشرقي كتابة كوفية من الجص مكتوبة بخط الثلث واخرى من الخشب كبيرة الحجم الذي يتوازي مع ما أخذت به مصر المملوكية من سيمات الخط العربي الطومار الذي سمي باسم الخط الثلث المملوكي . وفي الواقع ان خط الطومار اخذ لنفسه مسارات مختلفة لها فروق في الوزن وهو أم الخطوط ولا يعتبر الخطاط عظيمًا الا اذا اتقنه وأحسن كتابته ، واذا كنا نجد الشيوع الشامل لخط الطومار في كافة العالم الاسلامي الى حجم الورق ومقاساته المختلفة كما قلنا من قبل .

لم يتناول أحد من الشعوب الاسلامية الخطوط العربية الموجودة مثل ما تناولها الفرس اولاً ثم الاتراك من بعدهم ، لقد اصبح الحرف والقلم ويد الانسان تعني خفقات في الايقاع الجميل داخل النفس المبدعة ، ايقاع له رنين وجدان وله وميض الهام ، طرح باطني لعبقرية يد انسان شرقي خلقها الله ولها حساسية غيبية امسكت بالقلم لتجعل من الحروف العربية صدى مسموعاً للجمال والجلال من خلال اعمال كبار الخطاطين الفرس والاتراك . لقد ظهرت مدرسة جديدة بالغة الاهمية غيرت مفاهيم التجويد والتحسين وجعلت للحروف مذاقاً فنياً له صورة بصرية موضوعية ، وله صورة سمعية تتردد خفقاتها داخل الحروف وفي

ان هذه الفروق التي بين خطي النسخ السلجوقي وجلي الثلث المملوكي انما جاءت متأثرة بالمكان والظروف الاجتماعية عند كل من السلاجقة والمماليك . وموضوعية هذه الظروف هي التي دفعت بالسلاجقة ان تكون مصاحفهم صغيرة الحجم وذلك لتصبح سهلة النقل معهم وهم كما نعرف لم ينعموا بالاستقرار في مكان لانهم كانوا في غزوات متلاحقة ، أما المصاحف المملوكية فقد كتبت ليوقفها اصحابها على مساجدهم التي شيدت على نفس القياس ، فالمسجد السلجوقي صغير جداً اذا قيس بالمسجد المملوكي الكبير الذي نرى العديد منه في القاهرة المملوكية مثل مدرسة الجاشنكير وجامع قلاوون ومدرسة السلطان حسن التي تأخذها على انها قمة معمارية ومعجزة بناء لا نظير لها في ايران أو في الاناضول السلجوقي ولا حتى في استانبول العثمانية التي بها العديد من المساجد الكبيرة مثل السلمانية والسلطان احمد وشهزاده . ويحدثنا المؤرخ تقي الدين المقرئ عن مدرسة السلطان حسن فقال « بدأ السلطان عمارته سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأوسع دوره وعمله أكبر قالب وأحسن هندام واضخم شكل فلا يعرف في بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذا الجامع » (٦٧) .

وبمسجد السلطان حسن نماذج مختلفة من الكتابة العربية فعلى الطنف الموجود بالايوان

(٦٧) المقرئ : نفس المصدر ص ٣٩٦ .

ذات المجود المبدع ومن ثمة داخل نفس المتدوق .

كانت البداية حين طرح المجود الفارسي انماط الشكل التقليدي الذي كان له التزام جوهرى يتبع أسلوب ابن مقلة وابن البواب واخذ نفسه بتصور للحروف مختلف ، وبمعاذلة جديدة مصدرها احساس الخطاط بنفسه وبقيمته وما يمكن ان يبدعه وما يكتشفه ويتعرف عليه من علاقات بين الشكل الخارجى للحروف والذات الانسانية ، حيث انبثق مذاق رفيع جعل من الحروف العربية وقواعدها الخطية ليس مجرد نقل للشكل يقتضي مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف ووزنها الشكلي بل اصبحت الغاية القصوى لديه مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف مع مآثره من مضمون روحي ، اي ان الخطاط المجود العبقري اخذ يلتبس أنماطا جديدة غير معروفة طرح من حروفها الموزونة تعبيراً روحياً جعل من الخطاط صوفياً متمرساً من ارباب الاحوال والمقامات يفيض قلبه ولسانه ويده بحب الله فأكثر من كتابة لفظ الجلالة في خط مميز جميل ليتقرب به رتبة من الله . فلقد « كان الخطاطون اعظم الفنانين مكانة في العالم الاسلامي عامة وفي ايران خاصة لانشغالهم بكتابة

المصاحف » (٦٨) . التي هي « كلمة الله ويد انسان » (٦٩)

وبداية المدرسة الفارسية كما يذكرها لنا « حاجي ميرزا عبدالمحمد خان ايراني » في كتابه « بيدايش خط وخطاطان » (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م) ان خطاطي القرن الثامن الهجري (١٤م) قد ترسموا طريقة ياقوت المستعصمي بعد خراب بغداد ، قال وهم ستة : عبدالله الصيرفي الذي اشتهر بقلم النسخ ، وعبدالله ارغون ٧٤٢هـ (١٤م) بخط المحقق ، يحيى الصوفي وهو من تلاميذ الصيرفي سنة ٧٣٩هـ (١٤م) بخط الثلث ، ومبارك شاه قطب ٧١٠هـ (١٤م) بقلم الرقاع ويؤكد أن يحيى الصوفي وحده اخذ الخط عن ياقوت مباشرة (٧٠) وهؤلاء غير الذين ذكرهم القلقشندي . ومن المعروف لم يصلنا سوى القليل من فنون الكتاب وصناعته في فارس حتى القرن الثاني عشر (٧١) .

وفي القرن السابع الهجري (١٣م) ظهر في افق العالم الاسلامي من خلال عبقرية الانسان المسلم خط التعليق الذي يعرف باسم الخط الفارسي ومن مميزاته ميل حروفه من اليمين الى

(٦٨) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي - ص ٦٦ القاهرة ١٩٤٦ .

(٦٩)

PHILIP BAMBOROUGH, TREASURES OF ISLAM, P.21, G.BRITAIN

(٧٠) ناجي زين الدين المعروف : نفس المصدر ص ٣٨ .

(٧١) ! . بارت : نفس المصدر ص ١٧٥ .

ومن المشاهير الذين جاءوا من بعد هؤلاء واحتفظ التراث بأفضالهم في حقل تجويد الخطوط العربية يأتي اسم عبدالرحمن الخوارزمي وابنه عبدالكريم الخوارزمي الذين عملا معا في تحسين الخط نستعليق . وعبدالكريم هو الذي كتب درة المخطوطات الفارسية وهو ديوان جلستان للشاعر عبدالرحمن جامي ، وفي ذلك العصر ظهر « ابراهيم سلطان » الذي كان من أبرع اللاعين بالحروف وعرفت عنه مقدرته على الكتابة بستة أساليب خطية مختلفة وفي ضريح الامام رضا بمشهد مصحف بديع بخط ابراهيم سلطان تاريخه في سنة ٨٢٧هـ - ١٤٢٤م (٧٣) .

وكان بكل مدينة من مدن فارس الاسلامية كبار خطاطيها ، وكان التنافس بين المدن المختلفة يشكل في ذاته مدارس لتجويد الخطوط العربية قائمة ، ولكل منها مميزات التي تجعلها في موضع الشهرة عن غيرها من المدن الاخرى . وكانت لمدينة هرات مكانة لامعة عندما أسس بها شاه رخ مدرسته التي ضمت الخطاط والمصور والمذهب وصانع الورق ، وقمة اعمال هذه المدرسة يظهر في نسخة الشاهنامة التي تعرف باسم شاهنامة طهران وقد كتبها المجود جعفر بيستقر التبريزي سنة (٨٣٢هـ - ١٤٢٩م) للشاه بيستقر ميرزا الذي سار على

اليسار في اتجاهاتها من أعلى الى أسفل ويشكل حرف النون مفتاح قواعد خط التعليق ، فاذا انت اتقنته اتقنت باقي الحروف ، لان القاعدة فيه أن تأخذ اولها بسن القلم ليتحول الى صدره ثم ليتتهي به مرة اخرى .

وبين خط النسخ وخط التعليق ابداع الاستاذ العظيم مير علي تبريزي الذي ذهبوا فيه عن حق انه اعظم من كتب واجاد ، واجل من تناول القلم وجود ، واليه يرجع الفضل في ابتكار خط نستعليق وهو كما يبدو من اسمه جمع بين خطي النسخ والتعليق ، كان منهج التبريزي لجعل منه أكثر رشاقة من الخطوط اللينة الاخرى ، عدا انه يحتفظ بصفات خط النسخ الرزين وخط التعليق الرشيق ، ومن أقدم أعمال علي تبريزي وأجملها نسخه من قصة هامي وهمايون التي كتبها خوجة كرماني « وهي من مقتنيات المتحف البريطاني بلندن (رقم ١٨١١٣) ويرجع تاريخها الى سنة ٧٩٩هـ - ١٣٩٦م وتنسب الى بغداد » (٧٢) وكان مير علي تبريزي في خدمة الامير تيمور « وخلفه ابنه عبدالله فآتم بعض التفاصيل في هذا الخط الجديد وكان له تلميذان مشهوران اولهما مولانا جعفر التبريزي الذي كانت له رئاسة اربعين خطاطا كانوا يشتغلون دائما للامير بايستقر ، والثاني هو الاستاذ مولانا أظهر التبريزي (٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) .

درب ابيه شاه رخ ، وعمل على ان تكون مدرسة هرات اكاديمية للكاتب لها شهرتها التي ذهبت لتملأ العالم الاسلامي .

وكانت لمدينة تبريز في عهد الشاه طهما سب (٩٣١ - ٩٨٤هـ / ١٥٢٤ - ١٥٧٦م) الفنية التي علت شهرتها الى مكانة لم تبلغها أي من المدن الفارسية الاخرى ، وذلك بفضل والد الشاه اسماعيل الصفوي (٩٠٨ - ٩٣٠هـ / ١٥٢٤ - ١٥٧٦م) الذي كان قد شمل المصور محمد كمال الدين بهزاد والخطاط محمود النيسابوري وحين قامت الحرب بين الشاه اسماعيل والسلطان ياوز سليم الاول سنة ٩٣٠هـ - ١٥٢٣م اخفاهما الشاه في كهف حرصا عليهما من أن يقعا في أيدي الاتراك .

ودرة اعمال محمود النيسابوري نسخة من ديوان المنظومات الخمسة التي كتبها الشاعر نظامي الكنجوري وتاريخها ٩٣٢هـ - ١٥٢٤م وهي الان في متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك .

وكانت لمدينة اصفهان شهرتها التي تأت لها من نبوغ الخطاط الاستاذ ميرعماد الحسيني توفي سنة ١٠٢٤هـ - ١٦١٥م الذي مازال الايرانيون يذكرون اسمه ويتكلمون عنه حتى الان كلما تحدثوا عن الخط ومشاهيره ، وعماد الحسيني هو من افضل من كتب خط التعليق وله مجموعة من

المرقعات كتبها سنة ١٠٠٨هـ - ١٥٩٩م وهي الان من مقتنيات متحف طوب قابو باستانبول .

وتذهب البراعة الفائقة في كتابة خط التعليق الى هذه الورقة التي كتبها الخطاط سلطان علي مشهدي وهي لم تكتب بمداد انما كتبها مفرغة على ورقة بيضاء وتحتها ورقة في لون برتقالي باهت وهي الاخرى من مقتنيات متحف طوب قابو .

ولا يعني تعلق الفرس بخط التعليق والنستعليق ان ليس لهم ممارسة لباقي الخطوط . لا شك أن الخطاط الفارسي له مذاق خاص كان يستهويه ، فالتصوف الفارسي دون شطحات كان ممارسة روحية ، وتذوق الفارسي للحياة جعله يحب الطبيعة التي خلقها الله وصورها أحسن تصوير ، ولهذا نجد وله الفارسي بالحديقة وبالسجادة التي تشبه الحديقة أو الجنة ، ونرى شعراء الفرس لا يفصلون بين الطبيعة والتصوف ولهذا أصبح الغزل الصوفي وحب الطبيعة في أعمال فريد الدين العطار وعند سنائي وجلال الدين الرومي ، وعلى ذات الروي وعلى نفس البحر اخذ الخط مسالكه فيما بينهم حتى اسقطوا بعضه في اهبام الصوفية واسرارها ولهذا وجد عندهم الخط الذي يعرف باسم شكسته ، وشكسته اميز ، وهما من الخطوط المبهمة والالغاز المعقدة أو هو طلسم ملغز ولا يعرف كتابته او قراءته احد الا من تعلمه ومارسه وفهم رموزه .

ابدىع الاتراك مدرستهم التي كان لها الدور الكبير في تحسين الخطوط وتجويدها وابتكار الحسن والجديد منها ، ان الادراك الحقيقي للكلمة الموجودة المكتوبة عند الخطاط التركي كانت لديه إحساساً ذوقياً وحدسياً لان حروف العربية قد اصبحت لديه تحمل في شكلها معنى والتعرف على هذا المعنى انما يتأتى وميضاً يصل مباشرة الى رؤية جمالية ، فالتصور الذي نشده المجدود التركي في البسملة بالخط الجلي او النسخ او التعليق او الديواني واراد أن يبرزه قدر المستطاع وان ينقله أمامنا في اداء محكم حسب قواعد التجويد المثالي لحروف البسملة التي اصبحت من خلال كتابتها بخطه المحكم لا تمثل شكلاً غائباً ولا رمزا مبهماً انما تمثلت حروفاً عربية قائمة في الحيز ولها وضع جمالي متحرك ينعكس بطبيعته داخل نفوسنا ليصبح ترديداً للمعنى الصوفي للعلاقة التي تربط بين الانسان وبين بسم الله الرحمن الرحيم .

والاتراك اخذوا الخط من سلاجقة الروم كما اعطتهم ايران بالقدر الذي اخذوه من مصر المملوكية ، ومن هذا كله تكونت المدرسة التركية العثمانية التي اصبحت بفضل المذاق العثماني خلاصة للرحيق العاطر الشذي الذي تدفع ليضيف لتراث الاسلام الفني الاعجاز العبقري الذي صنعه قلم من الغاب لتتناوله يد الانسان المبدعة لتعطيه لنا تقاسيماً انغامها شرقية

ان صياغة الحروف العربية ورسمها المعجز كانت عند الفارسي الانسان كمناجاة الناي لجلال الذات وقدرته ، أو هي لديه عشق وجوي فاض من وجد خطاط مجود جوهراً اوضعه قلب الكلمة فأنطقها الثناء على الله . أو هي اشارات شاعر هائم اخذ به الحال فتجلى الشوق ذوقاً في اشعاره مترنماً بحب الله ، وان هذه الحروف قد اصبحت مكاشفات صوفي متعبد ترنح بمجاهدات قلبه همسات ابتغى بها القرب من الله ، أو أن الخطوط العربية قد اصبحت كنايات وابتهالات لبستاني همس بنجواه من فوق رياض الاشواق لله .

ان مكنون هذه الوشائج المترابطة قد طرحت نفسها على شعب آخر من المسلمين نزل تجويد الخط العربي في انفسهم كما لم ينزل على أحد من غيرهم من قبل . يقول الاستاذ اوغور درمان « ان في العالم الاسلامي مثلاً سائداً يقول : نزل القرآن في الحجاز وقرئ في مصر وكتب في استانبول » والواقع أن معجزة القرآن كتحة فنية لم تنعكس على الورق الا في استانبول وكذلك اللآلئ من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكتب مثل حبات اللؤلؤ الا في هذا البلد أيضاً (٧٤) .

وفي اعتقادي انه ليس في هذا الكلام اي مغالاة لان من بين الشعوب الكاتبة بالعربية

مدينة بوسرة واخرى يفتنيها متحف مولانا جلال الدين الرومي .

واذا كان الخطاط الحاج احمد كامل قد ذكر أن أول السلسلة الذهبية من الخطاطين الاتراك هو الشيخ حمدالله الاماسي ٨٣٣ - ٩٢٧هـ / ١٤٢٩م - ١٥٢٠م فاننا قد وجدنا في متحف الآثار الاسلامية التركية بمدينة استانبول مصحفاً كتبه ارجون الكاملي (رقم القيد ٤٥٢) مؤرخاً سنة ٧١٧هـ - ١٣١١م ومصحفاً آخر كتبه يحيى الصوفي مذهب ومزهر (رقم القيد ٤٣٠) مؤرخاً سنة ٧٤٣هـ - ١٣٤٢م وهما أقدم ما نعرف عن الخطاطين الاتراك ، ويمكن اعتبارهما مع غيرهما من الممهدين للمدرسة التركية وبذلك يبقى الشيخ حمدالله أول الفيض التركي .

والشيخ عبدالرحمن حمدالله الاماسي المعروف باسم الشيخ كان أول من خرج من الخطاطين الاتراك عن الاسلوب الاتباعي ، وأخذ نفسه بأقلام جديدة غير مسبقة شجعه عليها تلميذه السلطان بايزيد الثاني وفي متحف طوب قابو مصحف كبير مؤرخ ٩٢٦هـ - ١٥٠٩م عدد اوراقه ٤٧٣ وله مرقعه كتبه بالاقلام الجلستة مكتوبة بالعربية والفارسية مذهبة وملونة والبعض منها بخط التعليق .

خالصة ، « صار القدح المعلي في هذا الشأن للعثمانيين ، فقد اشتهر منهم الشيخ حمدالله الاماسي الذي مهل الخط من منبهه العربي الاصيل كما ذكر في ترجمته ، ونشأ من تلاميذه جيل ممتاز من المجودين وقد تنوعت سلسلتهم ، فذكر رئيس الخطاطين احمد كامل في لوحة كتبها نقلا عن شيخه حمدالله نصا باللغة التركية ذاكرا نسبة الخطي ، قال ما ترجمته بالعربية « ان الشيخ حمدالله كان شيخ الخطاطين ، أرخ رحيله بالحروف سنة ٩٢٦هـ وبعده جاء شكرالله لسلسلة مشيخة الخط ، ثم محمد حسن ، ثم خالد درويش علي ، وبعده مصطفى ، ثم جاء لحفظ طور الشيخ الحافظ عثمان ، أرخ وفاته بالحروف ايضا في سنة ١١١٠هـ ثم جاء بعدهم السيد عبدالله افندي أرخه الناظم لسنة ١١٤٤هـ ثم ذكر الاستاذ راسم وأرخه بالحروف في سنة ١١٦٩هـ وختم ابياته بالسنة التي نظمها فيها وهي ١٣٤٢هـ (٧٥) .

والتراث التركي من الخطوط العربية الموجودة محفوظ في متاحف الدولة ، في متحف طوب قابو ، ومتحف الآثار الاسلامية التركية ، ومتحف الخطوط التركية (مدرسة السلطان سليم) الذي يحتوي نماذج عديدة كتبها سلاطين آل عثمان ، كما توجد مجموعة متنوعة في متحف

الكبير في أغلب الكتابات الكبيرة مثل الكوفي المحقق والثلث الجلي أو ثقیل الثلث ، وقد سميت هذه الأقلام بالجلي وشملت التسمية خط التعليق الفارسي أيضا « جلي التعليق » على أنه يتبادر للذهن أن كلمة الجلي اختصت بالثلث فقط فهي تعني الواضح ، سمي لذلك لما في حروفه من سعة على ما تقتضيه الموازين ، ووضع الكتابة في مواضعها من واجهات المساجد والقباب ، والمنابر والألواح » (٧٧) .

وإذا أردنا أن نضع في تصورنا هذا الجلي العثماني فالتنا نجد منه ما يمكن أن نسميه « جلي الجلي » في ذلك الخط الكبير الذي كتبه الخطاط التركي « يياقجي زاده مصطفى شلبي » في جامع ايا صوفيا ، كتب هذا الخطاط آيات من القرآن الكريم بحروف كبيرة من الذهب بلغ طول الألف فيها مبلغا كبيرا ارتفع الى عشرة أذرع على أن هذه الآيات الجميلة التصوير التي تشابه في كثير من الأحيان قد حدث من كبرها أسماء الخلفاء الأربعة الراشدين التي كتبت في وضوح وجزالة وكتبها الخطاط تكنجي زاده ابراهيم ، أبان عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٣ - ١٠٥٠ هـ / ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) (٧٨) .

ومن ابرز من كتب الخط واجاد رئيس

وفي عصر السلطان سليمان القانوني (٩٢٧ - ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) كان في تركيا مجود كبير هو احمد قره حصارى ولد سنة ٨٧٤ ومات سنة ٩٦٤ هجرية ١٤٦٩ - ١٥٥٦ م ، وقد تميز هذا الخطاط بخط الجلي وأخذ قلمه به وبرع في كتابته وفي متحف الآثار الاسلامية التركية مخطوط له مكتوب فيه سورة الانعام على الصفحات الاولى مذهبة بخط الثلث الثقيل وبعدها سورة بخط النسخ ومن ثمه سطور بخط الثلث الثقيل ثم سطران بخط الثلث الخفيف . وفي متحف طوب قابو مصحف آخر له كتبه بخط المحقق والريحاني . ومن ابتكارات الخطاط قره حصارى هذه الصفحة التي تحتوي على كلمة الحمد لله وسورة الاخلاص بالخط الكوفي البسيط ثم البسمة بخط جلي مبتكر وان كانت على القاعدة التي كتبت بها البسمة في ديوان الانشاء للقلقشندي (٧٦) .

وخط الجلي الثلث هو خط الطومار « ولقد جعل العثمانيون الاترك الخط الجلي على منشآتهم الدينية وفي ألواح المساجد والجوامع وفعل ذلك من قبلهم اهل التركستان في ماوراء النهر ، فجعلوا عرض القلم في عرض كتابات الجدران والمحاريب ١٠ - ٢٥ سم حققوا كلمة الجلي التي تطلق على ما يكتب الحرف العريض

(٧٦) القلقشندي : نفس المصدر ص ١٣٨ .

(٧٧) قاضي زين الدين المصنف : نفس المصدر ص ٤٦٥ .

(٧٨) دائرة المعارف الاسلامية : رقم ٢ ص ١٢٢ - القاهرة .

الخطاطين « حافظ عثمان افندي » (١٠٥٢ - ١١١٠ هـ / ١٦٤٢ - ١٦٩٨ م) وهو عثمان علي الذي تقول الاتراك عنه « شمس خط جديد أخذت تشرف في سماء الفن باستانبول » (٧٩) ، تتلمذ الحافظ عثمان علي الخطاط درويش علي « السدي تعلم على يده أكثر من ألف طالب » (٨٠) ، وأكمل تعلمه للخط واجادته على يد الخطاط « سيولجي زاده مصطفى الايوبي » « وفي سن الثامنة عشرة كان الحافظ عثمان مؤهلاً لنيل اجازة الخط ، ولم تمنعه هذه الاجازة من ان يتلمذ على الخطاط نفيس زادة سيد اسماعيل ، ومن ثمة وجد انه في الامكان ان يعطي الغير ثمار اجازته للخط وعاش ليمضي سنوات حياته القصيرة يكتب ويعلم حتى أصبح مدرسا للخط للسلطان مصطفى الثالث وفي سن الاربعين مات ودفن في مدافن كوجا مصطفى باشا باستانبول » (٨١) .

كان الحافظ عثمان افندي مركز ثقل في فنه وكان حلقة وصل بين الجيل القديم والجيل اللاحق له الذي ازدهر بالعديد الذي لا يحصى من المجودين الاتراك من بينهم اسماعيل زهدي ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ وأخوه مصطفى راقم ١١٧١ - ١٢٤٢ هـ / ١٧٥٧ - ١٨٢٦ م) الذي

أبدع مقاييس جديدة أخذت بها الحروف الابدجية تتمثل قيا جمالية اضفت عليها أبعاداً ذوقية لها طنين موسيقي ، « لقد ارتقى مصطفى راقم الى ذروة اساليب الخط من الثلث والنسخ والجلي » (٨٢) ولا سيما في حرف - لا - الذي نراه لديه ولدى غيره ممن جاء من بعده له أبعاد جمالية جديدة ، ولمصطفى راقم مرقعة كتب عليها لا حول ولا قوة الا بالله جمع فيها ال (لا) في تكوين مثالي معجز وهي من مقتنيات متحف الآثار الاسلامية التركي .

ويأتي من بعد هؤلاء الكبار ذلك الخطاط الذي لمع كصاحب مدرسة وهو السيد مصطفى عزت قاضي عسكر (١٢١٦ - ١٢٩٣ هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٦ م) له العديد من الاعمال المميزة منها ما كتبه داخل القبة الرئيسية في جامع اياصوفيا حيث نشاهد بها البسمة مع آية الكرسي مكتوبة بخط جلي الجلي في مساحة دائرية منحرفة الى أعلى بلغ طول الكتابة فيها سبعة ونصف من الامتار ، كما له كتابات اخرى على حوائط هذا الجامع ، وعمل عزت افندي مدرساً للخط في المكتب السلطاني (المدرسة) وتجلت استاذيته في كتابة الجلي والثلث والنسخ والرقعة والفارسي والديواني . وكان له اخ برع

(٧٩) أوغور درمان : نفس المصدر ص ٢١ .

(٨٠) طاهر الكردي : نفس المصدر ص ٣٣٩ .

(٨١)

(٨٢) أوغور درمان : نفس المصدر ص ٢١ .

الجاحدة بتراث تركيا الاسلامية ، ويمتاز حامد الأمدي بجلاء رؤية في ضبط حروف العربية وهو يكتب عدة اقلام ويحسبها منها الجلي والتعليق . ولم يكن حامد الأمدي هو وحده الذي استمر بمعركة الخط العربي في تركيا فقد كان معه على سبيل المثال الحاج كامل الفديق المتوفي سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٤٠م ، والحاج نوري كرماني المتوفي سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥١م . والمعاصر امين باريم .

لقد كتب الخطاط التركي عدة أقلام قديمة ومبتكرة ، كتب الجلي وجلي الجلي وكتب بالخط السنيلي والرياسي والرقعة أو قيرمة رقعة سي الذي كتب به أول من كتب ابوبكر مختار بك مصطفى افندي في عهد السلطان عبدالمجيد خان ١٢٨٠هـ - ١٨٦٣م وخط الديواني الذروة التركية المعروفة باسم الخط الهمايوني وهو الخط الذي استعمل في الديوان العالي العثماني وكتبت به أوامر السلطان والانعامات والفراغات ، وهنا رأي يقول ان أول من كتب به هو ابراهيم منيف ولكن الاستاذ ناجي زين الدين المصرف يذهب ان أول من كتبه هو شعله باشا .

واذا كان العراق العباسي قد اخرج اللبئات الاولى للخطاط المسلم ممثلة في أوابد بن مقله وابن البواب وياقوت فالعراق ابان حكم الماليك المعروفة باسم الكولات ١١٦٣ - ١٢٤٧هـ / ١٧٤٩ - ١٨٣١م . برز خطاطون

هو ايضا في تجويد الخط واسمه الحافظ تحسين افندي وكان مدرسا للخط في مدرسة « دار الشفقة الاسلامية بالآستانة » . ومن تلاميذ الخطاط عزت برع شفيق بك (١٢٣٥ - ١٢٩٨هـ / ١٨١٩ - ١٨٨٠م) وفي ذلك الحين افتتن بعض الخطاطين الاتراك بخط التعليق الفارسي فاستعاد البعض نص ر عماد الحسيني ومن هؤلاء الخطاط فخر الدين البروسوي (١٠٢٨هـ - ١٦١٨م) وله عدة مرقعات بخط التعليق من بعضها ما كتبه بالحروف المفرغة .

وبعد ذلك ظهر الخطاط محمد أسعد يساري المتوفي سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٩م وله مرقعة بخط التعليق في متحف طوب قابو . ومن بعده ظهر ابنه يساري زادي مصطفى عزت الذي كتب بخط جلي التعليق . ومن بعده جاء نجم الدين اوقياي (١٣٠١ - ١٣٩٦هـ / ١٨٨٣ - ١٩٧٦م) ، والخطاط عبدالله بك زهدي أخذ عن حافظ راشد افندي ونال اجازته عن مصطفى افندي عزت قاضي عسكر وعين معلما للخطوط بجامع نور عثمانية بالآستانة ثم ندبه السلطان عبد الحميد لكتابة الحرم المدني الشريف ومن أفضاله انه أقام مدرسة للخطوط العربية بالقاهرة ومات بها سنة ١٢٩٦هـ - ١٨٧٨م ومن أشهر الخطاطين في العصر الأخير نجد الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعي توفي سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م والخطاط احمد كامل ومن ثمة حامد الأمدي الخطاط المعاصر الوحيد الصامد خطه العربي الى الآن امام لاتينية تركيا الحديثة

محمد علي باشا الذي عين الاستاذ التركي عبدالله بك زهدي مدرسا للخط بمدرسة الخديوية « وفت اثناء ذلك كلفته الحكومة المصرية كتابة الآيات القرآنية وغيرها على كسوة الكعبة الشريفة - عندما كانت هذه الكسوة تعمل في مصر - كما كتب سبيل ام عباس ، وتوفي في مصر سنة ١٢٩٦هـ - ١٨٥٢م ودفن في مقابر جامع الرفاعي وتخرج عليه كثيرون » (٨٥) .

ومن ثمة جاء الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعي امام الخطاطين وأحد المجودين العظام في عصره استقدمه الملك احمد فؤاد الاول ملك مصر سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢١م ليكتب له مصحفا « فكتبه في ستة اشهر وأتم تذهيبه ونقشه في ثمانية أشهر » (٨٦) .

وكان آخر من جاء الى مصر من الاتراك الاستاذ احمد كامل الذي ذكرنا لوحته التي وضع على رأسها حمد الله الاماسي ، وقد تخرج على احمد كامل العديد من الخطاطين المصريين حين كان يدرس الخط العربي في مدرسة تحسين الخطوط بالقاهرة .

وقد يكون الاستاذ محمد مؤنس افندي زادة

اعاظم كانوا زينة العراق ومظهر ذوقه واتقانه . . . فكان من آخر هؤلاء استاذ الخطاطين ونابتهم سفيان الوهبي ذاع صيته في العراق وزادت شهرته وعاش استاذ الخط من سنة ١٢١٥هـ - ١٨٠٠م وله مصحف كتبه بخطه لا يزال موجودا في جامع الاحمدية في بغداد ، أخذ عنه نعمان الذكاني ودرويش محمد الفيض ومحمود القلعة في المعروف بالثنائي وبكر افندي اغازاده وهؤلاء أهل فن » (٨٣) .

أما العراق الحديث فهو زاخر بالعديد من الخطاطين منهم الخطاط هاشم محمد البغدادي الذي حصل على اجازته من مدرسة تحسين الخطوط الملكية في القاهرة عام ١٩٤٤ « وحصل على شهادة دبلوم بتقدير امتياز رغم انه لم يمكث بها سوى اسبوع واحد للامتحان » (٨٤) واجازة سيد ابراهيم المصري ، واجازه مرتين الاستاذ حامد الامد التركي ، وتوفي سنة ١٩٧٣م وكان الخطاط عبدالغني عبدالعزيز هو وحده الذي منحه الاستاذ هاشم محمد البغدادي اجازة الخط دون غيره ، ومن تلاميذ هاشم ايضا صادق الدوري وعبدالله الجبوري .

وبدأت نهضة فنون الخطوط العربية الموجودة في مصر المعاصرة ابان الخديوي اسماعيل بن

(٨٣) عباس الغزاوي : صلعة من تاريخ الخط في العراق - ص ٤ مجلة الادب والفن . الجزء الثالث . السنة الثالثة . لندن ١٩٤٥ .

(٨٤) تركي عطيه جهود الجبوري : نفس المصدر ص ١٧٥ .

(٨٥) طاهر الكردي : نفس المصدر ص ٣٤١ .

(٨٦) المصدر ذاته : ص ٣٨٦ .

بترميم الكتابة الكوفية في مسجد احمد بن طولون في القاهرة . ومن الذين تفرغوا لتدريس الخط بمدرسة الخطوط بالقاهرة محمد افندي زاده وكان بجانب حسن خطه يدرس التذهيب والزخرفة ومات سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م . وفي القاهرة لمع الاستاذ نجيب هوايني الذي كانت له أمشاق خط من الثلث والنسخ كانت تسمى السلاسل الذهبية وكانت تدرس لنا في المدارس الابتدائية ، وفي القاهرة نجد الاستاذ السيد ابراهيم الذي عمل مدرسا في مدرسة تحسين الخطوط العربية بالقاهرة والاستاذ محمد حسني واصلة من سورية .

واذا أخذنا من كان موجودا من كبار الخطاطين بالاسكندرية فاننا نجد فيما نجد الاستاذ محمد كاظم الاصفهاني والاستاذ عبدالسلام الفخفاخ توفي سنة ١٩٣٨ وكان يسكن ويعمل في حي الموازين بالاسكندرية ، ولم يكن يخلو منزل بحي رأس التين من آية كتبها أو اسم الجلالة ، ولمع ايضا في هذا البلد الاستاذ محمد عبده والاستاذ شفيق المصري . وكذلك الاستاذ محمد ابراهيم الذي أعطى للمنهج التعليمي لتجويد الخط العربي الصفة المدرسية واقام مدرسة تحسين الخطوط في الاسكندرية وكان لها الفضل في تخريج العديد من التلاميذ ، توفي سنة ١٩٧٠ .

هو شيخ الخطاطين المصريين ، في عهده أخذ الخط عن والده ابراهيم افندي مؤنس^(٨٧) وله مخطوط كتبه سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م وهو من مقتنيات دار الكتب المصرية بالقاهرة .

ومن تلاميذ الاستاذ مؤنس الاستاذ محمد افندي ابراهيم الملقب بالافندي الذي عمل مدرسا في مدرسة ام عباس ثم في مدرسة تحسين الخطوط العربية . ولمع في مصر الشيخ علي البدوي الذي كتب الآية الشريفة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » على شكل دائرة على السبيل المصري في « منى » الذي انشأه الملك فؤاد الاول^(٨٨) وظهر ايضا مصطفى بك غزلان وكان له امشاق كتبها بالخط الديواني وطبعتها مصلحة المساحة وكانت تعطي لنا في المدارس الابتدائية ، وهو الذي كتب الآيات القرآنية بخط الثلث داخل قاعتي العرش في قصر عابدين بالقاهرة وقصر رأس التين بالاسكندرية ، وفي عام ١٣٥٦ هـ - ١٣٧٠ م انجز غزلان بك درة اعماله الفنية حين كتب كساء الكعبة لمصلحة الكسوة التي كانت ترسل من القاهرة الى مكة المكرمة كل سنة منذ أيام المماليك وحتى ابطالها الرئيس السابق لمصر .

ومن المدرسة الحديثة نذكر أيضا الاستاذ يوسف احمد مفتش الآثار الاسلامية الذي قام

(٨٧) المصدر ذاته : ص ٣٥٦ .

(٨٨) المصدر ذاته : ص ٣٨٨ .

تعطي الحروف ايقاعات عالية ومنخفضة اي أن الحروف العربية الموجودة بين القرار والجواب - اذا جاز لنا أن نستعمل هذا المعنى - انما تقوم على حركات زمانية لها ضوابط مكانية متناسقة الشكل متساوية الوزن أي ان لها ذات الأبعاد الايقاعية التي تتناوبها الموسيقى الشرقية القيمة وذات ضربات الشعر العربي في تفاعيله المتباينة .

وفي سبيل ادراك الصلة بين الألحان السماعية والخطوط المرئية يمكننا أن نضع الخطوط الموجودة في موضع المقارنة مع الايقاع الذي هو في صميمه موازين زمنية كما هو موازين ذوقية ، ومن هنا تأتي الصلة ، حيث نجد كيف المكاني في الخطوط العربية الموجودة والكم الزماني في اللحن يشكلان نسبا متباعدة بعضها عن البعض ومتقارب البعض الآخر . والخلاف في الموازين والعدد مبعثه طبيعة كل منها اذ أنه ليس جمع الحرف الى الحرف يعني جمع البعد الى البعد لان الأمر في كل منهما انما يأخذ له حتمية المشاركة التي دائما ما تقوم بين التشكيل اي كان وبين التذوق ، وذلك لأن الأبعاد في كل منها له مقاييس افقية ورأسية متوالية الحركات والمنظور في هذه الأبعاد زمني أكثر منه مكاني ، وذلك لان عنصر الزمن متداخل بين الحرف والحرف وبين الطنين والطنين والبعد الزمني المخلل ضرورة ، بدونها لا يمكن ان يستقيم التجويد في الخط ولا التناسق في اللحن ، ولهذا

هذه لمحات عاجلة ومقتضبة من تراث الخطوط العربية الذي اذا نظرنا اليه وتأملنا ما هو قائم الآن لوجدنا ان الملكات قد اصبحت محدودة من هذه المادة الخالدة لان دوافع الخطاط الموجود قد اصبحت دوافع واهية الصورة والتعبير لانهم لا يرون من الخطوط العربية الا المظهر الشكلي والقليل من قواعد النسب المفروضة وفقا لمقتضيات الحروف وأبعادها الشكلي وسيرا على درب هؤلاء القدامى من الخطاطين المجودين اصحاب المواهب الذين جعلوا التعبير تشكيلا فنيا يتدفق ليعبر عن ذاته وعن حقيقة ان الذات الشرقية هي الوسيلة الى اظهار القيم الجوهرية في ذاتها ومع النفس المسلمة المبدعة لذاتها ومن ذاتها ، وبهذا كانت الحروف العربية الموجودة في مظهرها وفي جوهرها تطبيقا مرثيا لتلك الطاقة المبدعة التي يخترنها انسان الشرق الاسلامي في اعماقه .

ان الكلمة الموجودة في شكلها التركيبي انما تأخذ لها هذه الأصرة الجمالية الموجودة المنبثقة من المعادلات الذوقية الكامنة في كل حرف موجود وذلك لان الحروف العربية انما تستقيم في شكلها على هذه الصورة الرفيعة لانها قائمة على مقاييس رياضية بجانب مساهمات الروحية ، ولهذا نجد أن الكلمة الموجودة بين التركيب والتحليل قائمة اولا على العنصر الذاتي الذي يعطي لها شخصيتها التي هي في الواقع جزء من شخصية مجودها . وثانيا ، على المقاييس الدقيقة التي

واخذت اوربا بهذا القرد وصارت في اوج مدنيتهما المادية والحربية ، اما نحن فلم نستشف ما عني به العلاج بقوله انا الحق وتركنا قوله لنسير خلف القرد نعتنق ماديته ونتتبع خطواته الى حضارته المزيفة القاتلة .

لقد كان ومازال الخط العربي أحد المظاهر الحقيقية للحضارة الاسلامية ، وهو وحده الذي مازال قائما ومميزا حتى الآن رغم كل المعوقات التي تعترضه ، والدعوات الخبيثة التي تنادي بتركه والانصراف عنه الى الحروف اللاتينية .

ان فن الخط لم تعد له هذه القداسة التي كانت تميزه في الماضي ولولا هذه المجهودات الفردية التي تبذل هنا وهناك لاصبحت الخطوط العربية خطوط متاحف (يتفرج عليها السياح) .

لقد قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده « ان الاسلام محجوب بأهله » واستسمح الاستاذ الامام في اعادة كلمته وأقول « ان الاسلام يافضيلة الامام محجوب بأهله الاغبياء » .

يفسر الايقاع كما يذهب فيه الحسين بن زيلة « انه تقدير ما لزمان النقرات ، فان كانت النقرة منعمة كان الايقاع شعريا لحنيا ، وان كانت محدثة للحروف - المنتظم منها كلام - كان الايقاع شعريا » (٨٩) ونضيف الى ذلك ، وان كانت محدثة للحروف المكتوبة كان الايقاع تجويدا . وبهذا يمكننا أن نضيف هذا الايقاع الخطي لانه في حقيقته له نفس الابعاد الزمنية التي يتخلل حركاتها نغمات لها اوزان محسوبة بدقة امتدادها الزماني .

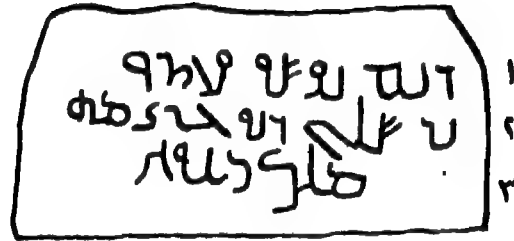
بهذا تكون وحدة الحركة قائمة في كل منها كما يذهب الى ذلك ابوحيان التوحيدي في قوله « الحركة صورة واحدة ولكنها توجد في مواد كثيرة ومجال مختلف وبحسب ذلك تولي أسماء مختلفة (٩٠) .

هذا هو بعض من تراثنا في الكتابة العربية وخطوطها المجودة وهو جزء من تراث كبير متكامل كلما تأملته واقتربت منه ثم رأيت الناس تعرض عنه وتنصرف الى غيره يحضرنا ابيات الشاعر الباكستاني بودي الذي يقول فيها :

قال المنصور ، أنا الحق
وقال دارون انا قرد

(٨٩) الحسين بن زيلة : الكافي في الموسيقى - تحقيق زكريا يوسف - ص ٤٤ القاهرة ١٩٦٤ .

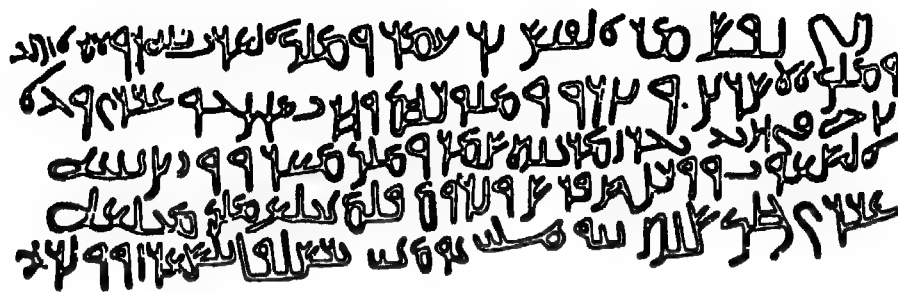
(٩٠) ابوحيان التوحيدي : المقامات . ص ٢٢٥ - القاهرة ١٩٢٩ .



شكل رقم (١)

نقش نبطي على قبر فمرو - تاريخه ٢٥٠ م - شرعيه في أم الجمل
ونصه كالآتي :

- ١- دنة نفشو فمرو
 - ٢- ابن شلى بن مري حذيمه
 - ٣- ملك تنوخ
- نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .



شكل رقم (٢)

نقش النمار : شاهد قبر امير القيس
كتابة نبطية عربية - تاريخها سنة ٣٢٨ م
نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .

ل سر حبل بر ظلمو بسب د / المړكول
 نسد لږو ككسر لآ مرسد
 حبل
 لږ

نص حران

شکل رقم (۳)

نقش حران : شاهد قبر شرحبیل - کاتبه عربیة تاریخها ۵۶۸ م

ونصها کالآتی :

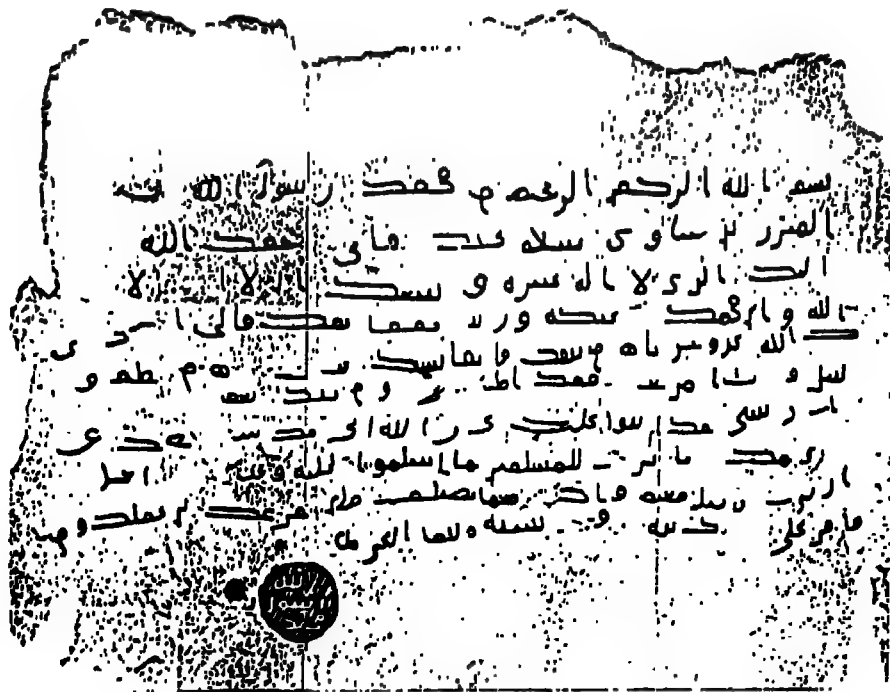
انا سر حبل بر ظلمو ذا المړكول

سنت ۴۶۳ بعد نفسد

حبل

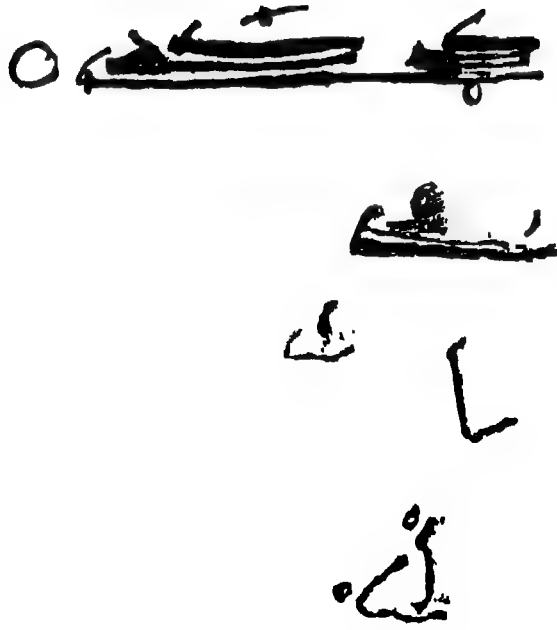
بعد

نقلا عن : دراسات فی تاریخ الخط العربی (المنجد) •



شكل رقم (٤)

صورة الرسالة التي أرسلها حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى المنذرين ساوئ
نقلنا عن : دراسات في الخط العربي (المنجد)

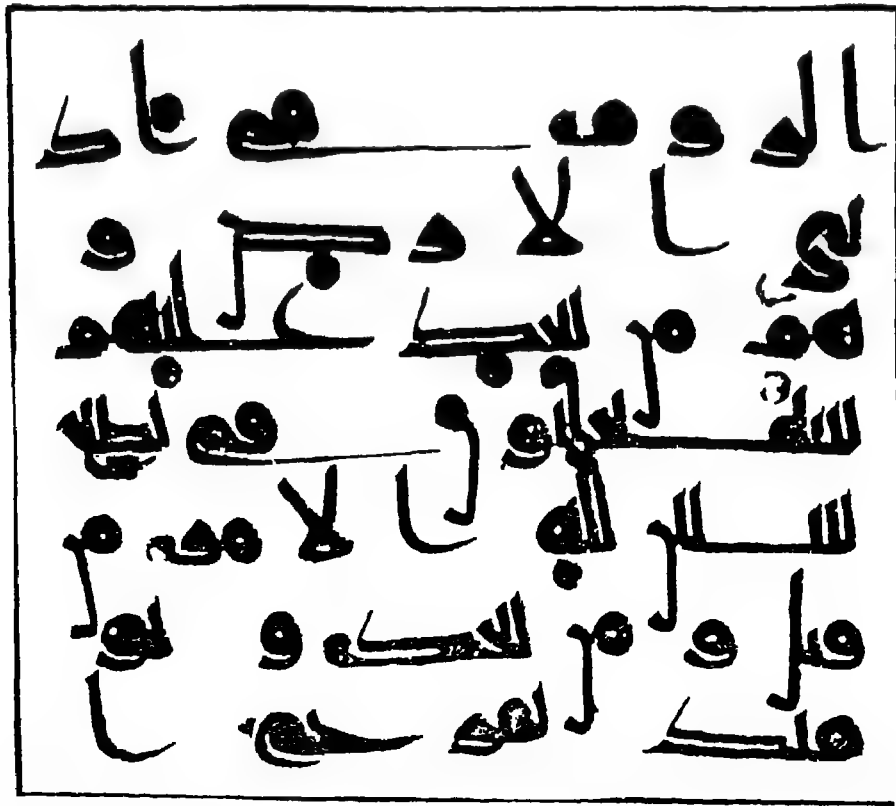


شكل رقم (٥) :

نموذج من الخلد المدني - حروف منتولة عن المصحف المنسوب لعثمان بن عفان
الموجود بمتحف طوب قابو - نقل محمود حلمي •

[illegible]

نقد من : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .



شكل رقم (٧) :

- ورقة من صحيف مكتوب بالخط الكوفي — أواخر القرن الثاني الهجري .
- نقل عن : مجلة الفيصل — العدد ٢٦ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ قِيدُوا الْعِلْمَ

بِالْكِتَابِ

كُتِبَ عَلَى نَزْهِ هَذَا الْحَمْدِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ

وُصَلَّى عَلَى نَبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَعَشَرَتِهِ

❦

شكل رقم (٨)

- الورقة الأخيرة من مخطوط كُتِبَ ابن الهواب بقلم الثلث — من مقتنيات
متحف الآثار الإسلامية التركية باستانبول •
نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصروف) •

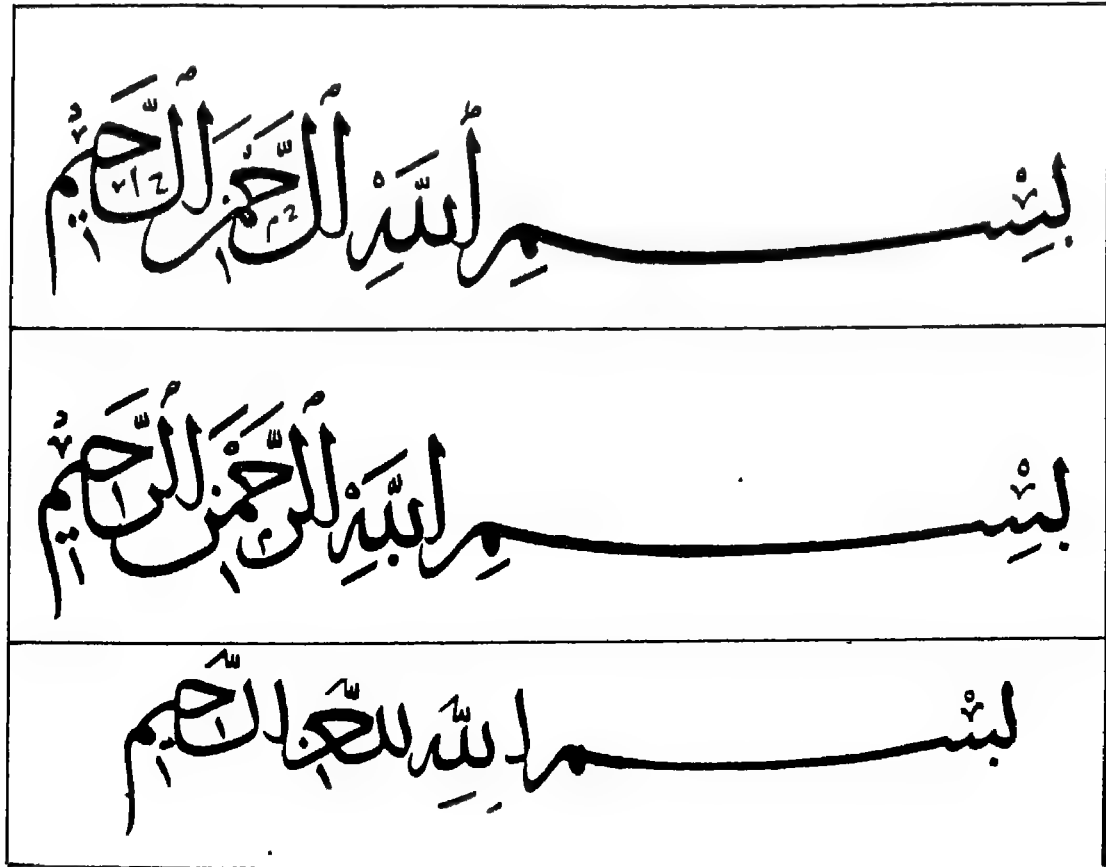
عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ وَآلِهِ
وَأَبُو بَكْرٍ وَآلُهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَبِيرُكُمْ وَكَرِيمُكُمْ

شكل رقم (٩) :

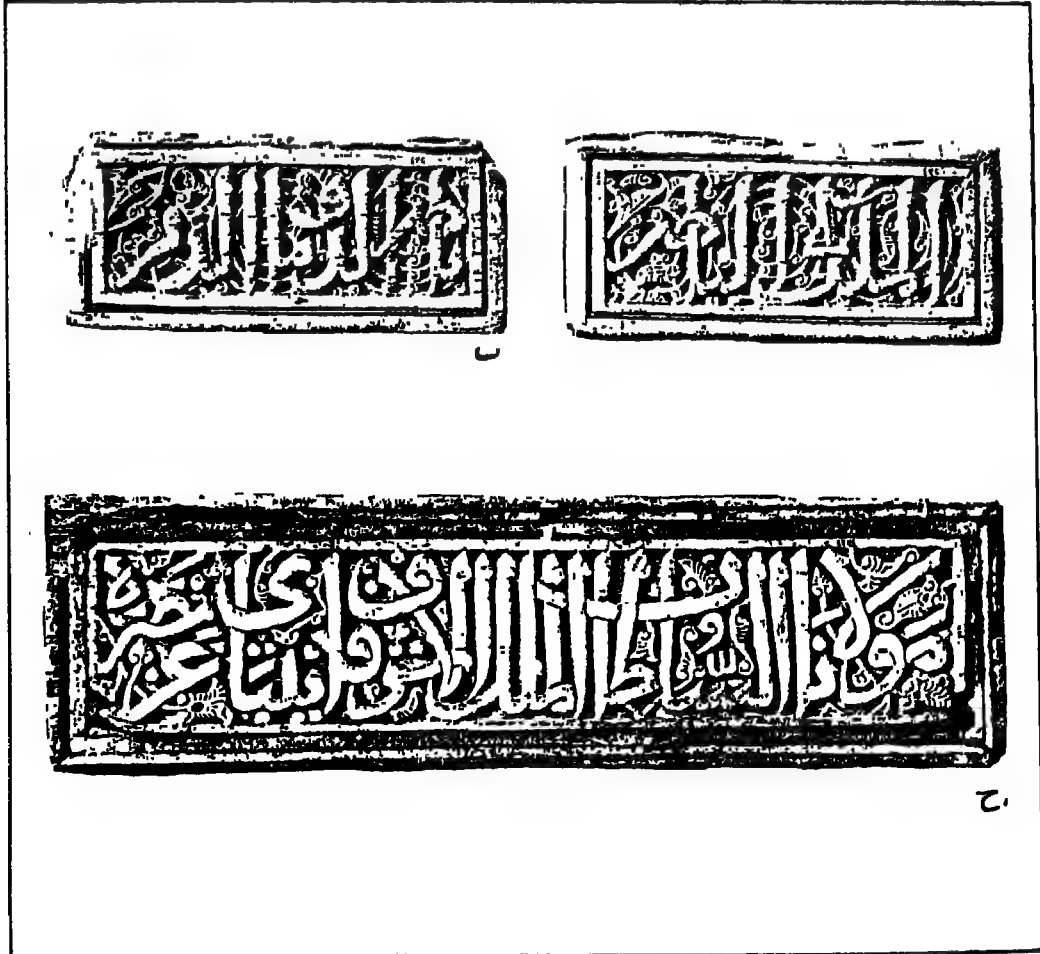
- ورقة من القرآن الكريم : بداية سورة مريم
- بقلم الثلثين - جليل الثالث - القاهرة القرن الثامن الهجري .
- نقلا عن : بدائع الخلد العربي (المندوف) .



شكل رقم (١٠) :

البسملة : ثلاثة نماذج من خط الثلث المملوكى المصرى

نقلا عن : القلقشنندى .



شكل رقم (١١)

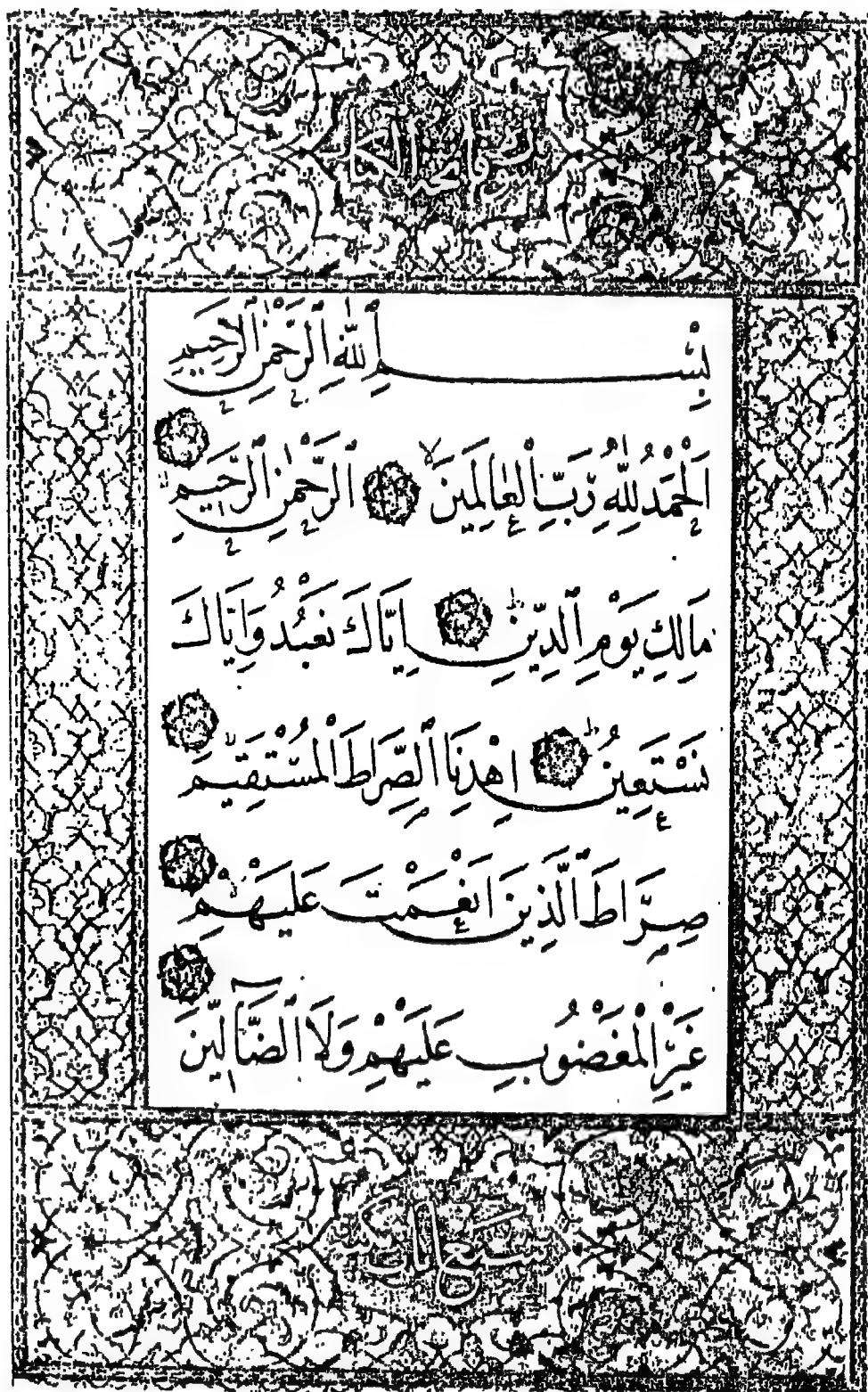
لوحة من الخلد الثلب المملوكى - كتابة بارزة من العساج
 أ ه ب : باسم السلطان الناصر محمد ٧٤٠ هـ - ١٣٤٠ م
 ج : باسم السلطان قايتباى ٩٠١ هـ - ١٤٩٦ م
 دار الآثار الإسلامية القاهرة (رقم الاثر ٤٤٢٢ هـ ٢٣٣٤)

نقلا عن : M.G.WIET, ALBUM DU MUSEE ARABE DU CAIRE,
 P. 39, LE CAIRE, 1930.



شكل رقم (١٢) :

لوحة من خط التعليق كتبها "مير عماد الحسنی" ١٠١٢ هـ - ١٦٠٨ م
 نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصروف) .



شكل رقم (١٣) :

سورة فاتحة الكتاب بخط النسخ كتيها الشيخ "حمد الله الامامى"
 ٩٣٧ هـ - ١٥٢٠ م
 نقده عن الاتراك ومن الخط الاسلامى (دورمان)



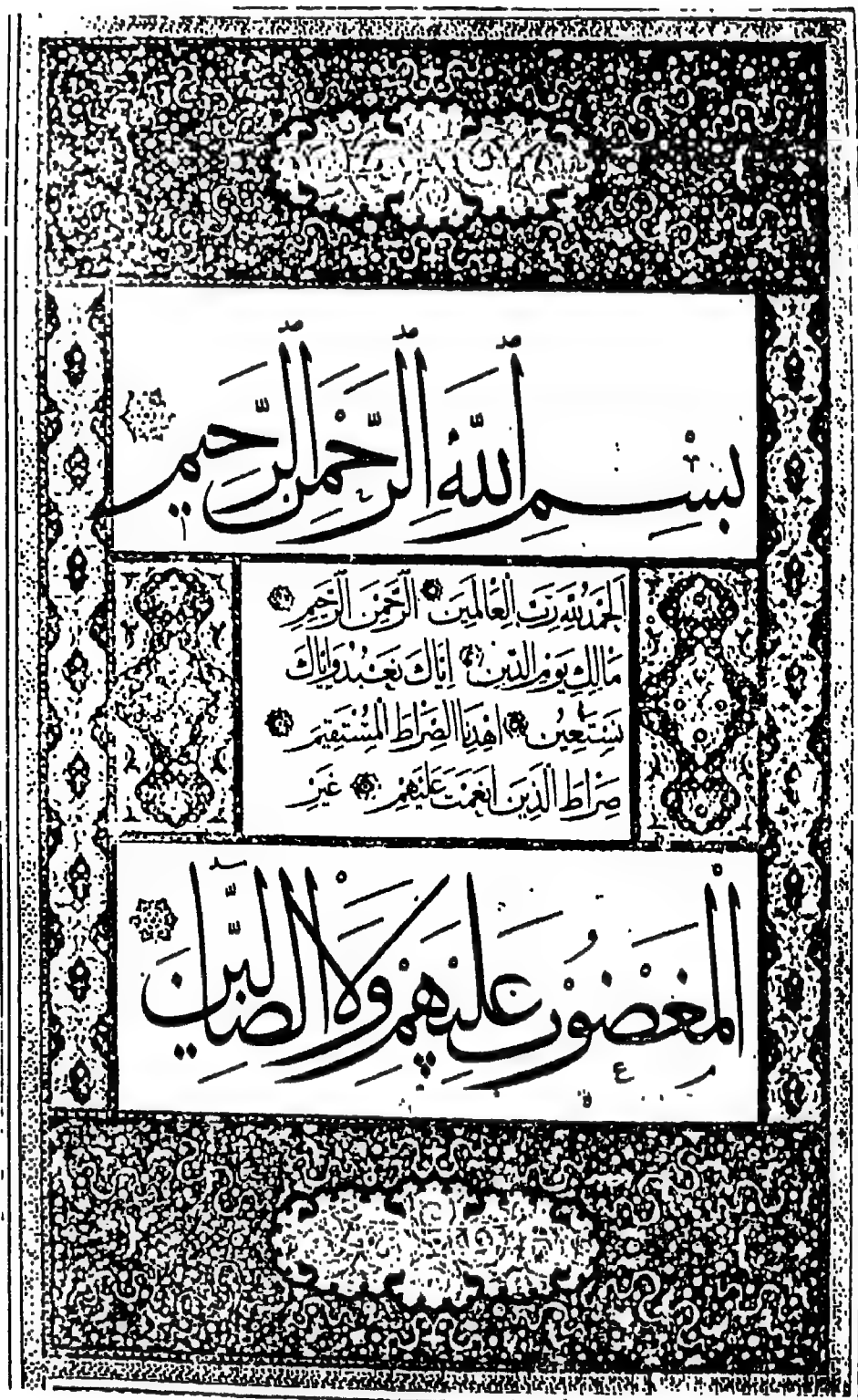
مكلى رقم (١٤)

لوحة كتبها احمد ترمه حصارى تشمل ثلاثة وحدات
 - الحمد لله : كوفى بسيل وحلية هندسية في مركز المربع
 - البسطة بخلاف الثلث
 - سورة فاتحة الكتاب : كوفى بسيل

١٦٤ هـ - ١٤٥٦ م

نقذ عن :

SULE AKCOY, HAT SANATI, KULTUR VE SANAT,
 SAYI V, COAK 1977 - ANKARA.



شكل رقم (١٥) :

سورة فاتحة الكتاب بقلم المحقق الريحاني

كتبتها " احمد ترة حصارى " ٩٦٤ هـ - ١٥٥٦ م

نقل عن : الاتراكي وفن الخط الاسلامي (دerman)



شكل رقم (١٦) :

لوحة بخط التمليز كتبها "يساري احمد اهدى" المتوفى سنة ١٢١٢ هـ - ١٢٦٩ م
نقلا عن : مكتبة الاثران في الخط الاسلامي (دوسان) .



شكل رقم (١٧)

يسمى بالقلم المحقق ، وحديث شريف بقلم النسخ

كتبها " محمد شوقي " ١٢٥٢ هـ - ١٨٣٦ م

نقلا عن : MAHMUD BEDREDDIN YAZER, YAZEL VE KALAM
GUZELI , 1.



شكل رقم (١٨) :

بسملة بقلم الثلث الجلي كتبها السلطان محمود الثاني

١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م

نقل عن : SULE AKSOY, HAT SANATI, KULTUR VE SANAT,
SAYI V, OCAK 1977 - ANKARA.



شكل رقم (١٩) :

سورة الحديد الآية ٢٣ و ٢٤ بخط الثلث - كتبها زهدى

١٢٧٣ هـ - ١٨٥٦ م

نقلا عن : بدائع الخلد العربى (المصنف) .



شك رقم (٢٠)

لوحة بقلم الثلث الجلي في شك متناثر - كتبها شفيق بك ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م
نقله عن : الاعرنك ونن الخ الاسلامي (درمان) .



شكل رقم (٢٥) :

سورة فاتحة الكتاب بقلم الشيخ - كتبها السيد محمد علي عزت ١١٩٣ هـ ١٩٧٦ م

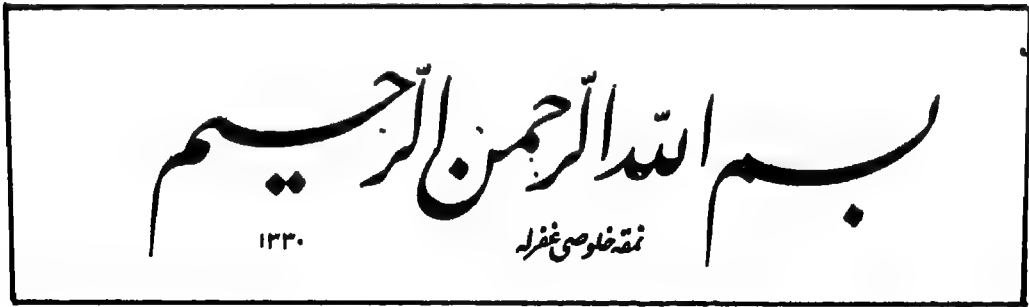
نقد من : مكانة الأئمة في الفكر الإسلامي (دراسة)



شکل رقم (۲۲) :

نموذج الإيجدية العربية بخلاف السنبلي كتبها عارف حكمت

نقلنا عن : بدائع الخلد العربي (المصنف) .



شكل رقم (٢٣) :

بسملة بقلم التعلين كتيبها خلوصي اتندی ١٣٣٠ هـ - ١٩١١ م
 نقلا عن : M.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.



شكر رقم (٢٤) :

بسملة بخط ثلث الجلى فى ملك مثنى متناثر
 كتبها احمد امين ١٣٣٥ هـ - ١٩١٦ م
 نقلا عن : بدائع الخصال (المسرف)



شك رقم (٢٥) :

مسجلة بقلم التعليق كتبها محمد رفعت - ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م

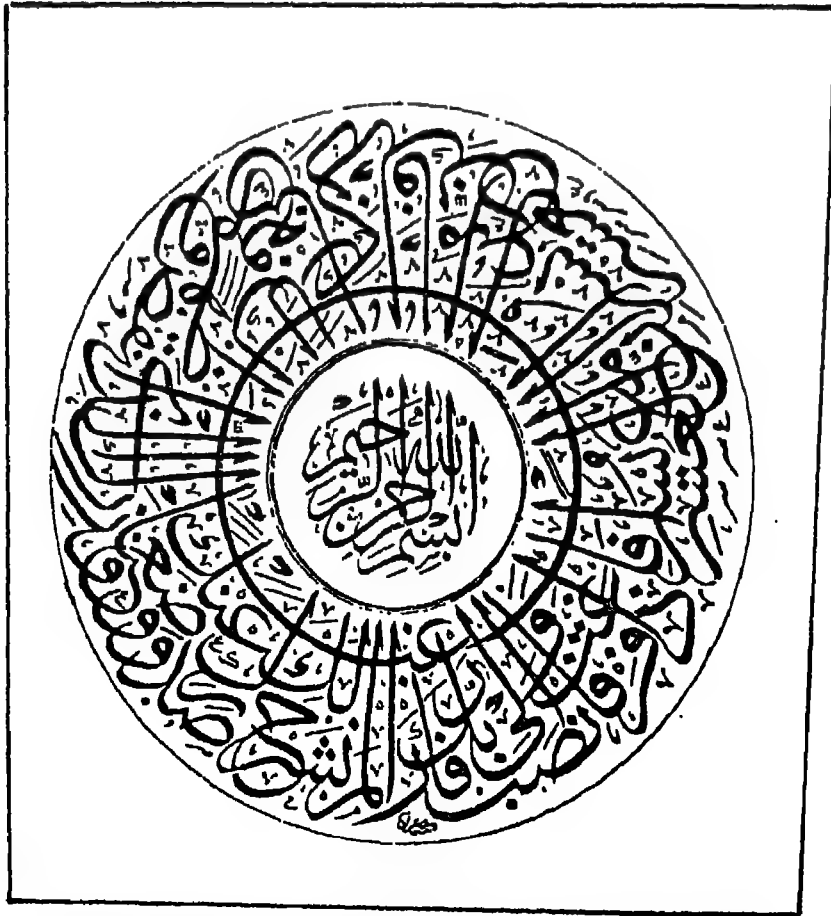
M.B.YAZIR, KALAM GUZELI, II.

نقلا عن :



شكل رقم (٢٦) :

بسملة بقلم الثالث الجلى كتبها عبد العزيز الرفاعي ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠ م
نقل عن : يد ائمة الخلد العربى (المصروف) .

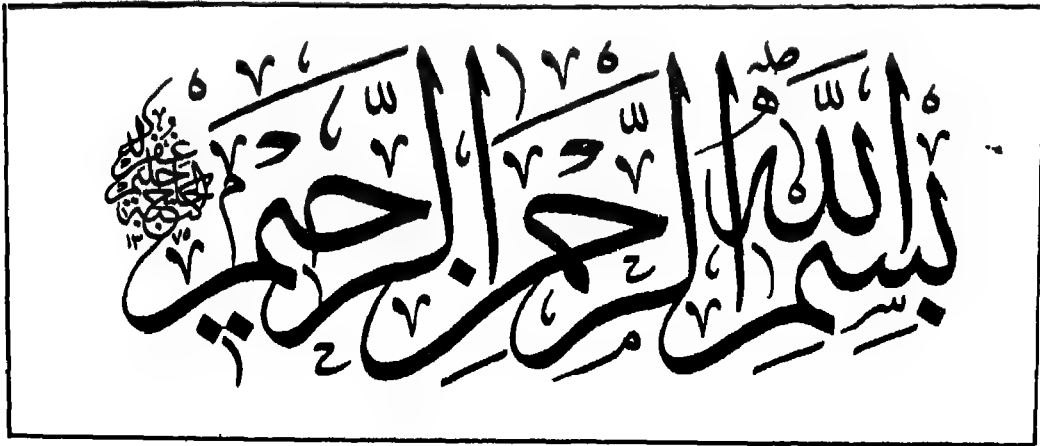


شكل رقم (٢٧)

سورة الأنشراح بقلم الثلث كتبها عبد العزيز الرفاعي

١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م

نقلا عن : بدائع الخلد العربي (المشرف) .



شكل رقم (٢٨) :

بسملة بالقلم الجلى كتبها "حليم" ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م
 نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصرى)



شكل رقم (٢٩) :

بسملة بالقلم المحقق كتبها "نوري كرمان"

١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م

M.B.YAZIR, KALEM GÜZELİ, II.

نقلًا عن :



شكل رقم (٣٠) :

بسملة بالقلم المحقق كتبها " بدر الدين " ١٣٦٥ هـ - ١٩٣٥ م

نقلا عن :

M.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.

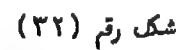


شكل رقم (٣١) :

بسملة العالم المحقق كتبها " الحاج كامل أفديق " ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م

M.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.

نقلا عن :

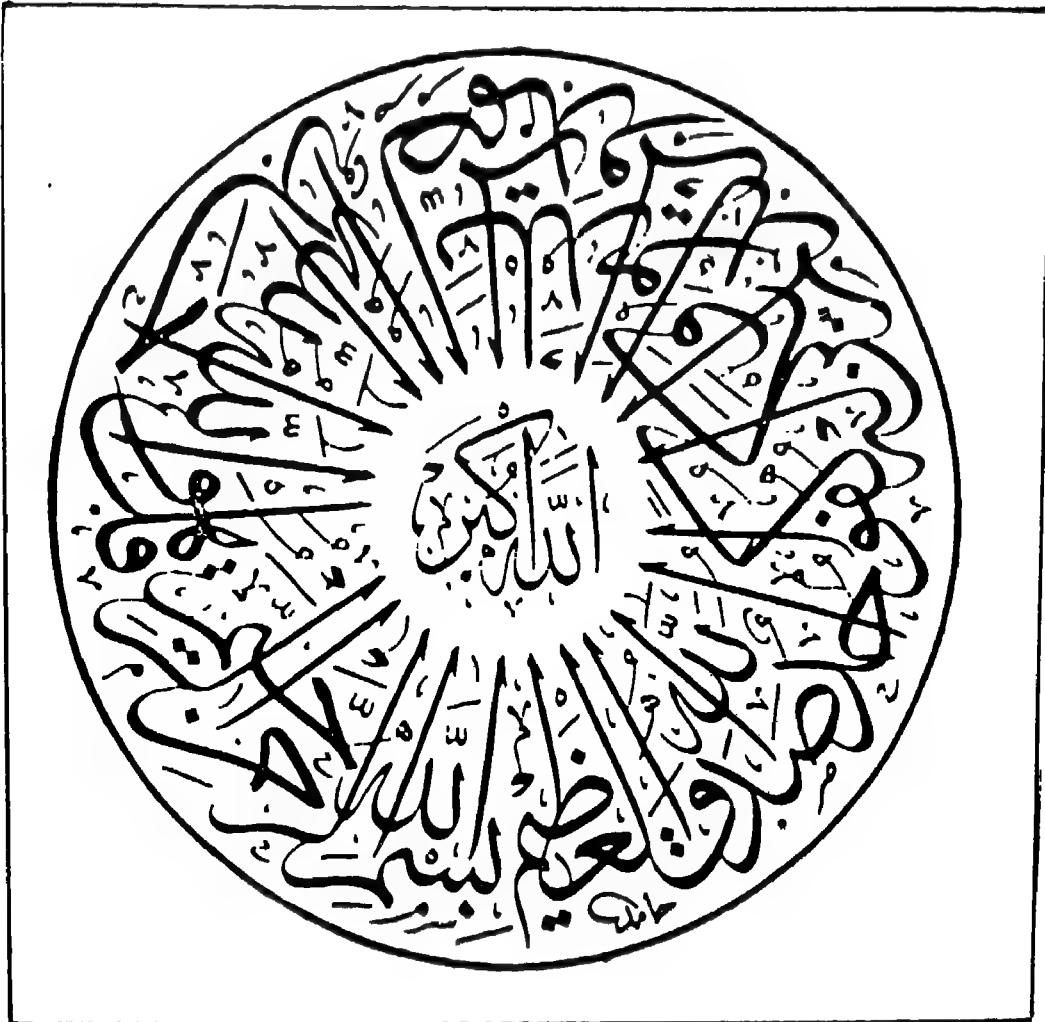


نقلا عن : مكانة الاتراك في فن الخط الاسدي (درمان) .



مسك، رقم (٣٣) :

أوحة متراكمة بقلم الثلث الدبلى كتبها " حامد الأمسدي " ونصها " وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله غفور رحيم " نقلًا عن : بدائع الخيال العربي (المصنف) .



شك رنم (٣٤)

سورة الاخلاص بقلم الثلثة كتبها " -امد الاسدي "

نقلا عن : بدائع الخلد العربي (المصنف)

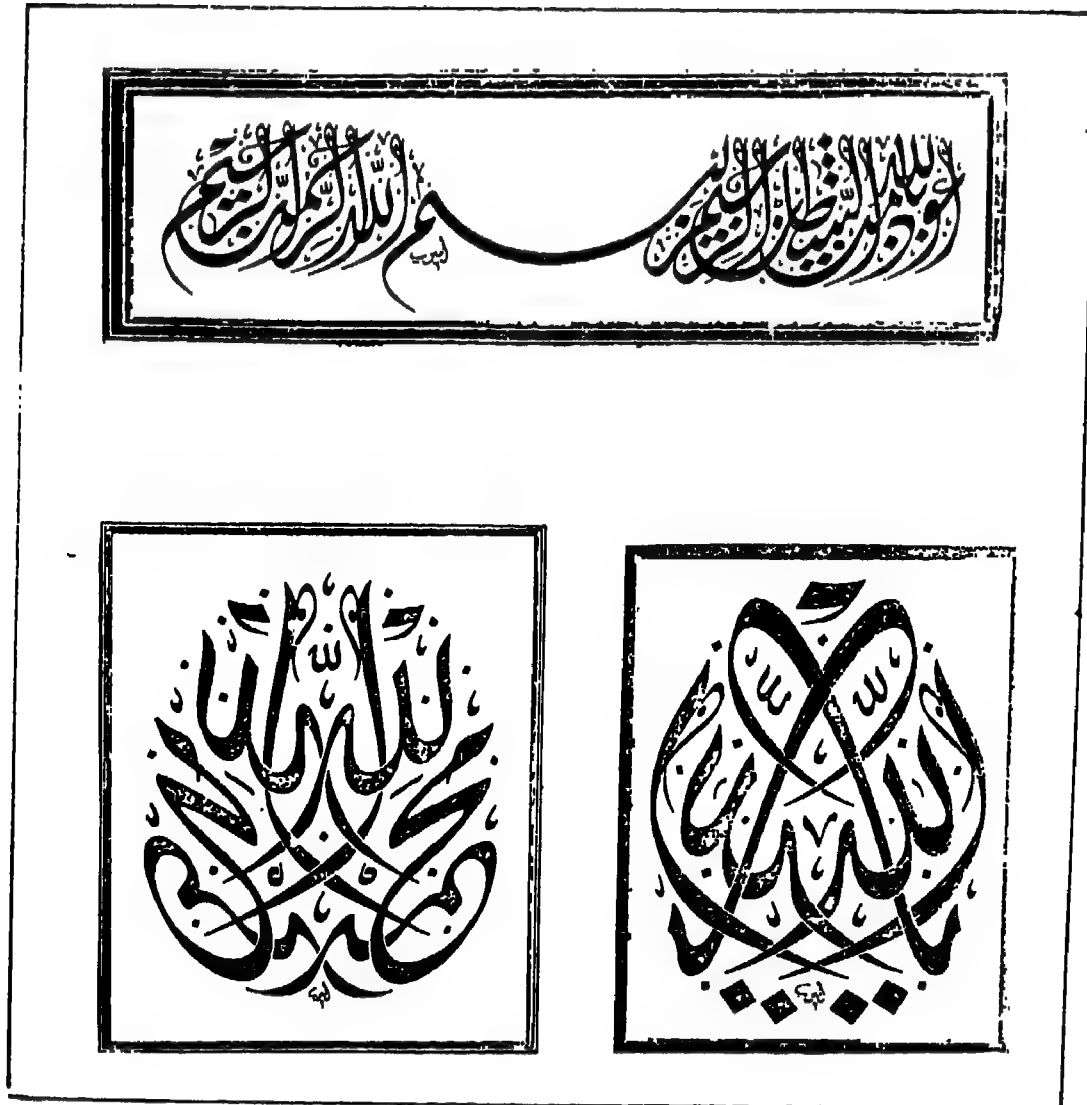


شكل رقم (٣٥) :

لوحة بقلم التعليق كتبها "نجيم الدين أوقساي"

١٣٧٥ هـ - ١٩٧٦ م

نقلا عن : مكانة الاثر في فن الخط الاسلامي (درمان)



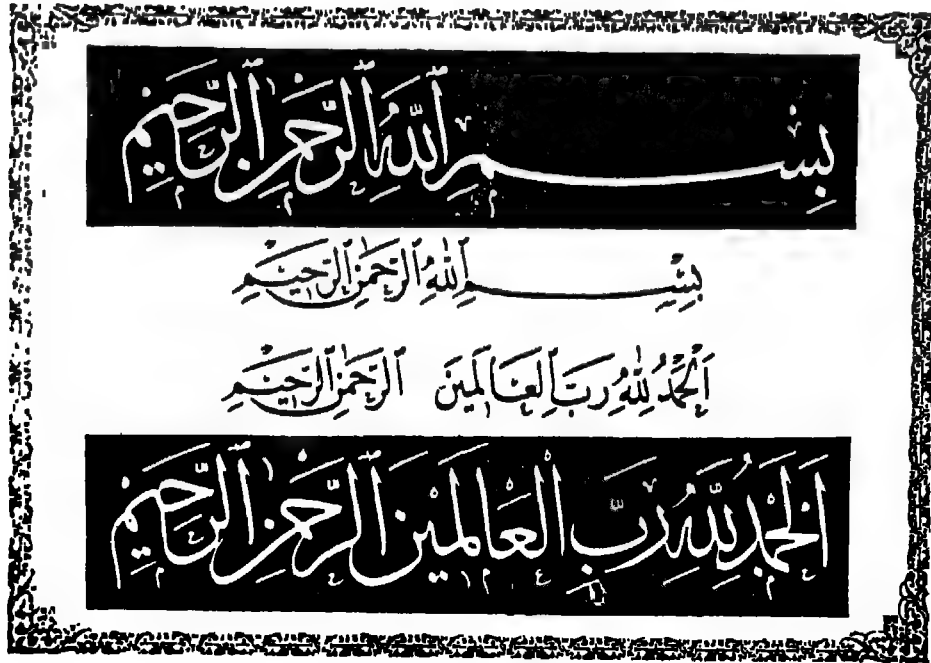
كل رقم (٢٣٦)

ثلاثة نماذج بالقلم الديواني بخطها أمين بارس
نقل عن : كمالى معونة في اكاديمية الفنون الجميلة استانبول ١٩٧٨



شكل رقم (٣٧)

حديث شريف بقلم جلى الثلث كتبه محمد ابراهيم
(الاسكندرية)



شكل رقم (٣٨)

نموذج بقلم الثلث والنسخ كتبه هاشم محمد
نقلا عن : كراسة قواعد الخط العربي بخط هاشم محمد
١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م (بندا د)

المتغيرات الظاهرية (الفينومينولوجية) في بناء الشخصية :

يعتبر المنظور الظاهري (الفينومينولوجي) في دراسة الشخصية من أبرز المعالم المميزة لما حققته الدراسات النفسية الحديثة والمعاصرة من اسهامات في الكشف عن حقيقة الشخصية الانسانية . ورغم تعدد مسميات النظريات الظاهرية مثل نظريات الذات -Self theories ونظريات التراكيب Constructive theories والنظريات المعرفية Cognitive theories والنظريات الوجودية -existential theories إلا أن معظمها يجتمع على مفاهيم معينة يؤكد فيها تفسيره للشخصية بينما يتفق على رفض مفاهيم أخرى لاتدخل في اطار التصورات الظاهرية .

فالنظريات الظاهرية -Phenomenological theories تنطلق من تصور مؤداه اننا لانستطيع فهم السلوك الانساني والتنبؤ به بدون معرفتنا لادراكات الشخص لبيئته ولنفسه كما يراها في علاقته بالبيئة ، ولذلك تسمى هذه بالنظريات الظاهرية بسبب هذا الدور الرئيسي الذي تعطيه للادراكات والمعارف والمشاعر في فهم كنه الشخصية . ومن ناحية أخرى ، تميل هذه النظريات الى رفض معظم المفاهيم الدينامية والدافعية من نظريات التحليل النفسي والتعلم (ميلر - ريدولد) وكذلك معظم الافتراضات التي تقوم عليها نظريات السمات .

الشخصية من المنظور الفينومينولوجي

حليم السعيد بشاي

قسم علم النفس - جامعة الكويت

وجود عالم « حقيقي » من الاشياء ، وتزعم ان البيئة مجرد وهم لا يؤثر في خبراتنا الخاصة . ومع ذلك ، فان الموقف المعرفي يؤكد على انه ليس عندنا وسيلة مباشرة وفورية توصلنا الى هذا العالم ولا الى اي من خصائصه . . . فما نعرفه عن الواقع يتم بالتوسط Mediated وليس فقط بواسطة اعضاء الحس ، ولكن ايضا بواسطة انظمة معقدة تقوم بتفسير واعادة تفسير المعلومات الحسية (٢) .

وفي ذلك قد اجريت دراسات كثيرة عن العمليات المتضمنة في المعرفة ، وعن « المثير كما يخضع للتنظيم » stimulus as coded (٣) وهي دراسات تتعلق فقط بالشخصية على نحو غير مباشر ، مثل بحوث الذاكرة والادراك (٤) ، ومع ذلك فان الاتجاه المعرفي يحمل بصفة عامة أهمية لدراسة الاشخاص .

ولقد حاول بعض علماء نفس الشخصية المهتمون بالاتجاه المعرفي ان يكتشفوا كيف يدرك الفرد ويعقله ويفسره ويخبره ، وبالتالي اهتموا بالمثيرات كما يتم تفسيرها وبالأحداث كما تتمثل معرفيا داخل من يلاحظها ، وبالأشخاص والأحداث كما يراها الشخص المدرك .

وباختصار تدور النظريات الظاهرية حول محور محدد هو خبرة الشخص كما يدركها وينظمها أي بفيثومينولوجيته .

هذا الرافض للتفسيرات الدافعية ، او على الاقل اهمالها بصاحب التركيز على الخبرات المباشرة للشخص ، لذلك ينظر الى الشخص على انه « كائن يعيش الخبرة » بدلا من اعتباره « شخصية ذات تركيب معين » أو نظام من الديناميات النفسية « التي تقوم على استعداداته وتاريخ تطوره ، ويعني ذلك ان هذه النظريات تهتم اساسا بالخبرة الذاتية للفرد ، وبنظراته الشخصية للعالم ولنفسه وبمفاهيمه الخاصة .

ان معظم هذه النظريات تهتم اساسا بالمعرفة Cognition - أي بكيفية معرفة الانسان وفهمه لعالمه ولنفسه - هذه المعرفة تتضمن الانتباه الذي يوجهه الشخص الى العمليات الداخلية او العقلية التي من خلالها يسعى الى تنظيم وتصنيف المعلومات .

ولقد تأثرت هذه النظريات المعرفية بالعالم السويسري « جان بياجيه » من حيث اهتمامها ب « التركيبات العقلية » للانسان ، وبالطريقة الفعالة التي بها يستخلص المعاني والخبرات ، يقول « نيسير » : (١)

« ان عالم الخبرة ، سواء كان جميلا أو قبيحا ، يجري خلقه بواسطة الانسان الذي يجبر هذا العالم » . هذه العبارة ، بالطبع لاتعني عدم

(1) U. Neisser. Cognitive Psychology. New York: Appleton — Century — Crafts, 1967, p.3.

(2) Ibid, p.3

(3) D.H Lawrence. The Nature of Stimulus: Some relationships between learning and perception. In S. Koch (Ed) Psychology: A study of Science. New York: Mc Graw Hill, 1959, pp. 179—212.

(4) G.H. Bower Mental imagery and associate learning. In L. Gregg (Ed) Cognition in learning and memory. New York: Wiley, 1969

من الطفولة الى النضج بحيث يمكننا ان نعتبر أن دوافع الكبار تحمل محل دوافع الطفولة»^(٥)

يطلق «البورت» على هذه الظاهرة مصطلح الاستقلال الوظيفي Functional autonomy ويعتبر انه بقدر ماتكون دوافع الفرد مستقلة ، أي غير مرتبطة بدوافع الطفولة فان هذا يعد دليلا على نضجه .

ويفسر ذلك ايضا موقف «البورت» الذي يؤكد على مبدأ المعاصرة Contemporaneity افتفاء لليقين - المميز للدوافع^(٦) . وبالتالي فان الماضي ليس هاما الا اذا تضمن قيمة وفعالية بالنسبة للحاضر . لذلك يعتقد ان الحقائق التاريخية عن ماضي الشخص ، وان كانت تساعدنا في الكشف عن النسق الكلي لحياة الشخص الا أنها لا تفسر بطريقة ملائمة سلوك هذا الشخص في الوقت الحاضر ، أي أن «الدوافع السابقة Past motives لا تفسر شيئا الا اذا كانت ايضا دوافع حاضرة Present motives»^(٧) .

وبالاضافة للبحث في «الذات» كمفتاح رئيسي لدراسة الشخصية يركز على الخبرات المدركة لدى الفرد في الوقت الحاضر ، وعلى ذاته الظاهرية وعلى نمطه الفريد في المواءمة . ويأخذ «البورت» بوجهه النظر الكلية holistic في دراسة الانسان ككائن حي بيولوجي اجتماعي متكامل ، بدلا من اعتباره مجموعة من السمات والدوافع . وفي ذلك تشابه وجهات نظر «البورت» مع نظرية «كيرت جولدشتين» الذي يؤكد على ان الكائن الحي كل متكامل يسعى الى تحقيق ذاته على كل مستويات وجوده^(٨) .

مصادر الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية

يستمد الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية أصوله من مصادر عديدة . فمن بين اصحاب النظريات الكثيرة الاولى على سبيل المثال ، اولئك الذين اهتموا بالبحث في الذات «مثل وليم جيمس وجورج هيربرت ميد وجون ديوي . وفي مطلع القرن العشرين اهتم كارل يونج بسعي الشخص الى تحقيق الذات والى التكامل ، وبوجود عمليات خلاقة تتجاوز الغرائز الرئيسية في علم النفس الفرويدي . كذلك كان لعلم النفس الجشكتي والفلسفة الوجودية اهمية كبيرة في بلورة الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية الانسانية .

اسهامات «جوردون البورت»

يعتبر «البورت» في مقدمة علماء النفس الذين درسوا الشخصية كتنظيم للسمات traits ، وكان لتصوراته للشخصية على هذا النحو تأثير هام على دراسة الشخصية لأكثر من ٣٠ عاما ، واذا كان البورت يعترف بوجود سمات عامة قد يشترك فيها كل الناس بدرجات مختلفة الا أن الكثير من آراء «البورت» يتعلق بالاتجاه الظاهر في دراسة الشخصية . فنظرية «البورت» تركز على الفردية individuality وتفرد uniqueness الشخص وعلى النماذج المتكاملة التي تميز كل شخص .

ان السلوك ، وفقا «لالبورت» يكون مدفوعا في الاصل بواسطة الغرائز ، ولكن فيما بعد يأخذ في التحرر من التدعيم البيولوجي ، ويرى ان معظم الدوافع السوية لدى الكبار لم تعد ترتبط بعلاقة وظيفية بجذورها التاريخية «فطبيعة الدوافع تتغير بشكل جذري

(5) G.W.Allport. Motivation in personality: Reply to MR.Betrocci.

Psychological Review, 1940, 47 533 — 554 & (p.54s) .

(6) G.W. Allport. Pattern and growth in Personality, N. Y Holt Rinehart, Winston, 1961 .

(7) Ibid, p.220 .

(8) K. Goldstein. The Organism. New York: American Book Co, 1939.

نظرية المجال عند « ليفين »

الطوبولوجية على نظرية الشخصية . فالمفاهيم المحددة مكانيا يمكن معالجتها رياضيا بطريقة لا تستطيع معها التعريفات اللفظية ان تعالجها .

هذه التمثيلات الرياضية-mathematic representations البالاضافة الى انها تسمح بصياغة اكثر دقة ، فان لها ميزة رئيسية تتضح من أنها تزودنا بمعلومات غير متوقعة حينما تخضع لعمليات رياضية مختلفة . واذا كانت الصياغات اللفظية الغامضة - كما يذهب « ليفين » - تؤول فحسب الى كلمات اكثر فان الرياضيات ، وهي لغة العلم ، تسمح بصياغة علاقات وظيفية محكمة . وان رياضيات « ليفين » هي رياضيات لوصف العلاقات المكانية الطوبولوجية : العلاقات المتبادلة والروابط المتبادلة بين المناطق الطوبوغرافية .

يعرف « ليفين » المجال الحيوي Life spaces على انه المجموع الكلي للحقائق التي تحدد سلوك (س) الفرد في لحظة معينة . ويشتمل المجال الحيوي على الشخص (خ) والبيئة النفسية (ب) ويعنى ذلك ان السلوك دالة الشخص وبيئته ، س = د (خ ، ب) . يناقش « ليفين » أيضا مشكلة العلاقة الزمنية بين حدث ما والشروط التي تخلقه . وفكرة « ليفين » في ذلك انه لا الماضي ولا المستقبل يوجدان في اللحظة الراهنة ، وبالتالي ليس لها تأثير على الحاضر . واذا كان للاحداث السابقة موضوع في السلسلة السببية التاريخية التي بتشابكها تخلق الموقف الراهن ، ولكن ما ينبغي ان يوضع في الاعتبار هو فحسب تلك الاحداث التي تعمل

لعبت النظريات المجالية field theories دورا كبيرا في تطوير المنظور الظاهري للشخصية ، لأنها فسرت السلوك على انه محتوم بالمجال الحيوي السيكلوجي للشخص ، أي - بالأحداث التي توجد في موقفه السيكلوجي الكلي في اللحظة الراهنة ، وليس بالأحداث الماضية ، يتضح ذلك خاصة في نظرية المجال عند « كيرت ليفين » .

أفاد « ليفين » في نظريته في الشخصية من مفهوم المجال في علم الفيزياء وهو المفهوم الذي تتوج بنظرية النسبية عند « اينشتين » . لقد لقي مفهوم « اينشتين » عن « مجالات القوة » تعبيرا في الحركة الجشطاليتية في علم النفس التي تؤكد على أن أي جزء من الكل انما يعتمد على كل جزء آخر . وطبق الجشطالتيون فكرة المجال . كما يتضمن مكونات مترابطة فيما بينها داخل هذا المجال ، أساسا على دراسة الادراك ، وذهبوا الى ان الطريقة التي يتم بها ادراك موضوع ما انما تتوقف على النسق الكلي total context لما يحيط به او على تشكله configuration فما يدرك يتوقف على العلاقات بين مكونات المجال الادراكي ، وليس على الخصائص الثابتة للمكونات المنفردة .

يدعو « ليفين » الى تطبيق نظرية المجال على كل فروع علم النفس ، فنظرية المجال كما طورها ، هي عبارة عن مجموعة من المفاهيم التي تيسر ترجمة الخبرة الظاهرية ، بل ويعتبر « ليفين » أن الأخذ بهذه المفاهيم هو المهمة الأولى للسيكولوجية كعلم .

طبق « ليفين » ايضا المفاهيم المكانية او

« ليفين » ايضا بمبادئ الثواب والعقاب ، ولكنه خلافا لمبادئ اللذة hedonism التي اخذت بها نظريات التعلم المبكرة يعتبر الاثابات على انها طرق لضبط السلوك في المواقف الراهنة ، وذلك عن طريق احداث تغييرات في البيئة النفسية وفي نظم التوتر في الشخص .

ووفقا ل « ليفين » ، يعتبر السلوك والنمو وظائف لنفس العوامل التركيبية والدينامية . فكلاهما وظيفة للشخص والبيئة النفسية . ومع ازدياد النضج ، يحدث بصفة عامة تمايز اكبر للشخص وللبيئة النفسية .

لقد كان لنظرية المجال عند « ليفين » فضل عظيم على علم النفس الاجتماعي التجريبي . وسعى تلاميذه الى توسيع أفكاره واخضعوها لتجارب صممت لتغيير المجال الحيوي عند الشخص وذلك بواسطة تغيير ادراكه لنفسه - وللأشخاص والآخرين - وللأحداث .

ويعني كل ذلك اسهامات عظيمة بالنسبة لدراسة الشخصية بصفة عامة ، ومن المنظور الظاهري بصفة خاصة .

بل ان النظريات الأخرى من الشخصية والتي اهتمت بشكل خاص بدراسة السمات والدوافع ، وتقر بالأهمية البالغة لنظرية المجال في دراسة الشخصية . (١٢)

في الموقف الراهن . وبعبارة أخرى الحقائق الراهنة فحسب هي التي تسبب السلوك الحاضر .

هكذا يضع « ليفين » في الاعتبار عند طرحه لفكرة المجال الحيوي كل ماهو معاصر للأحداث وهو ما يسميه بمبدأ المعاصرة Contemporaneity . (٩)

ان الحدود بين الشخص والبيئة النفسية ، وبين المجال الحيوي والعالم الفيزيائي قابلة للتوصيل والنفاذ بين بعضها البعض permeability أي أنها تمكن من تهيئة التأثير المتبادل فيما بينها .

ويرفض « ليفين » فكرة الخصائص الثابتة للشخصية مثل فكرة السمات غير المتغيرة . فالواقع النفسي كنتيجة للقوى الدينامية متغير دائما (١٠) . فبيئة الفرد لاتعمل على مجرد تيسير الميول الراسخة بشكل دائم في طبيعة الشخص (١١)

والعادات بذلك ليست ارتباطات مجمدة ولكنها بالأحرى نتيجة للقوى الموجودة في الكائن الحي وفي مجاله الحيوي .

وفي ضوء ذلك لا يقر « ليفين » بالمفاهيم المستخدمة المتعلقة بالحاجات الانسانية . فالحاجات التي لها تأثيرات على الموقف الراهن هي فقط تلك الحاجات التي ينبغي ان توضع في الاعتبار في تفسير ديناميات الشخصية . واهتم

(9) K. Lewin Principles of topolgical psychology. New York, Mc Graw — hill, 1935.

(10) K. lewin. A dynamic Theories of Personality. New York: Mc Graw — Hill, 1935.

(11) K. Lewin. OP. Cit, 1935.

(12) W. Mischel. Personality and assessment. New York Wiley 1968.

الفينو منيولوجيا والوجودية :

أكدت كتابات « ستيج وكومبز »^(١٣) ايضاً على المعالم الظاهرية للمجال ، وكان لهما فضل كبير من التأثير على علماء النفس المهتمين بوعي الشخص ويخبراته الخاصة . كذلك طور « كارل روجرز » و « جورج كيلي » موقفا علميا يؤكد على الخبرات الخاصة والادراكات والذات كمحاور رئيسية لدراسة الشخصية فينو منيولوجيا .

تتفق الكثير من الآراء المتضمنة من معظم هذه النظريات الظاهرية مع الموقف الفلسفي الوجودي الذي طوره المفكرون والكتاب الأوروبيون مثل كبير كيجارد وسارتر كاموس . وقد انعكس هذا الموقف خاصة في اسهامات « روللوماي » عالم النفس الوجودي .

يعتبر « روللوماي » بصدد تناوله بالعلاج النفسي لاحدى مريضاته أنه كان بين يديه كل انواع المعلومات عن هذه الحالة ، مثل الفروض المشتقة من استجاباتها لاختبار الدور شاخ والتشخيص المأخوذ عن الفحوص الفينورولوجية ، ولكنه يعقب على ذلك^(١٤) :

« ولكن اذا كنت افكر اساسا كما اجلس

هنا ، في هذه الاسباب (whys) والكيفيات (hows) المتعلقة بالطريقة التي بدأت بها المشكلة ، فاني سوف أدرك كل شيء عدا الشيء الاكثر اهمية وهو الشخص الموجود - ex-isting person في الحقيقة ، سوف ادرك كل شيء عدا المصدر الحقيقي الوحيد للبيانات التي عندي ، وهو هذا الكائن الحي الذي يعيش خبرة وجوده - وهو ذلك الشخص الذي يخبر الآن وعلى الفور وفي هذه الحجرة معي ، نموه وصيرورته « وبنائه للعالم » وذلك وقفنا لمفاهيم علماء النفس الوجوديين » .

تعكس ملاحظات « ماي » اهتمام العلماء الوجوديين بالخبرة الظاهرية - phenomenological experience هنا والآن here and now وليس بمصدر العلة Etiology أو بالاسباب التاريخية الموغلة في الطفولة المبكرة للشخص .

وبالاضافة الى ذلك ، يفضل علماء النفس الوجوديون النظر الى الانسان على انه قادر على الاختيار والمسئولية بدلا من اعتباره ضحية للقوى اللاشعورية او للعادات .

يعلق « نبوانجر » وهو طبيب نفسي سويسري وجودي على النظرية الفرويدية بأنها قد صورت الانسان ليس على أنه انسان بالمعنى الكامل ، ولكن فقط على انه مخلوق يقاوم الحياة

(13) D. Snygg & Combs. Individual Behavior. New York: Harper. 1949.

(14) R. May (Ed) Existential Psychology, New York, 1961, p.26.

لاشباع حاجاته كما يجبرها ، وفي المجال كما يجبره . (١٦) فاهتمام روجرز اذن متمركز على ادراكات الشخص من حيث أنها المحددات لأفعاله : فالكيفية التي بها يرى الشخص الاحداث ويفسرهما ، انما تحدد بالتالي الكيفية التي بها يستجيب لهذه الاحداث .

تحقيق الذات : يؤيد روجرز ، مثل معظم الفينومينولوجيين الموقف الذي يرفض الاخذ بمكونات دافعية معينة ، ويرى الكائن الحي على انه ينشط وظيفيا ككل منظم فئمة مصدر رئيسي واحد للطاقة في الكائن الحي الانساني ، هذا المصدر وظيفة للكائن الحي الكلي وليس لجانب منه وربما (يمكن) تصوره على نحو افضل على انه ميل نحو تحقيق الذات ، ونحو المحافظة على الكائن الحي وتقدمه . (١٧) اذن فالميل الاصيل لدى الكائن الحي هو ان يحقق ذاته وتصير « الدافعية » على هذا التحول ليس كتكوين خاص ولكن كخاصية كلية لكون الفرد حيا .

يؤكد روجرز ، اتفاقا مع نظرية الايجابية للطبيعة الانسانية على ان الانفعالات مفيدة للتوافق ، وبدلا من أن يهتم بالتأثيرات الهامة للقلق ، يعتقد روجرز ان الانفعال يصاحب

ويصارعها ، ويذهب « نبوا بجر » الى أن الحقيقة بأن الحياة الانسانية محتومة بقوى وظروف انما تمثل جانبا واحدا فقط من الحقيقة ، أما الجانب الآخر فهو أننا أنفسنا « نحتم هذه القوى كقدرنا » (١٥) وعلى ذلك فان تحقيق الانسان لذاته ، من المنظور الظاهري والوجودي يتطلب اكثر من مجرد تحقيق الحاجات البيولوجية والغرائز الجنسية والعدوانية .

فينومينولوجيا الشخصية

نظرية الذات عند كارل روجرز

الخبرة الفريدة : تؤكد النظرية الظاهرية لروجرز في الشخصية على واقع الشخص الذي يجبره بطريقة فريدة ، ويعتبر السلوك نتيجة للأحداث الادراكية المباشرة كما يجبرها الشخص بالفعل ، واذا كان اي شخص آخر لا يستطيع ان يتوصل بدقة الى « الاطار المرجعي الداخلي » للشخص فان الشخص ذاته هو الذي في مقدوره ان يكون على وعي بحقيقة نفسه ، فكل انسان في الحقيقة أعظم خبير في العالم بالنسبة لنفسه ، ولديه افضل المعلومات عن نفسه .

يقول روجرز « ان السلوك هو أساسا تلك المحاولة الموجهة نحو الهدف لدى الكائن الحي

(15) Ibid, p.252.

(16) C. R. Rogers Client — Centred therapy: Its current practice, implication and theory. Boston: Houghton, 1951, p.491.

(17) C.R. Rogers. The actualizing tendency in relation to Motives and to Consciousness In M.R. Jones (Ed). Nebraska Symposium on motivation. Lincoln: University of Nebraska Press, 1963 p.6.

السلوك الموجه نحو الهدف ويسره بصفة عامة . ويرتبط شك الانفعال بالمغزى المدرك للسلوك الهادف الى المحافظة على الكائن الحي وتقدمه» (١٨) .

والكائن الحي في سياق تحقيقه لذاته انما يدخل في عملية تقييمية فالخبرات التي يدركها على انها باعثة على تقدمه ، انما يقيمها بشكل ايجابي (وبالتالي يقدم نحوها) . اما الخبرات التي يدركها على انها معوقة لتقدمه أو لبقائه ، فيقيمها سلبيا (وبالتالي يحجم عنها) .

« فالكائن الحي يتصف بنزعة اساسية وبسعي اساسي - وهو أن يحقق كيانه ويحافظ عليه ، ويرفع من شأنه وذلك في سياق معاشته لخبرة وجوده» (١٩) .

الذات : مفهوم رئيسي في نظرية روجرز في الشخصية التي يشار اليها غالبا كنظرية للذات ومفهوم الذات self-concept هو جشطلت تصوري ، متسق ، منظم ، يتألف من ادراكات خصائص ال « أنا » (بمعنى I أو me) وادراكات علاقات ال « أنا » بالآخرين وبجوانب الحياة المختلفة وفي ارتباطها بالقيم المتعلقة بهذه الادراكات » . (٢٠)

وكتيجة لهذا التفاعل مع البيئة ، يصير ذلك الجانب الادراكي بالتدرج متميزا داخل

الذات . هذه الذات المدركة - perceived self (مفهوم الذات) تؤثر في الادراك والسلوك . وتفسير الذات هو الذي يؤثر في كيفية ادراك الشخص لبقية عالمه . وتصير خبرات الذات مغلفة بالقيم ، وهذه القيم هي نتيجة للخبرة المباشرة مع البيئة ، أو يتشربها الشخص من الآخرين .

الاتساق والاعتبار الايجابي :

يبرز روجرز نظامين في بناء الشخصية وهما : الذات (مفهوم الذات) والكائن الحي ، هذان النظامان قد يدخلان أحدهما مع الآخر في تعارض أو انسجام حينما يتعارضان أو لا يتطابقان ، تكون النتيجة هي سوء التوافق ، لأن الذات في هذه الحالة تصير منظمة بطريقة جامدة ، وتفقد اتصالها مع الخبرة الحقيقية للكائن الحي ، وتشحن بالتوترات . وإذا كان الادراك عملية انتقائية ، فان المحك الاول في ذلك هو اتساق الخبرة مع مفهوم الذات ، وبالتالي يعمل مفهوم الذات كإطار مرجعي لتقييم وضبط وتنظيم الخبرات الحقيقية للكائن الحي . ويعتقد روجرز أن الرفض اللاشعوري للخبرة التي لا تتفق مع مفهوم الذات هو ما حاول الفرويديون تفسيره بواسطة ميكانيزم الكتب .

(18) Ibid, p.493.

(19) Ibid, p.478.

(20) G.R.Rogers . A theory of therapy, personality and interpersonal relationship, as developed in the client — centred framework In S. Kock (Ed.) Psychology: A study of science Vol. Z New York Mc Grow — Hill, 1959, p.200.

يعرف « بالعلاج الروجيري » **Rogierian therapy** الى تحقيق التفاعل المنسق بين الذات والكائن الحي ، والى تيسير تطابق اكثر بين التركيب التصوري للذات والمجال الظاهري للخبرة . - ويؤدي الاتجاه التقبلي الدافئ غير المشروط الذي يبديه الاختصاصي (المرشد او المعالج) الى تمكين العميل من ادراك واختبار خبراته التي تكون غير متسقة مع تركيب ذاته . عندئذ يستطيع العميل ان يعدل من تركيب ذاته **self — structure** ليسمح لها بان تتمثل هذه الخبرات غير المتسقة . وفي هذه الحالة يكون في مقدور العميل وفقا لنظرية روجرز ، ان يعيد بالتدريج تنظيم مفهوم ذاته لكي يتفق مع واقع خبرة الشخص « فهو سوف يكون ، بشكل اكثر تكاملا ، ما هو عليه من حيث جوهره الحقيقي ، ويبعدو ذلك على انه جرهر العلاج » (٢١)

. ان نظرية روجرز تعكس الكثير من الجوانب والنقاط الرئيسية المتعلقة بالاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية . فهي تركز على الواقع كما يدركه الشخص وعلى خبراته الذاتية ، وعلى سعيه الى تحقيق للذات . ومن ناحية اخرى فهي ترفض او لا تضع في الاعتبار حوافز بيولوجية معينة وانما تهتم بالذات كما يجبرها الشخص ex-
perienced self بدلا من الاهتمام

فالخبرات غير المتسقة مع الذات قد يدركها الشخص كتهديدات ، ويقدر مايزداد التهديد ، تصير بنية الذات اكثر جمودا ودفاعية للمحافظة على كيانها . وفي نفس الوقت ، يصير مفهوم الذات اقل اتفاقا واقل انسجاما مع واقع الكائن الحي ، ويفقد اتصاله مع خبراته الواقعية .

يذهب روجرز الى وجود حاجة عامة يسميها بالحاجة الى الاعتبار الايجابي **positive regard** التي تنمو كلما تطور الوعي بالذات . هذه الحاجة تدفع الشخص في الحصول على التقبيل والحب من الاشخاص المهمين في حياته . والشخص لا يحتاج الى الاعتبار الايجابي من الآخرين فحسب ولكن ايضا من ذاته . وتنمو هذه الحاجة الى الاعتبار الايجابي من خبرات الذات المرتبطة بأشباع هذه الحاجة أو باحباطها . ويتحقق التوافق النفسي السليم اذا كان الشخص يلقي اعتبارا ايجابيا غير مشروط **Unconditional positive** من الآخرين واذا كان هنالك اتساق **consistency** بين هذه الحاجة وتقييم الشخص لذاته يترتب على ذلك نمو اعتبار الذات .

ويهدف العلاج النفسي « المتمركز على العميل » **Client — Centered** او ما

(21) C. R. Rogers. Persons of Science? A philosophical question. American Psychologist, 1955, 10, p.269.

بالاسباب الدافعية التاريخية او بتكوينات ثابتة للسمات .

نظرية الاتساق المعرفي

تبرز نظريات اخرى جوانب مختلفة من الخبرة كما تعيش في وعي الشخص ويدركها . لقد ركزت هذه النظريات في تناولها للخبرة الذاتية على ميل الشخص الى ان يتوصل الى اتساق بين المفاهيم والمعارف العامة عنده . هذه النظريات تدرس الشخصية في ضوء السعى المعرفي cognitive-striving الى الاتساق . .

يتمثل ذلك في تصورات دراسات « ليكي » (٢٢) و « فستنجر » (٢٣) و « كويدج » (٢٤) واكثر هذه النظريات اهمية نظرية « فستنجر » عن « التنافر المعرفي » .

يشير التنافر المعرفي cognitive dissonance الى العلاقات بين المعارف التي تكون جافة او مقتضبة او غير منسجمة او متناقضة . كما يتضح من المعنى القاموسي للكلمة « متنافر » inconsistent (٢٥) ويحدث التنافر المعرفي وفقا « لفستنجر » في حالة عدم اتفاق او عدم تلاؤم بعض المعلومات عند الشخص مع

بعضها البعض . فاذا افترضنا مثلا ان شخصا يعرف انه ذكي ، ولكنه يعرف في نفس الوقت انه يفشل غالبا . هذان النمطان من المعرفة لا يتلائمان جيدا مع بعضهما ، وبالتالي فهما متنافران . ويفترض « فستنجر » ان التنافر حالة باعثة على التوتر ، وان هذه الحالة تدفع الاشخاص الى تجنبها او التخفيف منها .

لقد اتاحت لفستنجر الفرصة للملاحظة احدى الجماعات الدينية التي تنبأت بوقوع كارثة فيضان ، في هذه الجماعة تلقى الناس معلومات عن الفيضان عن طريق الاتصال المباشر مع الالهة وعندما حل اليوم الموعود ، ولم تقع الكارثة ، نشأ تنافر شديد بين اعضاء الجماعة . وكشفت الملاحظة لسلوك هؤلاء الاشخاص عن بعض الطرق التي لجأوا اليها لمواجهة هذا التنافر . فمثلا وصلتهم رسالة من الالهة تفيدهم بانهم قد انقذوا العالم لاجل النيران القوية التي اشعلوها في كل مكان وعقدوا اجتماعات ليشرحوا فيها اسباب عدم تحقيق النبوة وذلك بهدف تخفيف حالة التنافر ، محاولين اقناع الآخرين وانفسهم بصدق رسالتهم السماوية . (٢٦)

(22) P. Lecky. Self — consistency. New york: Island Press, 1945.

(23) L. Festinger. A theory of Cognitive dissonance. Stanford: Stanford University Press, 1957.

(24) L. Kohlberg . A cognitive — developmental analysis of children's sex — role concepts and attitudes. In EE. Maccoby (ed), The development of sex differences, stanford: stanford University Press, 1966, pp. 82 — 173.

(25) L. Festinger, Ibid.

(26) L. Festingers . the Motivating effect of Cognitive dissonance. In G. Lindzey (Ed), Assessment of human motives. New York: Holt, Rinehart, Winston, 1958.

هذا المجال ان الناس تحاول خفض عدم الاتساق بين المعارف المتضاربة (٢٧) .

فالميل الى تقليل المعارف المتضاربة او المتباينة او الى تجنبها ، والى اعادة تشكيل الاحداث المتناقضة لجعلها منسجمة يدخل في الكثير من المظاهر النفسية . ولكن العلاقات بين السعي الى الاتساق المعرفي والسلوك غالبا ما تكون معقدة (٢٨) . فالسلوك اللامعرفي noncognitive behavior عند الفرد - كالاخطاء التي يعملها بالفعل لا تخضع بالضرورة لضبط سعيد الى الاتساق المعرفي .

(نظرية التكوينات الشخصية لجورج كيلي)

ان تكويناتنا constructs وتجربتنا abstractions للسلوك ليست مثل السلوك الذي نصنفه الى فئات . والناس ايضا هم مدركون perceivers وبناء construers للسلوك ، ويستخلصون تجريدات عن انفسهم

لذلك بدأ فستنجر نظريته بالملاحظة غير الشكلية بان الناس تسعى الى التخفيف من حالات التنافر في معتقداتهم .

وذهب الى ان عدم الاتساق بين المعتقدات يخلق تنافرا معرفيا ويدفع الفرد الى ان يفعل ما هو اسهل للتخفيف من حالة التنافر وللوصول الى الاتساق المعرفي بين معتقداته .

لقد فتحت نظرية فستنجر مجالات واسعة للبحث والدراسة وتؤيد نتائج التصورات النظرية والدراسات التجريبية عن اتساق الذات self-consistency وخفض التنافر dis-sonance reduction والاتزان المعرفي Cognitive balance وجهة النظر بأن الناس تميل الى البحث عن الاتساق المعرفي cognitive balance وفي الواقع ان الاتساق لفترة من الوقت يبدو مرتفعا بالنسبة لمفاهيم الذات وللاتجاهات والقيم التي يعزوها الاشخاص الى انفسهم . تبين الدراسات في

أمثلة هذه الدراسات : (27)

— E.L Kelly. consistency of the adult personality.

— American Psychologist, 1955,10,659 — 681.

— L. Festinger, 1957.

— C.E. Osgood, G. J. Suci, & P.H Tannebaum. the measurement of meaning Urbana, I 11.; The University of Illinois Press, 1957.

— R.P. Abelson, & M.J Rosenberg. Symbolic psycho—logic; A model of attitudinal cognition. Behavioral Science, 1958,3,1 — 13.

— F. Heider. The Psychology of Interpersonal relations. New York Wiley, 1958.

— D. C. Glass. Theories of consistency and the study of Personality. In B. F. Borgatta. Handbook of personality , chicao; Rand Mc Nally, 1968 p.788.

(28) L. Festinger . Behavioral Support of opinion change. Puplic Opinion Quarterly, 1964,28, 404 — 417.

وعن الآخرين . هذه الفروض والتركيبات قد اثرت كثيرا في علماء النفس المهتمين بدراسة الحالات الذاتية وبالفيثونولوجيا وبخبرة الذات .

التكوينات الشخصية :

تؤكد النظريات السيكدينامية على ان الدافع هو الوحدة الاساسية ، وان الصراعات اللاشعورية هي العمليات التي تحمل اهمية كبيرة في تحديد السلوك الظاهري ، وان الاحكام الاكلينيكية هي الاداة المفضلة .

وعلى العكس من ذلك ، تقوم نظرية « كيلي » (٢٩) عن المكونات الشخصية - per-sonal construct theory على الكشف عن الفئات الذاتية categories التي يأتي بها الشخص بدلا من الفروض التي يستنبطها عالم النفس . فالوحدات الرئيسية لهذه النظرية هي مكونات الشخص اي الطريقة التي بها يصنف خبراته الذاتية الى فئات ، وبدلا من النظر الى الانسان على انه ضحية لاندفاعاته ودفاعياته ، فان هذه النظرية متناولة كخالق نشط ومتغير دائما للفروض creator of hypotheses وكلاعب لادوار متعددة .

ويذهب « كيلي » الى انه اذا كانت سيكولوجية السمات تحاول ان تجد مكان الشخص فيما يحدده صاحب النظرية من أبعاد

للشخصية فان نظرية المكونات الشخصية بدلا من ذلك تحاول أن ترى كيف يحاول الشخص ان ينظم الأحداث وفقا لأبعاده . ويأمل « كيلي » من ذلك ان يكتشف طبيعة أبعاد المكونات construct dimensions بدلا من تعيين موقعه بالنسبة لأبعاد النظرية التي يضعها عالم النفس .

الانسان العالم (man- the- scientist)

تكشف سيكولوجية المكونات الشخصية عن الخرائط الذاتية subjective maps التي يكونها الناس في مواجهة الواقع السيكلوجي لحياتهم . يؤكد كيلي ان الانسان مثل العالم الذي يدرس ، يقوم ايضا ببناء أو تجريد السلوك ، وتصنيفه وتفسيره ، وبالحكم على نفسه وعلى عالمه . ان الافراد الذين خضعوا للقياس بواسطة علماء النفس هم انفسهم اخصائيون في القياس assessors يجتبرون ويقيمون ويبينون سلوكهم الخاص ، انهم يقيسون علماء النفس الشخصية الذين يحاولون قياسهم . فالتكوينات والفروض المتعلقة بالسلوك تتشكل بواسطة كل الاشخاص بصرف النظر عن درجاتهم العلمية وتخصصاتهم كعلماء .

ويرى كيلي ان هذه التكوينات ، وليس مجرد الاستجابات الجسمية البسيطة هي التي ينبغي ان تخضع للدراسة وفقا لمدخل ملائم للشخصية . ويتضح تصنيف السلوك على حد سواء حينما يصف المريض الذهاني افكاره الشخصية في العلاج وحينما يناقش العالم تكويناته ونظرياته المفضلة في مقابلة مهنية . فكل هذين الشخصين يمثلان البيئة داخليا

البدائية البناءة :

ان الاحداث ذاتها يمكن تصنيفها وفقا لبدايات متعددة . فبينما لا يكون الانسان دائما قادرا على تغيير الاحداث فانه يستطيع باستمرار ان يشكلها بطرق مختلفة ، وذلك هو ما يعنيه كيلى بالتبادلية البناءة - constructive alternativism ونوضح ذلك بالحدث التالي : اوقع ولد زهرية كانت تعز بها امة . ماذا يعني ذلك ؟ الحدث ببساطة هو ان الزهرية قد تحطمت . الاننا اذا سألنا المحلل النفسي فقد يشير الى العداوة اللاشعورية عند الولد ، واذا سألنا الام فسوف تقول كم هو « شقي » اما الوالد فسوف يقول انه « مدلل » بينما يرى المعلم الحدث على انه دليل على « الكسل » و « التراخي » والجدّة تعتبره مجرد « حادثة » في حين يرى الطفل الحدث على انه يعكس « غباء » وبينما الحدث يمكن الا يقع - انكسار الزهرية - الا ان تفسيره عرضة لتكوينات بديلة قد تؤدي الى نماذج مختلفة التصرفات .

لقد بدأت نظرية « كيلى » بهذه المسلمة الرئيسية « ان عمليات الشخص يجري توجيهها من الناحية النفسية بواسطة الطرق التي بها يتوقع الاحداث » (٣٠) هذه المسلمة تتفق مع النظريات الظاهرية الاخرى من حيث تأكيدها على النظرة الذاتية للشخص . ولكن مسلمة

ويعبّر عن تمثيلاتها وخبراتها الذاتية في تكويناتها السيكلوجية . فالتكوينات الشخصية وليست الاوصاف الموضوعية للسلوك وفقا لأبعاد واضحة ، هي التي تواجه عالم نفس الشخصية .

يشير « كيلى » الى ان معظم علماء النفس يرون انفسهم على انهم مدفوعون الى تحقيق الوضوح المعرفي والى فهم الظواهرات ، بما فيها حياتهم ، الا ان الاشخاص المفحوصين الذين تتضمنهم نظرياتهم خلافا لأصحاب النظريات انفسهم ، قد جرت النظرة اليهم على انهم ضحايا غير واعية بالقوى النفسية وبالسمات التي لا يستطيعون فهمها ولا ضبطها ، ويحاول كيلى ان يزيل هذا التباين بين صاحب النظريات والمفحوص وان يتناول كل الاشخاص كما لو انهم علماء .

فالمفحوص ، باعتباره كعالم ، يستخلص الفروض التي بها يحاول ان يتوقع ويتنبأ بالاحداث في حياته وان يتحكم فيها ، لذلك لكي نفهم المفحوص ، علينا ان نفهم تكويناته او نظريته الشخصية في الشخصية private personality theory ولكن ولكي ندرس التكوينات الشخصية علينا ان نجد الامثلة او « المراجع » referents السلوكية الدالة عليها . فنحن لا نستطيع ان نفهم ماذا يعتبر شخص اخر بقوله ، مثلا « انني لست شخصا صدوقا » الا اذا اعطانا امثلة سلوكية ، ونحن بحاجة الى هذه الامثلة او المراجع السلوكية سواء كانت المكونات شخصية اي من وجهة نظر المفحوص ، او نظرية - اي من وجهة نظر عالم النفس . فهذه المكونات تصير معروفة فقط من خلال السلوك .

كيلى اكثر تحديدا من حيث تأكيدها على الكيفية التي بها يتنبأ الشخص بالاحداث او يتوقعها .

يهتم كيلى بملاءمة او اتفاق -conveni- ence المكونات بدلا من الاهتمام بالحقيقة المطلقة . وبدلا من ان يحاول قياس حقيقة مكون معين ، يهتم كيلى بملاءمته او فائدته بالنسبة للشخص .

فمثلا بدلا من ان يحاول قياس ما اذا كان المريض « سوف يصاب بالجنون حقيقة » يحاول ان يكشف المواقف والخبرات المتضمنة في حياة المريض والتي تجعله يدرك نفسه على هذا النحو ، وبالتالي يبني في نفسه مكونا شخصيا معيناً واذا كان هذا التكوين غير ملائم ، تكون المهمة عندئذ ان تجد بديلا افضل - وهو ذلك البديل الذي به يمكن التنبؤ على نحو افضل ويؤدي الى نتائج افضل .

وتكون مهمة العلاج النفسي تزويد المريض وتبصيره بالشروط التي تحدد بها المكونات الشخصية واختبارها بناء على تطبيقاتها وتعديلها اذا لزم الامر . والمفحوص كالعالم يحتاج الفرصة التي تتيح له ان يختبر مكوناته وأن يتحقق من مدى صدقها . وان يعدلها في ضوء الخبرة الجديدة .

الادوار :

يطرح كيلى فكرة اخرى تستحق اهتماما بالغا ، تمثل في تأكيده على الادوار وممارسات الدور role enactments فبدلا من ان ينظر

الى الانسان على انه مالك لسمات - ثابتة ومعقدة بشكل واسع يتناوله كيلى على انه قادر على ممارسة ادوار مختلفة كثيرة وعلى الانخراط في تغير مستمر . والدور بالنسبة لكيلى هو محاولة لرؤية شخص اخر من خلال وجهة نظر الاخر - اي ان ينظر الى الشخص من خلال مكونات هذا الشخص ذاته - وان يشكل افعاله وتصرفاته في ضوء ذلك .

فممارسة دور ما تتطلب خضوع ذلك السلوك المميز للدور للتوجيه بواسطة ادراك وجهة نظر الشخص الاخر . هكذا استخدم كيلى طريقة اللعب بالادوار على نطاق واسع كاجراء علاجي يجري تصحيحه لمساعدة الاشخاص على التوصل الى افاق جديدة وعلى استخلاص طرق اكثر ملاءمة للحياة .

الانسان هو ما يصنعه من نفسه :

يرفض كيلى مثل النظريات الظاهرية الاخرى الفكرة القائلة بان الحياة النفسية تتركز الى دوافع محددة وتقوم نظريته الى الطبيعة الانسانية على الكيفية التي يبني بها الانسان نفسه وعلى ما يفعله في ضوء تلك المكونات . ويعتقد كيلى مثل روجرز اننا لسنا بحاجة الى مفاهيم لفهم الاسباب الى تجعل الانسان مدفوعا ونشطا : فكل شخص مدفوع لا من اجل اي سبب اخر عدا كونه شخصا يعيش الحياة (٣١) . فمفهوم الدافعية بالنسبة لكيلى « قد يبدو فقط على انه حشوزائد » (٣٢) .

يذهب كيلى مثل الكثير من الوجوديين الى ان الانسان « هو ما يفعله » ويتحقق له - معرفته

(31) G.A Kelly. Man's construction of his alternatives. In G. Lindzey (Ed), Assessment of human motives. New York: Rinehart, 1958 P,49.

(32) Ioid,P.50.

الى تلك الخبرات الخاصة ونضعها في المجال العام .

الشخص كما يقيس نفسه :

يسمى العلماء الفينومينولوجيون مثل روجرز وكيلى الى ان يتجاوزوا الاستبطان ، والى ان يقيموا نظرياتهم على طرق موضوعية وعلمية . فمثلا يؤكد روجرز على ان المعالج النفسي يدخل الى العالم الداخلي لادراكات المريض ليس عن طريق الاستبطان ولكن بواسطة الملاحظة والاستنتاج . (٣٤) ويتضح الاهتمام بالموضوعية في الجهود العديدة التي بذلها روجرز لاجل دراسة الاشخاص بطريقة امبيريقية وهذه الجهود هي التي جعلت اعماله تقع في مجال علم النفس وليس الفلسفة . يبدو كذلك نفس هذا الاهتمام بالقياس الموضوعي للخبرة الذاتية في الاتجاه الذي اخذ به كيلى في قياس الشخصية . ويشترك علماء النفس ذوو الاتجاه الفينومينولوجي في جهودهم الرامية الى تكوين طرق ووسائل لدراسة الخبرة بطريقة موضوعية ، ولكن هل الشخص كخبير بقياس نفسه the person as his own assessors يستطيع قياس نفسه بدقة ؟ فاذا كان كل شخص منا على دراسة وثيقة بواقعه المدرك الواعي conscious perceived reality فقد يبدو ببساطة من الخداع ادراك ورؤية العالم الذاتي للشخص الاخر . وفي الحقيقة اننا لا نستطيع بالطبع « ان ندخل بداخل جلد الشخص الاخر ونرقب العالم من خلال عينيه » . ولكننا نستطيع « ان نبدأ بواسطة عمل استنتاجات تقوم اساسا على ما نراه ، فعليه اكثر مما تقوم على ما نراه يفعله

بطبيعته من خلال رؤيته لما هو يفعله . لقد وصل كيلى من خلال خبراته الاكلينيكية مع الطلاب المضطرين الى موقف علمي يتداخل بشكل واضح مع وجهات نظر الفلاسفة الوجوديين من امثال « سارتر » فالوجود يسبق الجوهر existence precedes essence فليست هناك طبيعة انسانية - « فالانسان هو ما يصنعه من نفسه » Man is what he makes of himself .

مشكلات القياس الفينومينولوجي للشخصية

لا يقتصر المفهوم الفينومينولوجي في دراسة الشخصية على التصورات النظرية فحسب ، وانما يمتد ليشمل كذلك متضمنات ومشكلات خاصة بقياس الشخصية في ضوء هذا المنظور ، وكما رأينا يعتبر الاتجاه الفينومينولوجي على منطلق معين مفاده ان خبرة الشخص كما يدركها هي اساس دراسة الشخصية . ولكن اذا اهملنا المجال الخاص بالشخص كما يقول كيلى « فانه يصبح علينا بالضرورة ان نفسره كموضوع خامل inert object مساق في مجال عام بواسطة قوى خارجية ، او كيانات منعزلة واقعة على متصل » . (٣٣)

ومن ناحية اخرى اذا كان الافراد المختلفون يتشكلون داخل نفس النظام العام من القوانين فانه ينبغي ايضا اكتشاف الخصائص المشتركة والمستويات العليا من التجريد فلكي تدرس خبرات الفرد داخل الاطار المرجعي للقواعد العلمية فاننا ينبغي ان نجد الطرق التي توصلنا

(33) G. A. Kily, 1955, p.39.

(34) C.R.Rogers. Some Observations on the organization of personality. American Psychologist, 1947,2,pp.358—368.

الناس الاخرون (٣٥) يعني ذلك اننا نستطيع ان نحاول تناوله والدخول الى عالمه ، وليس نمطياتنا وتكويناتنا النظرية .

حاولت بعض الدراسات ان تختبر ما اذا كان الناس يستطيعون بدقة قياس سلوكهم والتنبؤ به فاذا تبين انهم لا يستطيعون ذلك فان قيمة البحوث الفينومينولوجية تكون ضئيلة .

ولتحديد قيمة التقرير المباشر الذي يقدمه الشخص نفسه علينا ان نقارن التنبؤات المستوحاة من تقريره الذاتي بتلك التي يمكن عملها من المصادر الاخرى للبيانات . فمثلا ، علينا ان نقارن - تقارير الذات self — re — port عند الفرد بتلك المعايير المأخوذة من الاختبارات والمقاييس النفسية ومن الطرق الاكاديمية .

وعما يدعو للدهشة ان تقارير الذات وهي طريقة بسيطة قد ثبت انها صادقة بل وفي بعض الاحيان افضل من تنبؤها من اكثر الاختبارات والمقاييس النفسية تعقيدا والتي صممت لسبر اغوار الشخصية ، يتضح ذلك من بعض

الدراسات مثل دراسات « ماكس » « وستاوفر ليلي » اللذين حاولا التنبؤ بالتوافق في المستقبل عند مرضى فصامين . وقد وجدنا ان التقارير البسيطة عن الذات المأخوذة من مقاييس للاتجاهات قد تمدنا بتنبؤات افضل من اكثر المقاييس النفسية تعقيدا مثل اختصار مينسوتا المتعدد الواجه لقياس الشخصية MMPI (٣٦) وقد وجدت دراسة اخرى ان بعض الطرق البسيطة لتقدير الذات self — rating قد تكون اكثر تباتا وفائدة مثل الاستنتاجات المأخوذة من التحليلات العملية لبعض اختبارات الشخصية . (٣٧)

وتبين دراسات « ميتشيل ونبيلر » ان قدرة طلاب الجامعة على التنبؤ بتقديراتهم كانت دقيقة مثل تنبؤاتهم المأخوذة من اجاباتهم على اختبارات التحصيل والاستعداد والشخصية . (٣٨) وقد اظهرت البحوث التي اجريت على التنبؤ بالسلوك الانجازي والتوادي انه في كثير من الحالات كانت تقارير الذات دقيقة مثل الاختبارات الاسقاطية . (٣٩) بل واكثر من ذلك تبين بعض الدراسات المتعلقة بالتوجيه المهني ان الاشخاص قد عبروا بشكل مباشر عن

(35) G.A.Kelly, 1955 p.42.

(36) J.Marks , J.Stauffacher & C Lyle. Predicting outcome in schizophrenia. Journal of Abnormal and Social psychology. 1963,66,117, — 127.

(37) D.R.Peterson. Scope and generality of verbally defined personality factors. Psychological Review 1965,72,48, — 59.

(38) W. Mischel, & P. Bentler. The ability of persons to predict their own behavior. Stanford University, 1965.

(39) J.J. Sherwood. self — report and projective measures of achievement and affiliation.

البسيطة تزودنا بتنبؤات لا تقل أهمية عن تلك التي نحصل عليها من أكثر اختبارات ومقاييس الشخصية دقة وتعقيدا ومن بطاريات الاختبارات ، ومن الاحكام الاكلينيكية ومن التحليلات الاحصائية المعقدة . (٤٣)

طرق دراسة الخبرة الذاتية :

يبدو في بعض الحالات ان الناس في ظروف معينة يستطيعون وصف سلوكهم والتنبؤ به ، على الاقل بنفس الدقة التي يستطيع بها المتخصصون ان يستخلصوا نتائج عن سلوكهم وشخصياتهم بواسطة طرق غير مباشرة ، ونتيجة لذلك من المعقول غالبا ان نسأل الشخص بطريقة مباشرة كيف سيسلك وتكون اوصاف الذات في كثير من الحالات دقيقة مثل مصادر البيانات الاخرى او افضل منها . ولكن ذلك لا يعني ان الناس تستطيع دائما ان تتنبأ بسلوكها بدقة . وبالرغم من ذلك تين نتائج بحوث عديدة ان الطرق التي صممت للحصول على تقديرات مباشرة للذات self — esti- mates وعلى تنبؤات بالذات self — pre-diction تستحق اهتماما بالغا . وفيما يلي تناول بعض هذه الطرق :

ميولهم في تقارير للذات بدت ذات قيمة في عمليات الارشاد المعني مثل اكثر الاختبارات أهمية في هذا المجال كاختبار ستونونج للميول المهنية . (٤٠)

وفي دراسة عن بعض سمات الشخصية كالعداوة والاهتمامات الجسمية والتحصيلية والدينية ، - استخدمت فيها طرق عديدة ، تين ان البيانات المأخوذة عن اوصاف الذات self — description — كانت صادقة كالطرق الاخرى المستخدمة مثل الاختبارات الاسقاطية (تكملة الجمل الناقصة.التات ، الرور شاخ) وتقديرات الزملاء للمفحوصين وغير ذلك من الطرق (٤١) وقد اظهرت دراسة اخرى ان تقديرات الاشخاص لدوائهم كانت اصدق من تقديرات زملائهم لهم ، كما كانت افضل من التنبؤات التي قامت على اي مقياس من المقاييس العديدة بما فيها المعالجات الاحصائية الدقيقة . (٤٢)

وباختصار يمكننا الحصول على معلومات مفيدة عن الشخص من خلال تقارير الذات self — report وتقديرات الذات self — rating ولقد تين بصفة عامة ، ان هذه الطرق

(40) — P.H. Du Bois, & R.I. Watson. The selection of patrolmen Journal of Applied Psychology, 1950,34, 90 — 95.

— C. McArthur & L.B. Stemens. The Validation of expressed interests as compared with invented interests: A Fourteen Year follow — up Journal of Applied Psychology, 1955,39,184 — 189.

— S. Dolliver. Strong Vocational Interest Blank.

Vs. expressed vocational interest: A review: Psychological Bulletin, 1969,72,95 — 107.

(41) J. wallace, & L. Sechrest. Frequency hypothesis and content analysis of projective techniques.

Journal of consulting Psychology, 1967,31,56 — 64.

(42) H.D. Hae & L.R. Goldberg. comparative validity of different strategies of constructing personality.

inventory Scales: Psychological Bulletin, 1967,67,231 — 248.

(43) W. Mischel. Personality and assessment. New York: Wiley, 1968.

من المعالم الرئيسية لهذه الطريقة ان المفحوص توجه اليه تعليمات لكي يفرز البطاقات في توزيع « قسري » forced distribution

تتألف هذه الطريقة من عدد كبير من البطاقات ، وعلى كل بطاقة عبارة مطبوعة . ومن امثلة هذه العبارات : « انا شخص خانع » « انا شخص محبوب » « انا شخص مندفع » او قد تكون العبارات من قبيل : « اقلق بسهولة » « اعمل بكفاءة » .. الخ .

وتأتي بنود طريقة وصف الذات من مصادر عديدة ، فقد تشتق من نظرية في الشخصية (٤٥) او من التقارير والبروتوكولات العلاجية (٤٦) او مقاييس الشخصية . (٤٧)

وقد افادت البحوث التي استندت الى نظرية روجرز من هذه الطريقة في دراسة التغييرات في الذات المدركة خلال العلاج .

(45) W. Stephenson. The study of behavior. Chicago: University of Chicago press, 1953.

Chicago: University of Chicago Press, 1954, pp. 55 — 76.

٢٥٦

المقابلة

فالمعالج ينبغي ان يحاول ان يتعلم من الشخص الخاضع للارشاد اول للعلاج كيف يفكر ويفهم ويشعر هذا الشخص « فافضل مدخل لفهم السلوك هو من الاطار المرجعي الداخلي للفرد نفسه » (٤٨) ورغم اهتمام الروجريون بالتعاطف مع الشخص ، الا انهم مع ذلك لا يهتمون بالبحث الموضوعي في العلاقة بين المعالج او المرشد والشخص الذي يطلب علاجاً او ارشاداً نفسيين ، يفسر ذلك اهتمام مدرسة روجرز بالبحث في العمليات المتضمنة في المقابلة . اهتم روجرز في دراساته الاولى باختبار مقتطفات من مقابلات مسجلة خلال جلسات العلاج النفسي المتمركز حول العميل لتحديد كيف ان التعبيرات اللفظية للعميل تعكس صورته عن ذاته self — picture وكيف تغير هذه الصورة خلال سير العلاج (٤٩) .

ولقد اصبح تحليل مضمون content analysis سجلات المقابلات طريقة منظمة للبحث ، ولقد استطاع الباحثون تحديد فئات لحساب درجات تعبيرات الاشخاص في المقابلة كما يقررون ذواتهم . ولقد اوضحت بعض البحوث مثلاً امكانية قياس تقبل الذات في علاقتها بتقبل الاخرين وانه كلما ازداد تقبل الذات ادى ذلك الى تقبل الاخرين . (٥٠)

ومع ذلك لم تكن مدرسة روجرز وحدها هي التي حاولت تحليل مضمون السلوك اللفظي في

يعترف معظم العلماء الفينومينولوجيين ان تقارير الذات قد لا تكشف عن كل شيء هام في السلوك وقد لا تعطي صورة كاملة عن الشخصية ، فقد يكون الشخص واعياً بأسباب سلوكه ولكنه غير قادر او غير راغب في تقريرها . وقد لا يكون واعياً بكل خبراته وبالتالي لا يستطيع الكشف عنها . وبالرغم من ذلك يفضل الفينومينولوجيون مثل روجرز الاطار المرجعي للشخص على انه المصدر الملائم للفهم ومهمة عالم النفس كما يرى روجرز هي ان يوفر الظروف او الشروط التي تؤدي الى النمو وتيسر الكشف عن المشاعر والذات .

ويجب الا نتوقع ان الناس تكون امينة مع نفسها حين تشعر بالخوف من ان ما تقرره سوف يؤخذ عليها او يؤدي الى قرارات سلبية تتعلق بمستقبلها ، ولكي يكشف الشخص عن مشاعره الخاصة ، فانه بحاجة الى جو غير مهدد يعمل على خفض مستوى القلق وديناميات الكف ولذلك يؤكد الفينومينولوجيون على خلق ظروف التقبل والدفء والتعاطف بما يجعل الشخص يشعر بالتلقائية في الكشف عن ذاته بصراحة ، يتضح ذلك بقوة فيما يعرف « بالعلاج المتمركز حول العميل » او بالعلاج الروجري « في هذا العلاج يوفر المعالج الساحة والتقبل ويترك جانباً مقاييسه الموضوعية واهتمامه بالاختبارات .

(48) C. R. Rogers, op. cit. 1952, p.494.

وأما هذه الدراسات (49)

— C.R. Rogers Counseling and psychotherapy, boston: Houghton 1942.

— C.R. Rogers, & R.F. Dymond. Psychotherapy and personality change. Chicago: University of chicago press 1954.

(50) E. J. Murray, F. Jr. Auld, & A.M. White A psychotherapy case showing progress, but no decrease in the discomfort — relief quotient.

Journal of Consulting Psychology, 1954, 18, 349 — 353.

المقابلة وإنما لقي هذا ايضاً اهتماماً من دراسات تنتمي الى مدارس أخرى في العلاج النفسي .

من هذه الدراسات ذات الاتجاه السيكدودينامي محاولة تتبع التغيرات في انماط الصراع كما يجري التعبير عنها في المراحل المختلفة من العلاج . فالمفحوص يبدأ في التعبير عن صراعاته الجنسية بشكل متزايد في الجلسات الاخيرة من العلاج النفسي ، بينما كان يفصح عن صراعات عامة في المراحل الاولى من العلاقة العلاجية ، ومن الطبيعي ان تحليل المضمون يتوقف على استنتاجات الاختصاصي الاكلينيكي للمعاني المتضمنة في عبارات الشخص الخاضع للعلاج او الارشاد .

وتوضح هذه الدراسات ان البيانات الفينومينولوجية المأخوذة من المقابلة قد خضعت لطرق موضوعية في البحث وفي ضوء تصورات نظرية مختلفة . ولذلك اذا كانت المقابلة اداة مفيدة من وجهة النظر الفينومينولوجية ، فان البيانات المأخوذة منها يمكن تحليلها بطرق مختلفة كمصدر رئيسي لقياس الشخصية .

طريقة التمايز السيماني :

وهي من الطرق الفينومينولوجية التي صممها « اوسجود » (٥١) لدراسة المعاني كما يقدرها المفحوص بدلالات الالفاظ . هذه الطريقة تحدد تقديرات لمعنى الاشخاص او الاحداث او المفاهيم التي يريد الباحث

دراستها . وتخضع معاني الكلمات والجمل والمفاهيم لمقاييس كثيرة .

في هذه الطريقة يقدم للمفحوص كلمة مثير stimulus word مثل « ابي » او « انا » او عبارة مثل « ذاتي المثالية » ، ويطلب منه تقدير كل مثير وفقاً لمقياس متدرج من سبع نقاط يتراوح بين طرفين متناقضين مثل « قوى - ضعيف » « سار - غير سار » « نشط - خامل » وان يكون تقديره على اساس انطباق معنى المفهوم المتميز عليه ويعتبر التمايز السيماني - semantic — differential طريقة موضوعية ومرنة ، تسمح ببحث معاني الكلمات والمفاهيم من كل الانواع ، وكذلك ببحث التغيرات في هذه المعاني كنتيجة لخبرات او اجراءات خاصة مثل العلاج النفسي .

ولقد كشفت بحوث التحليل العائلي للبيانات المتجمعة من استخدام هذه الطريقة عن ثلاث عوامل سيمانية رئيسية : عامل التقييم eva-luative factor مثل « حسن - رديء » وعامل القوة potency factor مثل « قوى - ضعيف » وعامل النشاط activity factor مثل « ايجابي - سلبي » .

وتشير بعض الدراسات (٥٢) الى ان هذه العوامل السيمانية الثلاث التي اتضحت من دراسات معاني المفاهيم تشبه تلك العوامل التي ظهرت من تقديرات سمات الشخصية . ويعني ذلك ان عوامل السمات trait factors

(51) C.E.Osgood, G.J.Suci, & P.H. Tannenbaum. The Measurement of meaning. Urbana, I11: The University of Illinois press 1957.

من أمثلة هذه الدراسات (52)

— S.A.Mulaik. Are personality factors, raters, conceptional factors?

Journal of Consulting psychology. 1964,28, (6), 506 — 511.

— P.E.Vernon. personality Assessment: A critical Survey. New York: Wiley, 1964.

« مالك لنفسه » وليس مملوكا بطبيعته الانسانية ، وبانه هو ما يصنعه من نفسه - بتضمنات عميقة بالنسبة لدراسة الشخصية . فبدلا من البحث في موقع الفرد بالنسبة للابعد التي يحددها اخصائي القياس في اختبارات ومقاييس الشخصية وفي ضوء تصور نظري معين تصبح مهمة عالم النفس هي الكشف عما يصنعه الفرد من نفسه . ومع ذلك فان النظريات الفينومينولوجية ورغم اسهاماتها العظيمة في سير غور الشخصية الانسانية الا انه قد اثرت بشأنها بعض التساؤلات الناقدة التي يمكن ان نجمها فيما يلي :

هل المعارف اسباب للسلوك ؟ : فرغم اهمية المعارف والادراكات والتكوينات الشخصية في دراسة الشخصية الا انه من الصعب الزعم بانها اسباب رئيسية لسلوك الشخص . فالتكوينات اللفظية والمعارف لا تسبب دائما السلوك غير اللفظي او حتى تؤثر فيه ، فالعلاقات بين المفاهيم الشخصية والانماط السلوكية الاخرى غالبا ما تكون غير مباشرة . ولم توضح الدراسات ان التغيرات في التكوينات الشخصية - او في الآراء او المعتقدات او القيم - تخلق بالضرورة تغيرات سلوكية هامة ، بل ان التغيرات المعرفية والقيمية غالبا ما تكون دالة لاداءات سلوكية معينة ، اكثر من ان تكون اسبابا لهذه الاداءات والتكوينات ، والمعارف قد تخضع لاعادة تنظيم لكي تتسق مع السلوك ، كما قد تستخدم لتفسير ذلك السلوك .

تفسيرات غير كاملة :

لعل اكبر نقد يوجه للتفسيرات المعرفية والظاهرية هو انها تفسيرات غير كاملة ولا تقدم تحليلا شاملا وتفصيليا بدرجة كافية للأسباب التي تحكم السلوك . ففي نظرية « كيلي » مثلا

اقرب غالبا الى عوامل المعاني - meaning fac-tors التي تتضح من دراسات التمايز السيماني للكلمات والمفاهيم .

نقد الاتجاه الفينومينولوجي في دراسة الشخصية

يبدى الكثير من علماء النفس وخاصة في مجال دراسة الشخصية اهتماما كبيرا بالمعارف والتفسيرات الشخصية للخبرة - وهو ما قامت عليه النظريات الفينومينولوجية . وفي الواقع ان الاهتمام بالكيفية التي يدرك بها الشخص للاحداث ويرى نفسه وعالمه ، كان له اثر كبير في دفع وتطوير وتعميق البحث في الشخصية الانسانية .

ومع ذلك فان الاتجاه الفينومينولوجي في دراسة الشخصية قد تعرض لبعض النقد الشديد . ان الاعتقاد الوجودي بان « الانسان هو ما يصنعه من نفسه » وما يدركه في نفسه قد لقي اهتماما شديدا من الباحثين في السلوك والشخصية . فعلماء النفس المهتمون بوجهة نظر الحتمية في العلم يتساءلون عن الاسباب التي تحكم ما يصنعه الانسان من نفسه وما يدركها عليه ، كيف يتمكن الاشخاص من ان يصنعوا انفسهم ويدركوا انفسهم بطرق معينة ؟ فبينما يعزو الفلاسفة ذلك الى الارادة كما فعل « سارتر » الا ان علماء النفس يبحثون في المتغيرات التي تكمن وراء ظاهرات الوجود والارادة ذاتها . واذا كان عالم النفس يتقبل الى حد ما الفكرة بان الانسان هو ما يصنعه من نفسه ، فان عالم النفس كعالم عليه ان يذهب الى ما هو ابعد من ذلك لبحث في الشروط والظروف التي تصنع هذا الانسان ذاته بما فيها الشروط والظروف التي تؤثر في ادراكه لذاته .

وقد كان للفكرة الوجودية بان الانسان

هل الذات « فاعل » ؟

لقد تعرضت الفينو منيولوجية لنقد شديد لأنها نظريات وصفية أكثر من أن تكون نظريات تفسيرية (٥٤). يؤكد « سميث » على أهمية التمييز بين نوعين مختلفين للذات : المعنى الأول وهو الذات كفاعل للسلوك doer of behavior وهذا المعنى يشير إلى العمليات العديدة التي تؤلف شخصية الفرد - فالذات كفاعل هي مصطلح إجمالي لهذه العمليات . أما المعنى الثاني فهو الذات كموضوع self as object - هذا المعنى يشير إلى مفاهيم الشخص واتجاهاته نحو نفسه . أي إلى مفهومه عن ذاته ، ويرى سميث أن هذين المعنيين للذات قد لقيًا خلطًا في النظريات الظاهرية . ومن الخطأ - كما يقرر سميث - أن تعزى النظريات الظاهرية للذات كموضوع (وهو مفهوم الفرد عن نفسه) كل أنواع القوى العلية ، مثل القدرة على تقييمها ووقايتها ككل وتغييرها لنفسها (٥٥) .

عندئذ يمكننا أن نطرح سؤالاً هاماً :

« هل من الممكن أن يكون هناك تكامل بين النظريات الفينومنيولوجية والنظريات السلوكية ؟ هذا التكامل ممكن ، ولكنه يتطلب من علماء النفس النظر إلى الإنسان على أنه الفاعل النشط الذي يدرك بيئته ونفسه ويفسرها ويؤثر فيها ، وكذلك على أنه مخلوق من الطبيعة خاضع لقوانينها .

ينظر للتكوينات الشخصية على أنها المحددات الرئيسية للسلوك ، ولكن ما الذي يحدد التكوينات التي لدى الشخص ؟ فاعتبار تكوينات الشخصية على أنها أسباب للسلوك والملاحظ قد تكون مقالا لتفسيرات علمية غير كاملة ، واننا لنجد تلك التحليلات غير الكاملة حينما تقدم الحالات العقلية أو الإدراكات أو المعارف أو - المشاعر أو غيرها من التكوينات كتفسيرات للسلوك ، بينما تلقى محددات الحالات العقلية ذاتها إهمالاً أو عدم اهتمام . يقول « سكينر » : (٥٣)

« أن الاضطراب في السلوك لا يتحقق تفسيره بواسطة ربطه بالقلق ، إلا إذا استطعنا بالتالي تفسير القلق . كذلك لا يتحقق تفسير فعل ما بأن نعزوه إلى توقعات معينة ، إلا إذا استطعنا بالتالي تفسير هذه التوقعات » .

ويرى « سكينر » أن التحليل الشمولي ينبغي أن يتضمن الشروط أو المتغيرات التي تحكم السلوك ، وليس مجرد الخطوات العقلية الوسيطة الفرضية .

ولقد وجه النقد للفينومنيولوجيين لاستبعادهم الإنسان (الشخص المدرك أو الشخص العارف) من السلسلة العلمية causal chain وبالتالي استبعادهم الإنسان ذاته من الدراسة العلمية ، ولكن بعض المنظرين الفينومنيولوجيين ، من ناحية أخرى قد وجهوا الاتهام - للنقاد السلوكيين لتناولهم الإنسان « ككائن حي فارغ » أو كآلة خالية من الفكر والمشاعر ، أو كمجرد مخلوق انعكاسي .

(53) B.F.Skinner. Behaviorism at fifty. In. T.W Wann (Ed), Behaviorism and phenomenology. Chicago: Univesity of Chicago press, 1964, pp.79 — 108.

(54) M.B.Smith. The phenomenological approach in personality theory. some critcal remarks. Journal of A bnormal and social Psychology, 1950 45, 516 — 522.

(55) Ibid.

شخصيات وآراء

هزت العالم في الخمسينات أحداث ضخمة انطلقت من العالم العربي وامتد أثرها بعد ذلك الى الدول الافريقية وغيرها من بلدان العالم الثالث . فقد شهدت مصر مولد ثورة يوليو / تموز ١٩٥٢ ولم يمض على ذلك عامان حتى اندلعت الثورة الجزائرية ، وبدأت الامبراطورية الفرنسية تتداعى في افريقيا وجنوب شرقي آسيا ، كما أخذ الاستعمار الأجنبي يتقلص في افريقيا ، بينما نشأت حركة عدم الانحياز .

وفي الخمسينات ظهرت في الجزائر نخبة من كبار الروائيين الجزائريين الذين نشروا باللغة الفرنسية روايات ومسرحيات أصيلة كان لها أثرها الكبير في إيقاظ الوعي الوطني والدفاع عن الشخصية الجزائرية وشجب الاستعمار . وعند ما بدأت حرب التحرير في نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٥٤ ، أصبحت الرواية والمسرحية والشعر أسلحة فعالة تناضل من أجل الحرية وتمجد الماضي والاسلام الذي حاول الاستعمار مسخه والذي كان معظم الجزائريين يرون فيه أساسا قويا للوحدة الوطنية وعنصرا من أهم عناصر الشخصية الجزائرية .

صحيح ان الجزائر شهدت ، بعد الحرب العالمية الأولى نشأة « مدرسة » جزائرية كانت تكتب روايات موجهة للقارئ الفرنسي وتقلد الروائيين الفرنسيين الذين ألفوا قصصا وروايات تدور أحداثها في العالم العربي وخاصة في شمال افريقيا ، وتعنى بوصف العادات الشعبية

عبد الحميد بن هدوقة والرواية الجزائرية

السيد عطيه أبوالنجا

في هذه الحرب وأبلوا بلاء حسنا في صف فرنسا وكانوا يتوقعون ان تفي فرنسا بما قدمته لهم من وعود بعد ان بذلوا كل غال للدفاع ، ولكنها غدرت بهم بعد ان وضعت الحرب اوزارها ، وقمعت الانتفاضات الوطنية بوحشية رهيبة .

وقد برزت في الخمسينات مجموعة من الكتاب والروائيين الذين وصفوا آثار تلك الحرب على المجتمع الجزائري ، وحلّلوا علاقة الجزائريين بالغرب وفرنسا بشكل خاص ، وقد عرف هؤلاء الادباء باسم مدرسة ١٩٥٢ ونذكر من بين الروائيين مولود معمري الذي نشر في فرنسا في ١٩٥٢ رواية « التل المنسى - la cof-fine oubliee » وفي ١٩٥٥ رواية « نوم العادل (اى النوم الهادىء) Le sommeil du juste » . كما نشر مولود فرعون « ايام القبائل » في ١٩٥٤ . بينما نشر الروائى محمد ديب في فرنسا السدار الكبيرة « في ١٩٥٢ و« الحريق » في ١٩٥٤ .

وعندما شبت الثورة الجزائرية اخذ هؤلاء الادباء يجدون ماضى الجزائر وتقاليدها الاسلامية ، وكانوا يقومون بذلك بأسلوب

والفولكلور وغير ذلك من الأمور التي تجذب السياح ، وتتفق مع الأفكار الخاطئة أو السطحية التي كوّنوها الغرب عن الشرق ، مثل حياة المرأة العربية في الحريم وسليبتها وصراعتها مع ضرائها . . الخ . وكانت المدرسة المذكورة تتجاسر أحيانا فتشير الى تفسخ المجتمع الاسلامي منذ أن بدأ يتأثر بالحضارة الغربية ، ولكنها كانت تحرص في الوقت نفسه على تمجيد فرنسا التي « نشرت العلم وأنقذت المجتمع الشرقي من الجهل والتخلف والاقطاع »^(١)

وقد وصف جان بومير Jean Pommier نتائج هذه المدرسة بانه محاولات فاشلة مخيبة للامل فقال :

« يجب ان نقر بادیء ذی بدء ، بشيء مخيب للامل لا يوجد ولم يوجد قط أدب جزائري ، ونعني بذلك انه لا يوجد ، او لم يوجد بعد ، أدب مختص بالجزائر وحدها ، ادب يتأكد طابعه بوجود لغة وجنس وامة جزائرية بمعنى الكلمة » . (٢)

الا ان الحرب العالمية الثانية كان لها اثرها في ايقاظ الشعور القومي ، فقد جاهد الجزائريون

(١) نذكر على سبيل المثال للحصر ، بعض روايات من نتاج تلك المدرسة « الانوجرافية » والفولكلورية .

Abdel Kader Hady — Hamou : Zohra , La femme du mineur , 1925

Slimane Ben Ibranhim , Khadre , Danseuse des Ouled Nait , 1926

Les Freres zanati : Bou el — Nouar , Le jeune Algerien m1945

J . Pommier : les ecrivains Algerienvisages

de Algeri Paris horizons de France , 1953

p ,pp

اما العالم العربي فقد كان متعاطفا مع الثورة الجزائرية وفخورا بهذا الادب الجزائري الذي يغدق عليه الفرنسيون المديح ، ومن ثم فقد ترجمت مؤلفات اولئك الادباء الجزائريين الى اللغة العربية ، بما في ذلك الغت والسمين وماوجه الغرابة في ذلك وقد دأبنا على الاعتزاز بترائنا ونتاجنا بمجرد ان نرى الغرب يشيد به ، فادررنا قيمة الف ليلة وليلة واستلهمنا منها الروايات والمسرحيات عندما لمسنا مدى اعجاب الغرب بها .

الا ان الجزائريين انفسهم كانت لهم نظرة مخالفة لهذا الادب ، فقد فهم النقاد الحصيفون من أمثال مصطفى الاشرف والمرحوم عبد الله مازوني ان في هذا النتاج روائع خالدة ، ولكنهم كانوا يعرفون ايضا ان هناك اعمالا كثيرة ضحلة ومن ناحية اخرى فقد أعربت الدولة الجزائرية بعد استقلالها ، عن تقديرها لبعض الادباء ، فعينت مولود معمري استاذا للآثنوغرافيا ، وآسيا جبار مدرسا بجامعة الجزائر ، كما شجعت كاتب ياسين على الاستقرار في الجزائر فعاد اليها بعد السبعينات ، الا ان كثيرا من الجزائريين ياخذون على هذا الادب انه يستخدم اللغة الفرنسية ويخاطب الفرنسيين ولا يختلف في نظرهم عن روايات « البير كامو » و « رويلس » وغيرهما من الكتاب الفرنسيين الذين كانوا

رمزى حتى يجدوا في فرنسا ناشرا يقبل طبع رواياتهم . فقد نشر كاتب ياسين مسرحية « الجثة المطوقة » في ديسمبر كانون الاول ١٩٥٤ ومرحىة « نجمة » في ١٩٥٦ . وفي ١٩٥٧ نشر محمد ديب رواية « المنوال » كما صدر لمالك حداد ديوان شعر عنوانه « الشقاء في خطر » . وفي ١٩٦٢ نشر محمد ديب رواية « من يتذكر البحر » وكان يرمز لبلده الجزائر بالبحر الام .

ولن نتعرض لتلك الروايات بالتفصيل فقد خصصت لها دراسات كثيرة (٣) ولكننا سنكتفى باءاء الملاحظات التالية :

(١) جذب هذا الادب الاصيل الكتاب الفرنسيين الذين كانوا يعيشون في الجزائر مثل البير كامو وجابرييل اوديزيو وجول روا وایمانويل رويلس وساعدوا زملاءهم الجزائريين على نشر نتاجهم كما رأى النقاد الفرنسيون في هذا الادب دليلا على نجاح ادماج الجزائر في فرنسا ، فاغدقوا المديح على الكتاب الجزائريين الناطقين بالفرنسية .

(٢) رأى بعض الناشرين الفرنسيين في هذا الادب الجديد موردا هاما للارباح ، فقد صور الناشر « جوليار » الروائية الجزائرية آسيا جبار على انها « فرانسواز ساجان » الجزائر ، لانها الفت وهى في سن العشرين رواية جريئة على غرار الروائية الفرنسية الشهيرة .

و «الطموح» . وفي ١٩٧٥ نشر عبد الملك مرتاد رواية نار ونور « بدار الهلال في القاهرة .

لقد كانت تلك القصص والروايات محاولات شجاعة ، الا انها كانت في معظم الاحوال ضعيفة من الناحية الفنية ، وكانت تخلط بين الدعاية والفن وتستغل على حد قول مصطفى الاشرف « شعورا قوميا معنى عهده » في جذب القراء . وسرعان ما مذج الجزائريون وخاصة الجيل الجديد منهم هذا الادب الذى يصور الماضى على نحو لا يخلو من المبالغة والتحويل ولا يعبر عن مشاكلهم الراهنة .

ولكن تطلّعهم الى ادب اصيل تحقق على يدكاتبين فذيين هما طاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة . فقد نشر طاهر وطار رواية اللاز L AS بالجزائر في ١٩٧٤ كما صدرت له في بيروت في العام نفسه رواية الزلزال :

صور طاهر وطار بأسلوب واقعى يشتد احيانا في جرأته وواقعيته بداية حرب الجزائر في قصة « اللاز ، كما أبرز التناقضات التى كان المجتمع والافراد يتخبطون فيها في ذلك الحين ، لقد نشأ اللاز لقيطا وعاش على هامش المجتمع وعانى من الفقر المدقع ومن الذل والمهانة فاختلفت قواه العقلية . وكانت تربطه علاقة غير شريفة بضابط فرنسى مما جعل الاهالى يرون فيه جاسوسا يعمل لحساب المستعمر ولكن اللاز ينتزع نفسه من الوحل ويقبل في خدمة الثورة ويعثر على ابيه الذى كان يقود فرقة من

يعيشون في الجزائر قبل الاستقلال ، كما ان الجيل الجديد من الادباء الذين يكتبون بالفرنسية من امثال رشيد بوجدر « و « حامو بلحفاوى » ياخذون على مدرسة ١٩٥٢ انها كانت تغلف نقد الاستعمار بالرموز ، وانها لم تكن جريئة في انتقاداتها ، وبالرغم من ان مولود معمري نشر في ١٩٦٥ رواية الرائعة « الافيون والعصا » التى يمجّد فيها حرب الجزائر ، ومع ان آسيا جبار عاجلت الموضوع نفسه في « أولاد العالم الجديد » (١٩٦٢) الا ان الجزائر لم تعد تقنع بهذا الادب بل ظلت تحس بحاجة شديدة الى ادب جزائري ناطق بالضاد . ولعمل هذه الرغبة العميقة هى التى دفعت كاتب الى صياغة مسرحياته باللغة الجزائرية الدارجة ، وشجعت بعض الروائيين الشبان على نشر قصص قصيرة وروايات باللغة العربية تمجد بطولة المجاهدين وتصف وحشية الاستعمار . وكان هؤلاء الادباء ينشرون قصصهم في الصحف ثم يجمعونها في كتب ، ونذكر من بينهم احمد بن عاشور وابو العيد دودو والجيلي خلاص . ويجدر التنويه بمؤلفات روائي شاب ، هو بقطاش مرزاق مؤلف « طيور الظهيرة » و « جراد البحر » فقد تميزت قصصه القصيرة بقوة اسلوبها وبراعتها في تصوير الحياة في مدينة الجزائر وابراز العلاقة بين الانسان وبيئته . وقد حاول بعض الادباء كتابة روايات طويلة فنشر محمد منيع « صوت الغرام » (١٩٦٧) كما نشر عرعر محمد العلى « مالتدروه الرياح » (١٩٧٢)

وبشكل خاص مع المرأة الجزائرية . لقد أصبح عبد الحميد بن هدوقة رمزا للادب الجزائري المعاصر فهو يمثل بلاده في كافة مؤتمرات الكتاب . ولا عطاء فكرة عن أهمية هذا الكاتب العملاق تكفي الإشارة الى ان رواية « ربح الجنوب » (الجزائر ١٩٧١) نشرت اربع مرات وبلغ عدد نسخها ٤٠٠٠٠ نسخة وترجمت الى الفرنسية وطبعت ثلاث مرات وبلغ عدد نسخها ٢٠٠٠٠ نسخة . وقد صدرت مؤخرا الطبعة الثانية من ترجمتها الهولندية « كما ترجمت ربح الجنوب الى اللغات الاسبانية والبولندية والالمانية .

هذا وقد نشر عبد الحميد بن هدوقة في ١٩٧٥ رواية « نهاية الامن » وقد صدرت الطبعة الثانية منها وترجمت الى الفرنسية وظهرت الطبعة الثالثة منها ايضا ويجرى الآن طبع ترجمة هولندية لها . وقد ظهرت منذ شهور رواية « بان الصبح » (١٩٨٠) .

كما نشر بن هدوقة قصصا قصيرة كثيرة ترجم معظمها الى الفرنسية المرحوم عبد الله مازوني ونشر بعضها في ثلاث مجموعات وهي :

- (١) ظلال جزائرية دار الحياة بيروت ١٩٦٠ .
- (٢) الاشعة السبعة ، ١٩٦٢ تونس .
- (٣) الكاتب وقصص اخرى الجزائر ١٩٧٤ .

المجاهدين . ولعل « اللاز » يرمز للجزائر التي استطاعت ان تطوى صفحة من الماضي الاليم وان تغسل عار التبعية لفرنسا باستبسالها في النضال وان تسترد شخصيتها السلبية وجذورها الأصلية .

أما قصة « الزلزال » فهي تصور الجزائر في فترة اهتزت فيها اركان الماضي وبدأت تتضح فيها معالم المجتمع الجديد . لقد برع طاهر وطار في تصوير انهيار مجتمع ونشأة مجتمع جديد وما يحدثه ذلك من تناقضات واهتزازات ، وبرز التعارض بين القديم والجديد في حياة الشارع وحياة الاسرة وتطور الاحداث . فالزلزال هو الثورة الزراعية التي قوضت الاقطاع . ان بطل الرواية اقطاعي يحاول الاستعانة ببعض النصوص الدينية لمناهضة الثورة الزراعية فينادي بان الارض ملك لمن حباه الله بها ، ولكن الجيل الجديد يسخر منه وينتصر عليه ، فيتزلزل عالم بطل الرواية ويفقد عقله ويهيم على وجهه في شوارع المدينة بينما يطارده الاطفال ، رمز الجيل الصاعد .

ويعالج عبد الحميد بن هدوقة الموضوعات نفسها في رواياته ، ويعتق مثل طاهر وطار ، المذهب الواقعي ، وينادي بضرورة الالتزام في الادب ، ولكن اسلوبه الواقعي تتخلله شاعرية فريدة وتغلغه رمزية تعطي لرواياته ابعادا عميقة كما تفيض كتاباته بالحب والحنان للريف الجزائري والفلاحين ، وتتعاطف مع الشباب

كما نشر مجموعة من الشعر الحر بعنوان الارواح الشاغرة (١٩٦٧ ، الجزائر) وكتب حوالي ٢٠٠ تمثيلية اذاعية وتلفزيونية .

ونظرا لغازة انتاج عبد الحميد بن هدوقة فسوف نركز دراستنا على رواياته . ولما كانت تلك الروايات قد تأثرت بحياة الكاتب وتجاربه ، فسنعطي نبذة قصيرة عن نشاته وتطور فكره وفنه .

ولد عبد الحميد بن هدوقة في سنة ١٩٢٥ بالمنصورة بولاية سطيف ، وقضى طفولته في قرية صغيرة من قرى الجبل حيث عرف حياة الريف عن كثب وصوره في « ريح الجنوب » و « نهاية الامس » . ودرس اللغة العربية على يد والده وتابع دراسة اللغة العربية وآدابها في قسنطينة بالجزائر ثم في تونس حيث حصل على شهادة معادلة لليسانس الآداب ، كما تخرج من معهد التمثيل العربي في تونس ، هذا وقد تعلم بن هدوقة الفرنسية في مدرسة المنصورة الفرنسية ثم في مارسيليا ، حيث تلقى تدريبا تقنيا في صناعات البلاستيك ، ودرس الاخراج الاذاعي في الوقت نفسه ، وعاد بن هدوقة الى الجزائر في ١٩٥٤ حيث درس اللغة العربية وعندما قامت الثورة الجزائرية انضم اليها . ولما بدأ البوليس الفرنسي يطارده هرب الى فرنسا في نوفمبر تشرين الثاني ١٩٥٥ وتوجه منها الى تونس في ، ١٩٥٨ حيث انقطع للدفاع عن الثورة الجزائرية ونشر مقالات كثيرة وكتابا عنوانه

« الجزائر بين الامس واليوم » ولعل هذا العنوان يلخص في حد ذاته عالم بن هدوقة القصصي . وبعد الاستقلال عاد بن هدوقة الى الجزائر حيث يشغل حاليا منصب مدير الاذاعة والتلفزيون . هذا وقد تزوج بن هدوقة بفرنسية انجب منها بنتا تعيش الان في فرنسا ، ولكنه لم يكن موفقا في حياته الزوجية فطلق زوجته الاولى واقترب باخرى جزائرية .

وقد صور عبد الحميد بن هدوقة الكثير من تجاربه في رواياته ولكنه لم يفرض شخصيته على شخصيات رواياته . فمما لاشك فيه أن مالك بطل ريح الجنوب والبشير بطل نهاية الامس ورضا بطل بان الصبح بشبهونه الى حد كبير ، لكن كل شخصية لها طابعها المستقل وحياتها الخاصة . هذا ويتميز انتاج بن هدوقة باصالته فهو ادب عربي اصيل نشأ وترعرع تحت شمس الجزائر ، ولكنه متفتح على الادب العربي والادب الغربي وفي رسالة شخصية وجهها اليها بن هدوقة حدد فنه وعالم رواياته قائلا :

« ان ما كتبه لن يعدوا ان يكون اسهاما متواضعا في بعث ادب عربي جزائري ؛ وسط محيط تتنازعه التيارات والعقائد والأمزجة الحادة . . .

اننا نعيش هنا بالجزائر ، وفي كافة أنحاء الوطن العربي على ما اظن ، وجودا حضاريا وتاريخيا متازما و متمزقا في نفس الوقت . كما ان انتهاءاتنا الجغرافية والحضارية والروحية والثقافية

عناصر الاجابة على تساؤلات عبد الحميد بن هدوقة موضحين ان رواياته تصور ثلاث مراحل هامة من تطور الجزائر ، فهي مراحل تتصارع فيها الاتجاهات والقوى الاجتماعية المختلفة .

١ - ربح الجنوب

تبدأ احداث « ربح الجنوب » بعد الاستقلال مباشرة ، وتدور تلك الاحداث في بقعة نائية بمنطقة جبلية ، وتمضى الحياة في القرية رتيبة كثيفة لا يخفف من وطأتها سوى اجتماع الفلاحين بالمقهى في المساء في المناسبات . ولا توجد في القرية مدرسة تعد ابناؤها للحياة ، وقد وهب أحد القرويين قطعة من الارض لبلدته حتى تبنى فيها مدرسة ، ولكن حياة السكان القروية وظروف معاشهم التي تستلزم تربية المواشى حالت بينهم وبين الانفاق على بناء المدرسة ، فالكل يود ان تكون في مكان يقرب من سكنه ، وهكذا قرروا في النهاية ان يجعلوا من المكان الموهوب مئوى اخيرا لشهداء القرية » . (٤)

وهكذا فضل الفلاحون التضحية بالمستقبل على مذبح الماضي ، وقرروا تكريم الموتى بدلا من اعداد الجيل الجديد ، ومن الطبيعي ان تسيطر العادات والتقاليد العتيقة على أهل القرية وتملى عليهم سلوكهم ، ومن الطبيعي ان تغلب عليهم السذاجة وان تحركهم الغرائز فيسعوا لتحقيق النفع السريع والمصلحة العابرة بدلا من

لم تعد تكفينا لتحقيق ذاتنا ، فرحنا نبحت عن أنفسنا ، اما في الازمنة الضائعة ، او في البدائل المستوردة ، لنعوض لا شعوريا ما اخذ منا طوال قرون النوم والزهد . . .

لذا حاولت فيما كتبت ، على تواضعه ، ان اعالج نقاط التآزم الرئيسية في الواقع الجزائري بصفة تدخل اكبر قدر من المستقبل في الحاضر ، وتبتعد عن المضامين الجاهزة والاشكال النابعة من مراكز خارجية ، اعتقادا منى بان الانطلاق من معطيات سوسيو- تاريخية محلية لكل قطر عربي ، لوروعيت في اعمالنا الادبية لارجعت لنا شيئا من كرامة ، وجنبنا كثيرا من مزالق الاستلاب . فالثقافة العربية التي عاش العالم على كرمها الروحي ما يقرب من الف سنة لا تستحق هذا الواقع الذي وضعها فيه نخلفنا المادى والسياسي .

ان هذه الاهتمامات هي التي جعلتني في كل اعمالي الادبية اعمد الى معالجة الواقع المتآزم والجوانب المظلمة في حياتنا الاجتماعية ، مبتعدا بقدر الامكان عن الاغتياب بما حققناه من ايجابيات .

هل وفقت ؟ طبعاً لا املك الجواب وليس لي ان اجيب فالقارئ وحده له الحق في ان يجيب عن مثل هذا السؤال .

اننا سنحاول في الصفحات التالية ان نقدم بعض

اعداد العدة للمستقبل ، وهم على ما عليه من فقر وجهل متفرقون بعبث بهم الاقطاع كما يشاء .

وعندما تهب ريح الشمال تحلو الحياة بالقرية ويسودها الهدوء . وعندما تهب ريح الجنوب او ريح القبلى تعصف بكل زرع ، وتكسو القرية بطبقة من الغبار الاسود وتحمل فى طياتها الزوابع ولكن ريح الجنوب التى تحمل الرواية اسمها لها قيمة رمزية . فكلما هبت اطلقت غرائز القرويين من عقالها وفجرت مشاعرهم العنيفة ، ولعل ريح الجنوب تشبه فى وظيفتها الروائية « الشمس » فى رواية الغرب لالير كامو ، فهى تثير القيث والغضب على نحو يدفع الى القتل .

فى مسرحيات كاتب ياسين ايضا تطلق الشمس النحل من خلاياه ، وكثيرا ما تقترن ريح الجنوب بالرعد الذى يوحى « بمشاعر العنف والقوة والجبروت والثورة على كل شىء وهى ثورة تؤدى فى النهاية الى الخراب » (٥) كما تقترن تلك الريح بالحر الذى يولد شعورا بالاختناق . وهكذا نجد ان الريح لها ، كالشمس فى روايات كاتب ياسين وجهان احدهما يبعث على الهدوء والطمأنينة ويدعو الى الحب والعودة الى الارض الحنون ، اما الوجه الاخر فهو وجه العنف والحر والغضب والثورة التى تكتسح كل ما يعترض طريقها .

وتدور احداث الرواية حول عدة شخصيات

هى المجاهد مالك والاقطاعى عابد بن القاضى وابنته نفيسة والراعى رابح وصانعة الفخار رحمة .

ان رابح يرعى غنم عابد بن القاضى كل يوم مقابل وجبة يومية وشاة كل عام ، وهو لا يعرف للراحة طعما ، ولكنه يعيش فى انسجام تام مع الطبيعة . وفى المساء يعود الى كوخه فى الجبل حيث تنتظر امه البكماء ولا يجد الراعى وسيلة للتعبير عن افكاره والخروج من وحدته سوى العزف على الناي . وفى المساء تصل أنغام الناي الى القرية من أعلى الجبل متقطعة يفرغ فيها صاحبها « كل ما يفيض به قلبه من حنان ووحدة وشوق » وكانت تلك الأنغام تسحر نفيسة وتثير خيالها ، كما كان يجذبها رابح بجماله وقوته ، الا انها كانت ترى فيه خادما من خدم ابيها ، اما رابح المسكين فقد صورت له سذاجته ان نفيسة تحبه .

اما العجوز رحمة فهى الفنانة الشعبية الاصيل . لقد كانت تصنع أوانى الفخار وتطليها بنفسها بالرغم من انها أصبحت طاعنة فى السن وكانت تنشد الكمال فى التعبير الفنى وتتحسر لانها لم تصل اليه . لقد كانت او انيها تزين كل دار وقد سجلت تلك الفنانة على الاوانى الاحداث الهامة فى حياتها وفى حياة القرية وخاصة اثناء حرب التحرير . والواقع ان تلك الأوانى أصبحت ذاكرة حية للقرية .

الحكومة رئيسا للمجلس الشعبي البلدى . ان ابن القاضى يخشى مالك لانه يحس انه قد عرف سره ، ويخشاه كذلك لانه ينادى بالاصلاح الزراعى الذى كثر الحديث عنه على نحو يقض مضجع ذلك الاقطاعى .

ماذا يفعل ابن القاضى لينفذ الارض التى وهبها حياته ؟ لقد قرر ان « يصهر الى » الحكومة أي ان يزوج ابنته الثانية « نفيسة » لملك ، فنفيسة تشبه تماما زليخة ولورآها مالك لتحرك حبه القديم ، ولهذا فقد طلب ابن القاضى من العجوز رحمة ان تقنع مالك بالزواج بنفيسة ، كما اشاع في القرية ان هذا الزواج قد تقرر بالفعل وذلك حتى يضع مالكا امام الامر الواقع .

اما مالك فهو رجل نزيه مثالى استبسل في الحرب ثم عاد اليوم الى القرية لتحريرها من التخلف والفقر بعد ان تحررت من الاستعباد . انه يجتر ماضيه الاليم ويعيش على ذكرى زليخة وعندما يرى نفيسة يتحرك حبه القديم ، ولكنه لا يتحمس لفكرة الزواج ، لان الماضى لا يمكن ان يبعث ، ولان نفيسة من جيل غير جيله . وهو يعرف كذلك أن ابن القاضى يداهنه ويريد ان يجعل منه شريكا وحليفا للاقطاع .

اما نفيسة فهى في الثامنة عشرة من عمرها لا تحلم الا بمدينة الجزائر وبجامعة الجزائر التى تدرس فيها ، وعندما ترى مالكا لاثمس نحوه باى عاطفة ، فهو يكبرها سنا ويتنمى الى عالم يختلف عن عالمها . وهى تحس باختناق منذ

ان العجوز رحمة هى التى انقذت مالك المجاهد من موت محقق اثناء حرب التحرير وخبأته في دارها ستة اشهر حتى شفى من جراحه ومنذ ذلك الحين ومالك يعاملها كأمة .

اما عابدين القاضى الثرى الذى يملك الاراضى الواسعة الخصبة والماشية الكثيرة ، فهو رجل عمل الا انه يحب المال حبا جما ويضحى بكل غال من اجل الاحتفاظ بالارض واقتناء المزيد منها . تحالف مع الاستعمار اثناء حرب الجزائر ولكنه تظاهر في الوقت نفسه بتأييد جيش التحرير . وعندما خشى ان يفتضح امره سعى الى تزويج ابنته زليخة للمجاهد مالك . كانت زليخة تدرس بجامعة الجزائر وكانت تؤمن بمبادئ الثورة . خطبها مالك واحبها وبادلتها الحب . وفي يوم ماعدت من الجزائر العاصمة الى قريتها بالقطار وكان من المقرر نسف قطار حربى يعبر القرية في اليوم نفسه . وضع مالك اللغم بيده بالسكة الحديدية ولكن القدر شاء ان يتعطل القطار الحربى وان ياتى بدله القطار الذى استقلته زليخة فينسفه اللغم . وهكذا قتل مالك وهو لا يدري اعز انسان لديه ، جن جنون عابد ابن القاضى فوشى بمالك ورفاقه وفاجأهم الجيش الفرنسى فمات معظمهم بنار الفرنسيين وجرح مالك جرحا بليغا . ومنذ ذلك الحين ومالك يعتقد ان عابد ابن القاضى هو الذى وشى به وبرفاقه ولكنه لا يملك الدليل على ذلك ، وعندما وضعت الحرب أوزارها عاد مالك الى القرية حيث عينته

عادت من الجزائر العاصمة الى قريتها لتتقضى بها العطلة الصيفية . إنها تقضى سحابة يومها في سريرها الصغير بحجرتها الضيقة وعيناها تجولان في السقف تعد ألواحها . ان ام نفيسة حزينة لان ابنتها لاتصلى وهى تعتقد ان « الفرنسية التى تعلمتها ابنتها ستحيد بها لا محالة عن الطريق السوى » (٦) اما نفيسة فهى مراة تتطلع الى الحب وهى تكتشف جسدها وتحس بلذته وهى تتحسه . وعندما تسمع أنغام الناي التى يعزفها رابع الراعى تحلم بأنه أمير ساحر سياتى لياخذها بين ذراعيه وينقلها من السجن الذى تعيش فيه .

ولنفيسة اخ صغير يتحدث معه من حين لآخر اما ابوها فهو لا يوجه اليها الكلام ، ولكنه كلف زوجته باخبار نفيسة بانها لن تعود الى الجزائر العاصمة لمواصلة دراستها اذ انه ينوى تزويجها لمالك .

تصورت نفيسة ان مالك قد قبل بالفعل فكرة الزواج بها فجن جنونها واثارت على امها . انها تحنق على امها لانها سلبية تقبل سيطرة الرجل على المرأة . ان امها تمثل في نظرها الماضى الذى تلفظه وهى لا تقبل ان يتحكم الرجال في مصيرها وان يزوجوها رغم أنفها بشخص لاتحبه . انها لاتريد ان تعيش في قرية تحبس حريتها وتفرض عليها ارتداء ثياب تخفى انوثتها وكأنها عورة وتجعلها تعيش سجينه الدار والثياب

والتقاليد « هل تثور ولكن اية ثورة وفي اى اتجاه ؟ انها لاتعرف احدا في القرية . وهب انها عرفت ماذا يجدى ذلك ؟ فلا فرع هناك للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ولا غيرهما ، لكنها مع ذلك لا بدان تثور ، وان تعارض كل سيطرة خارجية مهما كانت . ثورتها وحدها هى التى تستطيع تحديد الاتجاه والطريق » (٧) .

قررت نفيسة ان تستغيث بخالتها التى تقيم في الجزائر العاصمة حتى تقف بجانبها في محنتها . اعطت في السر خطابا الى الراعى رابع ليرسله اليها من مكتب بريد القرية المركزية . اما رابع المسكين فقد تصور ان نفيسة اخترعت هذه الحيلة لتبوح له بحبها ، وفي ليلة سكنت فيها الريح وافرغ فيها القمر على الارض كل ما فيه من نور فاذا هى سكرى بالنور ، اخذت نفيسة تدور في غرفتها كالحيوان الحبيس ثم اتجهت الى النافذة ففتحتها واخذت تتأمل الطبيعة ثم عادت الى فراشها فخلعت بغضب قميص النوم ورمته به فوق المقعد الخشبي وارتمت في الفراش عارية .

وفي الوقت ذاته ملأ هدوء الليل وسكون الريح وضوء القمر قلب رابع بالآمال العذبة وتحركت غريزته فدفعته الى ان يقتحم سور دار نفيسة ويتسلل الى غرفتها واهتز كيانه العصبى وهو يرى جسم امرأة في حياته ، ايقظ نفيسة

(٦) ربيع الجنوب ، ص ١٢

(٧) ص ٨٧ ، ٨٨ .

النار وما في كل منها من ألوان العذاب . ولكن فلاحا طرح سؤال لا يتعلق بالفقه ولا بالتوحيد فقال « ماهى الاشتراكية » فرد عليه شيخ على الفور قائلا « الاشتراكية مصدر ، اشترك يشترك اشتراكية » أبدى الجميع اعجابهم بهذا العلم الا ان أحد الفلاحين طلب من الشيخ ان يشرح له « الا اشتراكية الاخرى » التى تتكلم عنها الحكومة فاجابه الشيخ « سواء كانت الاشتراكية التى تتحدث عنها الحكومة او واحدة أخرى فهى مصدر والسلام »

احس مالك بالغنيان وهو يستمع الى مايجرى من حديث واخذ يقول لنفسه « ان الثورة المسلحة حررتنا من الاستعمار ولم تحررنا من الاوهام ، يجب القيام بثورة اخرى ولكن من يقوم بها ؟ المدرسة وحدها لا تكفى ... »

قرر الخروج من الحجرة والاختلاء بنفسه فى مكان بعيد عن دار العجوز ، ولكن ابن القاضى لحق به ليفاتحه فى مشروع الزواج وليشكو اليه من المضايقات التى يواجهها بسبب كثرة الضرائب الجديدة ومن الحكومة التى تقول ان الارض لمن يخدمها وتفكر فى تطبيق اصلاح الزراعة .

وفى تلك الاثناء كانت نفيسة مع بقية نسوة القرية فى دار رحمة . كان الليل فى ثلثه الاخير وكان الحريرزداد ويثقل ، بينما كانت ريح الجنوب تتململ وراء الجبال قبل ان تصل بزئيرها وجحيمها ، وكانت نفيسة تحس باختناق وهى تستمع الى نساء القرية وقد اخذن يصفن احوال

فطرده شرطردة وهى تقول « اخرج ايها الراعى القدر » خرج رابع حزينا ذليلا كاسف البال . تصور ان نفيسة لم تنبذه الا لانه يزاول مهنة قدرة فاقسم الايرعى الغنم بعد ذلك ، وقرر ان يعمل حطابا ، وبينما كان يجمع الحطب رأى العجوز رحمة فى الجبل وهى بين الحياة والموت ، كانت رحمة قد ذهبت الى الجبل لتأخذ منه ما تحتاج اليه من تراب لصنع الاوانى . وكان النهار مايزال فى اوله ، ولكن الحر كان خانقا . كانت العجوز تجر خطاها وهى تحمل قفة تراب مشدودة على ظهرها بجبل وثيق وخانتها قواها فقد خرجت والتنوى الجبل على عنقها وكادت تحتنق ، حملها رابع الى كوخها ومكث بجانبها حتى افافت .

تدهورت حالة العجوز الصحية وماتت وحيدة وهى تهذى وتحلم انها قد اصبحت آنية من الفخار . قررت القرية باكملها ان تودع رحمة وتكرم مثاها وااجتمع أهلها بدار رحمة وفى المساء تحدث امام القرية عن الدنيا والاخرة وتطرق الحديث الى الملابس الحلال والملبوسات الحرام فقال احد الشيوخ انه لا يجوز للرجال لبس الذهب « الا المصحف والسيف والانف وربط سنين مطلقا » . . وجاز للمرأة الملبوس مطلقا ولو نعلا لا كسرير . وقال سائل آخر « واذا صلى انسان وهو يحمل ساعة ذهب هل صلاته صحيحة فقال الشيخ مستشهدا بخليل بن اسحق « عصا وصحت » .

تبارى الشيوخ فى وصف زبانية النار وطبقات

ليلة الدخلة . تظاهرت بالنوم فاخذت النسوة يتحدثن عن زواجهما الوشيك بمالك ويغبطنها على ذلك . جن جنون نفيسة وقررت احباط ذلك المشروع بالفرار الى مدينة الجزائر . « تحركت ريح الجنوب بكل عنف وانطلق دويها بكل قوة يهز الدنيا هزا واخذت اصواتها في فحيح وفير تتجاوب من كل جهة وجانب ، باعثة في النفوس الهلع وفي القلوب الرعب والفرع » . (٨)

هربت نفيسة متنكرة في زى رجل ، شقت طريقها نحو السكة الحديد ولكنها تاهت وسارت في طريق ادى بها الى الادغال حيث لدغها ثعبان راي رابح الخطاب رجلا يزقد سريعا ، وسرعان ما اكتشف ان هذا الرجل هو نفسه . لم يفكر في الانتقام منها بل شق مكان اللدغ وامتنص الدم المسموم ووضع على الجرح عشبا يعرفه وكان يستعمله في مداواة الغنم التي تلدغها الثعابين . استيقظت الفتاة من غيبوبتها فوجدت رابح بجانبها وشعرت باطمئنان شديد ، عرض عليها ان يعود بها الى دارها ولكنها توسلت اليه ان يأخذها الى داره حتى تشفى وتفر الى الجزائر العاصمة . خفت أم رابح لمساعدة نفيسة وتذوقت نفيسة بجانبها متعة الحياة البسيطة الهادئة .

ووقع اختفاء نفيسة على ابيها وقع الصاعقة

فانهال على زوجته ضربا لانها لم تحسن رقابة ابنتها ، وانتشر خبر الفضيحة ، فاحس الرجل بكل آماله وقد تداعت ، فقد ثلم شرفه فلن يتزوج مالك بنفيسة وسوف تضيق الارض من عابد ابن القاضى بعد ان جلبت عليه ابنته العار والشنار ، وعندما يكشف ان نفيسة تقيم بدار رابح يضرب رابح بموساه . لم يقاومه رابح بالرغم من انه كان اقوى منه بكثير بل استسلم له وتركه يطعنه ، ولكن ام رابح جن جنونها فهوت على ابن القاضى بفاسها اسرعت الام الى ابنتها لانقاذها واسرعت الفتاة الى ابيها لتحاول تضميد جراحه وتقاطر اهل القرية الى كوخ رابح ثم عادت نفيسة الى دارها بينما « تحركت ريح الجنوب » واخذ دويها يتصارخ بين جبال القرية ورباها فاذا الارض المقمرة تتلحف بلحاف من غبار . . . غبار القبلى » . (٩)

وهكذا تنتهى ريح الجنوب التي تتركز على موضوعين رئيسيين تحرر المرأة وتحرر الارض .

ان نفيسة تتطلع الى الحرية ، وكذلك يحلم مالك المجاهد بمستقبل آمن زاهر للفلاحين ولكن القوى الرجعية تلعب دورا كبيرا في « ريح الجنوب » وتمثل تلك القوى في ابن القاضى الذى يريد التهرب من الاصلاح الزراعى ، كما تتمثل في سيطرة الرجل على المرأة القروية وفي خضوعها له وفي الشعوذة وفي تمسك بعض

ليعبروا عن آرائهم وخواطرمهم بينما يراقبهم مالك عن كثب ويقيم اعمالهم ويعجب بشهامتهم ويتألم لفقرهم وجهلهم وتفقرهم . ومع ان ابن هدوقة يصور الحياة كما هي لا كما يجب ان تكون الا ان واقعيته تغلفها مسحة من الرومانتيكية ، ففي ريح الجنوب شخصيات فذة هربت من الواقع الى عالم الطبيعة والفن مثل رايح الراعى الذى يعيش فى انسجام تام مع الطبيعة والموسيقى ، ومثل رحمة الفنانة العاملة التى تعيش فى عزلة بين احضان الطبيعة وتنشد الكمال الفنى فى صنع الاوانى ، واذا كانت اوانى ، رحمة العجوز سجلا فنيا لحياتا الشخصية ولأحداث القرية ، واذا كانت انغام ناي رايح الراعى تعبر عن حياة القرية بما يتخللها من شعور بالوحدة والبؤس ، ومن ثورة كامنة على اوضاع اجتماعية جائرة فان ريح الجنوب تعتبر شخصية رئيسية فى الرواية فهى ، بمثابة مبارد يضيق بقمقمه ويريد تحطيم اغلاله لينشر حوله العنف ويكتسح كل مايقف فى طريقه .

٢ - نهاية الأمل

نحن الآن فى ١٩٦٧ ، وقد مضى على استقلال الجزائر خمس سنوات . ان ذكرى حرب التحرير مازالت ماثلة فى الأذهان ، ولكن بعض رجال الدين من أمثال الشيوخ الذين سخر منهم ابن هدوقة فى ريح الجنوب قد تحالفوا اليوم مع الاقطاعيين لمواجهة الاشتراكية التى يرون فيها صنوا للشيوعية وللإصلاح

شيوخ القرية بعلم عتيق لايتفق مع مقتضيات العصر ، اما الفلاحون فهم متفرقون غير متضامين ، كما يفتقرون الى الوعى السياسى وهم لايفهمون مايقوله لهم علماء القرية ولا يدركون ماذا تعنيه أجهزة الدعاية الحكومية عندما تحدثهم عن الاشتراكية والتسيير الذاتى وتأسيس اللجان والميشاق . . ولكننا نحس ان مالك وهو متعلم حصيف قد عاد الى القرية لتوعيتهم ، كما نحس ان القوى الرجعية قد بدأت تتصدع وتفقد نفوذها ، فقد رفض رايح الراعى العمل بخدمة ابن القاضى ووقف الى جانب نفيسة ضد ابيها . كما لم يقبل مالك مشروع مصاهرة ابن القاضى واخيرا فقد وجهت نفيسة الى ابيها الضربة القاضية ففقد سمعته وهيبته قبل ان يخسر صريعا تحت ضربات ام الراعى رايح .

اننا نحس ونحن نقرأ « ريح الجنوب » ان الجزائر فى فوران وغليان ، وانها على وشك مشاهدة احداث سوف تهزها وتزلزل اركان عالمها التقليدى ، ولكن ابن هدوقة يصور احتضار الماضى ومولد المستقبل من خلال قرية نائية فقيرة يصف حياتها اليومية فى اسلوب واقعى اصيل ، فهو لا يصور الفلاحين على نحو رومانسى كما فعل محمد حسين هيكل فى رواية زينب ، ولا يعطى لنضالهم بعدا ايدولوجيا كما فعل عبد الرحمن الشرقاوى فى رواية الارض ، حيث يتكتل الفلاحون ضد الاقطاع ويتنصرون عليه ، ولكن ابن هدوقة بفسح المجال لهم

الزراعي . وبينما لم يحقق التسيير الذاتي كافة النتائج المنشودة تسلل بعض الانتهازيين الى المناصب الحكومية .

ان هذا الجو المتوتر نجد صداه في نهاية الأمر التي يدور فيها نضال بلا هوادة بين المجاهد النزيه « البشير » الذي يشبه الى حد كبير « مالك » بطل ربيع الجنوب وبين الاقطاعي ابن الصخرى وحليفه امام المسجد ، غير ان البشير يختلف عن مالك في انه لا ينتمي الى القرية التي تدور الاحداث فيها ، ومن ثم فان أهل القرية يرون فيه « أجنبيا » يراقبونه بحذر مما جعل صراع البشير مع الاقطاعيين وحلفائهم صراعا مريرا تحفه المصاعب والأخطار .

ان البشير مثل مالك يجز وراه ماضيا ثقيلآ إليها ، استشهد أبوه وأمه في حرب التحرير ، وفقد هو زوجته وابنته ، وجرح في ساحة الوغي ونقل منها الى ألمانيا الشرقية حيث تلقى العلاج اللازم ، ثم رحل الى تونس ، حاول شغل وقته بالدراسة في الجامعة التونسية ، كان يعتقد ان زوجته وابنته قد ماتتا بدورهما ، وتعرف في تونس على فتاة تونسية أحبته وأحبها وتزوجها عندما عاد الى الجزائر بعد الاستقلال ، وشغل البشير منصبا هاما وكانت زوجته تحب الحفلات والسهرات الراقصة التي ترى فيها وسيلة لتكوين علاقات اجتماعية تكفل لزوجها الترقى السريع . ولم يرتع البشير الى مسلك زوجته فانفصل عنها وأصيب بعد الطلاق بانهيار

عصبي . وما أن شفى منه حتى قرر الفرار من الجزائر العاصمة الى قرية نائية . انه يد يد اليوم أن يواصل جهده حتى يحرر البلاد من القذاعة ويقتلع الجهل من جذوره . لقد ضب من زملائه السابقين في الجهاد والذين يشغلون اليوم مناصب هامة بوزارة التربية ان يعمل مدرسا متفلا بالقرى بحيث لا يمكث بقرية الا ما يكفي من الوقت لتوعية الجيل الجديد وتنظيم قوى الفلاحين وإعدادهم لمواجهة من يستغلونهم .

والواقع ان عودة البشير الى القرية هي عودة الى الأصول وفرار من الحاضر الأليم . ان البشير يريد أن يهرب من الماضي الأليم ومن الحاضر الذي لا يرتضيه . انه يعتقد انه سيجد في القرية الهدوء والعزلة والبساطة التي ينشدها بعد حياة عاصفة .

وها هو يصل اليوم الى القرية عبر طريق غير معبد مترب . « العري هو الكساء الوحيد الذي تلبسه الارض كأن رجا ذرية نسفتها فاذا كل شيء كئيب واذا الشمس تفقد اشعتها فتضيء بلاحنان ولا جمال ، واذا الارض تعطي للنظر صورة من هرمها الفظيع » .

التف أهل القرية حول الزائر المجهول ولما علموا انه « المعلم » نظروا اليه باشفاق كانوا يتوقعون انه سيرحل بسرعة عن القرية كما رحل من قبله المعلمون الآخرون . فالمدرسة خالية من كل شيء ماء فيها ولا كهرباء وابناء القرية يذهبون الى الحقول لا الى المدرسة وامام الجامع

وأراد البشير ان يستعين بشيعة عجوز تطهى له الطعام وتنظف المدرسة وتعنى بها فأشار عليه القهوجى وبوغرارة باستخدام « ام الحركى » خاصة وان القرية نبذتها فكانت تصنع اوانى الفخار تصنع الفخار وتبيعها فى الأسواق حتى لا تموت جوعا هى وزوجة ابنها وابنتها وابنته اما حفيدها ابن الحركى فهو يرمى غنم ابن الصخرى .

ولكى يفهم القارىء مأساة تلك المرأة وأسرتها نستطيع لأنفسنا ان نوضح له ما هو الحركى . ان « الحركة » هى فرق من الجزائريين الذين استعانت بهم فرنسا فى محاربة جيش التحرير . اما حركى « نهاية الامس » فقد كان يعيش فى فرنسا عندما علم ان المجاهدين قتلوا أباه لانه استضاف بعض انصار مصالى الحاج الذى كانت جبهة التحرير تعاديه . ولم يكن ابو الحركى يفهم ما هو الفرق بين حزب مصالى الحاج وجبهة التحرير ، ولكنه كان يعرف ان من واجبه ايواء المناضلين وكرامهم . وقد قرر ابنه الانتقام له بالانضمام الى الحركة ، وذات يوم وجد فى الجبل امرأة وابنتها وهما بين الحياة والموت فأواهما بداره وتزوج المرأة وتبنى ابنتها ثم رزق منها بولد ، وعندما استقلت الجزائر رجم ابناء القرية الحركى وقرروا نبذ أسرته ، وكان اقسامهم عليه هم من تلقوا منه اكبر قدر من المساعدات قبل الاستقلال .

عاد البشير الى المدرسة وأشعل شمعة واعد

يعلم بعضهم مبادئ القراءة والكتابة وما تيسر من القرآن الكريم وتأثر البشير بحفاوة أهل القرية واحس بانه قد عاد الى اصوله « هاهى ذى تلك الاصوات القديمة التى الفتها نفسه فى الطفولة والشباب واحبتها اخذت تعود الى سمعه ونفسه فتملؤها حنانا وحبانا وتصل بينها وبين الطبيعة فى اجمل ملثمثلة من زقزقة عصافير وثغاء خراف واصوات اخرى كثيرة يعرفها الريفى وحده ويحس بها اكثر من غيره . فهو اذن بكل هذا سعيد وهو اذن فى هذه القرية يستأنف طفولته بفكر جديد وعن تجربة طويلة يستأنف طفولته ببراعة نفس وطهارة ضمير وعمل متواصل وحب لهؤلاء الناس جميعا مهما كانت الظروف لانهم فى حاجة الى الحب وفى حاجة الى من اتسعت خبرته وتعاقبت تجاربه » .

ولكن البشير لم يكن يعرف ان امام الجامع يرى فيه منافسا وغريما خطرا لاحظ الامام ان البشير لا يصلى فأخذ يشهر به ويصفه بانه شيعى اراد البشير تزويد القرية والمدرسة بالماء والكهرباء فاثار ذلك حنق لاقطاعى ابن الصخرى لانه كان يخشى ان تحرم مزارعة من بعض مالياه اذا نجح البشير فى تزويد المدرسة والقرية بالماء فقررت التخلص منه .

وتعرف البشير على مجاهد مثله اسمه بوغرارة كان جاهلا ولكنه يتمتع بالشجاعة والذكاء وصفاء النفس والشهامة ونشأت بين الرجلين صداقة خالصة ووجد البشير فى زميله فى الجهاد خير معين .

القهوة وشرب جزءا منها واستلقى في سريره واستعصى عليه النوم ، وتحركت ذكريات الماضي في نفسه وكان يعيش في « مونولوج » دائم مع نفسه .

كان يدرس بمدينة الجزائر عندما خطب له ابوه أجل بنات القرية واسمها رقية . وبعد اربع سنوات من الخطوبة زف اليها وقضى معها شهر العسل بالقرية ، ثم ثارت الجزائر في نوفمبر تشرين الثاني ١٩٥٤ فكان البشير من اوائل من انضموا الى جيش التحرير .

وكان يعود الى زوجته خلصة بين الحين والآخر ، وفي آخر مرة رآها بكت كثيرا واخبرته وهو يتأهب للرحيل بأنها حامل ، وانها تحس أنها لن تراه بعد اليوم ، ولكنه هو كان يحس انه بطل ملحمة كبرى يتصارع فيها الحب والتضحية والموت والحياة والامس والغد .

وتتعاقب الشهور وتلد رقية بنتا تسميها فريدة ، وتنتظر على أحر من الجمر عودة زوجها الرقيق الحنون ، ولكن البشير يشتبك يوما مع بعض جنود الجيش الفرنسي في معركة طاحنة وينقله رفاقه وهو جريح الى مكان آمن قبل ان يذهب الى المانيا الشرقية للعلاج ، ويقرر الفرنسيون التكنيل باهل القرية فيأخذون ابا البشير الى قسم الشرطة مع غيره من رجال القرية للتحقيق معهم ، بينما تقتحم فرقة من الجنود الفرنسيين دار البشير ويعتدى بعض الجنود على عرض رقية .

كان ابو البشير يتحمل الفرنسيين منذ عشرات السنين ولكن اعتداء الجنود الفرنسيين على شرف ابنه هو الذي رفع الغشاوة نهائيا عن بصره ، فمن خلال الشرف ، بالمعنى القروي ، أدرك معنى الكرامة والسيادة والحرية ويحصل الشيخ على رشاشة من جيش التحرير ويختبئ في زاوية الصلاة ، وعندما تقترب فرقة فرنسية من الزاوية يباغتها باطلاق النار عليها . يقتل قائد الفرقة وستة جنود قبل أن يلقي مصرعه ، وينتقم الفرنسيون من أهل القرية شرا انتقام ، ويحظرون دفن جثة الشيخ ويهددون بقتل كل من يقترب منها . تعلم زوجة الشيخ بالخبر فتجمع حليها وتحبثها بالدار في مكان لا يعرفه أحد سوى ابنها ، وتأخذ فأسا وتتوجه الى الزاوية لتدفن زوجها ، كما دفنت انتيجون أخاها في الاساطير الاغريقية ، ولكن الفرنسيين يطلقون عليها نيرانهم فتخر صريعة بجانب رجلها .

كان البشير يعتقد ان زوجته وابنته قد قتلا بدورهما وكانت رقية تعتقد ان البشير قد استشهد ، وعندما هدم الفرنسيون دارها هربت بابنتها الى الجبل حيث التقت بالحركي وتزوجته بعد أن أنقذها من موت محقق .

وفي اليوم التالي توجه البشير مع صاحبه بوغراة الى دار أم الحركي لشراء بعض الأواني الفخارية منها ، ونادى بوغراة على أم الحركي فخرجت من الدار فتاة ضامرة شاحبة هزيلة ترتدى الأسمال ، وقفت أمامها لاهثة ساعلة

التحرير واستشهد له ولد ، كما ان له ابنا ثانيا يعمل كاتباً في بلدية القرية الرئيسية ، اى انه اصبح جزءاً من الجهاز الحكومى ، فکاتب البلدية يبقى في منصبه لا يتبدل ، بينما كان رئيس البلدية يتغير بعد حين ، وكان هذا الكاتب يستغل منصبه لخدمة مصالح ابيه . وكان ابن الصخرى يقرض المال لابناء القرية مقابل رهنهم لاراضيهم ، ثم يشتري منهم المحصول بثمان بخس لا يمكنهم من سداد ديونهم ، وعندئذ يتركون له الارض صاغرين ، ومع ذلك ، كانوا لا يدركون ان هذا الاقطاعى المرابى يستغلهم ويجردهم شيئاً فشيئاً من ممتلكاتهم ، ويحتكر وحده مياه القنوات لري بساتينه ويحرم منها ابناء القرية . وكيف يرون عيوبه وهو الرجل التقى المتواضع الذى يقرأ القرآن كل عشية مع امام الجامع ؟

سافر البشير في اليوم التالى الى المدينة وقابل كبار المسؤولين وحصل منهم على امر بتوصيل المياه من القنوات التى تروى بساتين ابن الصخرى الى المدرسة والقرية . وكان احد المهندسين قد اعد من قبل مشروعاً في هذا الصدد الا ان تنفيذه كان يتأجل باستمرار لسبب خفى ، وتلقى كاتب البلدية الامر بتنفيذ المشروع فهرول الى القرية ليحيط أباه علماً بذلك . ودهش ابن الصخرى عندما علم ان البشير على صلة بكبار المسؤولين ، وقرر مداهنته ريثما يعد خطة محكمة للتخلص منه .

تكاد نختنق ، وكان اسم هذه الفتاة مثل اسم ابنته ، فريدة ، ولو كانت ابنته لكانت الآن في نفس سنها وما أن رآها البشير تسعل على نحو غير طبيعى حتى شعر بضيق غريب وباحساس يشبه الحزن والعطف . انه يشعر وكأنه يعرفها ويكاد يجد شبهاً بينها وبين زوجته رقية التى تلاحقه ذكراها . قرر البشير أن يستعين بأم الحركى في تنظيف المدرسة واعداد الطعام . خشيت العجوز أن يقتلها أهل القرية لو علموا انها تجاسرت فخرجت من منفاها لتعمل بالمدرسة ، ولكن البشير وعدا بحمايتها هو وصاحبه بوغراة .

وثار أهل القرية عندما علموا بالخبر ، وانتهز امام الجامع هذه الفرصة لتأليبهم على البشير ، ذلك « الأجنبى الذى تحدى مشاعر القرية وقرر الاستعانة بأم الخائن . حاول البشير اقناعهم بالحسنى وذكرهم بالآية الكريمة « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، ونبههم الى أن ابن الحركى يعزى غنم ابن الصخرى ، فردوا عليه بأنه طفل برىء ، ولما حان وقت الصلاة توجه أهل القرية ، وهم يستشيطنون غضباً الى الجامع الذى يقرأ ابن الصخرى فيه القرآن كل مساء مع الامام ، وقرروا عرض الأمر عليه .

كان أهل القرية يكتنون كل احترام لابن الصخرى ، فقد كان يملك المال الوفير وكانت بساتينه تشغل نصف مساحة اراضى القرية ، وكان يبدو عليه الورع ، وقد شارك في حرب

صوت انفجار عنيف ، لقد نسف الجامع ، اتهم الامام البشير بانه هو الذى دبر هذه الجريمة فهو اششراكى لا يصلي ، كما كان قد اصيب بالجنون .

وأسرع أبناء القرية الى دار البشير ونادوا عليه ووجهوا اليه اقزاع الشتائم . خرج اليهم البشير ليسألهم عن سبب غضبهم فانهاوا عليه ضربا ورموه بالحجارة ، فخرج جرحا غائرا بجانب عينه وكاد القرويون يقتلونه لولا ان بوغرة خف الى نجدته .

واثبت التحقيق ان البشير برىء وحامت الشبهات حول ابن الصخرى ولكن الشرطة لم تجد دليلا قاطعا يدينه . ولكى ينفى ابن الصخرى ، عن نفسه كل شبهة تطوع ببناء مسجد جديد . ونجح البشير فى تزويد القرية بالماء والمدرسة والكهرباء ، كما حصل على قرار بتزويد التلاميذ بوجبة غذائية ، وعلى قرار آخر بتوظيف ام الحركى فى المدرسة .

وأحس اهل القرية باحترام عميق نحو هذا الشاب الذى انتصر على ابن الصخرى ، وعندما اعلن البشير بدء تسجيل التلاميذ تقاطر الاهالى الى المدرسة لقيد ابنائهم ، وأرادت ام الحركى تعليم حفيدها ، وعندما قرأ البشير اسم اب الطفل واسم امه صعقته المفاجأة . هل يصدق احد ان زوجته مازالت حية ؟ هل يصدق احد ان الطفلة التى ماتت هى ابنته ؟ واستدعى البشير رقية الى المدرسة . هاهى زوجته نداء

اما البشير فقد احضر بعض الادوية لعلاج فريدة من السعال ولما توجه الى دار ام الحركى علم ان فريدة قضت نحبها واستولى عليه حزن شديد وقرر ان يتكفل بجنازة هذه الطفلة المسكينة ، فزاد ذلك من حنق اهل القرية ولم يشترك فى الجنازة سوى صديقه بوغرة . وعندما توجه البشير الى القهوة مع صاحبه كال له القرويون السباب ، واتهموه بانه من اعوان الخونة والاستعمار وكادوا يعتدون عليه لولا تدخل بوغرة .

وبينما كان البشير يشيع جنازة فريدة شاهده رقيه فاغضى عليها من وقع المفاجأة . نعم انه هو البشير بعينه زوجها الاول الذى قيل لها انه استشهد . انه يوارى جثمان فريدة التراب وهو لا يدري انها ابنته . لقد كانت فريدة تمثل الجانب المضيء فى حياتها ، فقد كانت هى الرابطة الوحيدة التى تربطها بزوجها المجاهد ولكنها ماتت ومات معها الماضى المشرق ، لم يبق لرقية سوى حاضرها الاليم ، فهى الآن زوجة الحركى الخائن تعيش منبوذة ذليلة . احست رقية باختناق وغضب شديد لماذا تركها البشير للذل والهوان . هل سوف يصدق انها لم تكن تعرف ان زوجها الثانى حركى ؟ هل سيصدق انها بكت زوجها الاول أثناء الليل واطراف النهار ؟ هل سوف يصدق انها فى شقتها وعذابها الطويلين لم تنقطع عن التفكير فيه لحظة واحدة ؟

استيقظت القرية فى صباح اليوم التالى على

هو الذى دفع ابن هدوقة الى اقتراح خاتمتين تشهد اولاهما فرار البشير من الماضى بينما تجمع الخاتمة الاخرى بين زوجين مزقهما الماضى .

والواقع ان « نهاية الامس » تدور احداثها في ١٩٦٩ ، بعد ان نجحت البلاد في التغلب على الفتن التي ثارت في منطقة القبائل وبعد ان طبقت الحكومة سياسة التسيير الذاتي واخذت تستعد لتطبيق الاصلاح الزراعى ، وكانت اتجاهاتها الاشتراكية تثير حنق الرأسماليين والاقطاعيين وبعض رجال الدين ، ومن جهة اخرى كان بعض المسؤولين يضيّقون ذرعا ببعض العناصر الدينية التي لاتحتمس لسياستهم وفي هذا يقول البشير :

« انه بقدر ماكان هذا النمط من الناس أثناء الاحتلال عاملا من عوامل الحفاظ على الشخصية وعدم الذوبان في المستعمر بقدر ما سيكونون في المستقبل عرقلة في وجه كل اصلاح وحاجزا أمام كل تقدم » (١٠)

وهكذا تصبح قرية نائية مثل القرية التي قضى فيها ابن هدوقة طفولته رمزا للجزائر بأسرها ، فهذه القرية قد شهدت ملحمة حرب التحرير ولكنها شهدت كذلك مأساة الحركيين . كما اصبحت ميدانا لصراع مرير بين القوى التقدمية والقوى الرجعية ، ويقترن ذلك الصراع الاجتماعي بصراع سيكولوجي يدور في نفس كل شخصية من شخصيات الرواية ،

الامس البعيد . وقابلها ببرود شديد لماذا هذه القسوة ؟ ماذنبها هي ، لقد دنسها الاستعمار ولم يكن لها من خيار ، انها الماضى الذى يعيش على ذكرها ، انها الامس المشرق والحنان والحب ، ولكنها أيضا الألم والعار والماضى الرهيب .

ماذا يفعل البشير ؟ هل يترك القرية بعد ان أيقظ وعي أبنائها وانتصر على الجهل والرجعية والاقطاع ؟ ام هل يرد اليه زوجته ؟ .

إن البشير كان في حيرة من امره وان توخينا الدقة قلنا ان مؤلف الرواية عبد الحميد بن هدوقة هو الذى وقع في هذه الحيرة . فقد اخبرنا انه ظل فترة لا يعرف كيف يختم روايته . والواقع انه ادرك ان رقية ليست مجرد شخصية من الشخصيات بل هي رمز للجزائر ، الوطن الحبيب الذى دنسه الاستعمار ، فهل ينبذ الجزائريون هذا الماضى كما نبذ اهل القرية كلا من رقية وام الحركى ؟ ام يقبلونه بمافيه من ذل وهوان عسى ان تصبح نهاية الامس بداية للغد ؟ في هذا يقول ابن هدوقة :

« رقية هي رمز للجزائر التي احتلها على التوالي الرومان والبيزنطيون والرواندال والأتراك ، فهل نبني الجزائر من العدم ونبذ الماضى ام نأخذ من الماضى افضل مافيه ونقبل الحياة في سياق انساني ، اى اشتراكي » ؟ .

الواقع ان كل جزائري يحمل في قلبه هذا الماضى الذى لم تندمل جروحه بعد ، ولعل ذلك

ويحدد موقفها من الماضي الذى لم تندمل جراحه بعد .

والواقع أن « نهاية الأمس » تصور هذا الصراع فى واقعية لا تخلو من قسوة ساخرة على سلبية القرويين وانقيادهم لابن الصخرى الذى يسخرهم لاغراضه ويجردهم من ممتلكاته بقسوة يغلفها ستار من النفاق وكان قلبه كما يوحى بذلك اسمه ، قد قد من صخر . أما البشير ، فهو الذى يبشر بغد جديد وهو يضطلع بدور رمزى ، دور المعلم يعيش فى الوقت نفسه أسيرا للماضى ، فهو فى تأمل ذات لا ينقطع ، وفى حوار مستمر مع نفسه ، وفى حلم داخل لا ينتهى وكثيرا ما ينسى نفسه وهو يتحدث مع أصحابه الى أن ينبهه رفاقه الى انه قد غاب عنهم بفكره . وعندما ينام البشر يستيقظ لديه اللا شعور الذى يحاول كبح جماحه فى أثناء اليقظة وتمرقية بنفس الحالة النفسية ، وتحلم بأمر تعبر عن رغبتها الدفينة وذكرياتها التى تحاول كبتها . والواقع أن معاناة رقية والبشير ، وصراع فريدة مع المرض واستشهاد الشيخ حمودة ، أبى البشير ومصرع زوجته وهى تحاول أن توارى جثمانه التراب ، بكل ذلك يعطى « لنهاية الأمس » شاعرية مأساوية لا تخلو من رمزية .

٣ - بان الصبح

نحن الآن فى عام ١٩٧٦ وقد مضى على استقلال الجزائر أربعة عشر عاما ، وواجهت البلاد مشكلة لم تعرف لها مثيلا من قبل وهى

الطفرة السكانية ، فقد بلغ عدد الجزائريين أربعة عشر مليونا ، أى ضعف عدد السكان قبل الاستقلال وبدأت الأرض تقصر عن تلبية احتياجات أبنائها ، فبادرت الحكومة بتنفيذ الثورة الخضراء وتطوع شباب الجامعة للاسهام فى تحقيق هذا الهدف .

وكان للطفرة السكانية أثرها فى تزايد الصراع بين الماضى والحاضر ، فقد نشأ جيل جديد يزيد عدده عن نصف السكان ، جيل لم يشهد حرب التحرير أو لم يتأثر بها الا قليلا ، ولهذا فهو أقل اهتماما بقصص المجاهدين وبيطولات الحرب ، وهو يولي اهتمامه لمشكلات لم يخبرها آباؤه ، وهى مشكلات يصطدم بها شباب العالم الثالث خاصة فى البلدان العربية وفى العالم الاسلامي .

وقد كانت مناقشة مشروع « الميثاق » عام ١٩٧٦ فرصة سانحة لتقييم انجازات الثورة من جهة ، ولدراسة المشكلات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التى تواجهها الجزائر وتلمس حلها . من جهة أخرى ، وانتهاز الجيل الجديد هذه الفرصة لمحاولة فرض شخصيته والتخلص من سلطة الآباء ، وطالب بعضهم بنيل الماضى وبالتحرر من اغلال التقليد وهذا ما نجد صداه فى رواية « بان الصبح » .

فى الخمسينات تزوجت رقية بطة « نهاية الأمس » بالبشير بناء على قرار التحذير والداهما ورحب العروسان بهذه الفكرة ونشأت بينهما

يتقرب اليه الشيخ علاوة ، كما كان امام الجامع يتقرب لابن الصخرى في نهاية الامس » وعندما تحمل دليلة سفاحا تقرر الاحتفاظ بالجنين حتى لاتنهرب من مسؤوليتها وحتى « تفجر » بيت أبيها .

والواقع ان هذا البيت قد أصبح رمزا للجزائر نفسها ، وليس هذا بغريب ، فقد رمز محمد ديب الى الجزائر بمزول في رواية المنزل الكبير ، كما صور نجيب محفوظ تطور المجتمع المصرى من خلال تطور اسرة واحدة في ثلاثينياته الشهيرة ولكن عبد الحميد بن هدوقة جعل الصراع يحدث في هذا المنزل بين افراد اسرة واحدة ، وهو صراع ادى عندما « بان الصبح » الى قتل الاب بالمعنى الذى يعطيه التحليل النفسى لهذا التعبير . ان ابنة الشيخ علاوة تسمى أباهها بالجنرال لانه بحكم بيته وكأنه « ثكنة » وهو يجد في ابنه « عمر » مدير المؤسسة عوناله ، وعمر هذا منافق فاسد يصلى مع ابيه جهارا ويرتكب كافة الموبقات خلصة ، وللشيخ ابن آخر هو مراد الطبيب الذى درس في فرنسا وهو يضيق ذرعا بابيه ويحلم بالفرار من دار ابيه وباللهاق بصديقته التى تعيش في فرنسا وللشيخ ولد ثالث هو رضا الذى لا يكتفى مثل دليلة بمقاومة التقاليد على نحو اناى مراهق بل يؤمن بالنضال الاجتماعى والسياسى ، وهو يحاول ايقاظ وعي نعيمة ابنة عمه التى تقيم بدار ابيه حتى تنهى دراستها بالجامعة . ان نعيمة قروية بريئة تنظر الى المدينة بعينين جديدتين ، وعندما تتوثق

بداية حب عصفت به الحرب ودنسته ، وفي الستينات حاول عابد بن القاضى تزويج مالك بنفيسة ولكن نفيسة رفضت الخضوع لتقاليد الماضى ، لقد كانت نفيسة ، تبحث عن ذاتها وتحاول تكوين شخصية تختلف عن الآخرين ، فهى تقرأ في قريتها المجلات الفرنسية بينما لا يتحدث القرويون الا بالعربية ، وهى تنبذ الزى القروى الذى يخفى معالم بدننا وتحاول اكتشاف ذلك البدن الذى ترى فيه القرية « عورة » وعندما تتضاعف ضراوة الاجداد على حد تعبير كاتب ياسين تفر نفيسة فتحدث فضيحة تعصف بتقاليد الماضى .

وفي « بان الصبح » نساء يشبهن رقية ويتزوجن مثلها بالطريقة التقليدية : فى الرواية نفسها مراهقة هى « هالة » التى تحلم مثل نفيسة برجل يختطفها من سجن التقاليد وفتاة قروية تحضر الى الجزائر العاصمة مثل نفيسة لتدرس بالجامعة ، الا انها سرعان ماتعود لقريتها بعد ان تحطمت أحلامها على صخرة التقاليد .

الا ان « بان الصبح » تحتوى على شخصية جديدة وهى « دليلة » الفتاة المتمردة التى ضربت بالتقاليد عرض الحائط وتنكرت للدين وذهبت الى ابعد مما ذهبت اليه نفسه فجعلت من اشباع رغبات الجسد وسيلة لتقويض الماضى . ان دليلة بنت الشيخ علاوة رجل الدين المجاهد تعاقر الخمر وتجمعها علاقة غير شريفة بزميل لها فى الدراسة ، وهو فى الوقت نفسه ابن رجل ثرى

صلتها برضا ابن عمها اليسارى يزداد وعيها السياسى فتحضر اجتماعات الميثاق وتتطوع لخدمة الثورة .

وللدليلة صديقة هى نصيرة التى بلغت مثل رضا نضجا سياسيا كبيرا ، وقد ساعدها على ذلك ابوها العامل الفقير الذى رباها فى جومن الديمقراطية والحرية . ان نصيرة تحاول على غرار رضا أن توظف الوعى السياسى لدى دليلة ، كما تنظم بالتعاون مع رضا جهود العمال الذين يعانون من ظلم وفساد عمر ابن الشيخ حمودة ، وهو نضال يؤدى الى طرد عمر من المؤسسة التى يديرها وإلى تحقيق مطالب العمال ، وبذلك بان الصبح على الصعيد الاجتماعى بعد ان بدت تباشيره فى ربيع الجنوب « ونهاية الامس » .

ان الصراع الذى يدور فى المؤسسة يناظره صراع آخر بين الشيخ حمودة وزوجته وابنه عمر من جهة ، وبين دليلة ورضا ومراد من جهة اخرى ، وسرى فيما بعد ان هذا الصراع يؤدى الى فضيحة تقوض بيت « الجنرال » والواقع ان هذا الصراع له قيمته الرمزية ، فالجزائر المستقلة قد اصبحت اليوم فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها وهذه الفتاة الشابة تتلمس طريقها ، فالقوى المحافظة تجذبها فى اتجاه ، والقوى التقدمية تدفعها فى اتجاه آخر ، ولكن هذه الفتاة الشابة قد كسرت مثل دليلة قيدها ، لقد بان الصبح ولكن النهار لم يطلع بعد ، فهل قتلت

الجزائر اباها حقا ام ان الأجداد سوف يضاعفون ضراوتهم ؟

ان عبد الحميد بن هدوقة يقسوفى سخريته من الشيخ علاوة ويرسم له صورة لاتنسى . لقد تعاون الشيخ علاوة مع جبهة التحرير وهو الان يعمل مستشار واستاذ محاضرا بمدينة الجزائر . وعلى غرار امام الجامع فى « نهاية الامس » يتقرب الشيخ علاوة الى ذوى المال واصحاب السلطة ، ويكن للاشتراكية كرها شديدا ، ويرى أن من ينادون بها كفر من اعوان الشيطان ، والشيخ علاوة لايقبل الحوار ، فقد تعود أن يستمع الناس اليه وهو يلقي درسه ومأسة الشيخ علاوة ان الجيل الجديد لايريد الاستماع اليه . لقد وبخ احد الشبان وقال له ألا تعرفنى ، فرد عليه الشاب قائلا « ان لم اكن اعرفك فالآن عرفتك ، انت الماضى الذى لا نريده هذا انت (١١) وحاول الشيخ الاشتراك فى اجتماع للميثاق خصص لمشكلة ملكية الاراضى واراد الاستشهاد بعلماء الدين فرد عليه شاب قائلا « دع ذلك للمسجد نحن نتحدث عن الملكية المستغلة وغير المستغلة وانت نتحدث عن الزهد فى الدنيا ، الارض لله يرثها من يشاء من عباده . . . هذه الارض التى نتحدث عنها يملكها اشخاص استولوا عليها باوجه غير مشروعة وهم يستغلون الشعب . . فهمت ؟ » مع من يتحدث الشيخ اذن مادام الفقه وكل

لقد اعتقد الشيخ علاوة خطأ ان نعيمة حامل ، فقد فتح الشيخ خلصة خطابا أرسله عشيق دليلة اليها ولكنه وجهه الى نعيمة ، حتى لا يوقظ شكوك الشيخ وحاول عمر ابن الشيخ ، الا اعتداء على نعيمة فلما صرخت مستغيثة بابناء عمها لطمها واتهمها بانها حاولت اغواءه . لقد صدق الشيخ ابنه وارسل الى اخيه خطابا يشكو اليه فيه من مسلك نعيمة « الشائن » ويؤكد له انها حاولت الايقاع بعمر حتى يتزوجها فلا يعلم احد بعارها . ويقرر « صالح » ابو نعيمة قتل ابنته اذا تاكد انها دنست شرفه ويصحبها الى طبيب وهي لا تدري لذلك سببا ، وعندما يتضح انها عذراء يقبل ابنته على جبينها وقد ترغرغرت عيناه بالدمع ، ويخرج الاب رشاشته التي احتفظ بها منذ كان يحارب الفرنسيين ويستتج من شهادة الطبيب عشر نسخ ويسرع الى دار أخيه .

وكانت اسرة الشيخ علاوة قد اجتمعت في الصالون وكان عمر يتقد غضبا بعد ان نجح اضراب العمال واصدر الوزير امرا باقالته من منصبه . وعندما دخل صالح الدار ومعه رشاشته ارتعدت فرائص الشيخ وتوقع ان اخاه قد قتل نعيمة وأتى ليجهز عليهم جميعا وقال له متوسلا « صالح ، انا اخوك » .

ووزع صالح نسخة من شهادة الطبيب على كل شخص واقتررب من أخيه وقال له :

« لماذا كذبت ، انت وزوجتك على بنت يتيمة كادت تذهب ضحية كذبكم لولم اعرضها على الطبيب ؟ »

ماقرأه لادخل له في النقاش ، هل يريد الجيل الجديد ان يحكم عليه بالصمت ؟ ان الشيخ علاوة ساخط على مدينة الجزائر الصاخبة وساخط على الجيل الجديد ، ولكنه حافظ بشكل خاص على نفسه لانه يشعر بانه غريب في مدينته وهو يتحول في « بان الصبح » إلى ريح جنوب تعصف بأسرة باكملها وشمس مرعبة قوية تحرق كل من يقترب منها ، انه يرمز الى القوة العمياء والتقاليد التي تطمس شخصية الفرد ، انه هو صوت الاجداد ونداء الماضي ، ولكن الجيل الجديد لم تعد تسحره اجماد الماضي بل هو يرى نواحي نقصه اكثر مما يرى مزاياه . وفي هذا يقول رضا عن ابيه وهو يتحدث الى ابنة عمه نعيمة « اتريدون ان تعرفي عمك هذا الذي منه تتألين والذي كنت به من قبل تعتزين ، انه مجموعة من قطع الغيار لا تشابه الواحدة الاخرى ولا هي من مصدر واحد . انه يحيا في عدد من العصور وفي عدد من البلدان في نفس اللحظة .

دليلة : صحيح هو يجب الماضي لكن لا أفهم لماذا يتشبث بعض الناس بالماضي ؟ رضا : لانهم يخافون المستقبل ، فالرجوع الى الماضي نوع من الطفولة ، لأن المستقبل ، مغامرة وابداع . الرجل العاجز لا يمكنه ان يلتفت الى المستقبل ثم ان أبى لا يفكر بعقله وانما يحفظاته . . . من الصعب تحليل شخصيته بكلمات .

دليلة : انه رجل يجرى باستمرار للحاق بالقطار ، لكنه في كل مرة يصل الى القطار يجد القطار قد اقلع .

تناهب لتطبيق الاصلاحات الاجتماعية وكان التحالف بين العلمانيين ورجال الدين قويا ، فقد لعب الاسلام دورا مجيدا في الحفاظ على الشخصية الجزائرية وفي تشجيع الشعب على مقاومة عدو جبار ، كما اضفى على حرب التحرير طابعا مقدسا ، فقد كان المناضلون « مجاهدين » وكان كل من يخرج منهم صريعا يعتبر « شهيدا » .

وبمرور الوقت ، أخذ التقدميون وبعض المسؤولين يضيّقون ذرعا ببعض العناصر الدينية ، التي كانت تريد ، في نظرهم ، أن تحيا الجزائر كما كانت تعيش في العصور الغابرة ، وقد اتضح ذلك بشكل خاص في أثناء المناقشات التي دارت حول الميثاق وحول سياسة التعريب وموقف الجزائريين ، الذين تعلموا باللغة الفرنسية أو ينطقون باللغة البربرية ، من تلك السياسة ، وما زالت هذه المشكلة تشغل بال الجزائريين وتدل الاحداث التي شهدتها جامعة الجزائر على ان هذه المشكلة ما زالت قائمة .

وتعتبر روايات ابن هدوقة مرآة صادقة لتطور الجزائر المعاصرة ، ففي « ربح الجنوب » يتعامل مالك بحذر شديد مع الاقطاعي عابد بن القاضي ، ويراقب رجال الدين ولكنه يبدي لهم كل احترام بالرغم من أن آراء بعضهم تشير حنقه .

وفي « نهاية الأمس » يشتد الصراع بين البشير ، المجاهد التقدمي ، وبين الاقطاعيين وحلفائهم من العناصر الرجعية ، وتقف الحكومة بجانب البشير ، بينما يحاربه الأهالي في أول الأمر بتحريض من امام الجامع والاقطاعي ابن الصخري ، وعندما تفشل خطة ابن الصخري يعجب الأهالي بان البشير ويؤيدونه من أعماقهم ، ولكن ابن الصخري يظل محتفظا بنفوذه وهيئته ، خاصة بعد أن تطوع ببناء مسجد جديد . وفي « بان الصبح » يتضاءل دور المجاهد ويضطلع بالنضال شباب الجامعة ويشنون حربهم على أبائهم ويريدون تجريدهم

واحضر الشيخ علاوة الرسالة وسلمها لصالح فرماها قائلا « لماذا اقرأ ورقتك ؟ لو كنت رجلا لعملت معها مثل . رأيت دليلا الرسالة وفكرت في ان تصارح اهلها بالحقيقة ولكنها عدلت عن الاعتراف بان الرسالة موجهة لها ولم تجد لذلك فائدة خاصة وان نعيمة لن تعود الى مدينة الجزائر ولن تدرس بالجامعة . اما عمر فقد عرف ان كذبه قد انفضحت وتوقع ان يقتله عمه فارتعدت فرائصه . خرج العم وهو ينظر الى اخيه باحتقار وتسلسل كل من في الصالون خارجين ولم يبق فيه الا الشيخ وزوجته وابنه عمر . وجهت الزوجة الحديث الى الشيخ علاوة قائلة « فضحتنا انت . . . في آخر عمرك تقرأ رسائل غيرك ؟ من يفعل هذا ؟

وهكذا تنتهي القصة وقد فقد الشيخ هيئته وتداعت أركان داره ، فقد قرر مراد الرحيل واستعدت دليلا لمغادرة الدار للاحتفاظ بجنيها وهاهو عمر يفقد منصبه ويبدو ان الليل الطويل الذي كان يجثم على الدار قد انجلي فبان الصبح بنجاة من موت محقق وبانتصار رضا ونصيرة على عمر .

خاتمه

صور ابن هدوقة الجزائر في ثلاث مراحل من حياتها أولاها بعد الاستقلال مباشرة حينما كانت كافة العناصر تتلمس طريقها بعد ان بدأت البلاد صفحة جديدة من حياتها وحاولت التكيف مع الاوضاع الجديدة ، وكانت الحكومة

الشبح» يلتبس الامر على الشيخ علاوة فيعتقد ان نعيمة ، ابنة اخيه ، حامل ، لانعدام الحوار بينه وبين كل من نعيمة ودليلة ، كما يسيء ابو نعيمة معاملتها ويصحبها الى قريته ويسجنها وهي لا تعرف لكل ذلك سببا . تحاول نعيمة التحدث مع ابيها فينهرها ولا يصغي اليها الا بعد ان تتضح برائتها وعندئذ يعدل الأب عن فكرة قتلها ولكنه يحرمها في الوقت نفسه من الدراسة بالجامعة .

كما تنتهي روايات ابن هدوقة بفضيحة ترمز الى تعفن الماضي ، وقد اشرنا الى ذلك عند الحديث عن فرار نفيسة ، بطلة « ربح الجنوب » ، الى افئاض امر الشيخ علاوة في نهاية « بان الصبح » . كما يرمز انعدام الحب أو عدم اكتماله الى سيطرة التقاليد الخائفة الى تفسخ المجتمع وتزعزعه . فنفسية لا تعرف الحب لانها تعيش سجنية في دارها . ورقية ، بطلة « نهاية الامس » ، تعصف الحرب بحبها . ونعيمة ، في « بان الصبح » ، تحس بميل شديد نحو ابن عمها رضا ، ولكنها تعود الى قريتها قبل ان يتطور ذلك الميل الى حب ، اما دليلة ، فهي لا تعرف الحب لانها تحتطف اللذات خطفا ، وفي هذا تقول لصديقتها نصيرة « اشرب الخمر ، واذا شربت احاول بكل الوسائل أن اسكر لاني اعرف انني لا يمكن ان أكون سكري في كل مكان ومتى شئت حياتي كلها اذن مضغوطة في لحظات » .

من نفوذهم ، ويطالبون بنقد التقاليد وبلاستعاضة عنها بأيدولوجيات معاصرة . وتفرد رواية « بان الصبح » مكانة كبرى لذلك الصراع ، وتصور مناقشات الميثاق بدقة كبيرة وكأنها تحرر محضرا للاجتماعات . ويرز الكاتب كافة الاتجاهات ، ومع ذلك نحن نشعر بتعاطفه مع الجيل الجديد ومع الطبقات الكادحة . وبالرغم من ان الجزائريين يجدون في روايات ابن هدوقة صدى لمشاكلهم ومشاكلهم ، فإن ابن هدوقة ليس مؤرخا : فالتاريخ يتوخى الدقة الموضوعية ، ويركز اهتمامه على المجتمع لا على الأفراد ، ويعطي الأولوية لدراسة الطبقات والمؤسسات والجماهير ، ويحلل عوامل قوتها ، ويصف تزايد نفوذها أو تلاشيها ، ويستند الى الاحصاءات والوثائق والسجلات ومستندات الملكية الخ .

أما روايات ابن هدوقة فهي ليست سجلا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وإنما هي صورة سوسيولوجية لتطور المجتمع عبر فترة زمنية محددة . وتعتمد تلك الروايات على وسائل أدبية تتركز على الابعاء واستخدام الرموز ، كما يمتزج فيها الخيال بالحقيقة .

ففي رواياته يحدث سوء فهم بين مختلف الشخصيات ، مما يوحي بانعدام الحوار . ان ابا نفيسة ، في ربح الجنوب ، يوقن بان ابنته لا ترفض الزواج بمالك ، فهو لا يتحدث اليها مباشرة ، بل يصدر اليها اوامره عن طريق زوجته . كما تعتقد نفيسة انها ستزف الى مالك قريبا . فهي لا تستطيع مخاطبة ابيها ، او الاتصال بمالك لمعرفة نواياه ازاء مشروع الزواج . وفي « نهاية الامس » يثور القرويون على البشير لانهم لا يصغون اليه . وفي « بان

مفترق الطرق بين الامس والغد ، والماضي والمستقبل .

ولكن روايات ابن هدوقة لا تصور الجزائر فحسب ، بل يجد القاريء فيها صورة تنطبق الى حد كبير على العالم العربي والاسلامي . فكثير من المشكلات التي يواجهها الريف الجزائري يعاني منها القرويون في البلدان العربية . ومن عاش في القاهرة وجد انها تعاني ، مثل الجزائر العاصمة ، من اكتظاظ السكان . وما زالت المرأة العربية تناضل لفرض شخصيتها على غراب نفيسة ونعيمة ودليلة . وما زال العالم العربي والعالم الاسلامي يتلمسان طريقهما بين الاصل والتكيف مع مقتضيات العصر . وكثيرا ما اصطدمت الحكومات ببعض العناصر الدينية عندما حاولت ادخال بعض الاصلاحات الاجتماعية او تغيير النظام الاقتصادي . ولهذا فان روايات ابن هدوقة ليست جزائرية صرفة ، فهي تجمع بين الخصوصية والعالمية ، مما يفسر نجاح ترجماتها الفرنسية والانجليزية والاسبانية ، ولعل البلاد العربية في الشرق الاوسط : تكتشف بدورها هذا الكاتب العملاق .

وبالرغم من ان ابن هدوقة لا يفرض آراءه على الشخصيات التي تخيلها ، بل يتيح لكل شخصية الفرصة لتعبر عن مشاعرها وافكارها ، الا ان القاريء يحس ان ابن هدوقة يتعاطف مع بعض الشخصيات . فقد جعل من العجوز رحمة ، في « ربح الجنوب » ، رمزا رائعا للمرأة العاملة والفنانة الشعبية ، كما ان تعاطفه مع رقية ، بطلة « نهاية الامس » ، اعطى لتلك الشخصية أهمية كبرى ، اذ اصبحت رمزا للجزائر ، فرقية هي الام / الارض ، والماضي بجوانبه المشرقة والمظلمة . ولعل مالكا ، والبشير ورضا يشتركون مع ابن هدوقة في بعض صفاته وتجاربه ومشاعره ، ولعل كل شخصية تمثل مرحلة من مراحل حياة الكاتب .

والواقع ان الشخصيات في روايات ابن هدوقة تنبض بالحياة على نحو يشعر القاريء : شخصيات ولدت في الجزائر وترعرعت تحت شمسها . فنحن نرى في هذه الروايات « جوا » و « مناخا » لا نجدهما في كتب التاريخ . نحن نعيش معها في صراعها مع القوى المعارضة لها ، ونتابع عبرها تطور المجتمع الجزائري بما فيه من اتجاهات متباينة ، ونشاهد الجزائر وهي في

يعد جان بياجيه من أبرز وأشهر علماء النفس في القرن العشرين . فهو أحد علماء النفس القلائل ، الذين كرسوا جهودهم لدراسة النمو العقلي لدى الاطفال ، ما يربو على نصف قرن . من الزمان . لقد أجرى العديد من البحوث وألف الكثير من الكتب ونشر العديد من المقالات عن نمو الذكاء عند الاطفال (مايزيد على ٣٠ كتاباً ومئات المقالات) . وفي السنوات الأخيرة ، كان لدراساته ونظرياته عن النمو العقلي تأثيرها المباشر في الممارسات التربوية المختلفة ، بدرجة لم تبلغها نظرية أخرى في علم نفس النمو من قبل . وقد كتب عن بياجيه ودراساته العديد من المؤلفات ، التي اختصت بتحليل نظرياته وآرائه وتوضيح تطبيقاتها التربوية .

ولد جان بياجيه في سويسرا عام ١٨٩٦ ، وبدأ حياته العلمية في ميدان العلوم البيولوجية ، ثم تحول اهتمامه الى دراسة الظواهر النفسية ، وبخاصة النمو العقلي . وقد اشتهر بياجيه كعالم نفسى يهتم بدراسة نمو الاطفال أساساً ، ولكنه كان الى جانب ذلك عالم رياضيات وفيلسوفاً وعالماً بيولوجياً أيضاً . وقد كان لهذه الخلفية العلمية العريضة انعكاساتها وآثارها على نظرياته النفسية . فقد نقل معه الى ميدان علم النفس كثيراً من المفاهيم البيولوجية ، كما كان لنظرية المعرفة والمنطق الحديث دور هام في تشكيل نظرياته عن النشاط النفسي للإنسان . وقد توفي بياجيه عام ١٩٨٠ ، تاركاً ذخيرة لاتنضب من البحوث والنظريات والمؤلفات ، وبصمات واضحة على مسار الفكر السيكلوجى لسنوات طويلة قادمة .

ولقد تمكن بياجيه - بحكم تكوينه العلمى

السلوك والنطور

تأليف : جان بياجيه

عرض وتعليق : سليمان الخضري

استاذ مساعد بجامعة قطر

بساط البحث بشكل صريح ، وإنما يجيئون عليها بصورة ضمنية . انهم يعتقدون أن أى سمة وراثية (بما فيها أى تغير فى السلوك الوراثى) ، إنما هى نتائج للتغيرات التى ترجع للصدفة ، ولا تظهر قدرتها على تحقيق التكيف للكائن الحى ، الا بعد أن تحدث عملية الانتخاب الطبيعى ، أما العادات السلوكية المكتسبة فليس لها أى دور على الاطلاق فى عملية التطور .

وقد وضع بياجيه أمامه هدفا أساسيا لكتابه هذا ، الا وهو مناقشة وتحليل التصورات المختلفة التى وضعها الباحثون عن العلاقة بين السلوك ومحاولة تقديم تصوره الخاص عن الدور الذى يلعبه السلوك فى عملية تطور الكائنات الحية .



يبدأ بياجيه بعرض نظرية لامارك عن العلاقة بين السلوك والتطور ، موضحا نواحي القوة وجوانب القصور فيها . فللامارك - من وجهة نظر بياجيه - صاحب أفكار مهمة عن دور السلوك فى تطور الكائنات الحية . وترجع أهمية هذه الأفكار الى سببين رئيسين : أولهما أن لامارك هو بلا شك المؤلف الذى أقر صراحة ودون أى غموض بأهمية السلوك ودوره الرئيسى فى تكوين أعضاء معينة لدى الكائنات الحية . وثانيهما ، أنه افترض وجود تنظيم كلى داخلى فى الكائنات الحية ، تعمل فى إطاره جميع الأساليب السلوكية .

يعطى لامارك للسلوك أصلا بيئيا ، بمعنى أن السلوك يتحدد بالدرجة الاولى بالظروف البيئية الخاصة التى يعيش فيها الكائن الحى والفكرة الرئيسية التى يطرحها : هى ليست أعضاء الحيوان - أى طبيعة أجزاء جسمه وشكلها - هى

والفلسفى من أن يعالج كثيرا من القضايا النظرية العويصة فى علم النفس ، وكان له رأيه وموقفه الواضح فيها . والكتاب الذى نعرض له اليوم « السلوك والتطور » يعد من أحدث كتب بياجيه ، ويعالج قضية من هذا النوع الفلسفى . وقد ظهرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٧٦ ، ونشرت ترجمتها الانجليزية عام ١٩٧٨ ، وهى الترجمة التى اعتمدنا عليها فى هذا العرض .

يقع الكتاب فى ١٥٩ صفحة ، بخلاف المقدمة ، ويضم تسعة فصول . ويعالج بياجيه فى هذا المؤلف مشكلة من أصعب المشكلات النفسية والفلسفية معا . فمن المعروف ، كما أشار بياجيه فى مقدمة الكتاب ، أن معظم الباحثين يتفقون على وجود علاقة ما بين السلوك وبين تطور الكائنات الحية بصفة عامة . أما ما طبيعة هذه العلاقة ؟ فتلك نقطة الاختلاف والمشكلة الرئيسية التى تتفاوت فيها الآراء وتناقض النظريات ، فبعض الباحثين يرى أن السلوك سبب من أسباب تطور الحياة ، بينما يرى البعض الآخر أن العكس هو الصحيح ، بمعنى أن تطور الكائنات الحية هو الذى يؤدى الى ظهور الاشكال السلوكية المختلفة .

والواقع أن كل التفسيرات التى وضعت لتحديد دور السلوك فى ميكانيزمات التطور تميل لأن تتخذ أحد اتجاهين متطرفين . وتمثل أفكار « لامارك Lamarck » ومن تبعه أحد هذين الاتجاهين . فهم يعتبرون أن التغيرات التى تحدثها البيئة فى سلوك الكائنات الحية هى المصدر الاساسى لما يحدث لتلك الكائنات من تطور فى أشكال أعضائها . وفى الطرف المقابل يوجد الداروينيون التقليديون . فهؤلاء لا يطرحون مشكلة دور السلوك فى التطور على

Accommodation للمواقف الخارجية ،
لا تنشأ من فراغ وإنما هي تبني على سلوك موجود
أصلاً . وعملية الملاءمة التي تحدث ، سواء كان
ذلك على مستوى الحيوانات الدنيا أو على
مستوى الاطفال الراشدين ترتبط ارتباطاً وثيقاً
 بعملية أخرى ، تعرف بعملية التمثيل
Assimilation . ويقصد بياجيه بعملية
التمثيل هذه ، تناول عناصر معينة من البيئة
الخارجية ، وتكاملها داخل بنية سلوكية موجودة
من قبل . ويعنى هذا بعبارة أخرى ، أن هناك
عوامل داخلية (أو عمليات فطرية) تدخل في
تشكيل جميع مظاهر السلوك .

كذلك يرفض بياجيه فكرة لامارك عن أن
العادات التي يكتسبها الحيوان تفرض بواسطة
التغيرات البيئية ، وليس للحيوان دور رئيسي
فيها . فهناك حيوانات كثيرة تغلبت على بيئتها
الجديدة عن طريق نشاطها الايجابي . صحيح
أن هذا النشاط لعب دوراً رئيسياً في عمليات
الملاءمة لتلك الظروف الجديدة ، ولكن هذه
الملاءمة مشروطة أيضاً بقدرات الحيوانات
وامكاناتها السلوكية ، التي يتيحها لها تنظيمها
الداخلي أو بنيتها الوراثية . ان أى نظام للفعل
(للنشاط) أو المعرفة ، يفترض وجود تنظيم
داخلي لانماط سلوكية تؤدي وظيفتها من خلال
التفاعل مع البيئة الخارجية .

ان الصعوبة الواضحة في تفسير لامارك
للتطور تنبع من أنه يجعل البيئة المحدد الوحيد
للسلوك ، ولا يعطى أى دور للعوامل الفطرية
التي يحددها التكوين الداخلي للكائن الحي .
وبدلاً من ذلك لو عاجلنا السلوك باعتباره امتداداً
للتنظيم الداخلي وان كان متخصصاً في مجال
التفاعلات الوظيفية بين الكائن الحي والبيئة ،
لأصبح ممكناً التوفيق بين هاتين المجموعتين من

التي أدت الى نشأة عاداته وتحديد إمكاناته
السلوكية وقدراته الخاصة ، وإنما العكس هو
الصحيح بمعنى ، أن عادات الكائن الحي
وطريقة حياته ، والظروف التي عاش فيها
أسلافه ، هي التي أدت مع مرور الوقت الى
تحديد شكل جسمه ، وعدد أعضائه
وخصائصها ، ومن ثم الامكانيات السلوكية
والقدرات التي وهبها .

كذلك يفترض لامارك أن العادات
المكتسبة ، على الرغم من أنها تؤدي الى حدوث
تغيرات في بنية الكائن الحي ، فإنها مع ذلك
تعمل في اطار تنظيم كلى لا هو نتيجة للسلوك ولا
هو من انتاج البيئة : هذا التنظيم الداخلي ، هو
البنية الداخلية للكائن الحي . وعلى ذلك ،
يقدم لامارك نوعين متميزين من أسباب
التطور : التنظيم الداخلي ، الفطري أو
الطبيعي ، للكائن الحي ، والعوامل البيئية
الخارجية التي يتعرض لتأثيرها .

يشير بياجيه الى أن هذه الثنائية الواضحة في
تصور لامارك عن العوامل المحددة للتطور أو
الموجهة لمساره ، تحتاج الى حل توليفي يجمع
دونهما دونما تناقض . ويرى أن لامارك قد عجز
عن تحقيق هذا الحل .

يرفض بياجيه فكرة لامارك الرئيسية ، والتي
يفترض فيها أن السلوك وحده هو المسئول عن
تكوين أعضاء الكائنات الحية بمعزل عن تأثير
التنظيم الداخلي لها . ان لامارك - يشير بياجيه -
قد تجاهل غرضية السلوك الحيوي . فالسلوك
الحيوي سلوك موجه نحو هدف ، أى نحو
اشباع حاجة (أو حاجات) داخلية تنبع من
الكائن الحي . والعادات الجديدة التي يكتسبها
الكائن الحي ، والتي تمثل عملية ملاءمة

العوامل . العوامل الداخلية ، وعوامل البيئة الخارجية . كذلك لم يثر لامارك مشكلة على كبير من الأهمية ، وهي مشكلة التميز في السلوك بين النشاطات المكتسبة وبين الأشكال الغريزية الموروثة . والعلاقة بين هذين النوعين من السلوك تثير أصعب مشكلة علينا أن نتصدى لها عندما نعالج دور السلوك في عملية التطور ذاتها .



لقد كان هناك اسهامان رئيسيان لعبا دورا في النظرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : الاول هو تفسير دارون Darwin للتطور على أساس الانتخاب الطبيعي ، والثاني رفض ويزمان « Wei ssman » لافتراض انتقال الصفات المكتسبة بواسطة الوراثة . والواقع أن دارون لم ينكر أهمية العوامل البيئية في السلوك وإنما الفرق الرئيسى بين دارون ولا مارك ، أن دارون لا يعطى أى دور لأشكال السلوك الفردية في عملية التطور وهذا هو ما وجد عالم النفس بولدوين J . M . Baldwin نقطة ضعف في نظرية دارون ، وأدى به الى نشر مقالة مشهورة عام ١٨٩٦ ، يحاول فيها تطوير نظرية دارون بادخال مفهوم « الانتخاب الوظيفى Functional selection أو بعبارة أدق مفهوم الانتخاب العضوى Organic .

يبدأ بولدوين من فكرة الانتخاب الطبيعي بالمعنى الداروني . فعمليات التكيف الاولى تتم على أساس الخصائص الفطرية للنوع . ولكن بولدوين يضيف الى ذلك ، أن الكائن الحى يكتسب خصائص جديدة عن طريق مايسميه بالانتخاب الوظيفى الذى يتطلب نشاطا ايجابيا

من جانب الكائن الحى ذاته . وفضلا عن ذلك ، يستطيع الكائن الحى أن يحدث تغيرات في سماته أو خصائصه الولادية عن طريق « ملأمتها » للشروط البيئية الخارجية . وقد حاول بولدوين أن يوضح امكانية التثبيت والانتقال الوراثى لهذه التغيرات . ومع ذلك لم يحاول أن يتعرض بشكل مباشر لمشكلة البيئة التى تميزت بها أفكار لامارك ، ولهذا طرح فكرة الانتخاب العضوى ، التى لازالت تعرف باسم « أثر بولدوين Baldwin Effect » لم ينظر بولدوين للانتخاب العضوى على أنه استبدال الخصائص المكتسبة بخصائص النوع الفطرية ، وإنما نظر اليه على أنه تثبيت تدريجى للخصائص المكتسبة .

ويتنقد بياجيه فكرة الانتخاب العضوى ، موضحا أنه لا يمكن أن يؤدى الى النتائج التى أشار اليها بولدوين ، الا اذا نظرنا اليه أولا باعتباره مرتبطا بالبيئة الداخلية (بنية الكائن الحى) ، والا اذا افترضنا أن هذه البيئة الداخلية تتغير بواسطة الانتخاب العضوى قبل أن يحدث الانتخاب فعلا . والواقع أن الأشكال السلوكية الجديدة التى تنشأ نتيجة للتغيرات البيئية - يشير بياجيه - سوف تؤدى الى تغير البيئة الداخلية بدرجات متفاوتة . ففى بعض الحالات تكون التغيرات سطحية بحيث لا يستتبعها انتقال وراثى . وفى حالات أخرى ، أن يؤدى التكيف لبيئة جديدة الى عدم اتزان كبير قادر على تغير البيئة الداخلية للكائن الحى وفى مثل هذه الحالات ، ليست العملية مجرد تثبيت لأنماط سلوكية جديدة ، وإنما هى استبدال أنماط جديدة بأخرى قديمة .

وعلى الرغم من ذلك ، يشير بياجيه الى أن الانتخاب العضوى له دور رئيسى في التطور

بياجيه أن تناقض هذا التفسير واضح تماما : فالكل المنظم الذى يشكله الكائن الحى والذى يتصف باللاعشوائية ، هو مع ذلك نتاج لتغيرات جزئية مختارة ، يرجع أصلها الى الصدفة والعشوائية كلية .



يشير بياجيه في نقده لهذا الاتجاه الى أننا يجب أن نفرق بين نوعين متميزين من التغيرات : التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية أو النوعية . فالتغيرات الكمية تتمثل في صورة مبسطة في تقوية أو اضعاف خاصية معينة مثل التغيرات التى تحدث في سرعة التعلم بين أجيال من الفئران . مثل هذه التغيرات أسهل من غيرها في تفسيرها على أساس الصدفة والانتخاب بعد الحدوث . ولكن المشكلة تصبح صعبة ومعقدة حينما تنتقل الى التغيرات الكيفية . فدور الانتخاب في هذه الحالة غير واضح ويصعب علينا تبينه .

ان المحاولات المستمرة لتفكيح التفسير بالانتخاب الدارويني أدت مع ذلك الى تمييز مفيد أكدته (ماير ' Mayr ') مرارا بين انتخاب السلوك المثالي وهو عنصر توحيد والانتخاب الذى يساعد على التنوع وهو عنصر مرونة . وهذا يعيدنا مرة أخرى الى المشكلة الرئيسية عن أصل الاشكال الجديدة من السلوك . لقد وضع ماير هذه المشكلة في أوضح عبارات ممكنة عندما أشار الى أن هناك احتمالين لثالث لهما : الاول أن السلوك الجديد له أساسه الوراثي من البداية ، والثاني أن السلوك الجديد ينتج من تعديل غير وراثي لسلوك موجود من قبل (بواسطة التعلم والارتباط الشرطي . . . الخ) ثم يحل هذا السلوك الجديد محل سلوك وراثي .



بصرف النظر عن الدور الذى يلعبه في ميكانيزمات التطور ، وبصرف النظر عن استنتاجات بولدوين المتسعة نسبيا .

ثم ينتقل بياجيه الى مناقشة وجهة نظر العلماء ، الذين تخصصوا في دراسة عادات الشعوب Ethologists عن العلاقة بين السلوك والتطور ويشير الى أن كثيرا من هؤلاء العلماء يعطون للسلوك دورا تطوريا على مستوى الانتخاب فقط وليس على مستوى التكوين الفعلي للتغيرات الوراثية على الرغم مما نعرفه من صلة وثيقة بين الاعضاء المتخصصة وأدائها السلوكي الوظيفي . ويتمثل موقف هؤلاء العلماء فى مقالة « لبتندراى ' C . S . Pittendrigh » يذكر فيها بوضوح أن عملية التكيف ليست عملية عشوائية ، وانها ترجع لقدرة الكائن الحى على أن يجمع ويحتفظ بالمعلومات المنتقلة اليه بالوراثة ، وكذلك بتلك التى يكتسبها ، كذلك يتصف التنظيم الذى يشكله الكائن الحى « باللاعشوائية » كتنقيص لعدم النظام أو الصدفة . والمشكلة الرئيسية في نظر بتندراى تتمثل في مصدر المعلومات التى تكون هذا التنظيم ويسود القارئ انطباع بأن بتندراى يبنى أفكاره على تصور مماثل « للتدرج الهرمى » لوييس ' Weiss ' بخاصيتيه الرئيسيتين : أن الكل ذو ثبات أكبر من الاجزاء ، وأن التغيرات الجزئية محكومة بنظم كلية أكبر . ثم يتقدم بتندراى خطوة أخرى ليقرر ، أن الطبيعة « اللاعشوائية » للتنظيم وللتكيف ، يمكن أن ترجع الى خاصية وراثية ، تعمل على تجميع التغيرات الصغيرة التى تحدث بواسطة الانتخاب والى ترجع في وجودها الى الصدفة . ويرى

لا تنطبق مباشرة على الجينات ، ولكنها تعمل أولاً على مستوى السمات المكتسبة ، ثم يحدث ما يسمى بالتمثيل الوراثي **Geneticassimilation** وهو العملية التي عن طريقها يمكن الاحتفاظ بصفة مكتسبة نشأت استجابة لمثير بيئي معين ، حتى في غيبة تلك الشروط الخارجية التي تعتبر شروطاً مسبقة لتكوينها . وهذه الفكرة شبيهة، بوجهة نظر بولدوين التي تعرضنا لها في الفقرات السابقة .

ويشير بياجيه الى أن هذا المنحنى جذاب ، والى أنه قد تبناه لفترة من الوقت . ومع ذلك فهو يشير بعض المشكلات . منها غموض فكرة التمثيل الوراثي ، وكيف يحدث تثبيت الصفات المكتسبة في بنية الجينات لدى الكائن الحي . ومع ذلك يتفق بياجيه مع وادنجتون في فكرة تكوين تراكيب جديدة من الجينات ناتجة عن آثار التغيرات البيئية . كذلك يتفق معه في ارجاع عملية الانتخاب الى البيئة الداخلية ، كما تعدل بالتغيرات السلوكية التي تفرضها ظروف البيئة الخارجية .

ويستطرد بياجيه في مناقشة أفكار باحثين آخرين مثل بول ويس **Paul A . Weiss** موضحاً نواحي القوة والضعف فيها . ثم ينتقل بعد ذلك لمناقشة عدد من القضايا التي تعبر عن وجهة نظره في العلاقة بين السلوك والتطور وسوف نفرد القسم الباقي من هذه المقالة لعرض وجهة نظره والشواهد التي يقدمها لتدعيمها .



يحدد بياجيه بأنه يشمل جميع الافعال الموجهة من الكائن الحي الى نحو البيئة الخارجية لكي يغير بواسطة تلك الافعال الظروف الموجودة حوله ، أو يغير موقفه هو في علاقته بالبيئة

أما عن الاتجاه السبرناطيقى Cybernetic في تفسير العلاقة بين السلوك والتطور فيمثل وادنجتون Waddington يشير بياجيه الى أن دور السلوك في التطور قد أعيد تفسيره بطريقة أكثر شمولاً حينما أدركنا أن العملية البيولوجية ليست ذرية أو خطية في شكلها على الاطلاق ، وإنما تتضمن باستمرار عمل نظم للتغذية المرتدة **Feed back** كما حددها أصحاب الاتجاه السبرناطيقى .

لقد طرح وادنجتون قضيتين رئيسيتين ، الأولى أن الكائنات الحية « تختار بيئتها » ، وأن عملية الاختيار تتضمن تفاعلاً بين الكائنات والبيئة . فمن ناحية يوجه نشاط الكائن الحي نحو تذكر ظروف خارجية معينة مناسبة له ، لأنها تغذي أنماط سلوكه المختلفة (التغذية بالمعنى الفسيولوجي أولاً ، ثم بمعاني أخرى) كذلك يستبعد الكائن الحي أو يرفض الظروف البيئية المناسبة له . ومن ناحية أخرى تباشر البيئة تأثيراً مساعداً على أحداث تغيرات في الكائن الحي تتلاءم مع الظروف البيئية المختارة ، وتأثيراً غير

مشجع للتغيرات التي لا تستطيع أن تتلاءم مع تلك الظروف . باختصار ، تتضمن عملية التفاعل مع البيئة دورة من التحولات والتغيرات ، فيها تعدل الكائنات الحية من بيئتها ، وتحدث البيئة بدورها تغيرات في الكائنات الحية . ومعنى ذلك أن وادنجتون يؤكد أهمية السلوك باعتباره « أحد العوامل التي تحدد مقدار ونمط التطور الذي يخضع له الحيوان ، وهو في نفس الوقت نتاج تطوري ، طمأن أن سلوك الحيوان هو الذي يحدد طبيعة البيئة التي سيخضع لها نفسه الى حد كبير . . . » .

أما القضية الثانية ، فهي أن عملية الانتاج

البيئة بنقل الاشياء وغير ذلك وانما هي بالاحرى تؤثر في ذاتها محاولة تقوية الروابط الحيوية بينها وبين البيئة .

ومن هذا المفهوم لمعنى السلوك ، يوضح بياحيه أن هدف السلوك ليس مجرد المحافظة على البقاء ، وانما هو بالاحرى يعمل على زيادة قدرة الفرد أو النوع ، بتوفير وسائل وأساليب أعظم ، تساعد على توسيع البيئة التي يمكن التمرد عليها ، وتلك التي يمكن معرفتها .

يوضح بياحيه أن هناك أمثلة كثيرة لأساليب سلوكية ، توحى بساطتها بأنها من ابتكار الحيوان الفرد أثناء تفاعله مع البيئة الخارجية ، ولكنها يتم تثبيتها وانتقالها وراثيا . كما أن هناك حالات أخرى تصبح فيها الاساليب السلوكية المكتسبة ثابتة ومستمرة ، ولكنها لاتصبح وراثية ، وانما لابد أن تتعلم من جديد في كل جيل ، مثل اللغة البشرية . ولما كان السلوك المعقد يتكون من أفعال موجهة نحو البيئة ، فان التعديلات التي تحدث فيه تنتج من الآثار المتجمعة للبيئة ونشاط الكائن الحي معا . ولكن هذه التعديلات تختلف في مستواها من حالة لأخرى . فقد تقف عند مستوى وظائف الاعضاء ، دون أن تحدث صراعا مع البروجرام الوراثي للنوع . وفي هذه الحالة لا يحدث تغير في البيئة الوراثية الداخلية للكائن الحي ، ويظل السلوك الجديد يتعلم مع كل جيل . وقد تعمل التغيرات على مستوى أعمق مما يؤدي الى حدوث عدم اتزان بين التغيرات وبين البرمجة الوراثية . وفي هذه الحالات يحدث تغير في البيئة الوراثية .

ويفسر بياحيه ذلك الذي يحدث في البنية الوراثية ، بأن حالة عدم الاتزان تمس على مستوى المورثات . ولكن الرسالة المنقولة في هذه الحالة ليست مجرد إخطار بما يحدث ، أو

المحيطة . والسلوك في أدنى مستوياته لايزيد عن مجرد كونه أفعالا حسية حركية (ترابطات من المدركات والحركات) ، وفي أعلى مستوياته يتضمن العمليات العقلية العليا ، كما يحدث في النشاط العقلي للانسان . فالسلوك بهذا المعنى ، هو فعل هادف يسعى الى الاستفادة من البيئة أو تغييرها ، ، والى المحافظة على قدرة الكائن الحي على التأثير في تلك البيئة ، والزيادة المستمرة لهذه القدرة .

ومعنى هذا أن الحركات أو الاستجابات الداخلية للكائن الحي ، مثل انقباض العضلات أو حركة الدم ، لاتدخل في مفهوم السلوك ، على الرغم من أنها شروط ضرورية لحدوث السلوك . كذلك التنفس لايعتبر سلوكا ، لأنه غير موجه لكي يؤثر في البيئة . أما الافعال المنعكسة للحيوانات فيمكن أن توصف بأنها سلوك ، لأنها تهدف الى تغيير العلاقة بين الكائن الحي والبيئة .

ويستبعد بياحيه من مفهوم السلوك كذلك ما يحدث في النبات ، مثل استجابة الزهرة للضوء ، على الرغم من أنها موجهة نحو تغير وضع النبات بالنسبة للبيئة . ويقدم لذلك أسبابا ثلاثة : أولا أن النباتات لاتستطيع الحركة ، بمعنى الانتقال في المكان . وعلى الرغم من وجود الحركة في بعض الحالات ، الا أنها حركة سلبية وليست تحركا ايجابيا . فهي مجرد حركة جزئية أو موضعية لأجزاء معينة من النبات ، وليست انتقالا كليا للجسم يؤدي الى تغيير وضعه في المكان . وثانيهما ، عدم وجود جهاز عصبي لدى النبات ، ومن العسير القول بأنه السبب في انعدام الحركة أو أنه نتيجة لها . ومن المعروف أن الجهاز العصبي هو التحقيق الملموس للروابط المطلوبة للسلوك . وثالث الأسباب . أن النباتات لاتباشر تأثيرها على

حتى بما يجب أن يحدث ، وانما الرسالة الوحيدة هنا هي « أن شيئا ما لا يؤدي وظيفته بطريقة سوية » . وتستجيب البنية الداخلية بتجريب تنوعات مختلفة ، نصف عشوائية في الغالب ، نتيجة لقلّة المعلومات عندها ، وهنا يأتي دور الانتخاب بواسطة البيئة الداخلية ، التي تم تعديلها نسبيا بواسطة شكل جديد من أشكال السلوك ، وهو الذي بدأ العملية كلها ، وبالتالي يتأثر بالضرورة بالبيئة الخارجية التي وجد فيها . فما يحدث اذن ، ليس تأثيرا مباشرا من النوع الذي افترضه لامارك ، وانما عملية ابدال تتضمن إعادة تكوين داخلي .

يتقل بياجية ليناكس مشكلات الغرائز في علاقتها بمشكلات التطور ، ويشير بياجية منذ البداية الى أنه من العسير أن نحدد دور العوامل الفطرية ودور التغيرات المكتسبة في السلوك الغريزي ، ولذلك فهو يصف بالغريزي كل نشاط خاص ويميز للنوع ، دون افتراضات مسبقة عن علاقة هذا النشاط بما هو فطري وما هو مكتسب .

يشير بياجية الى أن مشكلة أصل الغرائز لازالت دون حل حاسم منذ قرون عديدة . فعلى الرغم من أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالتنظيم الفسيولوجي للكائنات الحية ، فإن محاولة تفسيرها في لغة علم البيولوجي الحديث تؤدي الى صياغات عديدة ومتناقضة .

يميز بياجية سبع عمليات رئيسية ، تعد بمثابة الميكانيزمات لكل سلوك ، بما فيه السلوك الغريزي . أولى هذه العمليات وأبسطها هي انتقال السلوك من التابع المنتظم أ - ب - ج ، الى تنبؤ موجه نحو الهدف ، حيث يعني الوصول الى ج ، العمل على تنفيذ أ ، ب . ويضرب بياجية مثالا لذلك بالنوم ، حيث يكون له وظيفة التنشيط أو الانعكاش من حالة

الخمول التي تؤدي اليه في البداية ، ثم يصبح بعد ذلك احتياطا تنبؤيا ضد التعب الزائد . والعملية الثانية تنشأ من الأولى ، ويسمىها بياجية بالتعميم ، وفيها يستخدم شكلا معينا من السلوك لتحقيق أغراض جديدة في مواقف جديدة . والنوم أيضا يصلح كمثال هنا ، حيث يصبح جزءا من غريزة البيات الشتوي ، ويحمي الحيوان من قلة التغذية وهو هدف جديد . وحينما يستدعي نمط ما من السلوك تآزرا وتنسيقا بين عدة عناصر تحدث العملية الثالثة ، التي تجمع وتربط بين هذه العناصر بالطرق المختلفة الممكنة . ويعتقد بياجية ان هذه العملية هي التي تفسر لنا الظاهرة المعروفة ، وهي ظاهرة الاختلافات السلوكية المعقدة الموجودة بين انواع من الكائنات الحية القريبة جدا من بعضها ومع ذلك لا يمكن تفسيرها لا على اساس الانتخاب الطبيعي ولا على اساس مطالب البيئة ، هذه العملية « المجمعة » الخارجية ، تتسع لتثير عملية رابعة داخلية أكثر تعقيدا وتتضمن حدوث تمايزات وتكاملات بين نظم جزئية . ومن الواضح في هذه العمليات الأربع ان لتعزيز السلوك أو تصحيحه دور فيها . اما العملية الخامسة ، فهي عملية تعويضية ، فهي تلغي أو تعوض اضطرابا أو عدم اتزان داخلي في البيئة الوراثية . اما العمليتان السادسة والسابعة ، فيقر بياجية بانها لازالتا على درجة عالية من الغموض على الرغم من الثقة النامية في وجودهما الفعلي ، ويستخدم بياجية مصطلح التعزيز المكمل للدلالة على العملية السادسة وهي التي تؤدي الى تكوينات متطورة ترتبط ارتباطا وثيقا بالسلوك مثل الارجل . اما العملية السابعة فيشير اليها بمصطلح « التنااسقات البنائية » (Constructive co-ordinations) وهي تؤدي الى تطورات تتطلب

متعددة من التمثيل ، بقدر ما يوجد من انماط السلوك (بما فيها ادراك الاخطار شأنها شأن ادراك الاشياء المفيدة) . واذا كان التمثيل الفسيولوجي يستمر في الحدوث بالتردد البسيط فان التمثيل السلوكي ينتج ذاكرة تزيد عدد العلاقات بين الكائن الحي والبيئة ، ومن ثم تسهم في توسيع ذاتها .

اما الملائمة فيقصد بها بياجيه التغيرات التي تحدث في الكائن الحي لكي يتوافق مع بيئته ويتأثر التنظيم الفسيولوجي بعملية الملائمة تأثرا سلبيا فقط حيث ان ما يحدث هو مجرد استبدال لجوانب معينة من دورة التمثيل ، ودائما في الحدود الدنيا . وعلى العكس من ذلك فان الملاءمة في مخطط الفعل السلوكي مصدر لتغيرات لا تلغى الاشكال السلوكية الموجودة ولكنها تحدث فيها تمايزا عن طريق ايجاد نظم جزئية **Sub-systems** .

ومعنى هذا ان الميكانيزمات الوظيفية الرئيسية المشتركة بين الفسيولوجيا والسلوك تميل الى المحافظة على الوضع الراهن في مجال الفسيولوجيا ولكنها تعمل على التوسع في مجال السلوك ، فعملية التمثيل والملاءمة تعملان معا على ما يبدو انه يمثل هدفا مزدوجا للسلوك في جميع مستوياته وهو ان يوسع بيئة الكائن الحي من ناحية وان يزيد من قدرات الكائن من ناحية اخرى .

يشير بياجيه الى ان البحوث والدراسات التي اجريت على الجهاز العصبي ومرونته تكشف عن وجود تفاعل وثيق بين تطور الجهاز العصبي وتطور السلوك حتى ولو لم يكن تطور الجهاز العصبي نتاجا مباشرا لتطور السلوك . ويعتقد بياجيه ان المبادرة تأتي من السلوك على الرغم من ان الجهاز العصبي هو الذي يمد السلوك بادواته . وعلى الرغم من ان الجهاز العصبي قد

معلومات مفصلة عن البيئة ، كما في حالة انتاج اعضاء للوخز واعضاء ذات مادة سامة على سبيل المثال . وبما يؤكد وجود هذه العمليات ودورها في اعادة تكوين البنية الوراثية - من وجهة نظر بياجيه - طبيعة الجهاز العصبي ذاته . فمن المعروف ان الارتباطات العصبية تشبه الشبكة ، اي تشكل نظاما مترابطا له ميكانيزماته التعويضية الداخلية . واذا كان اهم جهاز وراثي منظما بهذه الطريقة ، فليس هناك ما يدعو الى رفض فكرة ان الجينات المستولة عن اعادة التكوين الوراثي للسلوك ترتبط فيما بينها وفقا للامكانيات المتاحة ، ومن ثم فهي تنتج شيئا مختلفا تماما عن طفرات الصدفة . فالمنتج الجديد تأليف منظم وليس عشوائيا .

وفي نهاية تأملات السيكلوجية عن الغرائز ، يؤكد بياجيه ان العمليات السبع السابقة يجب ان تعالج على اساس انها تعتمد على الديناميات العامة للتنظيم ، بمعنى انها تحدث داخل نظام معين هو الجهاز العصبي الذي يكامل بينها .

يختتم بياجيه مؤلفه موضحا ان الكائن الحي نظام مفتوح ، والسلوك شرط ضروري لكي يؤدي هذا النظام وظائفه . ويحاول السلوك ان يرتقي بنفسه دائما ، ومن ثم فهو يمد التطور بمحركه الاساسي .

ويفسر بياجيه هذا الدور الهام للسلوك على اساس العمليتين الرئيسيتين اللتين تمثلان محور تفسيره للنمو والعمليات النفسية بصفة عامة ، الا وهما عمليتا التمثيل **Assimilation** والملائمة **Accommodation** فالتمثيل يشير الى استيعاب الاشياء او الموضوعات وتكاملها في مخطط الافعال التي يقوم بها الكائن الحي (استيعاب جميع ما يتوسط بين الافعال والتمثيل الفسيولوجي ، على سبيل المثال ، بين البحث عن الطعام وهضمه) . وعلى ذلك فهناك انماط

ظهر متأخرا في تطور الكائنات الحية ، "فانه يتقدم" بخطوات سريعة تفوق التطورات التي تحدث في الوظائف الأخرى . وبالإضافة الى هذا فان النشاط العصبي له وجهتان : في المقام الاول هو موجه للخارج يوسع من امكاناته الذاتية التي ترتبط بامكانات السلوك في بيئة لا تكف عن الاتساع . ثانيا ، النشاط العصبي موجه ايضا للداخل لكي يحقق تناسقا وتآزرا بين الاعضاء . هذا الشكلا من النشاط مرتبطان ببعضهما وبنفس التطورات التي تحدث فيهما ، بحيث ان كلا منهما ضروري للآخر ومن هذا يجد بياجيه من المشروع ان يستنتج انه بقدر ما يلعب السلوك دورا في تشكيل الجهاز العصبي فانه يساعد في خلق التنظيم الكلي للحيوان الذي هو في ذات الوقت تعبير له .

ان التطورات السلوكية تتميز بزيادة في عدد الحركات الممكنة للحيوان ، وزيادة حركته في البيئة . وهذه التطورات تقود الى مجموعة من التهذبات العصبية والمورفولوجية . وليس هناك من تفسير لتلك التطورات - من وجهة نظر بياجية - سوى أحد تفسيرين . الأول أن الاعضاء تنشأ مستقلة عن السلوك ، وأن كلا منهما نتاج لطفرات الصدفة ، بحيث يوجد لدينا مجموعتان مستقلتان من أحداث الصدفة ، تتركان للانتخاب الطبيعي وحده مهمة التوفيق بينهما ، وفي نفس الوقت تحقيق التكيف مع البيئة الخارجية . والتفسير الثاني ، أنه يوجد تنسيق منذ البداية بين تغييرات الاعضاء وتغييرات السلوك . وفي هذه الحالة فان السلوك لا بد أن يلعب الدور الرئيسي في هذه العملية لسببين : أولا لأنه الشرط المسبق للتفاعل الضروري بين الكائن الحي والبيئة ، وثانيا لأن السلوك وحده هو الذي يستطيع تحسين عمليات التكيف أو استبدالها . ويصرح بياجيه بأنه يأخذ بالتفسير الثاني . ومن هذه الزاوية فهو يعتبر السلوك القوة المحركة للتطور .

ان هذا الدور الجوهرى للسلوك باعتباره المحرك الرئيسى للتطور ، يرجع الى جوانب ثلاثة يتميز بها السلوك . أولا أن السلوك غرضي ، وهذه الغرضية ضرورية لاشباع حاجات الكائن الحي عن طريق التأثير المباشر في البيئة . ومن ثم فان ما يحدث في السلوك من تطور لا يمكن أن يقارن بالطفرات العشوائية ، التي تنشأ بشكل مستقل عن البيئة . وللسلوك أيضا طبيعة داخلية ذاتية ، فهو يرتبط بالدور الانتقالي للبيئة الداخلية ، اذ هو الوسيط الذي يربط بين البيئة الداخلية والبيئة الخارجية . والجانب الثالث يرجع الى أن السلوك يهدف دائما الى الارتقاء بذاته ، بمعنى تحسين قدرته على التعامل مع البيئة . ومعنى هذا أن التغيرات التي تحدث في السلوك ترتبط بتغييرات في البيئة الداخلية ، ثم تقوم البيئة الداخلية بعد ما يحدث فيها من تعديل بدور هام في عملية التطور ، وهو انتقاء تغيرات جينية ، تؤدي الى حدوث عملية اعادة بناء للبيئة الوراثية .

وهذا يعطي بياجيه دورا للسلوك باعتباره يمثل الميكانيزم الرئيسى لتطور الكائنات الحية ، بفضل توسطه بين الكائن والبيئة . ويعتقد بياجيه أنه بهذا استطاع أن يتجنب التأثير المباشر للسلوك ، الذي افترضه لامارك .

فهل نجح بياجيه في تقديم تفسير ، متميز عما سبقه ، للعلاقة بين السلوك والتطور ؟

الواقع أن ما قدمه بياجيه من استنتاجات باعتباره المحرك الاساسى لتطور الكائنات الحية ، تظل مجرد احتمالات وافتراضات ، يمكن المجادلة فيها وتقديم حجج مضادة لها . ومهما يكن ، فسوف تظل مشكلات العلاقة بين السلوك والتطور مشكلة نظرية تحتمل تفسيرات مختلفة ومتعارضة ، حتى تتوافر لدينا معلومات تجريبية جديدة من بحوث علم الوراثة وغيره من العلوم البيولوجية .

العدد التالي من المجلة

العدد الأول - المجلد الرابع عشر
ابريل - مايو - يونيو
قسم خاص عن
الصهيونية
بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

ليرات	٣	سوريا	٥	الخليج العربي	ريالات
مليونا	٢٥٠	المتاهرة	٥	السعودية	ريالات
مليونا	٢٥٠	السودان	٤٠٠	البحرين	فلس
قرشاً	٣٥	ليبيا	٤٥	اليمن الشمالية	ريال
باية	٤٠٠	مستط	٤٠٠	اليمن الجنوبية	فلس
دنانير	٥	الجزائر	٣٠٠	العراق	فلس
مليم	٥٠٠	تشولنيس	٢٥	لبنان	ليرة
راهم	٥	المغرب	٢٥٠	الأردن	فلساً

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢٥٠٠ دينار

البلاد الاجنبية ٢,٠٠٠ د

تمول قيمة الاشتراك بالنقد الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الكويت